دراسة ونقد

في

مسائل بلاغية هامة

تأليف:

محمد فاضلی

مؤسسه مطالعات و تحقیقات فرهنگی

تهران ۱۳۶۵

مؤسسهٔ مطالعات وتحقیقات فرهنگی
وابسته به
وزارت فرهنگ و آموزش عالی

دراسة ونقد في مسائل بلاغية هامة
شماره: ۵۵۳
تیراژ: ۲۰۰۰ نسخه
نوبت چاپ: چاپ اول
تاریخ انتشار: ۱۳۶۵
چاپ وصحافی: چاپخانهٔ دانشگاه فردوسی مشهد

المحتويات

الاغلاط المطبعية

يرجى من القُرّآء الكرام ان يُصلحوا الاغلاط المطبعية التاليه قبل قراءتها

الصفحه	السطر	الخطا	الصواب	الصفحه	السطر	الخطا	الصواب
٩	٢٠	ابن البر	ابن الاثير	٦٠	١٥	مُضّربه	مُضَربَة
١١	٢٣	عشيت	غشيت	٦٥	٣	والخيال	الخيال
١٢	٢٢	قَعر	قَصّرَ	٧٥	٢٢	مريم، ١٩	مريم، ٤٦
١٦	٧	ابن نعمر	ابو نصر	٧٨	١٧	اتاكا	اتاكا
١٦	٨	فايّاكم	فايّاكم	٨٥	٢١	ءالتخضيض	التحضيض
١٨	٣	كيد	كبد	٩٧	١٤	بالتفضيل	بالتفصيل
١٩	١٦	تحلص	تخلص	٩٩	١٨	مُجزية	مجزية
٢٤	١٠	كفى	كفى	١٠٤	٣	مبين	مبينَ
٢٦	٩	نذرت ما	نذرت لك ما	١١٣	١٩	البقره، ٢١٤	البقره، ٢١٤
٢٦	٢٢	الذاريات، ٥٧	ق، ٣٧	١١٣	٢٤	الانبياء، ٢٦	الانبياء، ٣٦
٢٧	٢٤	الجدّ	الجِد	١١٦	١٢	هذ	هذا
٢٩	٢٤	٢٣	٥٣	١١٦	١٦	ربكم	ربكم
٣٦	٣	والعبد	والبعد	١١٦	٢١	هود، ٨٢	هود، ٧٢
٣٩	٢	تابغه	النابغة	١١٦	٢٣	المؤمن، ٤٠	بنى اسرائيل، ٤٠
٥٠	٩	وكانا	كانا	١٢١	٢٠	بنى اسرائيل، ٥٠	الطور، ١٦

الصفحه	السطر	الخطا	الصواب
١٢٦	١٩	آل‌عمران، ١٨٨	البقره، ١٨٨
١٢٦	٢٢	البقره، ٢٦٨	آل‌عمران، ٨
١٣٠	١٢	وإنّي	إنّي
١٣١	٢٣	يجيء	يجيء
١٣١	٢٤	اول السطر	※
١٣٢	١٧	الاّ تكون	الا ان تكون
١٣٣	٤	والاختصاص	وبين الاختصاص
١٣٤	١٧	يوسف، ٤	يوسف، ١٠٠
١٣٨	٤	ولو انّ لنا	فلو انّ لنا
١٤٥	٦	عازتٍ	عازبٍ
١٦٣	٢٢	المائده، ١٣	المائده، ١١٧
١٦٤	١٨	هود، ٢٩	الشعراء، ١١٥، ١١٤
١٦٤	٢٢	تدير	تدبر
١٩٠	١٢	الا كان	الأركان
٢١٠	١٢	بلاة	بلاغة
٢١١	٥	لم تغْنِ	لم تَغْنَ
٢١٩	١١	لايقلب	لاينقلب
٢٣٦	٦	الفراريح	الفراريج
٢٥٨	١٣	ولاتَلِدوا	ولايَلِدوا
٢٥٨	١٨	٥ـ	٦ـ
٢٥٩	٤	٦ـ	٧ـ
٢٥٩	٧	وامّال	وامّا

الصفحه	السطر	الخطا	الصواب
٢٥٩	٢٢	الزمر، ١٩	الزمر، ٩
٢٦٣	١٣	لايؤمنون	لايؤ منون بالاخرة
٢٦٤	١٩	البقره، ٦	البقره، ١٦
٢٦٥	٤	يوم	يوما
٢٧٢	١٦	المسكو	المكوّ
٢٧٦	٣	كقول	كقوله
٣١٩	٢١	مريم، ١٠٠	الكهف، ١٠٠
٣١٩	٢٤	المؤمن، ٣٦٠	المؤمن، ٣٦
٣٢٧	٢١	البقره، ١٧٨	البقره، ١٨٧
٣٢٨	٢٢	المائده،، ٤١	المائده، ٣٢
٣٢٩	٢٤	ق، ٣	ق، ٣٠
٣٣٠	٢	ائتيا طائعين	ائتيا طوعا اوكرها قالتا اتينا طائعين
٣٣٠	١٨	السجده، ١١	فصلت، ١١
٣٣٤	١٠	الحمودة	المحمودة
٣٣٥	٢	المجرّدة	المجرّدة
٣٤٠	١٠	نمحه	نمجة
٣٤٧	٢	لـ س	لبس
٣٥٧	١٧	به	بـ
٣٦٣	٥	لَيحْبِطن	لَيَحْبَطَنَّ
٣٦٥	١٤	احدثتَ	ما احدثتَ

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

كان إتصالى بعلم البلاغة ومباحثه يرجع الى عهد الصغر حينما كنت تلميذاً اقرأ على والدى رسالة موجزة فى البيان .

فهذا الإتصال وإن لم يلبث طويلاً ولكن ترك فىّ اثراً عميقاً لما أحسست فى نفسى ميلاً و رغبة إلى مسائل هذا العلم، لعل هذه الرغبة انبعثت من الأسباب التالية :

الف ـ كان هذا الإتصال فترة جديدة فى دراستى لمسائل الصرف والنحو، فأخذتنى من التقليب والتنقيب فى الألفاظ .

ب ـ كانت مسائل هذه الرسالة تفوح برائحة الالتفات الى المعنى بين أساليب البيان، والاعتماد على الذوق والطبع كقسم من الحجة والبرهان، فكان البيان عندها آفاقاً وسيعة يحلق فيها الخيال على جَناح من الشعور والإحساس . فوجدت الكلمات امامها تنبض بحيوية وقوة، وتطور وجدّة لاتحدها القواميس ولاتضيق على الأديب مهما بلغ مراده .

فلم تكن الكلمات عندها ميتة كخرزات سبحة تتلاعب بها ايدى الصرفيين اوالنحويين، وتدفنها القواميس فى صدورها، وتضع عليها حجر الجمود والتقليد .

ج ـ كانت الرسالة مع صغر حجمها جامعة لمسائل كثيرة بعبارات واضحة واسلوب سهل، وخالية من اختلاف الأقوال وتضارب الآراء التى

تجعل الدارس لا يهتدى إلى الطريق الصواب إلا بصعوبة .

فلما انتهيت من قراءة هذه الرسالة و رجعت مرة أخرى إلى مسائل الألفاظ، إنقطع ذلك الإتصال بينى وبين مباحث علم البلاغة ولكن لم يفارقنى أثره، فبقى فى قرارة نفسى كجمرة تلمع وتشتعل كلما اقتربت من أجواء هذه المباحث وآفاقها .

لقد قيّض الله لى بعد سنوات سفراً مباركاً نزلت فيه على استاذ جليل، فلما رأيته كالخليل، لازمته لزوم الظل للظليل، واقمت عنده حوالى سبع سنوات فاستفدت منه فى هذه المدة فوائد كثيرة .

منها انه اضافنى على مائدة «التلخيص» وشرحه المعروف «بالمطول» فرأيت فيها ماتشتهى الأنفس وتلذ الأعين، واستيقظت منى الميول والرغبات المكبوتة، فعكفت عليها عكوف النهم الشره، وتذكرت قوله تعالى : «كلوا من طيبات ما رزقناكم»[١].

فما تركتها إلا أن ذقت جميع ما عليها، اوشممت رائحته او لمسته وقلبته ظهراً على بطن .

وفى ذلك الوقت نفسه شعرت باننى احب بعض ما على المائدة أكثر من بعض، وكذلك أحب أن يوضع بعضه بجانب بعضه الآخر فى الترتيب والتنظيم . فتمنيت لو اتاح الله لى فرصة ان اجمع مسائل فى علم البلاغة كما احبها، وادرسها على ضوء من التحقيق، وأضيف إليها أيضاً ما استفدت من ذلك الأستاذ الشفيق، وهو الذى اذكره اليوم بالفضل وغدا بالعز .

إن هذه الفرصة لم تقدر لى فيما مضى ولست آسفاً عليه واعتقد ان الخير فيما وقع، ذلك لأننى قرأت فى هذه المدة كتباً كثيرة فى مسائل البلاغة والنقد من المتقدمين والمتأخرين، على رأسها «أسرار البلاغة» و

١ــ البقرة، ٥٧ .

«دلائل الإعجاز» للشيخ الامام عبدالقاهر الجرجانی. فهذه الكتب ساعدتنی كثيراً فی تنقيح وتهذيب ما اردت جمعه وظمه، و زوّدتنی بما لم اعرفه من قبل .

فيسّرنی أن تلك الفرصة تتيسّر لی الآن وأتناول ذلك العمل اليوم، لأنی اسلك الطريق بزاد اكثر، وادرس الموضوع بمعرفة اوفر، فلعل عملی اليوم الی الصواب أقرب، ومن الآخطاء والسقطات أبعد .

فلا أدعی هنا أننی جئت بما لم يسبق إليه أحد و أتيت بما هو بریء من العثرات والزلات، لأن الكمال ليس إلا لله وحده . ولكن اقول قد بذلت فی هذا الطريق جهد نفسی وبحثت عن المسائل بكل إخلاص، فلا أكتب للهتاف ولا أعمل للرثاء .

فليستحی من ادعی الكمال فی علم قال الإمام عبدالقاهر فی حقه :

«واعلم أنك لاتری فی الدنيا علما قد جری الأمر فيه بديئاً واخيراً علی ماجری عليه فی علم الفصاحة والبيان .

أمّا البدیء فهو أنك لاتری نوعاً من انواع العلوم إلا وإذا تأملت كلام الأولين الذين علّموا الناس وجدت العبارة فيه أكثر من الإشارة ، والتصريح أغلب من التلويح، والأمر فی علم الفصاحة بالضد من هذا فإنك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه وجدت جلّه أو كلّه رمزا و وحياً وكناية و تعريضاً، وإيماء إلی الغرض من وجه لايفطن له الا من غلغل الفكر وادق النظر . . .

وأما الأخير فهو إنا لم نر العقلاء قد رضوا من أنفسهم فی شیء من العلوم ان يحفظوا كلاماً للأولين ويتدارسوه ويكلم به بعضهم من غير ان يعرفوا له معنی، ويقفوا منه علی غرض صحيح، ويكون عندهم ـ إن يُسألوا عنه ـ بيان له وتفسير، الإ علم الفصاحة . فإنك تری طبقات من

الناس يتداولون فيما بينهم الفاظاً للقدماء، وعبارات من غير أن يعرفوا لها معنى أصلاً، اويستطيعوا ـ إن يُسْئلو عنها ـ أن يذكروا لها تفسيراً يصح»٢.

فادعاء الكمال فى هذا المجال يعد نوعاً من الإغترار او جهلاً بحقيقة الأمر، فلايدعيه إلا الجهلة والغفل الذين يظنون إنهم يحسنون كل شيء صنعا . نسأل الله ان يعصمنا من اقتفائهم واحتذائهم .

وها انا أقدم ما تيسر لى تحت عنوان «دراسة ونقد فى مسائل بلاغية هامة» فى مقدمة وثلثة أبواب . ومن الله التوفيق وعليه التكلان .

محمد فاضلى

٢ـ دلائل الاعجاز ٣٤٩ـ٣٥٠ .

مقدمة في الفصاحة والبلاغة

حينما نقرأ نصاً أدبياً أو نسمع كلاماً يوحي بتجربة ويصل إلى قرارة أنفسنا ونتأثر به ونتعجب منه، نحكم له بوضوح البيان، وقوة التركيب و سلامة الاسلوب، وملائمته مع الواقع والنفس.

وكذا إذا عبّرنا عن فضل قائل على آخر او كلام على غيره نقول: ان الفاظه متمكنة ومقبولة والفاظ الآخر قلقة نابية ومستكرهة، وان هذا الكلام واضح الدلالة ومصيب الاشارة، حسن الترتيب والنظام، وانه لايشوبه شيء من اللفظ العامي والساقط السّوقي والغريب الوحشي، وانه قد وقع في موقعه، بخلاف الكلام الآخر.

فهذه الاحكام والتعبيرات ترجع في الحقيقة الى ما يراد من كلمتي- الفصاحة والبلاغة. قال الشيخ: «البلاغة والفصاحة، والبيان والبراعة ما يعبر به من فضل قائل على آخر او كلام على غيره»[1].

وايضا ان الفصاحة والبلاغة هما منشأ غاية علم البلاغة اعنى معرفة اعجاز القرآن، وانهما كانتا النواة الاولى للتنبه الى مسائل البلاغة والنقد في الأدب العربي.

فعلى هذا يجدر بالباحث عن المسائل البلاغية معرفتهما ومايراد بهما.

١ـ دلائل الاعجاز ٣٥.

الفصاحة لغة :

الفصاحة فى اللغة الوضوح والبيان والظهور . جاء فى لسان العرب : الفصاحة البيان . . . تقول : رجل فصيح وكلام فصيح، اى بليغ . ولسان فصيح، اى طَلْق . . .

ويوم مُفْصِح : لاغيم فيه ولاقُرّ .

وفصح اللبن، إذا أخذت عنه الرغْوة . وأفصحت الشاة والناقة : خلص لبنها . وافصح الصبح : بدا ضوءه واستبان . وكل ما وضح فقد أفصح، وكل واضح مفصح .

وافصح لك فلان : بيّن ولم يجمجم[٢] .

وجاء فى القرآن الكريم على لسان موسى : «واخى هارون هو أفصح منى»[٣]، أى أبين ولسانه أطْلق، لأن موسى يقول : «ويضيقُ صدرى ولا ينطلقُ لسانى، فأرسل إلى هارون»[٤] . فهذا القول دليل على ان المراد بالفصاحة البيان وطلاقة اللسان .

وقال النبى (ص): «أنا أفصحُ العرب بَيْدَ أنى من قريش» أى أبينهم.

«ولفظة الفصاحة فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف لاتخرج عن معناها اللغوى وهو الظهور والبيان»[٥] .

الفصاحة اصطلاحاً :

فقد بدأ جرت كلمة الفصاحة على لسان أهل هذا الفن وتداولوها بينهم ، لكن الكلمة لم تقف عند حد واحد، ولم يكن المراد بها سواء

٢ــ لسان العرب، مادة فصح .

٣ــ القصص، ٣٤ .

٤ــ الشعراء ١٣ .

٥ــ مصطلحات بلاغية، ١٠-١١ .

لديهم . فنرى أن دائرة ما يُعنى بها رحبت عند بعض وضاقت عند الآخرين، وتجاذبها اللفظ والمعنى على حسب اختلاف نظريتهم .

فهذا الجاحظ تناول الكلمة و دارت في كلامه، فهو وان لم يذكر لها تعريفا خاصا لكن يستنبط من كلامه انه يعني بها ما يعتبر فيه اعطاء الحروف حقها من الفصاحة، وترك لغات النازلة على العرب، واستعمال الألفاظ في موضعها وفيما هو لائق بها .

ألا ترى ان الله لايذكر الجوع إلا في موضع الفقر المذل والعجز الظاهر . وكذلك لايذكر المطر إلا في موضع الانتقام، والعامة واكثر الخاصة لايعرفون هذه الدقايق لأنهم يتركون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، ولايفصلون بين ذكر المطر و ذكر الغيث .

ويعتبر فيه ايضا أن لاتكون الألفاظ متنافرة فتوجب صعوبة التلفظ، كقول الشاعر :

و قبرُ حربٍ بمكانٍ قفرٍ   و ليس قربَ قبرِ حربٍ قبرُ

ولاتكون الكلمة اقل اللغتين استعمالا واضعفهما، ولايكون اللفظ عامياً وساقطاً سوقياً كما لايكون غريباً وحشياً[٦].

ولكن خير كلمة يشير إليها في هذا المقام هي تتبع مجارى كلام العرب الفصحاء[٧]، فهذا القول جامع لكل ما اراده فيما سبق .

والمتأمل في كلامه يرى ان الفصاحة تمتزج بالبلاغة عنده او ترادفها.

فيقول : وقال بعضهم ــ وهو من أحسن ما اجتبيناه و دوّناه ــ : «لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه ،

٦ــ ينظر البيان والتبيين ١/١٥، ١٨، ٢٠، ٦٥، ١٤٤ .

٧ــ المصدر نفسه ١/١٦٢ .

فلايكون لفظه إلى سمعك اسبق من معناه إلى قلبك»[٨].

وقال ايضا : «اما انا فلم أرَ قطّ امثل طريقة فى البلاغة من الكتاب، فانهم قد التمسوا فى الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولاساقطاً سوقياً»[٩].

وقال ايضا فى تفسير قول العتابى فى معنى البلاغة «وانما عنى العتابى افهامك العرب حاجتك على مجارى كلام العرب الفصحاء»[١٠].

وإذا تركنا الجاحظ نرى أن صاحب الصناعتين يسلك طريقين :

أحدهما ـ أنه بعد الإشارة إلى المعنى اللغوى للفصاحة والبلاغة ينتهى إلى أنهما ترجعان الى معنى واحد وان اختلف اصلاهما، لأن كل واحد منهما انما هو الإبانة عن المعنى والاظهار له .

الثانى ـ أنه بعد أن نقل من بعض العلماء أن «الفصاحة تمام آلة البيان» يصل الى ان الفصاحة والبلاغة مختلفتان، و ذلك أن الفصاحة تمام آلة البيان فهى مقصورة على اللفظ، لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى، والبلاغة إنما هى إنهاء المعنى الى القلب فكأنها مقصورة على المعنى .

ويؤيد هذا الرأى بأن الببغاء يسمى فصيحاً لا بليغاً لأنه يقيم الحروف فقط ولا يقصد المعنى الذى يؤديه[١١].

فمن تمام آلة البيان كون الكلام سهل اللفظ، جيّد السبك غير مستكره ولامتكلف . فإذا اجتمع فى كلام واحد هذه النعوت مع وضوح المعنى، يسمى فصيحاً كما يسمى بليغاً لوجود تقويم الحروف وايضاح المعنى كليهما.

ثم ذكر العسكرى[١٢] ان قوماً زادوا على تقويم الحروف فى معنى-

٨ـ المصدر السابق ١/١١٥ .

٩ـ المصدر ١/١٦٢ .

١٠ـ المصدر السابق ١/١٣٧ .

١١ـ الصناعتين، ٦ـ٧ .

١٢ـ الصناعتين، ٨ـ٩ـ١٠ .

الفصاحة، فخامة اللفظ وشدة الجزالة[١٣]. و ذلك مثل قول النبى (ص) «ألا إن هذا الدين متين فأوغِل برفق، فان المُنْبَتّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى».

وكقول الحسين بن على (عليهما السلام) : «إن الناس عبيد الأموال، والدين لغو على ألسنتهم يحوطونه مادرّت به معايشهم، فإذا مُحّصوا بالابتلاء قلّ الديانون».

وإذا جمع الكلام نعوت الجودة وخلا من فخامة الالفاظ وجزالتها سمى بليغاً لا فصيحاً، وذلك كقول بعضهم ـ وقد سئل عن حاله عند الوفاة ـ : «ما حال من يريد سفراً بعيداً بلازاد، ويقدم على ملك عادل بغير حجة، ويسكن قبراً موحشاً بلا أنيس ؟» .

وكقول آخر لأخ له : «مددتَ إلى المودة يداً فشكرناك، وشفعتَ ذلك بشيء من الجفاء فعذرناك، والرجوع الى محمود الود اولى بك من المقام على مكروه الصدّ» .

فعلى هذا أيضاً ان الفصاحة غير البلاغة وأنه يجوز ان تجتمعا فى كلام واحد إذا كان جامعاً لما اعتبر فى كل منهما، وان تفترقا إذا لم يكن كذلك .

١٣ـ لم اجد فى كتاب العسكرى تفسيرا واضحا للمراد من الجزالة ولكن يستنبط من كلامه ان الجزل من الالفاظ ماكان شريفا وصلبا وغيرسهل. (الصناعتين، ٢٤) .

والجزل من الالفاظ عند ابن اثير ماكان متينا على عذوبته فى الفم و لذاذته فى السمع، وهو يقابل الرقيق . ويقول : فالالفاظ الجزلة تتخيّل فى السمع كاشخاص عليها مهابة و وقار، والالفاظ الرقيقة تتخيل كاشخاص ذى دمائة ولين اخلاق ولطافة مزاج. (المثل السائر ١/١٦٨ـ١٧٨) ولايخفى ان الجزل بهذه التفاسير لايليق بكل مقام مع ان اعتباره فى مفهوم الفصاحة يستلزم وجوده فى كل موضع .

وأتـى بعدالجاحظ والعسكرى، الخفاجى (ت ـ ٤٦٦ هـ) وتناول الفصاحة فى كتابه **«سرالفصاحة»** و درسها دراسة مفصلة .

والفصاحة عنده غير البلاغة ، و ذلك لأنـه يعنى من الفصاحة حسن الألفاظ، ومن البلاغة حسن الألفاظ والمعانى معا . فكل بليغ عنده فصيح و ليس كل فصيح بليغاً .

وبعبارة أخرى ان الفصاحة عنده مقصورة علـى وصف الألفـاظ ، والبلاغة لاتكون إلا وصفا للألفاظ والمعانى[١٤] .

ولاتستحق كلمة وصف الفصاحة عنده حتى تتكامل فيها ثمانية اشياء:

الاول ، ان تتألّف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج، لأن الحروف التى هى أصوات، تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر، فكما ان اجتماع الألوان المتباينة للبصر أحسن من الألوان المتقاربة، كان اجتماع الأصوات المتباينة ألذ عندالسمع من غيرها .

فعلى هذا أن كلمة «هُعْخُع»[١٥] المؤلفة من الحروف المتقاربة فى المخرج غير فصيحة .

الثانى ، ان تجد لتأليف الكلمة فى السمع حسنا ومزية على غيرها، و إن تساويا فى التأليف من الحروف المتباعدة . و ذلك مثـل تأليف كلمـة «العذيب» اسم موضع، و «عذيبة» اسم امراة و «عَذْب» و «عذاب» و «عَذَب» و «عذبات» من (ع، ذ، ب) ، فإن السامع يجـد فيها من الحسن والمزية مالايجده فى ذعب وعبذ . مثلاً، مع انهما مأخوذان أيضـا من الحروف المذكورة بتغيير ترتيبها .

١٤ـ سرالفصاحة، ٦٠، ٢٥٧ .

١٥ـ نبت يرعاه الإبل .

وليس سبب ذلك بُعد الحروف فى المخارج فقط لوجوده فى كل منها، ولكنه تأليف مخصوص مع البعد .

وحاصله انه من شروط الفصاحة أن تكتسب الكلمة بسبب تأليفها الخاص مزية وحسنا فى السمع وان لا تكون مستكرهة ونابية عنده . فلهذا نحكم بفصاحة «الغصن» و «الفنن» و «أغصان البان» دون «العُسلوج»[١٦] و «عساليج الشَوْحَط»[١٧].

ونحكم بقبح الجرشى فى قول المتنبى :

مُباركُ الاسم أغرُّ اللقَبْ كريم الجِرِشّى[١٨] شريف النَسَبْ

وبقبح الحَقَلّد فى شعر زهير بن ابى سلمى :

تَقيٌّ نقيٌّ لم يُكثّرْ غنيمةً بنكهَة ذى قربى ولا بحَقَلّدِ[١٩]

الثالث ان تكون الكلمة غير متوعرة وحشية، كقول ابى تمام :

لقد طلعت فى وجه مصر بوجهه بلا طائر سعد ولا طائر كهل

فلكمة «كهل» هاهنا من غريب اللغة، وقد روى أن الاصعى لم يعرف هذه الكلمة .

١٦ــ العسلوج : الغصن .

١٧ــ الشوحط : شجر يتخذ منه القسى .

١٨ــ البيت من قصيدة فى جواب كتاب انفد اليه سيف الدوله بخطه. مطلعها :

فهمتُ الكتابَ ابرَّ الكتُب فسمعاً لامر امير العَرَب

كريم الجرشى : اى كريم النفس .

١٩ــ من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان . ومطلعها :

عشيتُ ديارا بالبقيع فثَهمد دوارس قد اقوَيْن من امّ معبدِ

البقيع وثهمد : موضعان .

النهكة : النقص والإضرار . الحقلد : البخيل السّيئ الخلق .

فالكهل لفظة ليست بقبيحة التاليف، لكنها وحشية غريبة لايعرفها مثل الأصمعى .

ومن ذلك ايضا ما يروى عن ابى علقمة النحوى من قوله :

«ما لكم تَتَكأكَؤُن علىّ تكأكُؤَكم[٢٠] على ذى جنّةٍ؟ افرنقِعوا عنّى» .

فإن تكأكؤن و «افرنقِعوا» كلمتان وحشيتان .

الرابع ان تكون الكلمة غير ساقطة عامية، كقول ابى تمام :

جلّيتَ والموتُ مُبدٍ حرَّ صفحتِهِ

وقد «تَفرعَنَ» فــى افعاله الأجل[٢١]

فكلمة «تفرعن» مشتقة من اسم فرعون وهى من ألفاظ العامــة ، و عادتهم أن يقولوا : «تَفرْعَنَ فلانٌ» إذا وصفوه بالجبرية .

الخامس ان تكون الكلمة جاريــة على العرف العربى الصحيح غيــر شاذة ، فكل ما انكره أهل اللغة ورده علماء النحو والصرف مــن التصرف فى الكلمة، داخل فى هذا القسم .

ومخالفة الكلمة للعرف العربى الصحيح تقع على وجوه، فمنها :

١ـ أن اللفظة بعينها غير عربية كا«لمِقراض» فى قول أبى الشيص :

وجناحٍ مقصوصٍ تحيّف ريشَه   ريبُ الزمان تحيُّفَ المِقْراض

فالمقراض ليس من كلام العرب، لأنه لم يسمع الامثنى .

٢٠ـ فى رواية الجاحظ «كما تكأكئون على ذى جنة» البيان والتبيين ٣٧٩/١ .

٢١ـ البيت من قصيدة فى مدح المعتصم بالله . ومطلعها :

فحواكَ عينٌ على نجواكِ يا مَذِلُ   حتامَ لاينقضىّ قولك الخَطِلُ

المَذِل : الذى لايكتم سره : الخطل : المضطرب .

٢ـ أن الكلمة عربية إلا انها قد عُبّر بها عن غير ما وضعت لـه فـى عرف اللغة، كا «أيّم» فى قول ابى عبادة :

يشُقُّ عليه الريحُ كـلَّ عشيّةٍ جيوبَ الغَمام بين بِكرٍ وأيِّم*

فوضع الايّم موضع «الثيب» وليس كذلك لأن الأيم فى عرف اللغـة من لا زوج لها بكراً كانت او ثيبا .

وكاستعمال الصلَف بمعنى الكبر والتيه فى قول أبى تمام :

ما مُقْرَبٌ يختال فـى أشطانه ملآنُ مِنْ صلَفٍ به وتَلَهْوُق٢٢

وهذا هو مذهب العامة فى استعمال هذه اللفظة، واما العرب فتقول: صَلِفت المرأة عند زوجها، إذا لم تَحظَ عنـده . وصَلَفت الرجلَ إذا كرهته .

٣ـ الحذف من الكلمة اعتباطا . كقول النجاشى :

فـلستُ بآتـيه ولا أستطيعـه ولاكِ اسقنى إن كان ماؤك ذافضلِ

أراد «ولكن اسقنى» .

٢٢ـ البيت من قصيدة يمدح فيها الحسن بن وهب ويصف فرسا حمله عليه .

المُقْرَب : الفرس المشدود بالحبل قريبا من بيت مالكه .

التَلَهْوُق : التكلف لاكثر ما يمكن .

وفى الحديث : «كان خلق رسول الله (ص) سجيّة ولم يكن تلهوقا».

وجملة «ما مقرب» مبتدا وخبر على الإستفهام .

* والبيت من قصيدة يرثى فيها حميدا الطوسى واولاده . ومطلعها :

أ«قصرَ حُميد»! لاعزاءَ لمُغْرَم ولا قَصرْ عن دمعٍ وإن كان مِنْ دم

و رواية الديوان : «تشق عليه الرّيح» .

و كقول المتنبى :

تعثّرتْ بِهِ فى الأفواه ألسنُها
والبُرْدُ فى الطُرْق والاقلامُ فى الكتُب[٢٣]

٤ــ الزيادة فى الكلمة كقول ابن هَرْمة :

وانت، على الغواية، حين تَرْمى و عن، عيب الرجال، بمنتزاح[٢٤]

أراد «بمنتزح» .

٥ــ ايراد الكلمة على الوجه الشاذ القليل ، «كالباهت» ، فى قول البحترى :

متحيّرين فباهت متعجبٌ ممّا يرى او ناظرٌ متأملِ[٢٥]

فإنها لغة رديئة، والعربى المستعمل «مَبْهوت» .

و ك «الذ» فى الذى فانها لغة شاذة . قال المتنبى :

و إذا الفتى طرح الكلامَ مُعرِّضا فى مجلسٍ أخذ الكلامَ اللّذ عنا[٢٦]

٢٣ــ فالمتنبى لم يلحق الباء فى «به» بالهاء واكتفى بالكسرة ضرورة. والبيت من قصيدة يرثى بها اخت سيف الدولة، يقول : لهول هذا الخبر تلجلجت به الالسنة فى الافواه، وتعثرت الرسل الحاملة له فى الطرق، و رجفت ايدى الكتاب فى كتابته .

٢٤ــ جاء فى اللسان : وانت بمنتزح من كذا : اى ببعد منه، قال ابن هرمة يرثى ابنه :

فانت، من الغوائل، حين ترمى، و من ذمّ الرّجال ، بمنتزاح

٢٥ــ و رواية الديوان بتحقيق حسن كامل الصيرفى :

«متحيّرون فباهتٌ متعجبٌ»

والبيت من قصيدة يمدح فيها المتوكل ويذكر وفد الروم عليه .

٢٦ــ البيت من قصيدة مدح بها بدر بن عمار، ويعرّض باعور بن كروس لما وشى بالمتنبى . يعنى انه عرض بذكر اولاد الزنا، وقد فهم هذا التعريض من عناه، فهو يأخذه لنفسه . وقبله :

وانهُ المشير عليك فىّ بضلّة فالحرُّ ممتحنٌ باولادِ الزنا

٦ـ فك‌الادغام لغير موجب، و ذلك كقول قعنب‌بن أم صاحب :

مهلا أعاذلُ ، قـد جرّبتِ مـن خُلُقى
إنـى اجـودُ لأقـوامٍ وإن ضَنِنـوا

السادس، أن لاتكون‌الكلمة قد عبربها عن معنى آخر يكره ذكره، فاذا وردت فى بيت شعرٍ أوكلامٍ قبحت، وان لم يقصد بها ذلك‌المعنى المكروه.

و ذلك كا«لمقاعد» فى قول‌الشريف‌الرضى :

أعزِزْ علىّ بأن أراك وقدخلَتْ مِنْ جـانبيك مقاعـدُ العُوّاد[٢٧]

فكلمة «مقاعد» فى هذا البيت وان كملت فيها بقية صفات‌الفصاحة إلا انها توافق ما يكره ذكره فى هذا الشأن، لاسيما انها أضيفت إلى من يحتمل إضافتها إليهم وهم‌العواد، ففيها قبح ظاهر بخلاف ما لـو ذكرت منفردة، فالأمر حينئذ فيها سهل.

وكا«لدلو» فى قول ابى‌تمام :

متـفجرٌ نـادمتُه فكأنّنى للدلو او للمرِزْمينِ نديم[٢٨]

٢٧ـ البيت من قصيدة فى رثاء ابى اسحق إبراهيم‌بن هلال‌الصابى الكاتب، وتوفى فى شوال سنة ٣٨٤ هـ. وكان بينهما من‌المودة‌الأكيدة.

و رواية‌الديوان طبع بيروت سنة ١٣٨٠ هـ : «مـن جانبيك مقاود العوّاد» والظاهر انه خطأ.

و بعده :

اعزز علىّ بـان يفارق نـاظرى لمعان ذاك الـكوكب الوّقـاد
اعزز علىّ بـان نـزلت بمنـزل متشابـه الامجـاد والاوغـاد

٢٨ـ البيت من قصيدة فى مدح محمدبن‌الهيثم‌بن شبانة، و رواية الديوان بشرح‌الخطيب‌التبريزى طبع دارالمعارف : «للنجم او للمرزمين نديم».

و قبله :

لله كـفّ محمـد و ولادُهـا للبذل اذ بـعض الاكفّ عقيـم

فالمراد من الدلو هنا أحد البروج ولكنه وافق اسم الدلو المعروف. فانت تجد باقرب تأمل الفرق بين «أنت المرزم جوداً» و «أنت الدلو كرماً» من حسن الأول وقبح الثانى.

السابع ان تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف، فانها متى زادت على الصور المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن دائرة الفصاحة و ذلك مثل «مغناطيسهن» فى قول ابن نصر بن نباته[٢٩]:

فأياكم أن تكشفوا عن رؤوسكم ألا إن مغناطيسهنّ الذوائب

فهذه الكلمة مع اشتمالها على عيوب اخرى غير مرضية لما ذكر. و مثل «سويداواتها» فى قول المتنبى:

إنّ الكرامَ بلا كرام منهمُ مثلُ القلوب بلاسُوَيْداواتِها[٣٠]

الثامن ان تكون الكلمة مصغرة فى موضع عبربها فيه عن شىء لطيف أو خفى أو قليل أو مايجرى مجرى ذلك. فلهذا أنكر المبرد تصغير «داهية» فى قول الشاعر[٣١]:

٢٩ــ هو عبدالعزيزبن عمربن محمدبن نباتةالتميمىالسعدى، ابونصر. من شعراء سيف الدولة ابن حمدان. طاف البلاد، ومدح الملوك، واتصل بابن العميد ومدحه.

... قال ابن خلكان معظم شعره جيد.

توفى ببغداد. (الاعلام ٤/١٤٨ــ١٤٩).

٣٠ــ البيت من قصيدة يمدح فيها ابا ايوب احمدبن عمران. السويداوات جمع سويداء: حبة القلب. يقول: ان الكرام من الخيل اذا لم يكن عليها فرسان من هؤلاء الممدوحين، كالقلب دون سويداء.

٣١ــ هو لبيدبن ربيعةالعامرى. والبيت من قصيدة يرثى فيها النعمان بن المنذر. وقبله:

الا كلّ شئ ما خلاالله باطل وكلّ نعيم لا محالة زائلُ

وبعده:

وكلّ امرئ يوما سيعلم سعيَه إذا كُشِّفت عندالإله المَحاصل

وكلُّ أناسٍ سوف يدخل بينهم   دُوَيهيةٌ تصفرُّ منها الأناملِ[٣٢]

والفصاحة عند الشيخ عبدالقاهر (ت ٤٧٤ هـ) تسلك سبيلا جديدا و تتوجه الى ناحية اخرى فى البيان . فهى عبارة عن فضل ومزية فى نظم الكلام وترتيبه وتاليفه وتركيبه، وما يعبر به عن فضل قائل على آخر فى النطق والتكلم والاخبار عن الاغراض والمقاصد وبيان ما فى النفس والكشف عن ضمائر القلوب[٣٣].

فالشيخ يتفحص عن الفصاحة فى تركيب الكلام لا المفردات[٣٤]، وفى المعانى لا الألفاظ، وسنبين هذا عند الكلام فى «الفصاحة بين اللفظ والمعنى» .

فالظاهر ان الفصاحة عنده تساوى البلاغة وترادفها .

والفصاحة عند السكاكى (ـ ٦٢٦ هـ) تنقسم الى قسمين : قسم يرجع الى المعنى، ويعنى به خلوص الكلام عن التعقيد والتعمية فى التوصل الى معناه . و ذلك كقول الفرزدق :

و ما مثلُه فى الناسِ إلا مُملَّكا   أبــو أمّه حىٌّ أبوه يُقاربُه[٣٥]

٣٢ـ سر الفصاحة، ٦٦ـ٩٩ .

٣٣ـ دلائل الإعجاز، ٢٩، ٣٠، ٣٥ .

٣٤ـ لعلّ ابن الأثير قد الهم من الشيخ حيث يقول : «واعلم أن تفاوت التفاضل يقع فى تركيب الالفاظ اكثر ممّا يقع فى مفرداتها» (المثل السائر ١/١٤٥) .

٣٥ـ والبيت فى مدح خال هشام بن عبدالملك، وهو ابراهيم بن هشام بن اسماعيل المخزومى .

لم اجد البيت فى ديوان الفرزدق طبع بيروت . وتقدير البيت :

وما مثله فى الناس حىٌّ يقاربُه إلاّ مملّكٌ ، ابو امّه ابوه

وكقول أبي تمام :

ثانيه في كبِدِ السماءِ ولم يكن كاثنين ثانٍ إذهما في الغار[٣٦]

وقسم يرجع الى اللفظ، ويعنى به كون الكلمة عربية اصلية، وعلامة ذلك كون الكلمة كثيرة الاستعمال على ألسنة الفصحاء وجارية على قوانين اللغة وسليمة عن التنافر[٣٧] .

وأمّا الفصاحة عند ابن الأثير ٣٨ (ـ ٦٣٧ هـ) فهي تلخص في حسن الألفاظ ، لأن الكلام الفصيح هو الظاهر البين الذى لايحتاج في فهم ألفاظه الى مراجعة القواميس . ويرجع سبب ذلك إلى كثرة دوران الكلمات في الاستعمال ثم إلى مكانة حسنها، لأن الفصحاء والأدباء غربلوا الألفاظ فما وجدوه فصيحا استعملوه ومارأوه قبيحا تركوه . فحسن الألفاظ سبب استعمالها دون غيرها، واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها . فالفصيح إذاً من الألفاظ هو الحسَن، ولا وجه لتمييز الحسن من القبيح الا

٣٦ـ البيت من قصيدة في مدح المعتصم وذكر امر الافشين. ومطلعها:

الحقُّ ابلجُ والسيوفُ عَوارِ فحذارِ من اسد العرين حذارِ

ثم اشار فى ابيات القصيدة الى امر بابك ومازيار وهلاكهما وصلبهما قبله :

ولقد شفى الأحشاءَ من بُرحائها ان صار بابكُ جارَ مازيارِ

ثانيه في كبد السماء ولم يكن كاثنين ثانٍ إذ هما في الغارِ

و رواية الديوان : «لاثنين ثان اذ . . .»

وعلى هذه الرواية يكون «ثان» خبراً ليكن، ويرد عليه استعمال المنصوب في صورة المجرور وهو لغة رديئة، فالافصح حفظ صورته وهي «ثاني» .

٣٧ـ مفتاح العلوم، ١٩٦ـ١٩٧ .

٣٨ـ المثل السائر ١/٦٥ـ٦٦ .

من طريق السمع، لأن الألفاظ داخلة فى حيز الأصوات فما استلذه السمع فهو حسن وما تفر عنه فهو قبيح. فلهذا نحكم بفصاحة «المزْنة» و «الديمة» لمكان حسنهما وميل السمع إليهما وقبح «البُعاق» لكراهتها فى السمع مع أن هذه اللفظات الثلاث من صفات المطر وتدل على معنى واحد[٣٩].

والفصاحة عند ابن الأثير غير البلاغة لأنها مقصورة على الألفاظ بخلاف البلاغة فانها تعم اللفظ والمعنى، فكل بليغ فصيح ولاعكس.

وأيضاً أن الفصاحة تطلق على اللفظة الواحدة لجواز أن تكون حسنة وأما البلاغة فلاتكون إلا فى اللفظ والمعنى بشرط التركيب[٤٠].

والفصاحة تتناول اختيار الألفاظ المفردة ونظم كل كلمة مع اختها المُشاكِلة لها.

والبلاغة تتناولهما مع وضع كل كلام فى موضعه اللائق به ومطابقته لما يقتضيه الواقع ونفس الأمر[٤١].

و ذكر أحمد بن عبدالوهاب النويرى (ــ ٧٣٣) الفصاحة والبلاغة وفسرهما، وأشار الى ما عرض للفصاحة فى المراد بها من الجزر والمدّ عند علماء هذا الفن وقال: «وقالوا: لايسمى الفصيح حتى تخلصَ لغته عن اللكنة الأعجمية ...»

وعلماء العرب يزعمون أن الفصاحة فى الألفاظ ، والبلاغة فى المعانى، ويستدلون بقولهم: لفظ فصيح ومعنى بليغ.

ومن الناس من استعمل الفصاحة والبلاغة بمعنى واحد فى الألفاظ

٣٩ــ المثل السائر ٦٥/١ــ٦٧.

٤٠ــ المصدر ٧٠/١.

٤١ــ المصدر ١٤٢/١.

والمعانى، والأكثرون عليه»[٤٢].

لقد جاء القزوينى (ـ ٧٣٩) بعدهم وتناول الفصاحة والبلاغة فى كتابيه «الايضاح والتلخيص»، وشكى من تضارب الآراء واختلاف الأقوال، و رأى انها لاتُغنى من الجوع شيئاً، فقال: «للناس فى تفسير الفصاحة والبلاغة اقوال مختلفة فلم اجد منها مايصلح لتعريفهما به»[٤٣].

ولكن كل ما جاء به فى البحث عن الفصاحة انه قسمها الى فصاحة المفرد والكلام والمتكلم. ثم اخذ فى تفسير كل منها. فلم يُضف فى اوصاف الفصاحة شيئاً على ما ذكره القوم ولم يَزد عليه امراً جديداً، بل لخّص ما أشاروا إليه فى هذا المقام وحتى انه قصّر فى بيان ما ذكروه ولم يبلغ شأو بعضهم.

وهذا ابن الأثير فقد جاء فى بيان الفصاحة والبلاغة بمباحث قيمة و نظرات جديدة تنبىء عن خوضه وعمق تأمله فى هذا المجال وسبره غمار الفصاحة والبلاغة. وسنشير إلى هذه النظرات إن شاءالله.

فسر القزوينى فصاحة المفرد بخلوصه من تنافر الحروف والغرابة و مخالفة القياس اللغوى، وفصاحة الكلام بالخلوص من ضعف التأليف و تنافر الكلمات والتعقيد مع فصاحتها[٤٤].

فهو كما ذكرنا لم يعتبر فى اوصاف الفصاحة غير ما اعتبره علماء هذا الفن، ولم يتنبه الى عوامل أخرى مؤثرة فى الفصاحة والبلاغة كالعوامل النفسية والظروف التى أحاطت بالكلمة.

والفصاحة عنده غير البلاغة، لأنها تقع صفة للمفرد كما تقع صفة

٤٢ـ نهاية الأرب ٦/٧ـ٧.

٤٣ـ الايضاح، مع شروح التلخيص ١/٦٥ـ٦٦.

٤٤ـ الإيضاح، تلخيص ١/٧٦، ٩٥.

للكلام والمتكلم، بخلاف البلاغة، فانها لاتطلق على المفرد . وايضا ان الظاهر من كلامه أن الفصاحة تبتدىء باللفظ وتتركز عليه على عكس البلاغة.

« نقد وتحقيق في معنى الفصاحة »

إعلم أن عالم الألفاظ عالم عجيب، يموج بالدقائق واللطائف، ويمور بالرموز والأسرار . عالم في صدره من النكت والفن مالايعدّ ولايعرف، و على لسانه من الوحي والاشارة مالايحدّ ولايوصف .

عالم تنعكس عليه رغبات الشعوب ونزعاتهم، ويتجسد فيه شعورهم واحاسيسهم، وتضرب على اوتاره الحانُ اشواقهم وأشجانهم، ويحكى في طياته غضبُهم و رأفتهم، جهلهم ومعرفتهم .

أليست الألفاظ زفراتٍ يتنفس بها البؤساء والمرضى، ونفثاتٍ يلفظها الغرباء والجرحى، وحبّات قلوبٍ نُظمت في سلك من الشعور والاحساس، وبلّوراتٍ يتجسد فيها صُراخ المظلوم وشكوى المهموم ؟

أليست كلمات من يتقلب في النعم والرفاهيّة تختلف عن كلمات من يتلوى من البؤس والشقاء ؟ هل صياحُ البطَر، يستوى وصُراخَ التعَس والضجَر ؟

أليست الألفاظ الجزلة تستعمل في الحروب والحماسة والتهديد والتهويل، والألفاظ الدقيقة تستعمل في الاستعطاف والسؤال والحنين والأشواق ؟

وأليست كلمات أهل الحضر ولغاتهم تتفاوت من الفاظ اهل البادية و سكانها ؟

الألفاظ كانت ـ وستكون ـ تتكرر على السنة الناس : مريضهم و صحيحهم، سعيدهم وشقيهم، فقيرهم وغنيهم، بعيدهم وقريبهم، مهمومهم و مسرورهم، حكيمهم وسفيههم. وكلما كانت الكلمة اكثر تداولا وتكرارا كانت أثقل حمولة بتجارب الناس فى حياتهم . «فيقطر فيها كل جيل تجاربه الخاصة من حياته الخاصة، وكأنما يتخذ من الفكرة الكامنة فى حنايا اللفظة مِشْجبا يعلق عليه هذه التجارب التى بثها إيّاها»[٤٥].

والألفاظ مع انها فى متناول كل شخص وبابها مفتوح على كل نازل لامانع له ولا زاجر، وله ان يأخذ مايشاء وكيفما يريد، إلا أنها تتلون بلون كل قائل وتصبح ملكا خاصا له . و ذلك لأنها لاتحمل معها مجرد المعانى المدونة لها فى القواميس والتى نسجت عليها العناكب بيوتها، فإن هذا المقدار شيء تافه وضئيل يحط من شأن رسالة الألفاظ . لأن المعنى الذى نجده فى معاجم اللغة ما هو الا النواة التى تتجمّع حولها طائفة من المعانى الثانوية . فالنواة تدل على شيء اوحدث ما، واما المعانى الثانوية فتدل على النواحى المتعددة المتنوعة لذلك الشيء أو الحدث»[٤٦].

فالألفاظ تحمل بجانب تلك المعانى طابع الإنسان وما احاط به من العواطف والاحاسيس، والميول والنزعات . قال «جورج ديهاميل» الكاتب الفرنسى :

يأخذ الرجل الكلمة وإذا بها ملك له، بعدان كانت للجميع . فبطريقه نطقه وحركات عضلاته، وبحجم انفاسه ونسبة تصريفه لها، وبرنة صوته وتنغيمه بل وبالظواهر الاضافية من تغيير وجهه الى دلالة عينيه إلى حركة يده واعضائه وجسمه كله، بكل هذه الوسائل يضع الإنسان طابعه الخاص

٤٥ــ فنون الأدب ، ٨ .

٤٦ــ قواعد النقد الادبى، ٤٠ .

على الكلمة التى يفوه بها، طابعه الذى ينم عن عاداته وشهياته وشهواته و مواضع نقصه وندمه وآلامه .

يقول : «نبيذ» ـ على بساطة الكلمة ـ فندرك جميعاً هل هو يحب النبيذ أم يخشاه، وهل هو فى عطش أم رى، وهل هو من الخبراء فيه أو الدُخلاء عليه ؟

ويقول : «حب» فيقلقنا بنطقه لهذا المقطع أو يؤثر فينا، أو يثيرنا أو يحملنا على الابتسام»[٤٧].

فمن البساطة ان نحصرَ دلالة الألفاظ وآفاقها على مجرد تلك المعانى المكتوبة لها فى القواميس، فنطوف او ندور عليها على مر الدهور . إذ الألفاظ حينئذ ليست الا جثثا هو امد أو هياكل جامدة تذروها الرياح فلا تستحق البقاء الذى كتب لها .

فاللفظ كائن حى ينمو ويتطور، يذبل ويزدهر، ينبض بالقوة والحيوية، يوحى بالعواطف والإحساسات، ويرمز الى كثير من المفاهيم .

قال «تشارلتن» ـ أستاذ الأدب الأنجليزى فى جامعة ما نشستر بانجلترا ـ : «فالكثرة الغالبة من الألفاظ مثقلة بأشياء غير الفكرة التى تحملها، مثقلة إلى جانب الافكار بما لا يقع تحت حصر من المشاعر والصور»[٤٨].

وحمولة الألفاظ تتفاوت ثقلا وخفة، كثرة وقلة، بالنسبة الى الأفراد والطوائف، والعوامل والظروف .

ألا ترى أن كلمة «الجوع» التى تتكرر على ألسنتنا فى حياتنا اليومية وتتداولها حينما نجلس حول مائدة الغداء والعشاء ملّونة بأنواع

٤٧ـ دفاع عن الأدب، ١٨٠ .

٤٨ـ فنون الأدب، ٥ .

الطعام، لاتحمل معها ما تحمله جارية على ألسنة جياع افريقيا من المعنى والاحساس والخوف والوحشة .

فكلمة الجوع تنبه فينا شهياتنا، وتحرك فينا ميولنا وحرصنا على الأكل والافراط فيه، ولكن نفس الكلمة تثير فيهم آلامهم وأحزانهم وتزيد فيهم وحشتهم واضطرابهم .

وأيضا ان كلمة «الظبية» للمحب الذى يشاهد عليها ملامح من حبيبته وللعاشق المجنون الذى يقول فيها :

إذا نظرتُ عرفتُ الجيد منها و عينيها ولم نعرِف سواها
كرِهْنا أن نُفزّعها، فقلنا : أشلّ اللهُ كفّىْ من رماها[49]

غيرُها للصائد والبدوى .

فهى توحى فى الأول بذكريات الحب والحنين والشوق، وتحمل معها ملامح من الحبيبة، وتوصى بالعطف والحنو على الظبية لمشابهة بينها وبين ما يهواه الشاعر . واما فى الثانى فتوقظ الكلمة شهياته وتسيل لعابه من فمه، وتصوّر له لذة صيدها وافتراسها .

وكذلك ان لفظة «الأم» عند من ترعرع فى حضنها وقضى ليله و نهاره قربها، وامتص ثديها وأحس حرارة قلبها الممتلىء بالعطوفة والرأفة، وتربّى بأنا شيدها الساحرة، اوسعُ معنى وأغزرُ مادة وأثقلُ حمولة و أكثرُ ايحاء والذُّ نغمة من الكلمة نفسها عند من لم يقض ساعة فى حجرها ولم يبت ليلة عندها، ولم يرضع لحظة من ثديها، ولم يسمع كلمة من فمها .

وكذا ان كلمة «السيف» عند عنترة البطل الذى يرى فى لمعانه بارق ثغر حبيبته ويقول :

٤٩ــ ديوان مجنون ليلى، ١٩٠ .

ولقد ذكرتك والرماحُ نواهل   منّى وبيضُ السيف تقطر من دمى
فوددْتُ تقبيلَ السيوف لأنها   لمعت كبارق ثغرك المتبسّم[٥٠]

ترمز بجانب معناها – أعنى القطعة المخصوصة من الحديد – الى كثير من الخواطر والذكريات.

وأنّ كلمة «ليلى» عندالمجنون وهو الذى يقول:

وإنّى لتعرونى لذكراك نفْضةٌ   كما انتفضَ العصفورُ بلّله القطر[٥١]

قنبلة مشحونة بالصور والمشاعر والغرام والهيام والوصل والفراق والانين والحنين وغير ذلك، تنفجر فى قلبه عند سماعها.

ومما يدل على اسرار اللفظ و رموزه انك ترى أنه قد تراعى فيه ناحية دقيقة جدّاً وهى ان تكون بين اصواتها والموضوع ملائمة بحيث ان تكون الأصوات حكاية للشيء الموصوف او وحيا له الى الخاطر، و هذه الخاصية ترجع الى الكلمات وينظر فيها الى كل كلمة على حدة وتأثير اصواتها[٥٢].

فقد يكثر من حروف الضاد والطاء ليدل على الضرب والطعن، كما نرى فى بيت بشّار:

إذا ما غضبنا غضْبَةً مضريّةً   هتكنا حجابَ الشمس اوتقطرَ دما

٥٠– البيتان من معلقته المشهورة التى نظمها فى اعقاب حرب داحس والغبراء ليعاتب عبْلة ويفتخر امامها بشجاعته وكرمه. ومطلعها:

هل غادر الشعراءُ من متردّم؟   ام هل عرفتَ الدارَ بعد توهّم؟

٥١– ديوان مجنون، ٥٣: وقبله:

فيا حبّذا الأحياء ما دمتِ فيهمُ   ويا حبّذا الأموات إن ضمّك القبر

وفى رواية اخرى (الذكراك هزّة).

٥٢– قواعد النقد الأدبى، ٤١.

ويكثر من حروف «السين» و «الصاد» ليدل على صليل السيوف، و من حرف الراء ليدل على خرير المياه مثلاً.

وكذلك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد، وكلاهما حسن في الاستعمال، واحيانا لهما وزن واحد وعدة واحدة، إلا أنه لايحسن استعمال إحداهما في موضع الآخر، بل يفرق بينهما في صوغ الكلام و تركيبه. وهذا شيء لايدركه إلا من دق فهمه وجل نظره.

فمن ذلك قوله تعالى: «ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه»[٥٣] وقوله: «رب إني نذرت ما في بطني محرراً»[٥٤] فاستعمل «الجوف» في الآية الأولى و «البطن» في الثانية. فهاتان اللفظتان وان كانتا سواء في الدلالة والوزن وعدد الحروف إلا انه لايحسن استعمال إحدهما في موضع الآخر.

وكذا قوله: «ماكذب الفؤاد ما رأى»[٥٥] مع قوله: «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او ألقى السمع وهو شهيد»[٥٦] فالقلب والفؤاد وان كانا بمعنى واحد إلا انه وقع كل منهما في موقع لايحسن وقوع الآخر فيه.

وكذا لفظتا «العسل» و «الشهد» فانهما في المعنى وعدد الحروف سواء، لكن يمكن ان يكتسب كل منهما في نظم الكلام حسنا لم يكتسبه الآخر لو وضع فيه. كما ترى في قول الأعرج من أبيات الحماسة:

٥٣ـ الأحزاب، ٤.

٥٤ـ آل عمران، ٣٥.

٥٥ـ النجم، ١١.

٥٦ـ الذاريات، ٥٧.

نحن بنو الموتِ إذا الموتُ نـزل لا عارَ بـالموت إذا حُـمّ الأجلْ
الموتُ أحلى عندنـا من العَسَـل[٥٧]

وقول المتنبي :

إذا شئتُ حفَّتْ بي على كل سابح رجالٌ كأن الموتَ في فمها شهدُ[٥٨]

فكل من لفظتي العسل والشهد حسن في موضعه وان كان «الشهد» لم يرد في القرآن لأن «العسل» أحسن منه . فلو بـدل موضعهما لـزال حسنهما وقبولهما[٥٩].

وقد تتقارب الكلمات من حيث المعنى، ولكن بعضها أدل على احساس الشاعر أو الأديب من بعض، والشاعر الموفق هو الذي يهتدي الى الكلمة التي تكون شديدة الإبانة عما يريد، لأن التمييز بين الألفاظ شديد .

قيل ان رجلا أنشد ابن هرمه قوله :

بالله ربِّك، ان دخلتَ فقل لهـا هذا ابن هرمةَ قائِمـا بالبـاب

٥٧ـ والأبيات على ما جاء في شرح ديوان الحماسـة للتبريـزي (د ١/١٥٤ـ١٥٥) :

انا ابـو بـرزة إذ جدّ الوَهَلْ خـلقت غيـر زمّل ولا وكـل
ذا قـوّة و ذا شبـاب مقتبل لا جزع اليوم على قرب الأجـل
الموت أحلى عندنا من العسـل نحن بني ضبّة اصحاب الجمل
نحن بنو الموت إذا الموت نزل ننعى ابن عفّان بـاطراف الاسل
ردّو علينا شيخنا ثـمّ بجـل

اي ثمّ بجَلْنا ذاك ـ حسبُنا ـ .

٥٨ـ البيت من قصيدة يمدح بها عمر بن سيّار بن مكرم التميمي . و مطلعها :

اقلْ فعالي ـ بله اكثره ـ مجـدُ وذا الجدّ فيه نلت ام لم انل جَدُ

٥٩ـ المثل السائر ١/١٤٢ـ١٤٤ .

فقال : ماكذا قلت، أكنت أتصدّقْ ؟!

فقال : فقاعدا

قال : أفكنت أبول ؟!

قال : فماذا ؟

قال : واقفا، ليتك علمت ما بين هذين من قدرِ اللفظ والمعنى .
والفرق بين هاتين الكلمتين مع أنهما متقاربتان جدا، هو ان القيام يستدعى الاستمرار والدوام، بينما الوقوف لايستدعيهما . وابن هرمة يريد ان يعلم صاحبته بمكانه من غير ان يريد اخبارها بانه ثقيل الظل، لايبرح بابها، بل هو قائم بجواره[٦٠].

فاختيار الألفاظ و وضعها فى موضعها اللائق بها، من دقائق البيان ولطائفها التى يبلغ الكلام بتوفيتها حد الاعجاز، وبالاشتمال عليها درجة «ان من البيان لسحرا» .

فأفلاطون لم يبعد من الحقيقة حين رأى أن الأشياء ليست جميلة جمالا مطلقا، وإنما تكون جميلة عند ما تكون فى موضعها، وقبيحة عند ما تكون فى غير موضعها[٦١].

ومن اعجب امر اختيار الألفاظ و وضعها فى موضعها اللائق بها، أننا نرى لفظا واحدا يكون حسنا ومقبولا فى موضع ومستكرها وضعيفا فى موضع آخر . و ذلك مثل كلمة «الشىء» فى قول عمر بن ربيعة المخزومى:

و مِنْ مالِىءٍ عينيه من شىءِ غيرِه
إذا راح نحوَ الجمرةِ البيضُ كالدُمى[٦٢]

٦٠ـ اسس النقد الأدبى عند العرب/ ٤٥٤ـ٤٥٥ . الصناعتين، ٦٨ .
٦١ـ الأسس الجمالية فى النقد العربى، ٣٥ .
٦٢ـ وقبله :
وكم من قتيل لايُباء به دمٌ ومن غَلِقٍ رهنا، إذا ضمّه مِنى

فلفظة الشيء هاهنا كناية عن كل ما استهواه الشاعر واستحسنه فى حين لا يكون التصريح بها ممدوحا، ثم إنها استعملت منضمة ومضافة فجاءت حسنة، بخلافها فى قول المتنبى :

لو الفلكُ الدّوار أبغضتَ سعيه   لعوّقه شيءٌ عن الدّوران[٦٣]

فانها مستكرهة لخلوها عن موجب اختيار ابن ابى الربيعة لها او سبب مناسب آخر، ولذكرها مطلقة ومقطوعة عن كل القيود والمنضمات[٦٤].

ومثل كلمة «يؤذى» فى قوله تعالى : «فإذا طعمتم فانتشِروا ولا مستأنسينَ لحديثٍ، إنّ ذلكم كان يؤذى النبىَّ فيستحيى منكم، والله لا يستحيى مِنَ الحقِ»[٦٥].

وقول ابى الطيب المتنبى :

تلَذُّ له المروءةُ وهى تؤْذى   ومَنْ يعشَقْ يَلَذَّ له الغَرام[٦٦]

فهذه اللفظة جاءت فى الآية جزلة متينة، وفى البيت ركيكة وضعيفة، فحطّت من قدره مع انه من ابيات المعانى الشريفة.

وسبب ذلك ان كلمة «يؤذى» إذا جاءت فى الكلام ينبغى أن تكون مندرجة مع ما يأتى بعدها ومتعلقة به كما رأيت فى الآية. ولكن المتنبى استعملها منقطعة، لأنه قال : «تلذ له المروءة وهى تؤذى» ثم قال : «ومن

٦٣ــ البيت من قصيدة يذكر فيها خروج شبيب العقيلى على كافور و قتله بدمشق، مطلعها :

عدوّك مذموم بكلّ لسان   ولو كان من اعدائك القمران

٦٤ــ راجع دلائل الاعجاز، ٣٩ .

٦٥ــ الاحزاب، ٣٣ .

٦٦ــ البيت من قصيدة يمدح بها المغيث بن العجلى، ومطلعها :

فؤادٌ ما تسلّيه المدامُ   و عمرٌ مثل ما تهب اللئامُ

يعشق . . .» فجاء بكلام مستأنف[٦٧].

و وردت كلمة «يؤذى» بعينها على الاستعمال الفصيح في الحديث، و ذلك انه «اشتكى النبى (ص) فجاءه جبريل ورقّاه، فقال: بسم الله ارقيك من كلّ داء يؤذيك».

فالحاق الضمير بـ«يؤذى» البسها حلّة من الحسن والقبول وأخرجها عن القبح العارض لها في صورة الإنقطاع.

ومن هنا تزاد هاء السكت في نهاية بعض الكلمات كي لايكون حرفه الاخير محل قطع، كما ترى في قوله تعالى: «هاؤمُ اقرؤا كتابيه، إني ظننتُ أني مُلاقٍ حسابيه، ثم قال: ما أغنى عنّي ماليه، هلك عنّي سلطانيه»[٦٨].

ومثل كلمة «تؤذى» كلمة «لى»، فإذا جاءت مندرجة ومتعلقة بما بعدها تكون حسنة وإلاّ تعد مستكرهة. فانظر إلى قوله تعالى: «انّ هذا اخى له تسعٌ وتسعون نَعْجةً، ولى نعجةٌ واحدة»[٦٩].

وقولِ المتنبى:

تُمسى الأمانىُّ صرعى دون مبلغِه فما يقول لشيءٍ ليتَ ذلك لى[٧٠]

فلفظة «لى» في الآية لم تقع في آخر الجملة ولم تنقطع عما بعدها، فحازت من الحسن والقبول ما لم تحزه في بيت المتنبى.

٦٧- المثل السائر ١/٥-١٤٦.

٦٨- الحاقة، ١٩، ٢٠، ٢٨، ٢٩.

٦٩- ص، ٢٣.

٧٠- البيت من قصيدة في مدح سيف الدولة. ومطلعها:

اجاب دمعى وما الدّاعى سوى طلَلِ دعا، فلبّاه قبلَ الرّكبِ والإبلِ

وأما قوله الآخر :

ما أجْدَرَ الأيّامَ والليالــى بأنْ تقولَ : ما لهُ ومالى؟![٧١]

فليس من هذا القبيل، لأن «لى» هاهنا ذكرت بعد «مـا» وقبلهـا «ماله» ثـم قال و «مالى» فجاء الكلام على نسَق واحد ليس فيه الضعف والركاكة بخلاف البيت الأول .

ومما يدل على وضع الكلمة فى موضعها اللائق بها أو فى غير ذلك، موضع «قمل» فى قوله تعالى: «فأرسلنا عليهم الطوفانَ والجرادَ والقُمّلَ والضَفادِعَ والدّمَ آياتٍ مُفصّلاتٍ»[٧٢].

وقول الفرزدق :

مِن عزّه احتَجرتْ كليبٌ عنده زَرْباً كأنهم لَديْه القُمّل[٧٣]

فالآية تضمنت خمس كلمات : الطوفان، الجراد، القمـل، الضفادع والدّم . فأحسنها الطوفان والجراد والدم، فكلمة القمل والضفادع لم تقع فى الأول وفى الآخر بل جُعِلت فى الوسط، ليُطرقَ السمعَ فـى الابتداء والانتهاء لفظٌ حسن، حتى أنّ احسن تلك الكلمات الثلاث واخفَها وهو الدّم جعل فى الآخر ليخفف ما اثقل السمع ويجبُره .

وأما كلمة «القمل» فى قول الفرزدق فجاءت فى آخر البيت منقطعة

٧١ـ البيت هومطلع قصيدة انشدها ابوطيب بشيراز فـى مـدح عضدالدولة و وصف متصيّد له .

٧٢ـ الأعراف، ١٣٣ .

٧٣ـ البيت من نقائض فرزدق . ومطلع القصيدة :

إنّ الذى سَمكَ السماء بنـى لنـا بيتا ، دعـائِمُهُ أعزُّ و اطْوَلُ

و رواية الديوان طبع بيروت هكذا :

مِنْ عزّهم جحرت كليب بيتهـا زربـاً ، كانّـهُمْ لديـه القُمّلُ

وصارت قافية، فلم يقع بعدها ما يهوّن من امر قبحها او استكراهها[٧٤].

ومن أعجب امر اختيار الألفاظ ايضا انك ترى ان بناء الكلمة وصوغها على الغرابة والكراهة والقبح فتكون وحشية ونافرة غير مأنوسة، اوثقيلة على السمع وكريهة على الذوق، أو سخيفة ومتبذلة، إلاّ انها قد تقع موقعا لاتجد فيه أحسن وأفصح منها . وليس هذا الاّ لأن تلك اللفظة قد حطّمت حدودها وتحمّلت ايحاءات لاتؤدى بدونها .

ونظير ذلك فى غير الألفاظ اننا كثيرا مارأينا مناظر اشمأزّت منها النفس ونفر منها الطبع وارتد عنها البصر، ولكن لما وقعت فى يد الفنان وسلط عليها خياله المبدع وريشته الساحرة، أخرجها كأحسن ما يكون فى العالم، وجعل منها لوحا شخصت عنده الأبصار وتطايرت إليه القلوب وتنافست فيه المتنافسون[٧٥]. وما هذا الاّ لأن الفنان قد صبغ المناظر بصبغة خياله، واودع فيها رموزاً واشارات لم تكن موجودة من قبل .

فالألفاظ الوحشية او المتنافرة او السخيفة مثلا، إذا جاءت فى كلام الشاعر المفلق أو الأديب البارع لاتقف عند حدها بل تتحمل ايحاءات واشارات تلبسها حلّة قشيبة من الحسن والفصاحة، وتتجلى كوسيلة لتجسيم الفكرة وتشخيصها .

ولقد أحسن الجاحظ حيث يقول : «وقد أصاب القوم فى عامة ما وصفوا، إلاّ أنى ازعم ان سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعانى . وقد يحتاج الى السخيف فى بعض المواضع، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل

٧٤ـ المثل السائر ١/١٤٥ـ١٤٨ .

٧٥ـ قال ارسطو : فالكائنات التى تقتحمها العين حينما تراها فى الطبيعة تلذّ لها مشاهدتها مصورّة اذا احكم تصويرها، مثل صور الحيوانات الخسيسة والجيف . (فى الشعر، ترجمة بدوى ١٢) .

الفخم من الألفاظ، والشريف الكريم من المعانى»[٧٦].

فالشاعر أو الأديب المبدع ربما يخطر بباله مايستعصى على التعبير بالألفاظ المعروفة والقوالب المألوفة، لأنه إذا عبر عنه بتلك الألفاظ وصاغه فى تلك القوالب بات تجارب مألوفة وفقدت جدتها، فالظل لو تجسّم لم يبق ظلا. لهذا نرى انه يستخدم الفاظا لم يكثر دورانها على الألسنه ولم تألفها الاسماع، فيحفظ بذلك جدة فكرته وطرافتها، ويزيد فى قوة تأثير التعبير منها.

لعل خير مثال لكلمة كان صوغها وبناؤها على الخلو من الحسن والقبول ولكن وقعت فى موقع لايسد مسدّها فيه غيرها، هو كلمة «ضيزى» فى القرآن الكريم من قوله تعالى: «ألكم الذَّكَرُ وله الأُنثى؟ تلك إذاً قسمةٌ ضيزى»[٧٧] فهى لفظة غريبة من اغرب ما فيه وما حسنت فى كلام قط إلاّ فى موقعها منه.

فغرابة اللفظ فى الآية أشدّ الأشياء ملاءمة لهذه القسمة التى انكرها الله تعالى على العرب[٧٨]. ولم يتنبه ابن الأثير لهذه النكتة فى حواره مع رجل متفلسف حول سرّ فصاحة كلمة «ضيزى»، فيدور كل ما ذكره ـ واعتزّ به ـ على حظّها الموسيقى. فقال: ألا ترى ان السورة كلّها التى هى سورة النجم مسجوعة على حرف الياء، فقال تعالى: «والنجم إذا هوى، ماضلّ صاحبكم وما غوى»، وكذلك الى آخر السورة، فلما ذكر الاصنام وقسمة الأولاد وما كان يزعمه الكفار قال: «ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذاً قسمة ضيزى» فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذى جاءت السورة جميعها عليه، و

٧٦ـ البيان والتبيين ١/١٤٥.

٧٧ـ النجم، ٢١، ٢٢.

٧٨ـ فنون الادب، ١٢.

غيرها لايسدّ مسدها فى مكانها . . .»[٧٩].

ويمكن ان تعد من الكلمات التى بناؤها على الاستكراه والتنافر و معها ايحاء واشارة، لفظة «جحيش» فى قول تأبّط شرا :

يظلّ بموماةٍ ويُمسى بغيرها جحيشا، ويعرورى ظهورَ المهالك

فالظاهر ان مرادف جحيشاً اعنى فريداً او وحيداً لم يخف على تأبّط شرا وهو من هو، فاختيار هذه الكلمة واستعمالها لم يكن عبثا من جانبه، بل أرى انه اودع فيها رمزا و اشارة لايؤديها وحيد او فريد، فهو لايريد ان يكتفى بأن يقول انه يصرف نهاره فى مفازة لاماء فيها ويمسى فى غيرها منفردا، حتى يكون معناه انه يقاسى المتاعب فى النهار ويتخلص منها فى المساء، بل يعنى انه يتقلب فى الشدائد والمهالك من تحمل الحرّ والعطش فى النهار والوحدة الموحشة المستكرهة فى المساء . فعلى هذا ان كلمة «جحيش» أنسب الألفاظ ملاءمة للتعبير عن هذه الوحدة الموحشة .

فلا اوافق ابن الأثير فى قوله هاهنا : «فانّ لفظة «جحيش» من الألفاظ المنكرة القبيحة، ويا لله العجب : أليس انها بمعنى فريد، وفريد لفظة حسنة لائقة، ولو وضعت فى هذا البيت موضع جحيش لما اختلّ شىء من وزنه، فتابط شراً ملوم من وجهين فى هذا الموضع . أحدهما انه استعمل القبيح، والآخر انه كانت له مندوحة عن استعمال فلم يعدل عنها»[٨٠].

فلايغرنك اننا نريد ان ننكر وقوع كلمات غير فصيحة فى كلام الشعراء والأدباء، كلاّ . إذ من البديهى ان التعبير عن التجارب المألوفة بالألفاظ الغريبة والمتنافرة، كما نراه فى العصور التى يقل فيها النوابغ والافذاذ، لايعد فصاحة بل ضعفا و ركاكة .

٧٩ـ المثل السائر ١/١٥٦ـ١٥٧ .

٨٠ـ المثل السائر ١/١٦٣ .

بل كل ما نريد ان نقول هاهنا انه ربما تكون الكلمات والقوالب الغريبة او المتنافرة مثلا التى تستخدم فى كلام نوابغ الشعراء والأدباء، جاءت قصدا وسعيا من وراءها لاغفلة ولاضرورة، وذلك لتضمنها ايحاءات واشارات لم يتضمنها غيرها، فأصبحت تلك الكلمات والقوالب حسنة وفصيحة كأحسن ما يكون.

هذا الذى ذكرناه من ابتداء مبحث اسرار الالفاظ الى هنا كان قلاً من كثر، ولكن ظهر منه ان حسن الألفاظ وقبولها وفصاحتها امر تشترك فيه عوامل كثيرة واسباب متعددة تستمد من النفس والطبع، والزمان والمكان، والمعنى واللفظ، وموسيقى الكلمات واصواتها، والاسلوب والتركيب، والملائمة بين اللفظ والمعنى وغيرها، فينبغى على من يدرس الفصاحة الالتفات إليها والعناية بها والوقوف عندها.

ولكن علماء هذا الفن لم يدرسوا تلك العوامل دراسة تشفى من الغليل، وتهدى السالك إلى سواء السبيل، وان كان الشيخ عبدالقاهر وابن الأثير قد أتيا فى هذا المجال بما يرجع اليهما فضله، واهتديا الى دقائق لم يسبقهما فيها احد.

وهذا ابن سنان الخفاجى الذى الف كتابا فى اسرار الفصاحة و رموزها و ذكر فى مقدمته ان الغرض من تأليفه معرفة حقيقة الفصاحة والعلم بسرّها[٨١]، فعنى بدراسة الفصاحة وسعى وراءها، لكنه مع ذلك كلّه لم يحم حول كثير من عوامل الفصاحة كالنواحى النفسيّة مثلا، اولم يدرسها دراسة عميقة. فإذا رأيت فى كلامه التفاتاً إلى الدواعى النفسية فاعلم أنه لايتجاوز من نظرات عابرة واشارات سريعة، وذلك كقوله فى قبح التكرار: «واجاز لنا فى بعض الأيام شيخنا ابو العلاء بن سليمان قول الشاعر»:

٨١ــ سرّ الفصاحة، ٥.

ألا طرَقتنا بعد ماهَجعُوا هند" وقدسِرْنَ خمساواتلأبَّ بنا نجدُ
الا حبّذا هند" وأرض" بها هند وهندأتى من دونهاالنأىُ والعبد[٨٣]

وقال : من حبه لهذه المرأة لم ير تكرير اسمها عيبا، ولأنه يجد للتلفظ باسمها حلاوة، فلم ير من الاعتذار للتكرير الا هذا العذر»[٨٣].

فهو وان كان اهتدى الى السلامة بين اللفظ والمعنى لكنه لم يدرس المسألة مستوفاة ولم ينظر إليها من الجهات المختلفة، بل اكتفى بانه ذكر فى جملة اوصاف الفصاحة كون الكلمة مصغرة فى موضع عبر بها عن شىء لطيف او خفى أوقليل اوما يجرى مجرى ذلك[٨٤]. ولايخفى ان السلامة بين اللفظ والمعنى لاتنحصر فى هذه الناحية، إذ لها صور" اخرى كالسلامة فى التنافر والغرابة والسخافة والعدد والعدّة، على ان هذه السلامة ليست فى صميم اللفظ من حيث انه لفظ، فهى الى الشكل اقرب منها الى اللفظ .

لقد سبق ان الخفاجى ذكر فى فصاحة اللفظة المفردة اوصافا ثمانية و اشرنا إليها باختصار . وهذه الأوصاف ترجع كلها إلى اللفظ، او فى اعتباره على الأقل، لأن الفصاحة عنده مقصورة على وصف الألفاظ، فيدل هذا على انه لم يهتم بعوامل الفصاحة غير لفظية .

وفيما ذكره نظر من وجوه: الأول ــ ان بعضا من هذه الاوصاف يغنى

٨٢ــ سر الفصاحة، ١١٥ .

٨٣ــ البيتان للحطيئة العبسى احد شعراء الهجّائين والمداحين . والبيت الأول هو مطلع قصيدة يمدح بها بنى سعد .

و رواية الديوان طبع بيروت م ص٢٩، هكذا: الاطرقتنا بعد ماهجدوا. وقد سرن خمسا: اى سرن خمسة ايام لايرون فيها ماء . واتلأب : ارتفع .

٨٤ــ سر الفصاحة، ٩٧ .

عن بعضه، و ذلك مثل كون تأليف الكلمة على صورة توجب فى السمع حسنا ومزيّة على غيرها . قال ابن الأثير: الألفاظ داخلة فى حيّز الأصوات فما استلذه السمع فهو حسن، وما استنكره وكرهه فهو قبيح . فلاحاجة إذاً الى ما ذكره علماء البيان من خصائص الفصاحة وشرائطها»[٨٥].

فهذا الوصف ان لم يغن عن بقية الأوصاف الثمانية فلاشك انه يغنى عن بعضها، وفى رأسه المادة الاولى وهى : «ان يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج»[٨٦].

الثانى ـ انه لاحاجة الى اعتبار تباعد مخارج الحروف فى الفصاحة، و ذلك لأن بناء اللغة على الاستعمال والدوران والحسن والخفة، فنرى ان الثلاثى من الألفاظ اكثر من الرّباعى والخماسى، والخماسى أقل منهما فى الوجود ولايستعمل منه الاّ القليل النادر، وانه لم يؤلف بين حروف الحلق كالحاء والخاء والعين، ولابين اللاّم والرّاء، ولا بين الزاء والسين . وهذا دليل على العناية ببعد المخارج .

على انه لو كان بعد المخارج فى التلفظ معتبرا فى الفصاحة، لما استطاع شاعر او أديب على قول بيت او عبارة إلاّ فى مدة طويلة . وايضا حينما نُسأل عن حسن او قبح لفظة نجيب بسرعة، ولانقول للسائل اصبر حتى نرى هل الحروف متقاربة او متباعدة فى المخرج .

ومما يدل على ضعف اعتبار تباعد المخارج عدم اطراده، فإن كلمة «جيش» مع قرب مخارج الحروف حسنة، و «ملع» مع تباعد حروفها فى المخرج قبيحة[٨٧]. فلم يبق هاهنا إلاّ أن يكون الذوق السليم مرجعا، لاقرب

٨٥ـ المثل السائر، ١٤٩ .

٨٦ـ سرّ الفصاحة، ٦٦ .

٨٧ـ المثل السائر ١٥٢/١ـ١٥٤ .

مخارج الحروف او بعدها، ولا ترتيبها فى الصعود والنزول[٨٨].

الثالث ـ انه اعتبر فى الفصاحة ان تكون الكلمة غير ساقطة عامية، و نسبه الى الجاحظ[٨٩]. وليس الأمر كذلك لأن الجاحظ نفسه لا يرى الكلمة الساقطة والسخيفه مخلة بالفصاحة مطلقاً، فهو ـ كما ذكرنا ـ قال : «وقد أصاب القوم فى عامّة ما وصفوا، إلاّ أنى أزعم أن سخيف الالفاظ مشاكل لسخيف المعانى. وقد يحتاج الى السخيف فى بعض المواضع، و ربما أمتع بأكثر من امتاع الجزل الفخم من الالفاظ والشريف من المعانى»[٩٠] وهذا الكلام ينادى بأن وصف الكلمة بخلوها مطلقا من السخافة والابتذال، امر اعتبره القوم ولا يرتضيه الجاحظ.

وأيضاً الظاهر من كلام الخفاجى انه يعنى من الساقطة العامية، السخيفة والمبتذلة بين العامة[٩١]، مع أنها تنقسم الى أقسام ليس كلها عيبا فى الكلام. لأن سبب الابتذال اما لان الكلمة سخيفة ضعيفة سواء تداولتها العامة أو الخاصة، مثل كلمة «لقالق» فى قول المتنبى :

و ملمومة" سيفيّة" رَبعيّة يصيح الحصا فيها صياحَ اللقالق[٩٢]

٨٨ـ شرح مفتاح العلوم للتفتازانى، مخطوط.

٨٩ـ سرّ الفصاحة، ٧٨.

٩٠ـ البيان والتبيين ١٤٥/١.

٩١ـ سرّ الفصاحة، ٨٠، ٨١.

٩٢ـ البيت من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ويذكر ايقاعه بالطغاة والمتمردين. ومطلعها :

تذكّرت ما بين «العذَيب» و «بارق»
مجرّ عَوالينا و مَجْرى السوابق

ملمومة : مجتمعة، صفة للكتيبة.

وكلمة «آجرّ» فى قول نابغة الذبيانى :

او دُمية فى مرمرٍ مرفوعةٍ   بُنيت بآجرٍ يشاد بقَرْمدِ

فهاتان اللفظتان معيبتان ومتبذلتان جدّا، فينبغى الاحتراز منهما الاّ أن تقعافى موضع يراد فيه المشاكلة بين اللفظ والمعنى .

فاذا اردت ان تعرف سر فصاحة القرآن اظر الى بيانه عند التعبير عن «الاجرّ» : «وقال فرعون : يا أيّها الملأ ماعلمتُ لكم من إلهٍ غيرى، فأوْقِدْ لى ياهامانُ على الطين فاجعل لى صَرْحا»[٩٣] فترك كلمة «الآجرّ» وعبر عنها بالوقود .

واما لأن الكلمة قد استعملت عند العامة فى غير ما حقها أن تستعمل فيه . فهذا القسم، منه ما هو مكروه ذكره مثل كلمة «الصرْم» فانه فى الاصل بمعنى القطع، ولكن استعملتها العامة فى معنى «السرم» ـ المحل المخصوص من الحيوان دون غيره ـ ولهذا عيب على المتنبى قوله :

أذاقَ الغوانى حسنُه ما اذقنَنى   وعفَّ، فجازاهن عنى بالصرْم[٩٤]

ومنه ما هو غير مكروه ذكره، وذلك مثل كلمة «الظرف» المستعمل فى حسن الخلق والصورة واللباس مع انها تختص بالنطق . إذ يقال فى صفات خلق الانسان : الصباحة فى الوجه، الوضاءة فى البشرة، الجمال فى الأنف، الحلاوة فى العينين، الملاحة فى الفم، الظرف فى اللسان، الرشاقة فى القد اللباقة فى الشمائل وكمال الحسن فى الشعر .

فإذا استعملت كلمة «الظرف» فى غير المنطق والكلام لاتعد غير

٩٣ـ القصص، ٣٨ .

٩٤ـ البيت من قصيدة يمدح بها الحسين بن اسحق التنوخى. ومطلعها:

ملامى النّوى فى ظلمها غاية الظلم   لعلّ بها مثل الذى بى من السُّقْم

و رواية الديوان بشرح البرقوقى: (وعفّ، فجازاهنّ عنى على الصرم).

فصيحة، ولكن يعاب قائلها بجهله بمعرفة اصل وضع اللغة. فيعاب ابو نواس في قوله :

اختصم الجودُ والجمالْ فيك ، فصارا الى جدالْ
فقال هذا : يمينه لى ، للعرْف والبذل والنوال
وقال هذاك : وجهه لى ، للظرْف والحسن والكمال
فافترقا فيك عن تراضٍ ، كلاهما صادقُ المقال[٩٥]

لأنه وصف الوجه «بالظَرف» مع انه من صفات النطق[٩٦].

الرابع ـ انه ذكر في جملة اوصاف الفصاحة ان لايكون الكلمة قد عبر بها عن امر آخر يُكره ذكره»[٩٧] ولايخفى ان هذا انما يصح إذا لم توجد قرينة تدل على اختصاص الكلمة بالمعنى المقبول، اما إذا وجدت فلايكون الاشتراك حينئذ مخلاً بالفصاحة . و ذلك كقوله تعالى : «فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذى انزل معه ، أولئك هم المفلحون»[٩٨].

فلفظة التعزير مشتركة بين التعظيم والاكرام والضرب الذى هو دون الحد، وذلك نوع من الهوان ولكن القرينة ههنا خصصتها بالمعنى الحسن[٩٩].

الخامس انه اعتبر كثرة الحروف مطلقا من أسباب قبح الكلمة و

٩٥ـ هذه ابيات يمدح بها عبدالوهاب بن مايسان من اشراف الفرس . و رواية الديوان طبع بيروت :

وقال هذا : و وجهه لى للحسن والظَرْف والكمالْ

٩٦ـ المثل السائر، ١٨٠ـ١٨٤ .

٩٧ـ سرّ الفصاحة، ٩٢ .

٩٨ـ الأعراف، ١٥٧ .

٩٩ـ المثل السائر ١/١٨٥ .

خروجها من دائرة الفصاحة، وليس الأمر هكذا لأننا نرى ان لفظة «سويداواتها» فى قول المتنبى :

إنَّ الكِرامَ بلا كرامٍ منهمُ مثلُ القلوب بلا سُوَيْداواتِها

قبيحة، ولكنّ كلا من لفظتى «فسيكفيكهم الله»[١٠٠] و «ليستخلفنهم فى الأرض»[١٠١] حسن مع ان الأولى تسعة أحرف والثانية عشرة أحرف . فلو كانت كثرة الحروف مما يوجب قبحا لقبحت هاتان اللفظتان وليس كذلك.

فالسبب فى قبح كلمة «سويداواتها» ليس الطول وكثرة الحروف فقط، ألا ترى لو اسقط الهاء والألف ـ ها ـ منها لبقيت الكلمة أيضا على قبحها، فهى فى نفسها قبيحة مع ان مفردها حسنة[١٠٢].

السادس ـ ان أمر التصغير ليس شيئا خفيا يحتاج الى التنبيه، إذ يهتدى إليه الناظم والأديب من سياق الكلام وصياغته . وايضا ان بناء التصغير على استعماله فى الأمور اللطيفة أو الحقيرة، «فالوصية به إذاً ملغاة لا حاجة إليها»[١٠٣].

فإذا كان هذا صاحب سر الفصاحة فى تناول اوصاف الفصاحة فما ظنك بالآخرين ؟

١٠٠ـ البقرة، ١٣٧ .

١٠١ـ النور، ٥٥ .

١٠٢ـ المثل السائر ١/١٨٨ .

١٠٣ـ المثل السائر ١/١٥٥ .

الفصاحة بين اللفظ والمعنى

سبق ان الفصاحة يتجاذبها اللفظ والمعنى و وعدنا ان نرجع الى هذه المسئلة وندرسها بشيء من التفصيل[١٠٤]، فنقول وبالله التوفيق :

اعلم انه لاخفاء ولاخلاف فى ان الفصاحة دليل تفاضل الكلام، وعلامة تفوق البيان، و رمز من رموز اعجاز القرآن . ولما لم يكن مكان هذه الصفات فى الكلام معلوما على سبيل التعين، كان مورد الفصاحة منه ايضا كذلك، فلهذا اختلف العلماء فى رجوع الفصاحة الى اللفظ اوالمعنى او اليهما .

فهذا ابوهلال العسكرى يرى ان الفصاحة مقصورة على اللفظ ، لأنها عبارة عن تمام آلة البيان، وآلة البيان وادواته ليست شيئا غير الألفاظ . ثم يعدّ من تمام آلة البيان كون الكلام سهل اللفظ، جيّد السبك غير مستكره ولامتكلف[١٠٥].

وقد حذا حذوه الخفاجى و رأى ان الفصاحة مقصورة على اللفظ و تدور عليه، وقال : والفرق بين الفصاحة والبلاغة ان الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لاتكون الا وصفا للالفاظ مع المعانى[١٠٦].

ثم جاء ابن الأثير وعنى من الفصاحة حسن الالفاظ وكونها ظاهرة بينة

١٠٤ـ انظر هذا الكتاب، ٧ و١٧ .

١٠٥ـ الصناعتين، ٦ـ٧ .

١٠٦ـ سر الفصاحة، ٦٠ .

وكثيرة الدوران، وخصص اللفظ بصفة الفصاحة وجعل المعنى تبعا له[١٠٧].
فيستدل على صحة رأيه بان لفظة «المزْنة» و «الدّيمَة» حسنة يستلذها السمع، ولفظة «البُعاق» قبيحة تكرهها السمع، فلو كانت الفصاحة فى هذه الألفاظ لأمر يرجع الى المعنى لما كانت مختلفة فى الحسن والقبح لأنها سواء فى الدلالة على ذلك المعنى.

ولما ورد عليه ان من آيات القرآن مالايفهم معناه الا باستنباط و تفسير وتلك الآيات فصيحة لامحالة، فكيف التوفيق بينها و بين الفصاحة بمعنى الظاهر البين ؟ أجاب بقوله :

قلت : «لأن الآيات التى تستنبط وتحتاج الى تفسير ليس شىء منها الا ومفردات الفاظه كلها ظاهرة واضحة، وانما التفسير يقع فى غموض المعنى من جهة التركيب لا من جهة الفاظه المفردة، لأن معنى المفردة يتداخل بالتركيب ويصير له هيئة تخصه، وهذا ليس قدحا فى فصاحة تلك الالفاظ، لأنها اذا اعتبرت لفظة لفظة وجدت كلها فصيحة اى ظاهرة واضحة»[١٠٨].

فهؤلاء هم الذين تجاذب اللفظ عندهم الفصاحة، فأثقلوا كفته واحتفلوا به اكثر من المعنى.

وقسم السكاكى الفصاحة الى قسمين، قسم يرجع الى اللفظ وقسم الى المعنى[١٠٩]. فالفصاحة عنده يتجاذبها اللفظ كما يتجاذبها المعنى، وليست مقصورة على أحدهما.

واما الشيخ عبدالقاهر فهو يرى ان الفصاحة راجعة الى المعنى لا اللفظ

١٠٧- المثل السائر، ١/٦٥-٦٧.
١٠٨- المثل السائر ١/٦٧.
١٠٩- مفتاح العلوم، ١٩٦-١٩٧.

وحده، وان اللفظ فيها تبع للمعنى، لأن الالفاظ لاتتفاضل من حيث هي الفاظ مجرّدة ولا من حيث هى كلم مفردة، والتفاضل فى الألفاظ المفردة من حيث هى الفاظ لايتجاوز من ان تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية، او ان تكون حروف هذه اخف، وامتزاجها احسن، ومما يكد اللسان ابعد. وهذا شيء تافه وضئيل عند تفضيل كلام على آخر ولدى وصف بيان بالفصاحة والبراعة[١١٠].

وهذا الخلاف فى أمر الفصاحة يرجع الى خلاف آخر معروف او يلتحق به، وهو معركة نظرية اللفظ والمعنى التى يشبو نارها علماء الأدب وارباب النقد. فمنهم من قام بتفضيل اللفظ على المعنى وجعله غايته و كدّه وقال: اللفظ اغلى من المعنى ثمنا، وأعظم قيمة واعز مطلبا. فان المعانى موجودة فى طباع الناس يستوى الجاهل فيها والحاذق»[١١١].

والمعتبر عندهم فى تفاضل الكلام، العمل على جودة الالفاظ، وحسن السبك وصحة التأليف . . فهؤلاء يجعلون فى مقدمتهم الجاحظ ويحتجون بقوله المشهور: «والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى والمدنى، وانما الشأن فى اقامة الوزن وتخير اللفظ و سهولة المخرج وكثرة الماء، وفى صحة الطبع وجودة السبك، فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير»[١١٢].

ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ ولايبالى حيث وقع من هجنة اللفظ وقبحه وخشونته[١١٣]، ولايحتفل بامر اللفظ إلاّ قليلا، ولايعطيه

١١٠– دلائل الاعجاز، ٣٨.

١١١– العمدة، ١/١٢٤، ١٢٧.

١١٢– الحيوان ٣/٤١، مطبعة الحميدية، مصر ١٣٢٣.

١١٣– العمدة ١/١٢٦.

من المزية إلاّ ما فضل عن المعنى، ويقول : ما فى اللفظ لولا المعنى ؟ وهل الكلام إلاّ بمعناه .

فالمعتبر عند انصار هذه النظرية اصابة المعنى والعمل على تضمين الكلام حكمة او ادبا اوتشبيها غريبا ومعنى نادرا[١١٤]. والباحثون يضعون الشيخ عبدالقاهر فى مقدمة انصار المعنى اويعدونه من زمرتهم، ويجعلون جملا من كلامه على ذكر منهم . كقوله : «ان الفصاحة والبلاغة وسائر ما يجرى فى طريقهما اوصاف راجعة الى المعانى والى ما يُدل عليه بالألفاظ، دون الألفاظ انفسها»[١١٥] و «ان الالفاظ لاتتفاضل من حيث هى الفاظ . . . الخ»[١١٦] «وليت شعرى، هل كانت الالفاظ الاّ من اجل المعانى ؟ وهل هى الاّ خدم لها، ومصرفة على حكمها ؟»[١١٧] ويستدلون بها على أن الشيخ هو زعيمهم او داخل فى حزبهم .

ثم هذا الصراع لم يقف لدى بعض الباحثين عند هذا الحدّ والاكتفاء بزعامة الجاحظ والشيخ، بل خطا خطوة اخرى وانتهى الى معركة عنصرى العربية والفارسية، فهذا الدكتور شوقى ضيف يرى ان الاعاجم قدتشيعوا للمعنى، والعربَ قداتجهوا الى اللفظ وعظموا شأنه واضفوا عليه هالات[١١٨].

ومن أمعن النظر فى كلام الشيخ فى دلائل الاعجاز، وتتبع آراءه فى الفصاحة والبلاغة والاعجاز، رأى أنه لم يخالف الجاحظ، كما راه انه لم يوافق انصار اللفظ ولا انصار المعنى .

١١٤ـ راجع دلائل الاعجاز، ١٩٤ .

١١٥ـ المصدر السابق، ٢٠٠ .

١١٦ـ المصدر السابق، ٣٨ .

١١٧ـ المصدر السابق، ٣٢٠ .

١١٨ـ فى النقد الادبى للدكتور شوقى ضيف، ١٦١ بالنقل من مصطلحات بلاغية، ١٤، لاننى لم احصل عليه .

اما انه لايؤيد انصار المعنى فلأنه يشدد النكير على من يقصر مزية الكلام وفضله على المعنى ولايعبأ بأمر اللفظ، فيقول : «واعلم ان الداء الدوىّ والذى اعيى امره فى هذا الباب غلط مَن قدّم الشعر بمعناه، و اقل الاحتفال باللفظ، وجعل لايعطيه من المزية ـ ان هو اعطى ـ إلاّ ما فضل عن المعنى .

يقول : ما فى اللفظ لولا المعنى ؟ وهل الكلام إلاّ بمعناه ؟

فانت تراه لايقدم شعراً حتى يكون قداودع حكمة أو أدبا، واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر»[119]. فالشيخ كما تراه يشكو من هؤلاء الذين يحكمون بتقديم كلام على آخر بملاحظة اشتماله على حكمة أو أدب اونكتة، ولايحتفلون بشأن الألفاظ إلاّ فى القليل النادر، ويعدّ ذلك الحكم داء لايبرأ ومرضا لايشفى .

ثم حفزه الدافع الدينى الى ان يبالغ فى انكار مذهب انصار المعنى : ويقول : «. . . ان الخطأ فيه عظيم، وانه يفضى بصاحبه الى ان ينكر الاعجاز، ويبطل التحدى من حيث لايشعر . و ذلك انه ان كان العمل على ما يذهبون اليه : من ان لايجب فضل ومزية إلاّ من جانب المعنى، وحتى يكون قد قال حكمة أو أدبا واستخرج معنى غريباً اوشبيهاً نادراً . فقد وجب اطراح جميع ما قاله الناس فى الفصاحة والبلاغة، وفى شأن النظم والتأليف، وبطل ان يجب بالنظم فضل وان تدخله المزية وان تتفاوت فيه المنازل .

وإذا بطل ذلك فقد بطل ان يكون فى الكلام معجز وصار الأمر الى ما يقوله اليهود، ومن قال بمثل مقالهم فى هذا الباب، و دخل فى مثل تلك الجهالات . ونعوذ بالله من العمى بعد الإبصار»[120].

١١٩ـ دلائل الاعجاز ١٩٤ .
١٢٠ـ المرجع السابق، ١٩٨ .

فإذا رأى الشيخ ان هذا المذهب ينتهي إلى إبطال التحدي ونفي الاعجاز في الكلام حيث لا يشعر، وان غاية الأمر فيه تلتقي مع ما يقوله اليهود، فلم يبق شك انه لا يوافق انصار هذا المذهب ولا يؤيدهم .

اما عدم تأييده انصار اللفظ فلأنه يعتقد ان المزية المطلوبة عند تفاضل كلام على آخر ما كان مبنيا على الفكر والتأمل، حتى انه لا يكفى للكلام أو النظم في اكتساب المزية ان يجرى على الصواب ويسلم من العيب إذا لم يصحبهما فكر و رؤية[١٢١]. ولما كانت الألفاظ من حيث هي الفاظ لا تكون مناط الفكر والتعمق إلا ان يراد تأليف النغم والجمال الظاهرى لها، وهما ظاهرتان لا تستحقان حظاً وفيراً من الفصاحة والبلاغة والاعجاز، ظهر ان الفضيلة والمزية للكلام لا ترجعان إليهما، وان الفصاحة والبلاغة لا تنشدان عندهما .

قال الشيخ : «ان هذا النظم الذى يتواصفه البلغاء، وتتفاضل مراتب البلاغة من اجله، صنعة يستعان عليها بالفكرة لامحالة . وإذا كانت مما يستعان عليه بالفكرة ويستخرج بالروية فينبغى ان ينظر في الفكر بماذا يلبس، أبالمعانى ام بالألفاظ ؟

فأى شيء وجدته الذى تلبس به فكرك من بين المعاني والألفاظ ، فهو الذى تحدث فيه صنعتك، وتقع فيه صياغتك ونظمك وتصويرك»[١٢٢].

وقال أيضا : «ثم انا نعلم ان المزية المطلوبة في هذا الباب مزية فيما طريقه الفكر والنظر من غير شبهة، ومحال ان يكون اللفظ له صفة تستنبط بالفكر ويستعان عليها بالروية، اللهم إلا ان تريد تأليف النغم . وليس ذلك مما نحن فيه بسبيل»[١٢٣].

١٢١ـ المرجع السابق، ٧٧ .
١٢٢ـ دلائل الاعجاز، ٤٢ .
١٢٣ـ المرجع السابق، ٣٠٢ .

ولقد صرح بأن الألفاظ لاتتفاضل من حيث هى الفاظ مجردة، ولامن حيث هى كلم مفردة، وانما يثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملائمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها او ما أشبه ذلك مما لاتعلق له بصريح اللفظ[١٢٤].

فإذا لم تكن الألفاظ عند الشيخ مما يلبس به فكر و روية، ولم تقع موقعا تتعلق بها فضيلة رئيسية، ظهر انه لايوافق انصارها ولايؤيدهم.

اما انه لم يخالف الجاحظ، فلأنه حينما يشدّد الانكار على الذين يحتفلون بأمر المعنى فقط، يستند من كلام الجاحظ ويستدل به فيقول: «وإذا نظرت فى كتب الجاحظ وجدته يبلغ فى ذلك (الانكار على انصار المعنى) كل مبلغ ويتشدّد غاية التشدد. وقد انتهى فى ذلك الى ان جعل العلم بالمعانى مشتركا وسوى فيه بين الخاصة والعامة، فقال: ... والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى، والقروى والبدوى، وانما الشأن فى اقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وصحة الطبع، و كثرة الماء، وجودة السبك. وانما الشعر صياغة وضرب من التصوير»[١٢٥].

فالشيخ كما رأيت ينكر على كلا الفريقين، ويذكر كلام الجاحظ تأييدا له، كانه يرى ايضا ان المعانى مطروحة فى الطريق وان الكلام صياغة وضرب من التصوير.

فهو يرى ان الفصاحة والبلاغة والبراعة فى الكلام شيء يرجع الى النظم والتأليف والصياغة، ويعنى منها تنظيم الفكر وتنسيق المعنى فى النفس وملاحظة الكيفيات والخصوصيات التى تتجلى فيما نسميه بالمعانى الأول، وهى ما يفهم من ظاهر اللفظ وتصل إليه بغير واسطة.

١٢٤ـ دلائل الاعجاز، ٣٨.

١٢٥ـ المرجع السابق، ١٩٧ـ١٩٨.

فإذا تم لك النظم والتأليف فى المعانى اتبعتها الألفاظ، وقفوتَ بها آثارها، وانك اذا فرغت من ترتيب المعانى فى نفسك لم تحتج الى ان تستأنف فكرا فى ترتيب الالفاظ، لأنها خدم للمعانى وتابعة لها، وان العلم بمواقع المعانى فى النفس علم بمواقع الالفاظ الدالة عليه فى النطق[١٢٦].

فترتيب الفكر كما يقتضيه العقل، وترسيم المعانى واضحة جلية، و تلاقيها مقبولة ومطبوعة هى ما يتواصفه البلغاء، وتتفاضل مراتب البلاغة من اجله، ويعود مزية الكلام وفضيلته اليه . فهذه المعانى ليست مما يُطرح فى الطريق ويعرفه العجمى والعربى، والقروى والبدوى .

ولقد أحسن «بندتو كروتشيه»* من علماء الجمال الايطاليين حين قال: فليس صحيحا ما نسمعه ممن يزعمون ان لديهم افكارا كثيرة هامة ولكنهم لا يصلون الى التعبير عنها، ففى الحقيقة لو كانت لديهم هذه الافكار لصاغوها فى كلمات جميلة عذبة فى المسامع، فدلوا بذلك عليها . فاذا بدت الافكار مستعصية هزيلة حين يريدون التعبير عنها، فذلك لأنها واهنة هزيلة فى وضوحها فى أذهانهم .

وليست الأشياء والصور من الوضوح فى ذهن العامة مثل ما هى من الوضوح فى ذهن الفنان . وليس من الحق ان يقال : ان كلّ الناس يستطيعون ان يتخيّلوا الصور التى رسمها «رفائيل» اوالمعانى التى تحدث عنها «دانته» . فان الفنان يرسم بذهنه كما يصوّر الشاعر بفكره، و ادراكهما عميق شامل لا يتاح لكثير من الناس[١٢٧].

فالشيخ يعتقد ان المراد بقولهم : الالفاظ زينة للمعانى وحلية عليها، اوالمعانى كالجوارى والألفاظ كالمعارضَ لها وكالوشى المحبّر، ليس هو

١٢٦ـ دلائل الاعجاز، ٤٤ .

١٢٧ـ النقد الأدبى الحديث، ٢٨٨ .

* Bendettocroce

اللفظ المنطوق ولكن معنى اللفظ الذى دلت به على المعنى الثانى . فمثلا فى «جبان الكلب» و «مهزول الفصيل» ان المعانى الاول المفهومة من انفس الألفاظ هى الوشى والمعارض وان المعانى الثانية التى تكنى عنها بالمعانى الأول هى التى كست تلك المعارض وتحلت بها[١٢٨].

لكن الشيخ يسمى المعانى الاول ب «المعنى» والمعانى الثوانى ب «معنى المعنى» فيقصد من «المعنى» المفهوم من ظاهر اللفظ وما يوصل إليه بغير واسطة، ومن «معنى المعنى» ما يفهم من معنى اللفظ ويحصل عليه بسببه[١٢٩].

فمثلا ان «المعنى» فى قوله تعالى : «وكانا يأكلان الطعام»[١٣٠] ما يفهم من منطوق الآية، وهو ان المسيح عليه السلام وامّه يتناولان الطعام. و «معنى المعنى» ما يتوصل اليه من مفهوم منطوق الآية، اعنى مايتبع الاغتذاء بالطعام . «فمعنى المعنى» هو الغرض الذى يؤدى بعينه بصور مختلفة، وامّا «المعنى» فهو الصورة التى تجعل معرضا وحلية لمعنى المعنى ويخرج فيها . و «المعنى» لايؤدى بعينه فى عبارات متفاوتة على الوجه الذى يكون عليه فى التعبير الأول، حتى تعقل ما عقلته هناك، و حتى يكون الحال فى النفس حال الصور المتشابهة فى العين كالأساور والأشناف، وهذا فى غاية الإحالة[١٣١].

ويرى الشيخ ان منشأ أوهام الناس فى حديث اللفظ وظنّهم ان له من حيث هو لفظ حسنا ومزية ونبلا وشرفا، هو انهم رأوا النقاد والعلماء يفردون اللفظ عن المعنى ويجعلون له حسنا على حدة، و رأوهم قد قسموا

١٢٨ــ دلائل الاعجاز، ٢٠٤ .

١٢٩ــ دلائل الاعجاز، ٢٠٣ .

١٣٠ــ مائدة، ٧٥ .

١٣١ــ دلائل، ٢٠١ــ٢٠٢ .

الشعر فقالوا : ان منه ما حسن لفظه ومعناه، ومنه ما حسن لفظه دون معناه . فلم يفصلوا بين المعنى الذى هو الغرض وبين الصورة التى يُخرج فيها، فنسبوا ما كان من الحسن والمزية فى صورة المعنى الى اللفظ[١٣٢].

وأحيانا ينسب بعض المحاسن والكيفيّات المخصوصة التى توجب تغيير النظم كالتقديم والتأخير والتأكيد وغيرها الى اللفظ مع انها راجعة الى المعنى، و ذلك لأنها خصائص و زيادات ليست من اصل المعنى فلم يطلقوا اسم المعانى عليها تمييزاً لاصل المعنى مما هو زائد عليه. «فتوصلوا الى الدلالة عليها بأن وصفوا اللفظ فى ذلك بأوصاف يعلم أنها لاتكون أوصافا له من حيث لفظ . كنحو وصفهم له بأنه لفظ شريف، وانه قد زان المعنى، وأن له ديباجة وان عليه طلاوة، وان المعنى منه فى مثل الوشى، وانه عليه كالحلى، الى اشباه ذلك مما يعلم ضرورة انه لايعنى بمثله الصوت والحرف»[١٣٣].

فاذا عرفت ذلك فأعلم :

١ــ انه حيثما يدل كلام الشيخ على ان الفصاحة والبلاغة والبراعة و ما شاكل ذلك، من صفات الألفاظ أو المعانى فهو يريد بهما المعانى الأول و ما ترتبه النفس ويجعل له الذهن رسما وتنسيقا، ثم يتبعه اللفظ فى ذلك الترتيب . وحيث ينفى ان تكون من صفاتهما، او ينكر على الذين يحتفلون بامر المعنى ويلتقى مع الجاحظ فى ان المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العربى والعجمى، والقروى والبدوى، يريد بالالفاظ الالفاظ المنطوقة و بالمعانى الاغراض والمعانى الثوانى[١٣٤].

١٣٢ــ دلائل الاعجاز، ٢٠١ــ٢٠٢ .
١٣٣ــ المصدر نفسه، ٢٠٥ .
١٣٤ــ راجع المطول، ٢٨ .

٢ـ ليس كلام الشيخ فى الألفاظ المفردة ومعانيها ولكن فى النظم والتأليف، لأنهما محور الفضيلة والمزية فى الكلام ومرجع الاعجاز لا الألفاظ ومعانيها . والا ّ يلزم ان يحدث فى مذاقة حروف اللغة وأصدائها ، وفى معنى «الحمد» و «الرب ّ» و «العالمين» و «الملك» مثلا اوصاف و مزايا لم تكن موجودة قبل نزول القرآن و ذلك محال[١٣٥].

٣ـ ان الشيخ لا يأبى ان تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل النطق داخلا فى الفصاحة وان تكون لها اثر فى الاعجاز، ولكنه ينكر ان تكون عمدة واصلا فى تفاضل الكلام وامر الاعجاز[١٣٦].

لعل «تشارلتن» * قد الهم من كلام الشيخ فى هذا المقام حيث يقول: «نعم ان لبعض الألفاظ فى السامع نغما اشجى من بعضها الاخر، وبعض الألفاظ أسلس ُ فى يد الشاعر من بعضها، واكثر اتساقا وانسياقا فى الكلام الموزون . لكن هذه العوامل كلها متصلة بجمال الألفاظ الظاهرى الخارجى وهو جمالٌ تافه ضئيل إذا قيس بالجمال الباطنى الحقيقى، جمال المعنى والشعور الذى توحى به اللفظة عند كاتبها وسامعها .

جمال اللفظ ان يؤدى ما أريد له ان يؤديه أداء كاملا مليئاً بالقوة والحياة»[١٣٧].

معنى البلاغة

البلاغة لغة :

قد عرفت فيما سبق معنى «الفصاحة» لغة واصطلاحاً، واما البلاغة

١٣٥ـ دلائل الاعجاز، ٢٩٥ـ٢٩٦، ٢٠٢، ٣٢٤، ٣٠١، ٢٩٥ .
١٣٦ـ المصدر نفسه، ٤٧، ٤٠١ .
١٣٧ـ فنون الأدب، ١٧ .
* H. B. Charltin

فان اصلها فى وضع اللغة الوصول والانتهاء. جاء فى اللسان : بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا : وصل وانتهى . . . وبلغت المكان بلوغا : وصلت إليـه ، و كذلك إذا شارفت عليه . ومنه قوله تعالى : فإذا بلغن أجلهن : أى قاربنه.

البلاغة اصطلاحاً :

لقد ورد من أمراء البيان وفرسان مضمار الأدب، ومن الأقوام والشعوب المختلفة، أقوال كثيرة وعبارات متعددة فى تحديد البلاغة وبيان المراد بها.

قال على (عليه السلام) : البلاغة الإفصاح عن حكمة مستغلقة وإبانـة علم مشكل .

وقال الحسن بن على – رضى الله عنهما – البلاغة ايضاح الملتبسات، و كشف عورات الجهالات بأحسن ما يمكن من العبارات .

قيل للخليل بن أحمد : ما البلاغة ؟ فقال : ما قرب طرفاه، وبعد منتهاه. وقيل لبعض البلغاء :من البليغ ؟ قال: الذى إذا قال أسرع، وإذا أسرع أبدع وإذا أبدع حرّك كلّ نفس بما أودع[١٣٨].

سئل ابن المقفع : ما البلاغة ؟ قال : البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة . فمنها ما يكون فى السكوت، ومنها ما يكون فى الاستماع، ومنها ما يكون فى الإشارة، ومنها ما يكون فى الاحتجاج ومنها ما يكـون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل .

فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحى فيها والاشارة الى المعنى[١٣٩].

١٣٨– نهاية الأدب، ٦/٧–٨، راجع الصناعتين، ٤٩–٥٠ .

١٣٩– البيان والتبيين ١/١١٥–١١٦، وفى الصناعتين، ص١٤ والاشارة الى المعنى ابلغ، والايجاز هو البلاغة .

قال العتابى : كل من أفهمك حاجته من غير اعـادة ولاحبْسة ولا استعانة فهو بليغ[١٤٠].

وسأل المأمون الحسن بن سهل عن البلاغة فقال : ما فهمته العامـة و رضيته الخاصة .

وقال بعض الحكماء : البلاغة قول يسير، يشتمل على معنى خطير[١٤١].

وسئل حكيم عن البليغ، فقال: من إذا أخذ شبراً كفاه وإن أخذ طوماراً أملاه . وقيل فى تفسير البلاغة : الايجاز من غير عجز، والاطناب من غير خطل[١٤٢].

و ذكر الجاحظ انه قال بعضهم ـ وهو من أحسن ما اجتبيناه و دوناه ـ: لايكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه ، فلايكون لفظه الى سمعك أسبق من معناه الى قلبك[١٤٣].

فسّر الشيخ فى دلائل الاعجاز هذا القول بانه ليس المراد مـن اللفظ اللفظ المنطوق به لأن القارىء أو السامع إما عالم بوضع اللفظ للمعنـى أو جاهل، فإذا كان عالما بمعانى الألفاظ لايكون هناك تفاوت فى فهم المعنى كما إذا كان جاهلاً بها لايحصل أى نوع من العلم على السواء . بل المراد به هو المعنى الأول الذى يجعل دليلا على المعنى الثانى، فمن شرط البلاغة أن يكون ذلك المعنى متمكنا فى دلالته و واضحا فيهـا ولايحتاج الـى كلفة و تأوّل[١٤٤].

١٤٠ـ المصدر نفسه ١/١١٣ .

١٤١ـ الصناعتين، ٣٧ .

١٤٢ـ محاضرات الأدباء ١/٥٨ .

١٤٣ـ البيان والتبيين ١/١١٥ .

١٤٤ـ دلائل الاعجاز، ٢٠٦ـ٢٠٧ .

وقال ابوحيان : سألت أبا سليمان عن البلاغة : ما هى ؟ ... فقال : هى الصدق فى المعانى مع ائتلاف الأسماء والافعال والحروف، وإصابة اللغة وتحرى الملاحة المشاكلة برفض الإستكراه ومجانبة التعسف[١٤٥].

قيل للفارسى : ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل والوصل .

وقيل لليونانى : ما البلاغة ؟ فقال : تصحيح الاقسام، واختيار الكلام.

وقيل للرومى : ما البلاغة ؟ فقال : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الاطالة .

وقيل للهندى : ما البلاغة : فقال : وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة[١٤٦].

وقال بزرجمهر ان فضائل الكلام خمس ان نقصت منها فضيلة واحدة سقط فضل سائرها، وهى: ان يكون الكلام صدقا، وان يوقع موقع الانتفاع به، وان يتكلم به فى حينه، وان يحسن تأليفه، وان يستعمل منه مقدار الحاجة[١٤٧].

وقال العربى : البلاغة التقرب من المعنى البعيد والتباعد من حشو الكلام، وقرب المأخذ، وايجاز فى صواب، وقصد الى الحجة، وحسن الاستعارة[١٤٨].

فهذه الأقوال وان كان بعضها اشمل من بعض، لكن اكثرها يرتكز على ناحية من النواحى التى تعنى بها البلاغة . اما على ناحية الافصاح والابانة، أو ناحية الابداع والتأثير، أو ناحية طول الكلام وقصره، أو ناحية

١٤٥ـ المقابسات، ٢٩٣ .

١٤٦ـ الموازنة ١/٤٠٤ .

١٤٧ـ البيان والتبيين ١/٨٨ .

١٤٨ـ الصناعتين، ٤٧ .

الاتصال والانفصال، أو ناحية تصحيح الاقسام ...، أوغيرها . ولا يخفى ما فى بعض هذه الاقوال من ملامح الشخصيّة الفردية أو القومية، فمثلا نرى اليونانى الذى ترعرع فى أحضان المنطق والفلسفة، يفسر البلاغة بتصحيح الاقسام واختيار الكلام .

فاذا تركنا امراء البيان وفرسان الأدب نرى علماء الفن فسروها بما يلى:

قال الآمدى (٣٧٠ هـ) : البلاغة انما هى اصابة المعنى وادراك الغرض بألفاظ سهلة عذبة، سليمة من التكلف، لا تبلغ الهذَر الزائد على قدر الحاجة، ولا تنقص نقصانا يقف دون الغاية ...

فإن اتفق مع هذا ـ معنى لطيف، أو حكمة غريبة، أو أدب حسن فذاك زائد فى بهاء الكلام، وان لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه واستغنى عما سواه[١٤٩].

وقال أبو هلال العسكرى (٣٩٥ هـ) : البلاغة كلّ ما تبلّغ به المعنى قلب السامع فتمكنه فى نفسه كتمكنه فى نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن[١٥٠].

فكأن «لاسِل آبركُرمْبى» ✽ حينما يشترط على الأديب فى ايصال تجاربه، ان يبعث فى نفس القارىء صورة ماثلة لما فى نفسه، وان يحرّك بواسطة الألفاظ خيال قرائه ويسيطر عليه بحيث تصبح تجاربهم بقدر الامكان تقليدا صحيحا لتجاربه[١٥١]، يريد ان يقول ان الأدب لا ينفك عن البلاغة بالمعنى الذى يعنيه العسكرى منها .

وأمّا البلاغة عند الشيخ عبد القاهر (٤٧٤ هـ) فهى ترادف الفصاحة و

١٤٩ـ الموازنة ١/ ٤٠٠ـ٤٠١ .

١٥٠ـ الصناعتين ١٠ .

١٥١ـ قواعد النقد الادبى، ٣٤ .

✽ Lascelles Abercrombte

يعنى منها ما يعنى من الفصاحة . قال فى ردّ من ادعى انه لامعنى للفصاحة سوى التلاؤم اللفظى، وتعديل مزاج الحروف حتى لا يتلاقى فى النطق حروف تثقل على اللسان : «إنا ان قصرنا صفة الفصاحة على كون اللفظ كذلك، و جعلناه المراد بها لزمنا ان نخرج الفصاحة من حيّز البلاغة ومن ان تكون نظيرة لها»[١٥٢].

فهو لا يذكر للفصاحة والبلاغة تعريفاً فنياً ولكن يستنبط من كلامه ما هو المراد بهما .

لقد انتقى الدكتور احمد بدوى والدكتور احمد مطلوب قول الشيخ فى الفصاحة والبلاغة : «مما يعبر به عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا، واخبروا السامعين عن الاغراض والمقاصد، وراموا ان يعلموهم ما فى نفوسهم، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم»[١٥٣] ونقلاه[١٥٤] حجة على تحديد الفصاحة والبلاغة عنده . ولا يخفى ان كلّ ما يدل عليه هذه العبارة هو ان الفضيلة والمزية فى الكلام ترجعان الى الفصاحة والبلاغة وأما ما هو كنههما فلا يعلم من هذا القول .

ولكن وجدت فى دلائل الاعجاز كلاما اوضح وأبين فى تحديد الفصاحة والبلاغة مما نقله هذان الأستاذان، و ذلك قوله : «وإذا عادت المعارضة الى جهة المعنى، وكان الكلام يعارض من حيث هو فصيح وبليغ ومتخير اللفظ، حصل من ذلك أن الفصاحة والبلاغة وتخير اللفظ عبارة عن خصائص و وجوه تكون معانى الكلام عليها، وعن زيادات تحدث فى

١٥٢ـ دلائل الاعجاز، ٤٧ .

١٥٣ـ المصدر نفسه، ٣٥ .

١٥٤ـ علم البيان، ٩ . مصطلحات بلاغية، ٤٦ .

أصول المعانى . كالذى أريتك فيما بين «زيد كالأسد» و «كأن زيداً الأسد» وان لا نصيب للألفاظ من حيث هى الفاظ فيها بوجه من الوجوه»[١٥٥].

فالبلاغة عند الشيخ العناية بتلك الخصائص والوجوه والزيادات و توفيتها حقها، وهى التى ترجع اليها مزية الكلام وتأثيره فى المعنى . ففى الحقيقة ليست البلاغة عنده غير مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

وأحياناً يشير الشيخ الى ما ذكره غيره فى حدود البلاغة : من وضوح الدلالة، وصواب الاشارة، وتصحيح الاقسام، وحسن الترتيب والنظام، والابداع فى طريقة التشبيه والتمثيل، والاجمال ثم التفصيل و وضع الفصل، والوصل موضعهما، وتوفية الحذف والتأكيد والتقديم والتأخير شروطهما[١٥٦].

وقال السكاكى (٦٢٦هـ) : «البلاغة هى بلوغ المتكلم فى تأدية المعانى حدا له اختصاص بتوفية خواص التركيب حقها، وإيراد انواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها»[١٥٧].

و ذكر ابن الأثير (٦٣٧ هـ) أشياء ثلثة واعتبرها الاصل المعتمد عليه فى تأليف الكلام من النظم والنثر . وهى :

١ــ اختيار الألفاظ المفردة كما تتخير اللآلىء المتفرقة قبل النظم .

٢ــ نظم كل كلمة مع اختها المشاكلة لها كما يقترن كل لؤلؤة فى العقد باختها المشاكلة لها، لئلا يجىء الكلام قلِقاً نافراً عن مواضعه .

٣ــ وضع الكلام فى موضع يستحقه، كما يوضع العقد المنظوم على الرأس إذا كان اكليلا، وفى العنق إذا كان قلادة .

ثم قال : «فالأول والثانى من هذه الثلاثة المذكورة هما المراد

١٥٥ــ دلائل الاعجاز، ٢٠٠ .

١٥٦ــ المصدر نفسه، ٤٧ .

١٥٧ــ مفتاح العلوم، ١٩٦ .

بالفصاحة، والثلاثة بجملتها هى المراد بالبلاغة»[١٥٨]. فالبلاغة عند ابن اثير شاملة للالفاظ والمعانى وجامعة لاوصافهما.

وقال النويرى (٧٣٢ هـ) : «فاما البلاغة فهى ان يبلغ الرّجل بعبارته كنه ما فى نفسه. ولا يسمى البليغ بليغا إلاّ إذا جمع المعنى الكثير فى اللفظ القليل، وهو المسمى إيجازا»[١٥٩].

فالمفهوم من صدر هذا الكلام هو أن البلاغة تعبير الأديب عن كنه ما فى نفسه، أعم من أن يكون موجزاً أم لا. ولكن عَجزه يدل على شىء آخر، وهو أن البلاغة عبارة عن جمع المعنى الكثير فى اللفظ القليل الذى يسمى فى الاصطلاح الإيجاز. والبلاغة على التفسير الأول شىء فى متناول الأديب نفسه، لأنه وحده يمكنه ان يدعى انه استطاع التعبير عن كنه ما فى نفسه لاغيره، إذ لا يعلم كنه ما فى نفس الأديب إلاّ شخصه.

ولما استقرت البلاغة كواحد من العلوم على يد السكاكى، واتضحت معالمها جاء القزوينى (٧٣٩ هـ) وقسم البلاغة إلى قسمين: بلاغة الكلام و بلاغة المتكلم.

وقال عن الأول: «وبلاغة الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته» وعن الثانى: «وفى المتكلم ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ»[١٦٠]. و يعنى من الحال الأمر الذى يتطلب من المتكلم ان يأتى بكلامه على كيفية مخصوصة، ومن المقتضى تلك الكيفيّة. فمثلا ان الانكار حال تقتضى تأييد الحكم وتأكيده، والتأكيد هو مقتضاها. فلا أظن أنّ الأستاذ امين-

---

١٥٨- المثل السائر، ١٤٢/١.

١٥٩- نهاية الارب، ٤/٧.

١٦٠- الايضاح مع شروح التلخيص ١٢٢/١، ١٤٢.

الخولى اصاب الحق حيث فسّر المقتضى والاعتبار المناسب بانكار السامع وموافقته مثلا[١٦١].

ولما كانت بلاغة الكلام عبارة عن مطابقته لمقتضى الحال، فالمتكلم مع المخاطب كالطبيب مع المريض، فيجب عليه ان يراعى حاله ويفرض له ما يناسب طبعه، ويتكلم معه على قدر يلائم عقله، لأن لكل مقال مقاماً، ولكل كلام موضعاً.

فمن وضع الألفاظ موضعها ان لا يعبر فى مقام المدح بالألفاظ المستعملة للذم، ولا فى مقام الذم بالالفاظ المعروفة للمدح، ولا فى مقام الجدّ بما هو يناسب الهزل. وان لا يستعمل فى الشعر والنثر الأدبى الفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم، والألفاظ التى تختص بها أهل المهن والعلوم[١٦٢].

قيل لبشّار: بينما تقول شعراً تثير به النَقْع وتخلع به القلوب، مثل قولك:

إذا ما غَضِبنا غضبة مُضَرّية هتكنا حجابَ الشمس او تُمطر الدما
إذا ما أعَرْنا سيّداً من قبيلة ذُرى منبرٍ صلّى علينا وسلّما

تأتى بالشيء الهجين المتفاوت وتقول:

رُبابَة ربّةُ البيتِ تصبّ الخل فى الزّيت
لها عشر دجاجات وديكٌ حسَنُ الصوت

فقال: لكلٍ وجهٌ وموضع، فالقول الأول جدّ، والثانى قلته فى ربابة جاريتى، وأنا لا آكل البيض من السوق، و ربابة هذه لها عشر دجاجات

١٦١– مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية ٤/١٣٨–١٣٩.
١٦٢– سر الفصاحة، ١٨٩، ١٥٩.

و ديك فهى تجمع لى البيض وتحفظه عندها، فهذا القول عندها أحسن من قول امرئ القيس :

قِفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ

عندك[١٦٣].

قال بشر بن المعتمر : «والمعنى ليس يشرف بان يكون من معانى الخاصة، وكذلك ليس يتضع بان يكون من معانى العامة» .

وانما مدار الشرف على الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال»[١٦٤].

فإصابة المعنى و وقوعه فى موضعه من البلاغة، وخلافها قبيح يخلّ بها، ولهذا عيب على ابى نواس قوله فى صفة الأسد :

كأنما عينُه إذا نظَرَتْ بارزةَ الجفن ، عينُ مخنوق

لأنه وصف عين الأسد بالجحوظ وهى توصف بالغؤور . قال الراجز : «كأنما ينظر من خرق حجر» .

وعلى ابى تمام قوله :

رقيقُ حواشى الحلم لو أن حلمه بكفيك ، ما ماريتَ فى انه بُرْدُ

لأنه لا يوصف الحلم بالرّقة بل بالرزانة والرجحان[١٦٥].

إعلم إنك إذا تأملت ما قيل فى تحديد البلاغة وتفسيرها رأيت ان قول ابن المقفع أجمع وأشمل من غيره، حتى ممّا ذكره القزوينى الذى لوحظ فيه ناحية الفن والعلم بوضوح . لأننا إذا وقفنا عند تفسير مطابقة الكلام لمقتضى الحال والمسائل التى انتهت اليها أبحاثهم فى علمى المعانى

١٦٣ـ الأغانى ٣/١٥٦ .

١٦٤ـ البيان والتبيين ١/١٣٦ .

١٦٥ـ الصناعتين ١١٨ـ١١٩ .

والبيان، وجدنا أنهم يعنون من الكلام ما يرادف الجملة التى هى جزء من اجزاء البيان وعنصر من عناصر التعبير . كأن المطابقة تنحصر فيها، والبلاغة تختص بها، فدرسوا الجملة وعناصرها خبرا وانشاء، فصلا و وصلا، تعريفا وتنكيرا، ذكرا وحذفا فى علم المعانى، والتشبيه والمجاز والكناية والتعريض فى علم البيان .

فهذه الدراسة التى لاتتجاوز الجملة والصورة قاصرة فى مجال البلاغة، لانها لاتنحصر فيهما، إذ البيان أو التعبير ليس كله الجملة والصورة . فهناك غيرهما الحرف والكلمة والعبارة والفنون الأدبية شعراً أو نثراً، كالخطابة والرسالة والوصف والجدل وغيرها، والأسلوب. فالمطابقة لمقتضى الحال كما تعتبر فى الجملة تعتبر فيها جميعا، فلا تتم البلاغة والبراعة فى بيان إلاّ إذا لوحظت تلك المطابقة فى جميع عناصره وأجزائه . لقد سبق أن الكلمة تحمل معها اضافة على معناها اللغوى إيحاءات كثيرة، فإذا صدرت من البليغ والعارف بمواضعها واستعملت على هدى من العقل والبراعة وقعت فى موقع لايسد مسدها غيرها، حتى انها تكون أبلغ كلمة وأحسن لفظة بذلك المقام .

قال ابن رشد : «وإنما صارت الألفاظ والاصوات تفعل فى هاتين الصناعتين ـ الخطابة والشعر ـ هذا الفعل من أجل أنها تخيّل فى المعنى رفعة أو خسّة، وبالجملة أمراً زائداً على مفهوم اللفظ، مثل غرابة اللفظ فانّها تخيل غرابة المعنى، وكذلك فخامته تخيّل فخامة المعنى . والنغم كذلك يفيد فيه هذا المعنى»[١٦٦].

فلا أوافق مايقال من ان المطابقة لمقتضى الحال لاتتأتى فى الكلمة ،

١٦٦ـ تلخيص الخطابة ٢٥٣ .

وأن اللفظة الواحدة لا يطلق عليها اسم البلاغة[١٦٧]، الا ترى ان لفظة «ضيزى» فى قوله تعالى: «ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذاً قسمة ضيزى» أبلغ كلمة من حيث مطابقتها لحال المخاطبين الذين يدعون على الله شيئاً نكراً وغريباً.

أمّا البلاغة عند ابن المقفع فهى أبسط آفاقا وأوسع اجواء، لشمولها موارد متعددة من التعبير، واعتبارها فى عناصر كثيرة من البيان، حتى انها تحطم قوالب اللفظ وتلتقى مع قوالب أخرى كالسكوت والاستماع والاشارة، فربما تجد فيها معنىً وغرضا لا تجدها فى الكلام والألفاظ. لما مات الاسكندر وقف عليه بعض اليونانيين فقال: قد طالما وعظنا هذا الشخص بكلامه، وهو اليوم لنا بسكوته أوعظ، وقال ابو العتاهية:

وكانَتْ فى حياتك لى عظاتٌ   و أنت اليومَ أوعظُ حيّا

وأحسن وأبلغ من هذا الكلام كله قوله تعالى[١٦٨]: «وانْ من شىءٍ إلاّ يُسبِح بحمده، ولكن لا تفقهونَ تسبيحَهم»[١٦٩].

فلابن المقفع الفضل فى هذا المجال، وله السبق فى هذا المضمار.

ولبلغاء الغرب فى البلاغة أقوال تشبه ما قال بلغاء العرب فى اجمال المعنى وبعد الاشارة. قال لاهارب[١٧٠]: «البلاغة هى التعبير الصحيح عن عاطفة حق».

١٦٧- المثل السائر، ٧٠.

١٦٨- بنى اسرائيل، ٤٤.

١٦٩- الصناعتين، ١٥.

١٧٠- لاهارب Lahrpe ناقد فرنسى اشتهر بدروسه الادبية التى القاها فى الليسية وجمعها فى مجلدين بعنوان (ليسية) ولد سنة ١٧٢٩ و توفى سنة ١٨٠٣.

وقال سورين[١٧١]: «هى الفكرة الصائبة، ثم الكلمة المناسبة» .

وقال لابروبير[١٧٢]: «هى نعمة روحية تولينا السيطرة على النفوس» .

وتخيلها[١٧٣] سنيك إلهاً مجهولاً فى صدر الإنسان .

ويستخلص مما قيل فى تحديد البلاغة وتفسيرها ان البلاغة ملكة يؤثر بها صاحبها فى عقول الناس وقلوبهم من طريق الكتابة أو الكلام، أو غيرهما كما اشار إليه ابن المقفع .

فالتأثير فى العقول عمل الموهبة المعلّمة المفسرة، والتأثير فى القلوب عمل الموهبة الجاذبة المؤثرة وترجع الى هاتين الموهبتين عملية الإقناع و تحريك النفوس وبعث الهمم وتنشيط الطباع[١٧٤]. وليس كل كاتب أو أديب يملك هاتين الموهبتين، الموهبة نور يقذفه الله فى قلب من يشاء . قال جورج ديهاميل : «وأنا استطيع ان أعدد الكتاب الذين يملكون أن يجعلونى أشعر بالجوع . فلقد يتحدث بعضهم عن كلّ أنواع الطعام والولائم، ولقد يصفون الصيد واللحوم و ...ولكنهم لا يملكون إلاّ فى النادر موهبة تحريك أعصاب معدتى واثارة غددها، وعلى العكس من ذلك ديكنز Dickens فهو مدهش فى هذه المسألة ... لست أدرى ماذا يعمل لكى يسيل لعابى فهو ليس بحاجة الى أىّ احتيال . انه يملك الموهبة»[١٧٥].

١٧١ــ سورين Sourin شاعر درامى ولدومات فى باريس سنة ١٧٨١ .

١٧٢ــ لابروبير Jean de, la Bruyere كاتب اخلاقى فرنسى ولد فى باريس سنة ١٦٤٥ وتوفى بفرساى سنة ١٦٩٦ .

١٧٣ــ سنيك Senekue احد علماء البيان فى رومة و والد سنيك الفيلسوف، ولد فى قرطبة سنة ٦١ قبل الميلاد وتوفى سنة ٣٠ بعده .

١٧٤ــ دفاع عن البلاغة، ٣٣ــ٣٤ .

١٧٥ــ دفاع عن الأدب ١٨٢ .

وهذه الموهبة ترتكز على ركنين قويين لاثالث لهما، الاول : الطبع الموهوب الذى يشمل ملكات النفس الأربع، وهى الذهن الثاقب، والخيال الخصب، العاطفة القوية، والأذن الموسيقية . ويلزم وجود هذه الملكات فى البليغ، ولاحيلة فى ايجادها لغير الخالق .

الثانى : العلم المكتسب وادمان قراءة روائع عباقرة الفن والبيان و مطالعة نتائج قرائحهم واذواقهم، وتقليب آثارهم الرفيعة وآدابهم البليغة . فآلة البلاغة فى الحقيقة الطبع الموهوب والعلم المكتسب[١٧٦]، فلا الطبع يغنى من العلم ولا العلم يغنى من الطبع .

والحاصل ان البلاغة هى التأثير فى العقول والقلوب، وايقاظ الشعور والاحساس، واخراج الطبع من السأم والفتور، والبلوغ الى قرارة النفوس، والاستيلاء على مقاومة هوى السامع و رأيه، ونقله عن حالته وامتلاك قلبه، او ان شئت فقل : البلاغة ما يحمل معه هذه الصفات . روى أن بشارا كان شاهدا حينما انشد ابو العتاهية هذه الأبيات فى مدح المهدى :

أتتْه الخلافةُ منقادةً ... إليه تُجرِّرُ أذيالَها
فلم تكُ تصلحُ إلا له ... ولم يكُ يصلحُ إلا لها
ولو رامها أحدٌ غيره ... لزُلزِلت الأرضُ زلزالَها
ولو لم تطِعه نياتُ القلوب ... لما قبِلَ اللهُ اعمالَها

فلما سمعها ,قال : انظروا الى امير المؤمنين هل طار عن اعواده[١٧٧]؟

فالبلاغة تعنى بالقلوب كما تعنى بالعقول، وتغذى الشعور والإرادة

١٧٦ـ دفاع عن البلاغة ٤٤ .

١٧٧ـ المثل السائر ١/١٧٧ .

كما تغذى الفكر، وتخاطب خالى الذهن كما تخاطب المسبوق بالإصرار أو الميل او العزم، وتتوجّه الى فاتر الطبع غير ناشط لحديث وغير مرتاح الى رأى، كما تتوجه الى من لاينكر كون الأمر حقا ولكن يستثقله، ولايشك فى فضيلته ولكن يسترذ له، ولايتردد فى كونه عدلا ولكن يخيّل إليه انه يعارض نفعه ويصادم هواه . فهى فى كل من هذه المجالات تلبس ثوبا يناسبها، وتتلون بلون يلائمها، وتتأتى على شكل يرافقها . إذ الحالات النفسية التى تعرض للمخاطب أوالسامع مختلفة، والمقاومة فى هواه و رأيه أيضا متفاوتة فأحيانا تكون فاعلة كالمخالفة والإنكار، واعتساف الحكم، وخطل الرأى الثابت باستمرار العادة، وفساد الوهم القائم على قوة القرينة . وحينئذ يلزم ان تتعاون قوى العقل على كسر هذه المقاومة من طريق البرهان .

وقد تكون المقاومة منفعلة كالجهل او الشك او خلو الذهن ، ففى هذه الصورة لايَحتاج المتكلم فى قهرها الى الوسائل البلاغية القوية .

وقد تكون المقاومة ضعيفة او معدومة من جهة العقل، وقوية من جهة النفس، فجهد البلاغة هنا يجب ان يوجّه الى ناحية النفس بالتأثير، لا العقل بالإقناع والاثبات .

وإذا كان السامع او المخاطب سائما غير مرتاح، يجب على صاحب البلاغة ان يوشى الحقيقة بخياله، ويحيى الاسلوب بروحه حتى يدفع عنه السأم ويحرّك فيه النشاط . وفى هذه الحال يظهر فضل البلاغة على الفلسفة.

والأحوال المعروضة أوالمفروضة للمخاطب او السامع ما هى إلا انفعالات العواطف فى النفس، أو اتجاهات الخواطر فى الذهن، وليست

مقتضياتها إلاّ الصور التى يهتدى إليها البليغ بطبعه و ذوقه فيؤثر فى تلك العواطف والخواطر كيفما يشاء[١٧٨].

فالصور التى يهتدى إليها البليغ، وصياغة الكلام على حسب مايقتضيه المقام، وتنسيق الافكار وترتيبها فى قالب يليق بحال المخاطب اوالسامع، شيء يحتاج الى مراعاة أمور عدّة، وملاحظة أسباب مختلفة من مثل حالات النفس، والفنون الأدبية، والجملة، والصورة، وقواعد النحو وغيرها. فالنظم البليغ والكلام البارع، ماكان مبنيًا على مراعاة هذه الامور، ومتكئا على العناية بهذه الاسباب. فليس الكلام البليغ مولود مراعاة النحو فقط، و لافضله ونقصه مقصوران عليه، إذ لكل من تلك الاسباب دخل فى فضل التأليف اوالنظم.

ولكن الشيخ يعتقد ان النظم نتيجة ملاحظة قواعد علم النحو وان المزية راجعة الى رعاية هذه القواعد. فقال: «واعلم ان ليس النظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه و اصوله ... فلست بواجد شيئا يرجع صوابه ان كان صوابا وخطؤه ان كان خطأ الى النظم ... الاّ وهو معنى من معانى النحو قد أصيب به موضعه و وضع فى حقه، أوعومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه، واستعمل فى غير ما ينبغى له»[١٧٩].

نعم إن كثيرا من نواحى النظم كالتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والحذف والتكرار، والإضمار والاظهار، والفصل والوصل، و وجوه الخبر والشرط والجزاء والحال، وتمييز الأدوات بعضها من بعض

١٧٨ــ دفاع عن البلاغة ٣٥ــ٣٧.

١٧٩ــ دلائل الاعجاز، ٦٤ــ٦٥.

يرجع الى النحو، ولكن هناك نواحى أخرى كتوشية الحقائق بالخيال، والنبض بالقوة والحيوة، والملاءمة بين اللفظ والموضوع، وموسيقى الكلمات وتموجات الاصوات . فهذه النواحى لاتتصل بالنحو كما ان الصواب اوالخطأ فيها لايرجع إليه، وإنّما يتولاها الموهبة والطبع والذوق .

ويمكن أن يقال إن عبدالقاهر لايفهم من «النحو» علم الإعراب بل يريد منه العلم بالوصف الموجب للاعراب، ولهذا يتحول «النحو» عنده علما بلاغيًا يستحق الإهتمام والمجد عندطلب المزايا فى النظم . وايضا انه لايريد «ان يبدد كل جمال فى سبيل هذا «النظم» المبنى على مقتضيات علم النحو، كالجمال اللغوى، والجمال المعنوى، والجمال التصويرى المبنى على الاستعارة والتشبيه، انما يريد منك مع اقراره بهذا الجمال الرّاجع الى عدة نواح فى البلاغة، ان تراعى معه النظم وان تجعل الفضل له فى النهاية، لأن مزية النظم تفوق كل المزايا الجمالية»[١٨٠].

موضوع البلاغة :

إذا راجعت كتب القدماء فى البلاغة رأيت ان مباحثهم تدور حول الجملة والصورة الادبية، حتى انهم لما انتهوا إلى ان البلاغة هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال لم يخطوا خطوة الى الامام . فحاموا حول ما حام عليه أسلافهم، و درسوا الجملة وما يعرض لها فى علم المعانى، والصورة و ما يتنوع منها فى علم البيان، كأن موضوع البلاغة ينحصر فيهما، ومباحثها لاتتجاوز عنهما .

١٨٠- بلاغة ارسطو، ٣٦١-٣٦٢ .

ولقد عرفت عند رأى ابن المقفع فى البلاغة ان آفاقها واسعة، وان مسائلها تتناول قوالب مختلفة من التعبير والبيان، وتجرى فى طبيعة الجنس الأدبى كما تجرى فى أجزائها. فموضوع البلاغة لا يختص بالجملة والصورة، لأنهما جزء من أجزاء الجنس الأدبى، الذى لا يكتمل الحكم عليه ـ كما قال ارسطو ـ إلا بالنظر إلى طبيعة الجنس الأدبى والموقف عامة[١٨١]. فإذا ندرس فى عملنا هذا، ثلاثة أشياء:

١ـ الجملة.

٢ـ الصورة.

٣ـ الأسلوب.

ونخص كلا منها بباب يخصه. فلا ندعى هنا اننا نأتى بما هو كامل، لأن الكمال ليس إلا لله وحده، بل نقول: ان ما لا يدرك كله لا يترك كله.

فائدة علم البلاغة:

لهذا العلم فوائد جليلة، منها معرفة دقائق العربية والحصول على أسرارها. ومنها كشف القناع عن وجوه نكت كثيرة فى اعجاز القرآن. و منها تمييز الجيد من الردىء والصواب من الخطأ، من البيان. ومنها تذوق روائع الأدب وتعرّف مدى نجاح الأديب وتوفيقه. ومنها الإهتداء إلى مخاطبة الاشخاص بما يليق بحالهم. ومنها التعبير عن المراد بحيث يبلغ قرارة نفس السامع والمخاطب.

قال الأستاذ أحمد الشائب: «ان علم البلاغة نافع للأديب والناقد

١٨١ـ النقد الأدبى الحديث، ٢٥٢.

والمؤرخ، ولكلّ كاتب أومتكلم أوخطيب أومدرس . فانه ينير السبيل امام هؤلاء جميعا ويعينهم على ان تكون آثارهم اللغوية مفيدة مؤثرة، ممتعة تغذى العقول والشعور والأذواق»[١٨٢].

١٨٢ــ الاسلوب، ١٧ .

الباب الاول فى الجملة

الفصل الأوّل : منزلة الجملة من الدلالة والبيان

إعلم إن الإنسان لا يعلم حاجة أخيه، ولا يهتدى الى ضمير صاحبه، ولا يعرف ما فى قلبه، ولا يدرك حبه وبغضه، علمه وجهله، صدقه وكذبه، قبوله وانكاره، إلا من طريق الامارات والبيان . فالمعانى القائمة فى صدور الناس، والمفاهيم المتصورة فى اذهانهم، والمطالب الموجودة فى نفوسهم، والأفكار المتعلقة بخواطرهم، تبقى مستورة خفية، بعيدة مجهولة، ومحجوبة مكنونة لا تُعرف ولا تُدرك . وانما تكشف القناع عن وجوه تلك المعانى القرائن والدلالات، وانما يحيى تلك المفاهيم ذكرهم لها و اخبارهم عنها[1] .

لم تُعرَف سرائر القلوب، ولم يتم التفاهم بين الناس ولم يتعارفوا، ولم يبلغوا ذروة العلوم والمعارف ولم يتمكّنوا تبادل الافكار والتجارب إلاّ من طريق الدلالة والبيان . فكلما كانت الدلالة أوضح كانت المعانى اظهر، والبلوغ الى قرارة النفوس أيسر .

الدلالة والبيان :

الدلالة هى كون الشيء بحيث يلزم من العلم به العلم بشيء آخر ،

١ــ البيان والتبيين ١/٥ .

والشيء الأول يسمى الدّال أو الدليل، والثاني المدلول.

تنقسم الدلالة عند الجاحظ الى خمسة أقسام:

الأول ـ دلالة اللفظ، وهى ما تعتمد على مقطع من الصوت، و تَستخدم للإبانة عن المفاهيم اللفظَ الذى يمتاز به الإنسان من غيره.

الثاني ـ دلالة الاشارة، فتكون باليد والرأس والعين والحاجب والمنكب، كما تكون بالسيف والثوب إذا تباعد الشخصان.

و رافع السيف والسوط قد يتهدّد بهما، فيكون رفعهما زاجرا و مانعا كما يكون وعيدا وتحذيرا.

ويجد الشخص فى الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، معونة كبيرة فى أمور يسترها على بعض الناس او يُخفيها من جلسائه.

قال الشاعر فى دلالة الإشارة:

اشارَتْ بطرف العين خيفةَ أهلها ... إشارةَ مذعُورٍ ولم تتكلّم
فأيقنتُ انّ الطرف قد قال مرحبا ... واهلا وسهلاً بالحبيب المتيّم

وقال الآخر:

العينُ تبدى الذى فى نفس صاحبها ... من المحبّة او بغضٍ إذا كانا
والعينُ تنطق والأفواهُ صامتةٌ ... حتّى ترى مِنْ ضمير القلب تِبيانا

الثالث ـ دلالة الخط، فكفاك فى فضيلته قوله تعالى: «إقرأ و ربّك الاكرَمُ الذى علّم بالقلم، علّم الإنسانَ ما لم يعلم»[٢]. وقوله عزّ من قائل: «ن، والقلم وما يسطرون»[٣].

ومما يدل على الاهتمام بشأن الخط ما قالوا فى وصف القلم:

١ـ القلم أحد اللسانين.

٢ـ العلق، ٤، ٥، ٦.

٢ـ القلم أبقى اثراً واللسان اكثر هذَرا .

٣ـ اللسان مقصور على القريب الحاضر ، والقلم مطلق في الشاهد والغائب، وهو للغابر الحائن مثله للقائم الرّاهن .

الرابع ـ دلالة العقد، وهو الحساب دون اللفظ والخط . والدليل على فضيلته قوله عزوجّل: «الرّحمن، علّم القرآن، خلق الانسان، علّمه البيان، الشمس والقمر بحسبان»[٤]، وقوله تعالى : «هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلاّ بالحق»[٥] .

والحساب يشتمل على معان كثيرة ومنافع جليلة، ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله عزوجّل معنى الحساب في الآخرة.

الخامس ـ دلالة النِصبة ، والمراد بها الحال الناطقة بغير اللفظ ، والمشيرة بغير اليد . و ذلك ظاهر في خلق السموات والأرض، وفي كل صامت وناطق، وجامد ونام، ومقيم وظاعن، و زائد وناقص . فالدلالة في السموات الجامد كالدلالة في الحيوان الناطق، ولذلك قيل : «سل الأرض فقل : من شق أنهارك وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا» .

وقال خطيب بجانب الاسكندر وهو ميت : «الاسكندر كان امس انطقَ منه اليوم، وهو اليوم اوعظَ منه امس»[٦].

وامّا البيان ـ فهو ما يُدَلّ به على المعنى، ويعبر به عن المراد، و

٣ـ القلم، ١ .

٤ـ الرحمن، ١ـ٥ .

٥ـ يونس، ٦ .

٦ـ البيان والتبيين ١/٧٦ـ٨٤ .

يتوسل إليه فى معرفة الحقائق . فبأىّ شىء يتمكن الانسان على فهم المقاصد وافهامها ، فهو البيان كائنا ماكان نوعه وجنسه . «لأن مدار الامر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع، انما هو الفهم والإفهام»[٧].

فإذا كان البيان هو ما يُدلّ به على المعنى، فهو يتفق مع الدليل و يصدق على ما يصدق عليه الدليل،فتجرى فيه الأقسام التى تجرى فى الدلالة كائنا ما كان عددها . فنرى انّ البيان عند الرّمانى اربعة اقسام : كلام، و حال، وإشارة، وعلامة[٨]. كأن اقسام الدلالة عنده لاتتجاوز هذه الأربعة .

والذى يهتم به البليغ من أصناف الدلالات وأقسام البيان، ويعتمد عليه الأديب فى فنونه، ويرتكز عليه الخطيب فى ترغيبه وترهيبه، هو ما يرجع الى اللفظ ويمتّ إليه . إذ به يكمل البيان وينتهى الى حد الاعجاز ، وفيه يصح الإتيان بالسحر الحلال .

فمِنْ آحاد البيان اللفظى ومايرجع الى دلالة الالفاظ «الجملة» او ان شئت فقل : الجملة هى من صميم البيان اللفظى والعمدة فيه، لأن البيان كما يكون بالجملة يكون باسم اوصفة، لكن دلالتهما متناهية بخلاف دلالة الجملة المعتمدة على التأليف فليس لها نهاية .

الجملة وعناصرها :

الجملة، هى عبارة تشتمل على نسبة تامة بين طرفين يسميان مسندا و مسنداً إليه . كقوله (ص) : خيرُ الناس أنفعُهم للناس . وقوله ايضا : لايقضينّ احدُكم وهو غضبان. «فخير الناس» فى المثال الاول و «احدكم»

٧ــ المصدر نفسه ٧٦/١ .

٨ــ النكت فى إعجاز القرآن، ١٠٦ .

فى الثانى مسند اليه، و «انفعهم» فى الأول و «لا يقضين» فى الثانى مسند.

وتتكوّن الجملة من عناصر ثلاثة:

١ــ الإسناد[٩]، وهو النسبة التامة بين الطرفين.

٢ــ المسند إليه، ويسمى المنسوب إليه.

٣ــ المسند، فيسمى المنسوب ايضا.

موارد المسند إليه:

يأتى المسند إليه على الصور التالية:

١ــ صورة الفاعل، مثل قوله تعالى: «وجاء رجل من اقصى المدينة يسعى»[١٠]. وقوله ايضا: «أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم»[١١]؟

وقال جرير:

فهيهات هيهات العقيق ومن به وهيهات خلّ بالعقيق نواصله

٢ــ صورة نائب الفاعل، كقول النبى (ص): «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين». ونحو ما مخلّد بالدّنيا ديّار.

٣ــ صورة المبتدأ[١٢]، كقوله تعالى: «وجزاء سيّئة سيّئة مثلها»[١٣].

٩ــ فالإسناد كما يجرى فى الخبر يجرى فى الانشاء، فاذا انتهى الى الحكم بثبوت شئ لشئ اونفيه عنه، سمى الكلام المشتمل عليه خبرا وفى غير ذلك انشاء، فالخبر يلازم الحكم والايقاع اوالنفى والانتزاع، واما الانشاء فهو خال منها. فالخبر تصديق والانشاء تصور. (راجع المطول، مبحث الاسناد الخبرى، وآخر مبحث الانشاء، وعروس الافراح فى الاسناد الخبرى).

١٠ــ القصص، ٢٠.

١١ــ مريم، ١٩.

١٢ــ فالمبتدأ اعم من ان يكون مبتدأ فى الاصل والحال، او مبتدأ

←

وقوله ايضا : «إن الله خبير بما تعملون»[١٤].

موارد المسند :

يقع المسند على الصور الآتية :

١ــ صورة الخبر، اعم من ان يكون خبراً فی الاصل والحال، للمبتدأ او لغيره، كقوله عزوجلّ : «جزاؤهم عند ربّهم جنات عدن»[١٥] . و قوله ايضا : «كنتم قوما بورا»[١٦]. او خبراً فی الاصل فقط، كقوله تعالــی : «و لاتحسبنّ الذين قتلوا فی سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربّهم يرزقون»[١٧].

٢ــ صورة الرافع للفاعل او نائبه، وهذا الرّافع قد يكون فعــلا ، كقوله تعالی : «وينصرك الله نصراً عزيزاً»[١٨] و قولــه : «قتل الإنسان مـا اكفره»[١٩].

وقد يكون صفة مبتدأة كما مرّ فی : «أراغب» و «ما مخلّد» وقد يكون مصدرا ومفعولا مطلقا، نحو سعياً وراء الخير . كما قد يكون اسم الفعل، نحو : هيهات الحرّ ان يدوم على الذّل .

وتعرض للجملة باعتبار كلّ من تلك العناصر احــوال واعتبارات ،

→
فی الاصل فقط .

١٣ــ الشوری، ٣٩ .

١٤ــ مائدة ، ٧ .

١٥ــ البينه، ٨ .

١٦ــ الفتح، ١٢ .

١٧ــ آل عمران، ١٦٩ .

١٨ــ الفتح، ٣ .

١٩ــ عبس، ١٧ .

فيلزم على صاحب البلاغة الاهتمام بشأنها، والاعتناء بامرها، وتطبيق الكلام على مقتضاها .

واما باعتبار الجملة كلها، لاسيما إذا انتظمت مع اخرى، فتعرض لها مناسبات اخرى تستحق الالتفات إليها والعناية بها أيضا[٢٠]

الفصل الثاني : الجملة الخبرية

تنقسم الجملة من حيث انه يقصد بها حكاية شيء في الخارج ام لا ، الى قسمين : خبريّة وانشائية .

فالخبرية، ما كان لنسبته خارج قصدت حكايته، كقولك : اثارت الرّيح الغبار . فاثارة الرّيح للغبار اوعدمها شيء موجود في الخارج، سواء تلفظت بذلك الكلام أم لا . فإذا اخبرت به فلا تريد انشاء مدلوله في الخارج، بل تقصد منها حكاية ذلك الواقع، وافادة المخاطب ما جرى في نفس الأمر .

فائدة الخبر :

يلقى الخبر في الأصل لافادة المخاطب اوالسامع شيئا لم يعلمه من قبل، فهذه الفائدة ان كانت راجعة الى منطوق الجملة وصلبها تسمى «فائدة الخبر» كما اذا اخبرت شخصا بخبر لم يكن عالما به، كأن تقول له : غزوة البدر وقعت في اليوم السابع عشر من شهر رمضان .

٢٠- راجع مفتاح العلوم، ٨٠ .

وان كانت الفائدة راجعة الى وراء منطوق الجملة ومتنها، تسمى «لازم فائدة الخبر» كأن اخبرت شخصا بخبر كان معلوما له، وقصدت به افادة المخاطب انك عالم بذلك الخبر ايضا .

وقد تخرج الجملة الخبرية عن اصلها فلايقصد بها الإخبار والاعلام، فترد لأغراض اخرى سوى افادة الحكم او لازمه، تعرف بالذوق من السياق والقرائن . منها :

١ـ اظهار التحسر، كقوله تعالى حكاية عن امرأة عمران : «ربِّ إنّي وضعتها أنثى»[٢١]. فانها كانت ترجو ان تلد ذكرا، ولكن خاب رجاؤها وتقديرها .

٢ـ اظهار الضعف والخشوع، كقوله عزوجلّ حكاية عن زكريا عليه السلام : «ربِّ إنّي وهن العظمُ مِني»[٢٢].

٣ـ التذكير بتفاوت المراتب، كقوله تعالى : «لايستوي القاعدون من المؤمنين»[٢٣] فهذه الآية تذكرة بتفاوت عظيم بين مرتبة القاعد والمجاهد، حتى يتأنف القاعد ويترفع بنفسه عن انحطاط منزلته[٢٤].

٤ـ الاستعطاف والاسترحام، كقول الشاعر :

الهي عبدك العاصي أتاكا مقراً بالذنوب وقد دعاكا

٥ـ اظهار الفرح بمقبل والشماتة بمدبر، كقوله تعالى : «جاء الحق و زهق الباطل»[٢٥].

٢١ـ آل عمران، ٣٦ .

٢٢ـ مريم، ٤ .

٢٣ـ النساء، ٩٥ .

٢٤ـ المطول، ٤٣ .

٢٥ـ بنى اسرائيل، ٨١ .

٦ــ التحذير، نحو «أبغض الحلال الى الله الطلاق» .

٧ــ التوبيخ، كقولك للعاثر : «الشمس طالعة»[٢٦].

فالجمل الخبرية في الأمثلة المذكورة مستعملة في معناها، لكن لا للاعلام والاخبار الذي هو الاصل فيها، بل لأغراض أخرى غيره . فالظاهر ان هذا الاستعمال لا يعد من الحقيقة، بل من الكناية او المجاز المرسل[٢٧] . لأنه جاء على خلاف الاصل الذي قرّره عرف البلغاء .

تقسيم الجملة الخبرية باعتبار حال المخاطب :

تنقسم الجملة الخبرية التي يقصد بها الاعلام والاخبار، من حيث موقف المخاطب امام الغرض منها إلى أربعة اقسام .

١ــ ابتدائية، وهي ما كان المخاطب خالي الذهن من الحكم والتردد فيه، ففي هذه الحالة لا يحتاج الكلام الى التأكيد . كقول النبي (ص) : القناعة مال لا ينفدُ .

فالخبر إذا واجه الذهن الخالي والقلب الفارغ فكثيرا ما يتمكن فيهما ويتلقى بالقبول . فما أحسن قول الشاعر :

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

٢ــ طلبية، وهي ما كان المخاطب متردداً في الحكم وطالباً له ، فيشتاق الى معرفته والوقوف عليه . فيحسن في هذه الصورة تقوية الكلام بمؤكد من أدوات التأكيد، مثل إنّ وغيرها . نحو : «إنّ غنى نفسك

٢٦ــ راجع جواهر البلاغة، ٥٥ .

٢٧ــ راجع چلبي على المطول، ٣٥ .

فى اليأس»[٢٨].

قال الشيخ فى دلائل الاعجاز: «فإذا كان الخبر بأمر ليس للمخاطب ظن فى خلافه البتة، ولايكون قد عقد فى نفسه ان الذى تزعم انه كائن غير كائن، وان الذى تزعم انه لم يكن، كائن، فانت لاتحتاج هناك إلى «إنّ» وانما تحتاج إليها إذا كان له ظن فى الخلاف، وعقد قلب على نفى ما تثبت، او اثبات ما تنفى. ولذلك تراها تزداد حسنا إذا كان الخبر بامر يبعد مثله فى الظن، وبشىء قد جرت عادة الناس بخلافه»[٢٩].

٣ـ انكارية، وهى ما يقصد المخاطب خلافه وينكر الحكم الذى تضمنه الخبر ويقاومه بالرّد. فيجب تقوية الكلام بالتأكيد، ويتفاوت التأكيد قلة وكثرة بحسب الانكار شدّة وضعفا.

فكلما ازداد فى الانكار زيد فى التأكيد، كقوله تعالى حكاية عن رسل عيسى (عليه الصلاة والسلام) لما كذبوا فى المرّة الأولى: «إنّا إليكم مرسلون»[٣٠] مؤكدا «بإن» والجملة الاسمية. وفى المرّة الثانية: «ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون»[٣١] مؤكدا بالقسم وان، واللاّم، والجملة الاسمية، لمبالغة المخاطبين فى الانكار[٣٢].

٢٨ـ هذا مصراع من قول ابى نواس:

عليك باليأس من الناس إنّ غنى نفسك فى اليأس

٢٩ـ دلائل الاعجاز، ٢٥٠.

٣٠ـ ياسين، ١٤.

٣١ـ ياسين، ١٦.

٣٢ـ التلخيص مع المطول، ٤٧ـ٤٨.

والأصل فى التقسيم الى هذه الاقسام جواب ابى العباس[٣٣] للكندى[٣٤] المتفلسف لما ركب اليه وقال له : انى أجد فى كلام العرب حشــوا حيث يقولون عبدالله قائم، وإن عبدالله قائم، وان عبدالله لقائم . فالمعنى فيها واحد والعبارات متكررة . فقال ابو العباس: بل المعنى ايضا متكرر، لان الأول اخبار، والثانى جواب سؤال سائل، والثالث جواب عن انكار منكر[٣٥].

٤ــ تنشيطية ، وهى ماكان المخاطب عارفا بمضمون الخبر، ولكــن يستثقله، وعالما بغرضه وافادته ولكن اكتنفه الفتور والسآمة فلايجد فــى نفسه ميلا و رغبة الى مضمون الخبر وتسليما له . فيجب على صاحب البلاغة فى هذه الصورة توشية حقيقة الخبر بالخيال والاستمداد من الصور البيانية، وبعث الحياة والقوة فيه، والاهتمام بما يؤثر فى النفس اكثــر من العقل . كأن تقول لمن يعرف منزلة الصلاة فى التشريع الاسلامى ولكن يستثقلهــا : «الصلاة معراج المؤمن» .

فهذا القسم مما لم نجده فى الكتب البلاغية، ولكن أضفناه من عندنا متكئاً على الذوق والاستنباط .

اعلم أن تطبيق الكلام على تلك الأحوال التى اكتنفت المخاطب فى الحقيقه ونفس الامر، يسمى اخراج الكلام على مقتضى الظاهر، «وانّه فى علم البيان يسمى بالتصريح»[٣٦].

٣٣ــ هو اما ثعلب اوالمبرد، وكانا معاصرين .

٣٤ــ هو يعقوب بن اسحاق الكندى المترجم من نسل الاشعث بــن قيس رضى الله عنه . وكان عظيم المنزلة عند المامون وابنه احمد، وله نحو مائتــى تاليف ما بين كتاب و رسالة فى جميع العلوم .

٣٥ــ راجع دلائل الاعجاز و ذيله، ٢٤٢ .

٣٦ــ مفتاح العلوم، ٨٢ .

وقد يلقى الكلام الى مخاطب لم تلاحظ حاله في الواقع، بل طبق الكلام على احوال إدعائية له، فيسمى ذلك التطبيق الإخراج على خلاف مقتضى الظاهر، «وانه في علم البيان يسمى بالكناية»[٣٧].

واخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر يأتي على وجوه :

١ـ تنزيل العالم بالخبر منزلة الجاهل ، اوالسائل، اوالمنكر، وايراد الكلام مجردا عن التأكيد اومؤكدا، استحسانا أو وجوبا . كأن تقول لمن تعرف وجوب الصلاة ولكن لايجرى على علمه : الصلاةُ واجبةٌ ، او إنّ الصلاة واجبة، أو إنّ الصّلاة لواجبة .

٢ـ تنزيل خالي الذهن منزلة السائل المتردد، وتاكيد الحكم بمؤكد استحسانا كقوله تعالى : «وما ابرّئ نفسي إنّ النفس لأمّارةٌ بالسوء»[٣٨] وقوله ايضا : «وصلِّ عليهم إنّ صلاتَك سكنٌ لهم»[٣٩] او تنزيله منزلة المنكر إذا لاح عليه شيء من امارات الانكار، وتاكيد الحكم بمؤكد او مؤكدات وجوبا . و ذلك مثل قول حجل بن نضلة القيسي :

جاء شقيقٌ عارضاً رمحه إنّ بني عمك فيهم رِماحْ

فشقيق لاينكر وجود الرمح في بني عمه ، الاّ ان مجيئه واضعا رمحه على العرض مما يُوهِم انه ينكر وجود السلاح فيهم .

٣ـ تنزيل المتردّد منزلة خالي الذهن، اوالمنكر، وايراد الكلام مجردا من التأكيد اومؤكداً وجوبا . كقولك للسائل عن الوحدة الاسلامية

٣٧ـ المصدر نفسه، ٨٣ . راجع لتوجيه هذه الكناية «المطول مع حاشية السيد، ٥٢ .

٣٨ـ يوسف، ٥٣ .

٣٩ـ التوبة، ١٠٣ .

المنشودة : الوحدة الاسلامية قريبة، او إن الوحدة لقريبة .

٤ــ تنزيل المنكر منزلة خالي الذهن، او المتردد، وايراد الكلام مجرّداً من التأكيد او مؤكدا استحسانا، إذا كان امام المنكر شواهد و دلائل إنْ تأملها ارتدع عن انكاره . كقولك لمنكر الاسلام : «الاسلام حق» من غير تأكيد، تنبيها على ان الحكم واضح لا يستحق الانكار، وانه يوجد أمام المخاطب قرائن و دلائل كثيرة على صحة الحكم، فيكفيه أدنى تأمل ودقة[٤٠].

تقسيم الجملة باعتبار الدوام والحدوث :

تنقسم الجملة من حيث إفادة الدّوام والحدوث الى قسمين : اسميّة وفعليّة .

فالاسميّة، هي تركيب المتبدأ والخبر، نحو : آفةُ العلم النسيان . فهذا النوع من الجملة يُفيد الثبوت بأصل الوضع، والدّوام بحسب القرائن والمقام .

والفعليّة، هي تركيب الفعل مع فاعله او مع نائبه، نحو : يعيشُ البخيلُ عيشةَ الفقراء، ويُحاسَبُ في الآخرة حسابَ الأغنياء[٤١].

فهي تفيد التجدّد والحدوث على أخصر وجه، لتضمنها الفعل الدّال على الزّمان بصيغته، فلا تحتاج الى اضافة قيد مثل كلمة امس، او الآن ، او غدا .

ليس فنّ من فنون الأدب، اوصنف من صنوف البيان يختص بالجملة

٤٠ــ راجع المطول مع حاشية السيّد، ٤٩ــ٥٠ .

٤١ــ مقتبس من كلام علي (عليه السلام) .

الاسمية اوالفعلية . بل انهما تتعاقبان وتتواردان فی انواع البيان واقسام الأدب، غير ان[٣] الاسمية اكثرملائمة للمدح والذم، ولوصف الأشياء الجامدة والحقائق الثابتة، كما ان الفعلية تناسب حكاية المعارك و وصف الحروب والقتال، وبيان المغامرات والبطولات .

فالجملة الفعلية تمتلیء بالقوة والحيوية، وتزخر بالحركة والجدة، فتدعو الی التغير والتطور، كما تنادی بالحدوث والتحوّل .

الفصل الثالث

فی الجملة الإنشائية ، وفيه مباحث

المبحث الأوّل ــ فی تعريف الانشائية وتقسيمها :

الإنشائية ، ما لم يكن لنسبته خارج قُصِدت حكايته، نحو : كونوا أحرارا فی دنياكم . فانك لاتريد بهذا الكلام حكاية ما وقع فی الخارج وماحدث فی نفس الامر، بل المراد إحداث مدلوله، وهو طلب التعامل والتعايش بالحرّية .

فان قُصِدت بالكلام حكاية ما فی الواقع والخارج، اعنی طلب التعايش بالحرّية القائم بالنفس، صار الكلام خبرا مجازا . ومعناه حينئذ : انا طالب تعاملكم بالحرّية فی الدّنيا[٤٢].

٤٢ــ راجع حاشية الدسوقی علی المختصر ١/١٦٦ و ٢/٢٣٥ .

تقسيم الجملة الإنشائية :

تنقسم الجملة الإنشائية إلى قسمين : طلبية وغير طلبية . فالثانى ما كان خاليا من الاستدعاء والطلب، و ذلك مثل جملة القسم، وجملة ربّ (انشاء التقليل) وجملة كم الخبرية (انشاء التكثير) وجملة افعال المقاربة الرجائية، وجملة افعال المدح والذم، وجملة صيغ التعجب، وجملة صيغ العقود .

فهذه الجمل لا تستدعى مطلوبا غير حاصل وقت الطلب، ولا تتطلب شيئا غير موجود عند التلفظ بها . فهى دائما خالية من الاستدعاء والطلب و ما يرجع اليها .

ولما كانت المباحث البيانية المتعلقه بها قليلة، وايضا ان اكثرها اخبار نقلت الى الإنشاء ، لم يهتم بها البلاغيون ولم يدرسوها[٤٣].

والاول ـ وهو الطلبية ـ ما استدعى مطلوبا غير حاصل وقت الطلب، أعم من ان يكون غير حاصل اصلا اوغير حاصل فى اعتقاد المتكلم، ضرورة امتناع تحصيل الحاصل . فاذا وردت الجملة الطلبية و كان المطلوب بها حاصلا، أخرج ذلك الطلب على خلاف مقتضى الظاهر .

والمعروف ان الطلبية تتنوّع الى خمسة انواع: الاستفهام، والامر، والنهى، والنداء والتمنى[٤٤]. لأن المطلوب اما ممكن الحصول اولا، والثانى التمنى .

٤٣ـ المطول، ٢٢٤ .

٤٤ـ اما العرض والتخضيض، فهما مولّدان من الاستفهام و راجعان اليه .

والاول ، ان استدعى حصوله فى ذهن الطالب، فهو الاستفهام . وان استدعى حصوله فى الخارج، فان كان انتفاء فعل، فهو النهى . وان كان ثبوته، فان كان باحدى حروف النداء فهو النداء، والا فهو الامر[٤٥].

لم يتفق القوم على هذه الانواع، فمنهم من زاد قسما آخر وهو الترجى، ومنهم من ترك «التمنى» بناء على ان العاقل لايطلب ما يعلم استحالته، و «النداء» بناء على ان طلب الاقبال خارج عن مفهوم النداء الذى هو صوت يهتف به الانسان وان كان يلزمه[٤٦].

المبحث الثانى ــ الاستفهام :

الاستفهام، هو طلب حصول صورة الشيء فى الذهن بادوات مخصوصة، اعنى : أ، هل، ما، من، اىّ، كم، كيف، أين، انى، متى وايّان .

وطلب حصول صورة الشيء يعم التصور والتصديق، لان المطلوب بتلك الادوات ان كان صورة وقوع نسبة بين امرين اولا وقوعها فهو تصديق، وان كان صورة الموضوع اوالمحمول اوالنسبة فهو تصور .

انقسام أدوات الاستفهام :

تنقسم ادوات الاستفهام باعتبار المطلوب بها الى ثلاثة أقسام :

١ــ ما يطلب به التصور والتصديق، وهو الهمزة .

٢ــ ما يطلب به التصديق فقط، وهو «هل» .

٣ــ ما يطلب به التصور فقط، وهو بقية أدوات السؤال .

٤٥ــ المطول، ٢٢٤ــ٢٢٧ .

٤٦ــ چلبى على المطول، ١٧٩ وحاشية الدسوقى ٢/٢٣٨ .

« أ »

تختص الهمزة بين ادوات الاستفهام باستعمالها لطلب التصور والتصديق. فهى تارة تستعمل لطلب التصديق بوقوع نسبة تامة بين الشيئين، اذا كان اصل الحكم مجهولا عند المتكلم . كقولك فى الجملة الإسمية : أشعبنا سعيد ؟ وفى الجملة الفعلية : أفاز شعبنا ؟

فالمطلوب بالهمزة فى هذين المثالين حصول انقياد الذهن واذعانه بوقوع سعادة الشعب وفوزه، اولا وقوعهما .

وتارة تستعمل لطلب التصور وادراك غير النسبة ، كقولك فى طلب المسند اليه على وجه التعيين . أعلى خطب اليوم ام سعيد ؟ اذا كنت عالما بوقوع النسبة والقاء خطابة فى جانب شخص ما، ولكنك جهلت المسند اليه على وجه التعيين . وفى طلب تصور المسند على وجه التعيين : اعلى فى الصف ام فى المكتب ؟ اذا كنت عالما بوقوع النسبة وحصول على فى واحد من المحلين لا على التعيين، فتطلب بهذا القول تعين المسند .

فان قلت : ان مقتضى كون الهمزة فى الامثلة المذكورة لطلب التصور وان المتكلم عالم بوقوع النسبة، تاخر التصور عن التصديق، مع انه قد تقرر فى موضعه ان التصديق مسبوق بالتصور .

قلنا : ان المطلوب بالهمزة التصور على وجه التعيين لا على سبيل الاجمال[٤٧]، وهذا متاخر عن التصديق على سبيل الاجمال . وسبق التصور على التصديق انما يكون اذا جريا على وتيرة واحدة من الاجمال والتفصيل. فالتصديق بوقوع خطابة لعلى او سعيد لا على التعيين مسبوق بتصور شخص ما، كما ان التصديق بوقوع خطابة لاحدهما معيّنا مسبوق بتصور المسند اليه على التعيين .

٤٧- راجع حاشية السيّد، ٢٢٨ .

فهناك تصور ان وتصديقان مختلفان فى التعيّن وعدمه، والاجمال والخصوصية . فالتصور والتصديق على وجه الاجمال فى المثال المذكور حاصلان قبل السؤال، فلا يتوجه اليهما السؤال والا" يلزم تحصيل الحاصل. واما التصور والتصديق على وجه التعيين فلا يتحققان الا" بعد السؤال .

فان قلت اذا كان التصور والتصديق على وجه التعيين يتحققان بعد السؤال، فما وجه الاقتصار اذا على كون الهمزة لطلب التصور ؟

قلت ان تصور المسند اليه او المسند على وجه التعيين هو المقصود للسائل، بقرينة أم المتصلة، وأما التصديق الخاص فهو حاصل غير مقصود[48].

والفرق بين الاستفهام بالهمزة عن التصور والتصديق، من وجهين :

لفظى، وهو ان الاستفهام عن التصور يصلح لأن يقع بعده «ام المتصله» واما الاستفهام عن التصديق فلا يصلح الا «لام المنقطعة»[49].

ومعنوى، وهو ان التردد والشك فى الاستفهام عن التصور يرجعان الى تعيين احد طرفى الجملة، وفى الاستفهام عن التصديق يرجعان الى النسبة بينهما من حيث الثبوت او النفى[50].

احكام الهمزة :

تختص الهمزة باحكام، منها :

٤٨ــ حاشية الدسوقى، ٢٤٩/٢ .

٤٩ــ ومن الفرق بين المتصلة والمنقطعة، ان المتصلة تكون دائما مصاحبة للاستفهام، اما لفظا ومعنى نحو ازيد قائم ام عمرو؟ او لفظا فقط، نحو : سواء علىّ أزرتنى ام هجرتنى . فالاستفهام فيه لفظى فقط .

واما المنقطعة فانها يصح ان لايقع بعدها الاستفهام لالفظا ولامعنى .

←

١ــ جواز دخولها على الجملتين : الاسمية والفعلية، ولكن دخولها على الجملة الفعلية أكثر .

٢ــ مجيئها ــ كما سبق ــ لطلب التصور والتصديق .

٣ــ ايلاء المسؤول عنه لها فى طلب التصور أو التصديق، كقولك فى السؤال عن الفاعل أو المسند إليه : أأنتَ قلتَ ؟ وفى السؤال عن المفعول : أربَّكَ نسيت ؟ وفى السؤال عن المسند : أتركتَ واجبكَ فى حق أبنائِك؟ إذا كنت عالما بوقوع النسبة، ولكن جهلت المسند على سبيل التعيين .

اما اذا جهلت أصل النسبة وأردت ان تسأل عنها، فتأتى بهذه الجملة ايضا فى السؤال .

فإن قلت : ان ايلاء المسؤول عنه للهمزة فى طلب تصور المسند او المسند إليه أو شيء من متعلقات الفعل ظاهر، إذ لكل منها لفظ يدل عليه و يمكن ايلاؤه للهمزة .

واما اذا كان المطلوب بها التصديق، فأمر ايلاء المسؤول عنه للهمزة غير ظاهر، لانه ليس للنسبة لفظ واحد يخصها حتى يمكن ان يلى الهمزة .

واجيب بانه لما كان الغرض من السؤال بالهمزة عن التصديق، السؤال عن حال النسبة وهى جزء من مدلول الفعل، فناسب ان يجيء الفعل الهمزة فى هذه الصورة ايضا كما يقع بعدها فى صورة السؤال عن المسند[٥١] .

ولكن اقول : ان اللفظ الدال على النسبة او التصديق، هو مجموع المسند والمسند اليه، فلانسلم ان امر الايلاء عند السؤال عن النسبة غير

←

(راجع عروس الافراح ٢/٢٤٧) .

٥٠ــ حاشية الدسوقى، ٢/٢٤٨ .

٥١ــ راجع حاشية الدسوقى ٢/٢٥٣ .

ظاهر، لانه كما يتحقق امر الايلاء فى طلب التصور بايلاء لفظ المسند او المسند اليه للهمزة، يتحقق فى طلب التصديق بايلاء مجموع مايدل عليهما للهمزة . ولا فرق فى ذلك بين ان يتقدم المسند او المسند اليه، اذ المراد بالايلاء للهمزة فى السؤال عن التصديق، ان لايقع بعد الهمزه شىء آخر غير المسند او المسند اليه من قبيل متعلقات الفعل .

٤ــ جواز دخولها على المثبت والمنفى، كقوله تعالى: «أأنت قُلْتَ للنّاسِ[٥٢]...؟» و «ألَمْ أعهَدْ أليكُمْ؟»[٥٣].

٥ــ جواز حذفها، سواء تقدمت على ام كقول عمر بن ابى ربيعة :

بدالى َمنها مِعْصَمٌ حين جمّرت ... وكفٌ خضيبٌ زُيِّنَتْ ببنان

فوالله ِما أدرى وان كنتُ دارياً ... بسبعٍ َرمين الجمر ام بثمان

فأراد أبسبعٍ َرميْنَ ام بثمان ؟

او لم تتقدمها، كقول الكُميت :

طربتُ وماشوقاالى البيض أطربُ ... ولا لعبا منّى، و ذوالشيب يلعب؟

اراد : أذوالشيب يلعب ؟

٦ــ تمام التصدير، وذلك لأنها لاتذكر بعد «ام» للاضراب كما يذكر بعدها غيرها .

ولأنها تقدم على العاطف إذا كان واواً، اوفاءً، او ثم . نحو : أولم ينظروا ؟ أفلم يسيروا ؟ أثم إذا ما وقع آمنتم ؟

واما بقية أدوات السؤال فتتأخر عن حروف العطف[٥٤].

٥٢ــ المائدة، ١١٦ .

٥٣ــ يس، ٦٠ .

٥٤ــ راجع مغنى اللبيب، ٥ــ٦ .

«هل»

تمتاز «هل» بين أدوات السؤال بأنها لطلب التصديق فقط، نحو: هل قدم المسافر؟ في الجملة الفعلية، وهل سيبويه مدفون بشيراز؟ في الجملة الاسمية.

فـ «هل» في هذين المثالين تفيد أن اصل الحكم فيهما غير محقق الثبوت عند المتكلم، فيشك في ثبوت القدوم للمسافر وكذا في دفن سيبويه بشيراز، فيستفهم بها ليحصل التصديق عنده.

ولأن اصل «هل» لطلب التصديق وافادة ان اصل الحكم مجهول عند المتكلم، وجب ان لاتكون الجملة التى سئل عنها بـ «هل» بحيث تدل على ان العلم بثبوت اصل الحكم حاصل. ويتفرع من هذا الاصل امران: احدهما، امتناع مثل هل فاز باللذة الجسور؟ ام الجبان؟ لان «هل» تفيد ان اصل الحكم مجهول، ولكن «ام» المتصلة التى وقع بعدها المفرد، تدل على ان المطلوب بالاستفهام تعيين احد الامرين مع العلم بثبوت اصل الحكم، فكيف يمكن الجمع بينهما.

والثاني، قبح مثل: هل الكتابَ قرأتَ؟ لان تقديم المفعول يدل على ان اصل الحكم محقق الثبوت عند المتكلم وان المطلوب تعيين المفعول، مع ان «هل» تتطلب حصول التصديق باصل الحكم، «فيكون» هل «طلبا لحصول الحاصل وهو محال»[٥٥].

فإن قلت: لماذا حكم بقبح مثل: هل الكتاب قرأت، لا بالامتناع؟ قلنا: لانه يجوز ان يكون الكتاب مفعولا لفعل مقدّر يفسره الفعل الظاهر[٥٦].

٥٥ـ المطول، ٢٢٨.

٥٦ـ راجع المطول، ٢٢٨.

أقسام هل :

تنقسم هل الى قسمين : بسيطة ومركبة .

فالبسيطة، ما يطلب به وجود الشيء اولا وجوده، بمعنى انه «يطلب به ان يتعرّف بهذا المطلب حال الشيء فى الوجود المطلق، اوالعدم المطلق»[٥٧]. كقولك : هل جزيرة العميان موجودة ؟ وهل الخلأ موجود ؟

فالمطلوب فى هذين المثالين وجود جزيرة العميان اولاوجودها، و وجود الخلأ اولاوجودها، فليس وراء وجود الموضوع شىء آخر . فالمعتبر بهذا المطلب ليس إلاّ شيئا واحدا فى الحقيقة، ولهذا سمى بسيطة. ففيها يسأل عن التصديق بوقوع النسبة بين موضوع ما، ومحمول هو عين الوجود لذلك الموضوع[٥٨].

والمركبة، ما يطلب به وجود شيء لشيء آخر، اولاوجوده . بمعنى انه «يطلب به ان يتعرف هل الشيء موجود على حال ما، او ليس»[٥٩] كقولك : هل الحرب منتهية فى لبنان ؟ فالسؤول عنه بهل فى هذه الجملة وجود انتهاء الحرب، والمعتبر فى هذا السؤال وراء الوجود شيئان : الإنتهاء والحرب .

فاذا لم يعتبر فى البسيطة والمركبة الوجود، يبقى فى الاولى شيء واحد وفى الثانية شيئان، واما اذا اعتبر الوجود ففى الاولى شيئان وفى الثانية ثلاثة أشياء . وعلى كلّ حال الاولى اقلّ واخصر[٦٠] من الثانية .

٥٧ــ النجاة، ٦٤ .

٥٨ مواهب، ٢/١ــ٢٧٢ .

٥٩ــ النّجاة، ٦٧ .

٦٠ــ راجع مواهب الفتاح ٢/ ٢٧٣ .

ويقال ايضا فى الفرق بين البسيطة والمركبة : ان الاولى يطلب بها وجود نفس الموضوع والثانية يطلب بها وجود المحمول، وان الوجود فى الاولى مقصود لذاته لانه محمول، وفى الثانية ليس مقصوداً لذاته، بل هو رابطة بين الموضوع والمحمول[٦١].

أحكام هل :

تختص «هل» بأحكام، منها :

١ـ اختصاصها بالتصديق كما سبق .

٢ـ اختصاصها بالايجاب فى الجملة الفعلية والاسمية، لانها بمعنى قد . فلايقال : هل لايَنْشِدُ الشعبُ ضالّتهم ؟ كما لايقال : قد لاينشد الشعب ضالتهم .

٣ـ تخصيصها المضارع بالاستقبال كالسين وسوف، ولهذا لايصح: هل تترك القتالَ والعدّو فى دارك ؟

٤ـ انها لاتدخل على الشرط، ولا على إنّ، ولا على اسم بعده فعل فى الاختيار، بخلاف الهمزة . فالهمزة تدخل عليها، بدليل انه جاء فى القرآن الكريم :

الف ـ أفإن مِتَّ فهم الخالدون[٦٢] ؟

ب ـ أإنك لأنتَ يوسُف[٦٣] ؟

ج ـ أبشراً منّا واحداً نَتَّبِعُه[٦٤] ؟

٦١ـ راجع عبدالحكيم، ٣٣٥، وحاشية الدسوقى ٢/٢٧٢ .

٦٢ـ الانبياء، ٣٤ .

٦٣ـ يوسف، ٩٠ .

٦٤ـ القمر، ٢٤ .

٥ـ انها تقع بعدالعاطف، وبعد «أم» كقوله تعالى : فهل يهلك إلا القوم الفاسقون[٦٥] ؟ وقوله ايضا : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور[٦٦] .

٦ـ مزيداختصاصها ـ بين أدوات الاستفهام ـ بالفعل[٦٧]، فلاتُخرَج على خلاف هذاالاصل فى الكلام البليغ إلا لنكتة، فهى فى قوله تعالى : فهل أنتم شاكرون[٦٨] ؟ أدعى لطلب الشكر من قولنا : فهل تشكرون ؟ «لان ابراز ما سيتجدد فى معرض الثابت أدلّ على كمال العناية بحصوله من إبقائه على أصله . وكذا من قولنا : أأنتم شاكرون ؟ وان كانت صيغته للثبوت، لان هل أدعى للفعل من الهمزة، فتركه معها ادل على كمال العناية بحصوله . ولهذا لايحسن : هل زيد منطلق ؟ الا من البليغ»[٦٩].

٦٥ـ الاحقاف، ٣٥ .

٦٦ـ الرّعد، ١٦ .

٦٧ـ جاء فى الكتاب : «وحروف الاستفهام كذلك بنيت للفعل إلاّ انهم قد توسعوا فيها فابتدؤا بعدها الاسماء ، والاصل غير ذلك . الا ترى انهم يقولون : هل زيد منطلق، وهل زيد فى الدار، وكيف زيد آخذ ؟

فان قلت : كيف زيدا رأيت ؟ وهل زيد يذهب ؟ قبح ولم يجز الا فى الشعر ، لانه لما اجتمع الفعل والاسم حملوه على الاصل ...

واعلم ان حروف الاستفهام كلها يقبح ان يصيَّر بعدها الاسم إذا كان الفعل بعد الاسم، لو قلت هل زيد قام ؟ واين زيد ضربته ؟ لم يجز الاّ فى الشعر . فاذا جاء فى الشعر نصبته الا الالف فانه يجوز فيها الرفع والنصب» (الكتاب ١/٥٢) .

٦٨ـ الانبياء، ٨٠ .

٦٩ـ الإيضاح ٢/٧ـ٢٦٨ .

٧ـ أنها عند ما يستفهم بها لايترجح في نفس السائل اثبات ولا نفي، بخلاف الهمزة فانها لايستفهم بها حتى يهجس في النفس ما يستفهم عنه، كذا ذكر بعضهم[٧٠].

٨ـ انها تأتي بمعنى النفي ولذلك تقع بعدها «إلا» كقوله تعالى: هل جزاء الإحسان إلا الاحسان[٧١]. وتزاد بعدها الباء، كقول الفرزدق:

ألا هل أخو عيشٍ لذيذ بدائم؟

ويصح العطف في قول امرىء القيس:

وإنّ شفائي عبرةٌ مهراقةٌ وهل عند رسمٍ دارسٍ من معوّلِ

واما الهمزة، فإنها تأتي للإنكار على من ادّعى وقوع الشيء، لا للنفي. فيلزم من الإنكار النفي، فإيرادها للنفي بطريق الإستلزام[٧٢].

٩ـ انها تاتي بمعنى «قد» مجردا عن الاستفهام، فتفيد معنى التقريب او التحقيق او التوقع مثل «قد»، وفسروا بذلك قوله تعالى: هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر[٧٣].

وقال بعض: إن هل في الاصل بمعنى «قد» وليس من ادوات الاستفهام، وكان في الأصل «أهل» فمعنى الاستفهام جاء من الهمزة المذكورة

٧٠ـ راجع عروس الافراح ٢/٢٧١.

٧١ـ الرحمن، ٦٠.

٧٢ـ الانكار على ثلاثه اوجه: الاول، انكار على من ادعى وقوع الشئ، ويلزم من هذا النفي. الثاني، انكار على من اوقع الشئ، وهذان الوجهان يختصان بالهمزة.

الثالث، انكار لوقوع الشئ، وهذا هو معنى النفي الذى تنفرد به هل عن الهمزة. (مغني اللبيب، ٤٦٠.

٧٣ـ الدهر، ١.

معه، ولكن لما كثر وقوع «هل» فى الاستفهام تركوا الهمزة فاقيم هل مقامها[٧٤].

ماعدا الهمزة وهل :

لقد سبق ان الادوات التى تختص بطلب التصور فقط، هى ماعدا الهمزة وهل . فهذه الادوات وان كانت مشتركة فى افادة التصور، الا انها مختلفة من حيث ان التصور فى كلّ منها غيره فى الاخر . وندرس فيما يلى تفصيل ذلك، فنقول :

منها : «ما»

وهى تنقسم الى قسمين : شارحة وحقيقيّة[٧٥]. فالشارحه، ما يطلب به شرح مفهوم اللفظ وبيان المراد منه . فان كان المطلوب بها بيان ما دلّ عليه اللفظ، والمعنى الذى وضع له، كان الجدير بالجواب ايراد لفظ اشهر. و ذلك كأن تسمع لفظ «الخَبَب» ولكن لاتعرف معناه وما هو المراد به ، فتسأل عن معناه وتقول : ما الخَبَبُ ؟ فيجاب بأنه ضرب من العَدْوِ . وهذا البيان من صميم المباحث اللغويّة، ومآله الى التصديق دون التصور[٧٦]. وتسمى «ما» فى هذه الصورة، «ما اللفظية» .

٧٤ـ راجع مغنى اللبيب، ١٨٠ـ١٨١ والتلخيص مع شروحه، و حاشية الدسوقى ٢/٢٦٠ .

٧٥ـ قال الحكيم السبزوارى :

«فما» هو الشارح والحقيقى و ذو اشتباكٍ مع هل انيقِ

٧٦ـ راجع حاشية السيد على المطول، ٢٣٢ .

وان كان المطلوب بها «ماهيّة مفهوم الاسم المستعمل»[٧٧] وتفصيل ما دلّ عليه الاسمُ اجمالا، كان الجواب حدّاً بحسب الاسم او رسما بحسب الاسم. و ذلك كقولك في جواب ما الانسان؟ ـ قبل العلم بوجوده ـ: حيوانٌ ناطق، او حيٌ مستقيم القامة عريض الاظفار. وتسمى «ما» في هذه الحالة، «ما الاسمية»[٧٨]. فعلم مما سبق ان «ما الشارحة» ليست مختصة بطلب الحد الاسمي، وان كان الشايع ذلك[٧٩].

والحقيقية، ما يطلب به ذات الشيء، وحقيقته التي هو بها هو[٨٠]. و ذلك، كقولك : ما الانسان في وجوده ؟ اي ما حقيقته الموجودة .

ترتيب «ما» و «هل» عند السؤال :

اعلم ان «ما» و «هل» تأتيان عند السؤال على صلة وثيقة، و على نظام مرتبطة . «فالشارحة» تأتي مقدّمة على «هل البسيطة»، ضرورة أنه لا يُطلَب وجود شيء لم يُعرف بصورة مّا، ولم يُفهم لا بالاجمال ولا بالتفصيل. وتأتي هل البسيطة في الترتيب مقدمة على «ما الحقيقة» اذ الوجود مقدم على الماهية وما لاوجود له لاماهية له . و «هل المركبة» متأخرة عن الجميع ، لان ثبوت شيء لشيء فرع لثبوت المثبت له[٨١].

ويقال في هذا الترتيب: ان «هل» تقع بين مائين، و «ما» تقع بين هلين .

٧٧ـ الإشارات، ١/ ٤٤٠ .

٧٨ـ راجع تعليقة مهدي الآشتياني على شرح المنظومه ١/ ٢٠٣ .

٧٩ـ راجع عبدالحكيم، ٣٥٥ .

٨٠ـ الإشارات، ١/ ٥٤ . والمطول، ٢٣٢ .

٨١ـ راجع شرح المنظومة، ٣١ .

ولايخفى انتقدم «ماالشارحة» ـ اذا اريد بها بيان مادلّ عليه اللفظ و وُضِعَت له الكلمة ـ على هل البسيطة ظاهر، «لان من لايعرف مفهوم اللفظ استحال منه ان يطلب وجود ذلك المفهوم»[٨٢]. واما تقدّمها على البسيطة اذاكان المطلوب بها شرح الاسم، وتفصيل ما دل عليه اللفظ اجمالا، فمحل توقف. اذ لايلزم من عدم معرفة الشيء بالتفصيل استحالة طلب وجوده، لان المعرفة الاجمالية كافية في هذا المقام.

لكن كلام الشيخ في النجاة والإشارات والشفاء[٨٣] صريح في تقدم ما مطلقا، على هل البسيطة. ويمكن أن يُستدلّ على تقديم ما الشارحة الاسمية على هل البسيطة في اصطلاح المنطقيين، بان المرتاض بصناعة المنطق لايسأل عن وجود الشيء الاّ بعد المعرفة به تفصيلا. أو أن المراد من التقديم، التقديم على سبيل الأولوية لا الوجوب والقطع، كما اشار إليه السيد في حواشي المطول[٨٤].

ومنها: «من»

والمطلوب بها، هو الامر العارض لذي العلم ومايفيد تشخصه وتعينه، علما كان الأمر العارض او وصفا. و ذلك نحو: مَنْ حفر بئرَ زمزمٍ؟ فيجاب اما بالعَلَم، مثل أن يقال: عبدُ المطلب. «فان العَلَم يفيد إحضار ما وضع له بعينه، وهو عارض له بمعنى انه خارج عن ماهيته، او شبيه بالعارض القائم»[٨٥].

٨٢ـ مختصر المطول ٢٧٦/٢.

٨٣ـ النجاة، ٦٨. والإشارات، ٥٤٠/١. الشفاء ٢٦٢/٢ـ٢٦١.

٨٤ـ حاشية السيد، ٢٣٢.

٨٥ـ عبدالحكيم، ٣٥٦.

او يجاب بغير العَلَم مما يفيد التشخص، كأن يقال في الجواب: مَنْ تولّى امرَ النبي (ص) بعدَ أنْ مات أبوه.

ولك ان تقول: اذا كانت «من» من الأدوات التي تختص بطلب التصور، فكيف يمكن ان يؤتى في جوابه بالتصديق؟ و ذلك كقوله تعالى على لسان الحواريين: «نحنُ أنصارُ الله» في جواب عيسى (عليه السلام) لما سأل: «من أنصاري إلى الله؟»[86].

فيُجاب بأن «من» وان كانت سؤالا عن التصور، لكن السائل بها تارة يجزم بحصول المبهم فيسأل عن تعيينه، وتارة لايجزم و ذلك كمن يرجو ناصرا يحتمل ان يوجد وان لايوجد ويطلب تعيينه، فقوله: من أنصاري؟ محمول على ذلك[87].

أقول: ليس الإتيان بالجواب في صورة التصديق، دليلا على أنّ المطلوب «بمن» في الآية التصديق لا التصور. لأن تعيين المسند إليه المطلوب «بمن» كما يحصل بالاكتفاء في الجواب بكلمة «نحن» وامثالها، من غير ضمّ ضميمة اخرى، يحصل ايضا بجملة «نحن أنصارُ الله». غير ان المعروف في الجواب هو الصورة الاولى، وان البلاغة هي الاكتفاء على قدر الحاجة، فلايُخْرَجُ الجواب عنها إلاّ لنكتة كما نرى في قول الحواريين. فانهم لم يكتفوا بكلمة «نحن» وان كانت مُجزية هاهنا، بل أضافوا عبارة «أنصارُ الله» عليها، افتخاراً بهذا العنوان وتأكيدا عليه و اهتماما بشانه، فلهذا زادوا عليها: «آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون»[88].

٨٦ــ آل عمران، ٥٢.

٨٧ــ راجع عروس الافراح ٢/٢٧٩.

٨٨ــ آل عمران، ٥٢.

احكام «من» :

تمتاز «من» بين أدوات الاستفهام بأحكام :

الأول ـ انها تختص بذي العلم فلاتستعمل لغيره إلاّ إذا نزّل منزلته.

الثاني ـ لزوم مطابقة جوابها لما في الواقع من غير زيادة ولا نقص ، كما ان الجواب الصحيح بالحدّ يلزم ان يكون جامعا ومانعا . فمثلا إذا كان من حفَرَ بئر زمزمٍ واحداً، يلزم ان يُكْتفى في الجواب بواحد، و اذا كان طائفة من الناس، يجب ان يُذْكر جميعُهم، فلايصح حينئذ الاكتفاء ببعض منهم[٨٩].

الثالث ـ ان جوابها مفرد لامركب، بمعنى انه اذا قيل في جواب من حفَرَ بئر زمزم : «عبدالمطلب» لايُقدّر له المبتدأ كما لايقدر في حيوان ناطق حدا للانسان . روى ذلك صاحب عروس الافراح عن والده[٩٠].

اقول : ان هذا الحكم لايختص «بمن» بل يجري عادة في جميع ادوات الاستفهام التي يُطلَب بها التصور لا التصديق .

الرابع ـ انها صالحة بلفظ واحد للمذكر والمؤنث، والمفرد والمثنى والجمع .

الخامس ـ أنها تعد من أسّ المطالب، مثل هل وما .

رأي السكاكي في «ما» و «من» :

قال السكاكي[٩١]: يسأل بـ «ما» عن الجنس من ذوي العلم وغيرهم.

٨٩ـ راجع عروس الافراح ٢/ ٢٨٠ .

٩٠ـ المصدر نفسه ٢/ ٢٨٠ .

٩١ـ مفتاح العلوم، ١٤٩ .

فتقول : ما عندك ؟ أي أيّ أجناس الأشياء عندك ؟ فيجاب بانسان اوفرس اوكتاب اوطعام، وكذلك تقول : ماالكلمة ؟ فيجاب بلفظ مفرد موضوع . فالمراد بالجنس عندالسكاكى هو الماهيةالكلية، متفقةالأفراد او مختلفة ، مجملة اومفصلة .

والفرق بين «ما» في رأى السكاكى وبينه فيما تقدم ـ وان كان يُطلب بها في كلتا الصورتين شرحُ الاسم وشرحُ الماهية ـ هو انها تختص عندالسكاكى بالأمر الكلى، وأمّا على ما تقدم فيسأل بها شرح الاسم كليا او جزئيا[٩٢].

وايضا ان «ما» يسأل بها عندالسكاكى عن الوصف كما يسأل بها عن غيره، فتقول : مازيد ؟ وجوابه كريم . فتجرى «ما» في هذه الصورة مجرى «ایّ» في السؤال عن الصفات المميّزة . وهذا، اخراج من السكاكى لـ «ما» عن حقيقتها، «فان المنطقيين قالوا لايسأل عن الصفات المميزة بـ «ما» بل يسأل عنها بـ «ایّ» وانما يسأل بـ «ما» عن مفهوم اللفظ وعن حقيقة الشيء[٩٣].

وأما «من» عندالسكاكى، فيسأل بها عن الجنس من ذوى العلم فقط، تقول : من جبريل ؟ بمعنى أبشر" هو أم ملك" ام جنّى ؟ و ذكر في قوله تعالى حكايةً عن فرعون: «فمن ربكما ياموسى؟»[٩٤] ان المراد من السؤال من مالِككما ومدبّر أمركما ؟ أملك هو ؟ ام جنّى ؟ ام بشر؟[٩٥].

٩٢ــ عبدالحكيم، ٣٥٦ــ٣٥٧ .

٩٣ــ عروس الافراح ٢/٢٨٣ .

٩٤ــ طه، ٤٩ .

٩٥ــ مفتاح العلوم، ١٤٩، ١٥٠ .

و ردّ بأن الحق فى جواب من جبريل ؟ ان يقال : ملك يأتى بالوحى من الله الى الرسل، او ما يُشبه ذلك مما يفيد التشخص والتعين. وبان جواب موسى لفرعون ؛ «ربّنا الّذى أعطى كلّ شيءٍ خلقه ثم هدى»[٩٦] يدل على ان المطلوب «بمن» هو الامر الذى يعرض لذى العلم ويفيد تشخصه و تعينه .

وايضا مما لا يؤيد رأى السكاكى، أن «من» تستعمل لما يعقل والجنسُ الكلى ليس بعاقل، لانه حقيقة كلية، فلايسأل عنه بمن . ولهذا قال النحاة . انه حيث اريد الجنس يؤتى فى السؤال ؛ «ما»[٩٧].

ومنها : «أىّ»

والمطلوب بها ما يُميّز أحدَ المتشاركين أوالمتشاركات فى أمر عامّ، هو مضمون ما أضيفت إليه . يعنى أنه إذا كان هناك شيئان يتصفان بصفة ويشتركان فيها ويُعرفان بها عند المتكلم، ولكن ثبت لاحدهما حكم لا على التعيين، فللمتكلم أن يسأل ؛ «أى» فى هذه الصورة عما يُميّز صاحب الحكم ويشخصه . و ذلك كقوله تعالى حكاية عن المشركين فى سؤالهم : «اى الفريقين خير" مقاما» * ؟ فالمؤمنون والكافرون هما الشيئان اللّذان اشتركا فى الفريقيّة التى هى مضمون المضاف اليه فى الآية، والحكم الذى علم ثبوته لاحدهما لا على التعيين هو الخيرية، فسئل باىّ عما يعيّن صاحب الحكم مِنْ غيره، فيجاب بانتم أو أصحاب

٩٦ـ طه، ٥٠ .

٩٧ـ عروس الافراح ٢/٢٨٢ .

* مريم، ٧٣ .

محمد[٩٨] (ص) .

تقسيم أيّ :

تنقسم «ايّ» الى قسمين : جوهرية وعرضية . فالاول ما يُطلب به مميّز هو من ذاتيات صاحب الحكم، والثاني ما يطلب به عوارض الشيء . فيرجع الجوهرية الى ما الحقيقة، والعرضيّة الى هل المركبة[٩٩] .

أحكام أيّ :

تختص «أيّ» باحكام، منها :

١ـ انها لاتضاف الى مفرد معرفة، لأن المضاف اليه لها، امر مشترك بين متعدد فلابد أن يكون اما نكرة، اومعرفة متعددة .

٢ـ انها اذا اضيفت الى مثنى او جمع معرفة افرد ضميرها، كقولك: أيّ المقاتِلين جُرِحَ ؟ واذا اضيفت الى نكرة طوبق، نحو: أيّ والدين لا يرغبانِ في سعادة ولدِهما ؟[١٠٠]

ذكر سيبويه ان «أيّ» و «من» اذا استفهم بهما عن النكرة ، تطابقان مع المستفهَم افراداً وتثنيةً وجمعاً وتذكيراً **وتأنيثاً** . فلو قال شخص : رأيتُ رجلاً، قلتَ : أيّاً ؟ كما تقول : من ؟

٩٨ـ مختصر المطول ٢/٢٨٥ .

٩٩ـ راجع شرح المنظومة، ٣٢ . جاء في النجاة (٦٨) : «واما مطلب الـ«اي» فهو داخل بالقوة في الهل المقيد، وانما يطلب التمييز اما بالصفات الذاتية، واما بالخواص» .

١٠٠ـ راجع الفية ابن مالك وشرحه للسيوطي، ١٢٧ .

واذا قال : رجلين، قلتَ : أيّين؟ كما تقول : منين ؟. واذا قال : رجالا، قلت : أيين؟ كما تقول : منين؟

واذا قال : امرأة، قلت : أيّة؟ كما تقول : منه؟ وفى المثنى والجمع يقال: أيتان وايّات، ومنتان ومنات، بسكون الاخر فى مَن[١٠١].

٣ـ انها تأتى للسؤال عن الزمان والمكان والحال والعدد والعاقل وغير العاقل والجنس والفصل والنوع وغيرها، فتعرف هذه المعانى ممّا اضيفت اليه[١٠٢].

ومنها : «كم»

فيسأل بها عن العدد المعيّن، كقوله تعالى : قال قائلٌ منهم : كم لبثتم ؟ قالوا لبثنا يوماً او بعضَ يوم[١٠٣].

قال سيبويه : «اذا قال لك رجل : كم لكَ ؟ فقد سألك عن عدد، لأن «كم» انما هى مسئلة عن عدد هاهنا. فعلى المجيب ان يقول: عشرون، او ماشاء ممّا هو أسماء لعدّة .

فاذا قال لك : كم لك درهماً ؟ او كم درهماً لك ؟ ففسر ما يسأل عنه، قلت :عشرون درهما . فعملت «كم» فى الدرهم عمل العشرين فى الدرهم، ولك مبنيّة على «كم»[١٠٤].

١٠١ـ راجع الكتاب، ٤٠١ .

١٠٢ـ راجع النحو الوافى ١٠٦/٣ وعلم المعانى، ٥٢ .

١٠٣ـ الكهف، ١٩ .

١٠٤ـ الكتاب ٢٩١/١ .

الفرق بين كم الاستفهامية والخبرية :

تمتاز الاستفهامية من الخبرية بوجوه :

الاول ــ أنّ الاستفهامية تدل على عدد مبهم عند المتكلم، ولكنه معيّن عند المخاطب فى ظن المتكلم . واما الخبرية، فتدل على عدد مبهم عند المخاطب ربّما يعرفه المتكلم .

الثانى ــ أنّ الكلام مع الاستفهام لا يحتمل الصدق والكذب، بخلافه مع الخبرية .

الثالث ــ أنّ المتكلم فى الاستفهامية يستدعى جوابا من المخاطب ، واما فى الخبرية فلا يستدعيه، لأنه مُخْبِر لا مُستخبر[١٠٥] .

ومنها : «كيف»

فيسأل بها عن الحال او الصفة التى يقع عليها الشىء، كالصحة والمرض والجلوس والقيام وغيرها، فيقال : كيف علىٌ ؟ اىْ : أصحيح او مريض؟ وكيف جاء سعيد ؟ اى : أراكبا او ماشيا ؟

قيل : مِن حق كيف أن يُسأل بها عن الصفات الغريزية لا الخارجية، فلهذا لا يقال : كيف على ؟ بمعنى : أقائم أم قاعد[١٠٦]؟

ومنها : «أين»

فيسأل بها عن المكان، فيقال : اين تسافر أيّام عطلة النيروز ؟

١٠٥ــ حاشية الدسوقى ٢/٢٨٨ .

١٠٦ــ راجع عروس الافراح ٢/٢٨٧ .

ومنها : «أنى»

يسأل بها تارة عن الحال فتفيد معنى «كيف» و ذلك، نحو قوله تعالى : «أنّى يُحيى هذه الله بعدَ موتِها»[١٠٧]؟

والفرق بينها وبين كيف فى هذه الصورة، انها تأتى دائما مع الفعل ماضيا او مضارعا، ولم يسمع : أنّى زيد ؟ بمعنى : كيف هو[١٠٨].

وتارة يُسأل بها عن المكان وتفيد معنى مِنْ أين، و ذلك كما جاء فى القرآن الكريم : أنّى لكِ هذا[١٠٩]؟ اى : مِنْ أيْن.

يقال فى الفرق بينهما : ان «أينَ» للسؤال عن المكان الذى حلّ فيه الشىء، وانّ «مِنْ أيْنَ» للسؤال عن المكان الذى برزمنه الشىء[١١٠].

اعلم ان المستفاد من كلام القوم عند استعمال «انّى» فى المعنين المذكورين، انها تحتمل ان تكون حقيقة فى الاستعمالين كالمشترك، وان تكون حقيقة فى أحدهما ومجازا فى الآخر.

أقول : الظاهر هو الاحتمال الأول، و ذلك لانها لم تستعمل فى غير الاستفهام ولم تفارق معنى السؤال، وايضا انه لم ينقل عن احد انها وضعت لواحد من المعنيين على سبيل التعيين، حتى يكون استعمالها فى المعنى الآخر مجازا.

وقيل انها تستعمل ايضا بمعنى «متى» كقولك : «أنّى يفيض النيل[١١١]؟

١٠٧ـ البقرة، ٢٥٩.

١٠٨ـ راجع المطول، ٢٣٤.

١٠٩ـ آل عمران، ٣٧.

١١٠ـ راجع عروس الافراح ٢٨٩/٢.

١١١ـ علم المعانى، ٥١.

ومنها : «متى»

يسأل بها عن الزمان، ماضيا كان او مضارعا .

ومنها : «أيّان»

يسأل بها عن الزمان المستقبل ، وتستعمل كثيرا فى مواضع التفخيم ، و ذلك نحو قوله تعالى : ايّانَ يومُ الدّين[١١٢]؟ و ذكر الرضى انها تفيد التفخيم دائما[١١٣].

اخراج أدوات السؤال إلى معانى غير استفهامية

اعلم ان ما سبق من المعانى لأدوات السؤال، هى المعانى الأصلية التى إذا استعملت تلك الأدوات فيها، كانت حقيقة، فأدوات الاستفهام من هذه الناحية ليست من صميم المباحث البلاغية .

ولكن كثيرا ما تُخرَج تلك الأدوات الى معانى أخرى، لنُكَت بلاغية وايحاء فوائد لا تؤديها المعانى الأصلية ، و بهذا الاعتبار يلتقى مبحث الاستفهام مع المباحث البلاغية ويؤول إليها .

وتلك المعانى البلاغية شائعة الاستعمال ، حتى ان الاستعمال الغالب لأساليب الاستفهام فى القرآن يرجع اليها . وهى تتأثر باختلاف القائل والمخاطب والاحوال المحيطة بهما ، وتستفاد من الأدوات الاستفهامية

١١٢ـ الذاريات، ١٢ .

١١٣ـ شرح الكافية ١١٦/٢ .

بمعونة سياق الكلام والقرائن على سبيل المجاز اوالاستعارة اوغيرهما[١١٤].

صرّح العلامةالتفتازانى بأن استعمال أدوات الاستفهام فى تلك المعانى مجاز، ولكن لم يقم احد بتعيين نوعه[١١٥]. وعلّق السيد على قوله هذا، وعلل اهمال القوم بصعوبة تبيين علاقة هذا المجاز. ثم قال: «ونحن نذكر فى هذه المواضع ما يتضح به وجه المجاز»[١١٦] وتلخيص كلام السيد فى هذا المقام هو أنّ المجاز ينتهى الى المرسل، وأنّ اكثر العلاقات يرجع الى الاستلزام[١١٧].

وامّا عبدالحكيم، فهو يرى ان ارادة تلك المعانى البلاغية من أدوات الاستفهام، تصلح لان تكون مجازا اوكناية او غيرهما. فقال: «لكن التحقيق انه قد يراد منها تلك المعانى بطريق المجاز، وقد يراد بطريق الكناية، وقد يراد بطريق أنها مستتبعات الكلام»[١١٨].

ثم ان المعانى البلاغية لكلمات السؤال كثيرة، «ولا ينحصر ... شىء منها فى أداة دون أداة، بل الحاكم فى ذلك هو سلامة الذوق وتتبع التراكيب، فلا ينبغى ان تقتصر فى ذلك على معنى سمعته، اومثال وجدته من غير ان تتخطاه»[١١٩].

١١٤ـ راجع اساليب الاستفهام فى القرآن، ١٩٢، ٢٤٦، ٢٤٨ـ٢٥٠.
وجدير بالذكر ان اسلوب الاستفهام الحقيقى فى القرآن لا يتجاوز (١٩) موردا، مع ان مجموع الاستفهام القرآنى يبلغ (١٢٦٠) موردا.

١١٥ـ المطول، ٢٣٥.

١١٦ـ حاشية السيد، ٢٣٥.

١١٧ـ المصدر نفسه، ٢٣٥.

١١٨ـ عبدالحكيم، ٣٥٩.

١١٩ـ مطول، ٢٣٩.

لقد ذكر السيوطي[١٢٠] في «الاتقان» من تلك المعاني اثنين وثلاثين كما يلي :

١ـ الانكار، والمعنى فيه على النفي، وما بعده منفي . و لذلك تصحبه «إلاّ» ويعطف عليه المنفي كقوله تعالى : «فهَل يُهلَكُ إلاّ القومُ الفاسقون»[١٢١] ؟ و «فمن يهدي مَن اضلَّ اللهُ ؟ وما لهم من ناصرين»[١٢٢].

وكثيرا ما يصحبه التكذيب، وهو في الماضي بمعنى لم يكن، وفي المستقبل بمعنى لا يكون . نحو : أفأصفاكم ربكم بالبنين[١٢٣]؟ وأنلزمكموها وأنتم لها كارهون[١٢٤]؟.

٢ـ التوبيخ، والمعنى على ان مابعده واقع ولكن جدير بان ينفى. والفرق بينه وبين الانكار، ان النفي هنا غير قصدي والاثبات قصدي ، والانكار على العكس .

ثم التوبيخ كما يقع على فعل جدير بالترك نحو : أتعبدون ما تنحتون[١٢٥]؟ يقع على ترك فعل كان ينبغي ان يقع ، كقوله : ألم تكن

١٢٠ـ الاتقان، ٢/٨٢-٨٣ .

١٢١ـ الاحقاف، ٣٥ .

١٢٢ـ الروم، ٢٩ . وكقول محمود الوراق :

اذا كتم الصّديق اخاه سرّاً   فما فضل الصّديق على العدوّ

(المحاضرات ١/١٢٨)

١٢٣ـ بني اسرائيل، ٤٠ .

١٢٤ـ هود، ٢٨ .

١٢٥ـ الصافات، ٩٥ .

أرضُ اللهِ واسعةً فتهاجِروا فيها[١٣٦]؟.

٣ــ التقرير، وهو حمل المخاطب على الاقرار والاعتراف بامر قد استقر عنده . كقوله تعالى : «ألم نشرَح لك صدرَك؟»[١٣٧] و قوله : «أكذبتم بآياتي ولم تُحيطوا بها عِلما ؟»[١٣٨]

و روى عن سيبويه منع التقرير في «هل» ، ولكن قال بعض منهم الزمخشري بورودها له، فانه يرى ان «هل» في قوله تعالى: «هل أتى على الإنسان ...» للتقرير[١٣٩].

٤ــ التعجب، نحو : «كيف تكفرون وانتم تُتلى عليكم آياتُ اللهِ وفيكم رسولُه ؟»[١٣٠] و «مالي لا أرى الهدهد ؟»[١٣١].

قال عبدالحكيم : «عدم الرؤية قد يكون لحال في جانب الرائي ، و

١٢٦ــ النساء ، ٩٧ .

١٢٧ــ الانشراح، ١ .

١٢٨ــ النمل، ٨٤ .

١٢٩ــ الكشاف، ١/١٤٨ .

ــ قال صاحب (تأويل ... ٤١٠) : «هل تكون للاستفهام، ويدخلها من معنى التقرير والتوبيخ ما يدخل الالف التي يستفهم بها، كقوله تعالى : هل لكم مما ملكت ايمانكم من شركاء ؟ وهذا استفهام فيه تقرير وتوبيخ . و كذلك قوله تعالى : هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟» .

ومن مجئ «هل» للتقرير قول النبي (ص) : و هل يكبّ الناس على مناخرهم في نار جهنم إلاّ حصائد السنتهم؟ فيما قال لمعاذ : امسك عليك هذا ــ واشار الى لسانه ــ فقال معاذ : اونحن مؤاخذون بما نتكلم ؟ فقال : ثكلتك امّك يا معاذ ! وهَل ... (المثل السائر ١/٤٠٣) :

١٣٠ــ آل عمران، ١٠١ .

١٣١ــ النمل، ٢٠ .

قد يكون لحال في جانب المرئي . فقوله : «مالـي لا أرى الهدهد ؟» ان كان استفهاما عن حال في جانب الرائي يوجب عدم الرؤية، فـالاستفهام لا يسكن حمله على حقيقته، إذ لا معنى للاستفهام عن حال نفسه فهو مجـاز عن التعجب .

وان كان استفهاما عن حال في جانب المرئي يـوجب عـدم الرؤية كالساتر فيجوز ان يكون الاستفهام على حقيقته .

فان قـُصـِد منه التعجب، ويكون ارادة المعنى الحقيقي لمجرد التصوير والانتقال ، كان كناية .

وان قـُصـِد منه المعنى الحقيقي مع التعجب، كان التعجب من مستتبعات الكلام»[١٣٢].

٥ـ العتاب، كقوله تعالى : ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشعَ قلوبُهم لذكر الله[١٣٣] ؟

ومن ألطَفه ما عاتب الله به خير خلقه بقوله : عفا الله ُ عنك لم أذنتَ لهم[١٣٤] ؟

٦ـ التذكير، كقوله تعالى : الم اعهد اليكم يا بني آدم، ان لا تعبدوا الشيطان[١٣٥] ؟

وقوله : ألم اقل لكم إني أعلمُ غيبَ السموات والارض[١٣٦] ؟

١٣٢ـ عبد الحكيم، ٣٥٩ .

١٣٣ـ الحديد، ١٦ .

١٣٤ـ التوبة، ٤٣ .

١٣٥ـ يس، ٦٠ .

١٣٦ـ البقرة، ٣٣ .

٧ــ الافتخار، نحو: أليس لى ملكُ مصر[١٣٧]؟

٨ــ التفخيم، نحو: ما لهذا الكتاب لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرة[١٣٨]؟

٩ــ التهويل والتخويف، نحو: الحاقةُ ما الحاقة[١٣٩]؟

١٠ــ عكسه وهو التسهيل والتخفيف نحو: وماذا عليهم لو آمنوا[١٤٠]؟

١١ــ التهديد والوعيد، نحو: ألم نُهلِكِ الأولين[١٤١]؟

١٢ــ التكثير، نحو: وكم من قرية اهلكناها[١٤٢]؟

١٣ــ التسوية، نحو: سواءٌ عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم[١٤٣]؟

١٤ــ الأمر، نحو: فهل أنتم منتهون[١٤٤]؟ اى انتهوا.

١٥ــ التنبيه، نحو: ألم تـر أن اللهَ أنزل من السماء مـاء فتصبح الارض مخضَرّةً[١٤٥]؟

١٦ــ الترغيب، نحو: هل أدلُّكم على تجارةٍ تُنجيكم[١٤٦]؟

١٧ــ النهى، نحو: أتخشونهم؟ فالله أحقّ أن تخشوه[١٤٧]. فالمعنى،

١٣٧ــ الزخرف، ٥١.

١٣٨ــ الكهف، ٤٩.

١٣٩ــ الحاقه، ١.

١٤٠ــ النساء،.

١٤١ــ المرسلات، ١٦.

١٤٢ــ الاعراف، ٤.

١٤٣ــ البقرة، ٦.

١٤٤ــ المائدة، ٩١.

١٤٥ــ الحج، ٦٣.

١٤٦ــ الصف، ١٠.

١٤٧ــ التوبة، ١٣.

لاتخشوهم .

وقوله ايضا : يا أيها الانسانُ ماغرَّك بربِكَ الكريمِ[١٤٨]؟ اى لاتغتر.

١٨ـ الدعاء، وهو كالنهى الا انه من الأدنى الى الاعلى، نحو : أتهلِكُنا بما فعلَ السفهاء[١٤٩] ؟ اى لاتهلكنا .

١٩ـ الإسترشاد، نحو : أتجعلُ فيها من يُفسِد فيها[١٥٠] ؟

٢٠ـ التمنى، نحو : فهل لنا مِنْ شفعاء[١٥١] ؟

٢١ـ الإستبطاء، نحو : متى نصرُ الله[١٥٢] ؟

٢٢ـ العرض، نحو : ألا تحبّون أن يغفرَ اللهُ لكم[١٥٣] ؟

٢٣ـ التحضيض، نحو : ألا تُقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم[١٥٤] ؟

٢٤ـ التجاهل، نحو : أأنزل عليه الذكرُ مِنْ بيننا[١٥٥] ؟

٢٥ـ التعظيم، نحو : مَنْ ذا الذى يشفَع عنده ...[١٥٦] ؟

٢٦ـ التحقير، نحو : «أهذا الذى يذكرُ آلهتَكم؟»[١٥٧] و «أهذا الذى بعثَه اللهُ رسولا؟»[١٥٨]

١٤٨ـ الإنفطار، ٦ .

١٤٩ـ الاعراف، ١٥٥ .

١٥٠ـ البقرة، ٣٠ .

١٥١ـ الاعراف، ٥٣ .

١٥٢ـ البقرة، ٢١٤ .

١٥٣ـ النور، ٢٢ .

١٥٤ـ التوبة، ١٣ .

١٥٥ـ ص، ٨ .

١٥٦ـ البقرة، ٢٥٥ .

١٥٧ـ الأنبياء، ٣٦ .

١٥٨ـ الفرقان، ٤١ .

٢٧ــ الاكتفاء ، نحو : أليس فى جهنمَ مثوىً للمتكبرين[١٥٩] ؟

٢٨ــ الاستبعاد ، نحو : أنّى لهم الذكرى[١٦٠] ؟

٢٩ــ الايناس، نحو : وما تلك بيمينك يا موسى[١٦١] ؟

٣٠ــ التهكم والاستهزاء ، نحو : أصلاتُك تأمُرك[١٦٢] ؟

٣١ــ التأكيد، لما سبق من معنى أداة الاستفهام، نحو : أفمَنْ حقَّ عليه كلمةُ العذاب ؟ أفأنتَ تُنقِذ مَنْ فى النار[١٦٣] ؟

«فمن» اسم الشرط وجملة «فأنت ...» جوابه، و دخلت عليه الهمزة لتأكيد معنى الانكار .

٣٢ــ الاخبار، نحو : افى قلوبهم مرض[١٦٤] ؟

فهذه المعانى والأغراض البلاغية لأدوات الاستفهام ليست متباعدة و متنافرة معا، بحيث لايلتقى بعضها مع بعض، ولايجتمع واحد منها مع الآخر . الا ترى انه يمكن ارجاعُ التوبيخ الى الانكار كما فعل الخطيب القزوينى حيث يقول : «والانكار اما للتوبيخ اى ما كان ينبغى» وإرجاعُ الامر والتحضيض الى الترغيب، والافتخار والتذكير فى الأمثلة السابقة ، الى التقرير .

وهذا الارتباط الوثيق بين الاغراض لم يكن مجهولا على السيوطى ،

١٥٩ــ الزُمَر، ٦٠ .

١٦٠ــ الدخان، ١٣ .

١٦١ــ طه، ١٧ .

١٦٢ــ هود، ٨٧ .

١٦٣ــ الزمر، ١٩ .

١٦٤ــ النور، ٥٠ .

لان نفسه أشار الى تداخل التوبيخ مع الانكار، والتنبيه مع الامر، والدعاء مع النهى .

ويمكن ايضا جمع بعضها مع بعض كما نقل السيوطى[١٦٥] عن الزمخشرى فى «أتامرون الناس بالبرّ وتنسَون أنفسَكم ؟» : ان الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجب من حالهم .

ثم يرد على السيوطى ان التسوية ليست من المعانى البلاغية للاستفهام، وان الهمزة بعد كلمة «سواء» لا تدل على معنى الاستفهام لا حقيقه ولا مجازا، وانما الكلام معها خبر لا انشاء[١٦٦].

ويرد أن المثال فى «الخامس والعشرون» لا يطابق المثل له، إذ جملة «من ذا الذى» لا تدل على تعظيم المسؤول عنه، بل الجملة تفيد تعظيم الخالق وهو ليس مسؤولا عنه، فالمثال يناسب الانكار او النفى .

ظواهر بعض المعانى البلاغية

اعلم ان لبعض من هذه الاغراض ظواهر وميزات جديرة بالذكر، فنشير اليها بالاختصار :

١ــ الانكار يقع مع الهمزة أكثر من بقية أدوات السؤال .

٢ــ ان الانكار اكثر الاغراض البلاغية للاستفهام .

٣ــ لا يجرى التعجب فى الذات، بل يجرى فى الافعال بكثرة و فى النسب بقلة .

١٦٥ــ الاتقان ٢/٨٢ .

١٦٦ــ راجع اساليب الاستفهام، ٢٥٨ .

٤ـ الانكار للنفى، يأتى مع «هل» بكثرة، ويليه «ما» و «من» فى كثرة الدلالة على الانكار المنفى .

٥ـ ان الهمزة وهل، تستعملان للدلالة على معنى الامر أكثر من بقية أدوات الاستفهام .

٦ـ التحقير والتعظيم يتعلقان بالاسماء فى الاكثر، ويأتيان مع «من» و «ما» فى الغالب .

٧ـ التعجب، والانكار للنفى والتكذيب، والاستبطاء، والاستبعاد، وكذلك التهويل والتخويف، قد يصحبها ما ينبىء عن المعانى البلاغية . كما نرى فى هذه الآيات :

الف ـ «قالت يا ويلتا أألِدُ وأنا عجوز" وهذا بعلى شيخا ؟ إنّ هذ لشىء عجيب»[١٦٧]، فجملة «إن هذا ...» تنبىء عن التعجب الذى تضمنه الاستفهام .

ب ـ «أفمَن كان مؤمنا كمَن كان فاسقاً ؟ لا يستوون»[١٦٨] .

فقوله : «لا يستوون» يدل على نفى المشابهة بين المؤمن والفاسق .

ج ـ «أفأصفيكم ربّكم بالبنين واتّخذَ من الملائكة اناثا؟ انكم لتقولون قولا عظيما»[١٦٩] فجملة «انكم لتقولون ...» تدل على ما يستفاد من الاستفهام، وهو التكذيب .

د ـ «ويقولون متى هذا الوعد إنْ كنتم صادقين ؟ قل عسى ان يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون»[١٧٠] فعبارة بعض الذى ... تنبىء

١٦٧ـ هود، ٨٢ .

١٦٨ـ السجدة، ١٨ .

١٦٩ـ المؤمن، ٤٠ .

١٧٠ـ النمل، ٧١

عما تضمنه الاستفهام هاهنا[١٧١].

هـ ـ «الحاقة ماالحاقة ؟ وما أدراك ماالحاقة» . فقوله : «وما ادراك ...» ينبيء عما تضمنه الاستفهام من التهويل والتعظيم، حيث يدل على ان المستفهم عنه بلغ من العظمة درجة لايدرك كنهه ولايعرف معرفة تامة .

بلاغة أساليب الاستفهام

اعلم ان لاساليب الاستفهام فى قوة التعبير والحيوية، وبيان ما يكتنف الانسان من الاحوال والعواطف والغرائز، وافادة معنى كثير بلفظ قليل، والافصاح عن المراد بأحسن صورة، و دعوة المخاطب الى الصواب بالطف وجه، مزايا ليست باجمعها فى غيرها، فمنها :

١ ـ ان اسلوب الاستفهام ليس اسلوب سرد ممّل يقص به المتكلم ، بل المتكلم يحفظ صلته مع المخاطبين ويُشركهم فى بيان المراد والوصول الى الصواب . فالمتكلم والمخاطب فيه يبدلان موضعهما، فيصبح المتكلم مخاطبا والمخاطب متكلما . فكل منهما يحس الإلتزام امام هذا الاسلوب .

٢ ـ ان الحالات النفسية والعواطف والغرائز للانسان كثيرة لايحصرها لفظ ولاينفدها عدّ، ولعل انسب واشمل اسلوب لها هو اسلوب الاستفهام، و ذلك لان اساليب الاستفهام ايضا لايضيّقها مفهوم، ولايعصى عليها مجهول .

---

١٧١ ـ راجع اساليب الاستفهام فى القرآن، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢١٢، ٢٣٤، ٢٤١، ٢٥٢ .

٣ـ انالمتكلم يستطيع ان يعبر باسلوب الاستفهام عما يريده بالاختصار .

فمثلا اذا أردنا ان نهدد سارقا وندعوه الى الصلاح وترك العمل ، نستفيد من الاستفهام ونقول له : ألم تقطَع أيدى السارقين ؟ وهذا أوجز مِنْ "لاتسرق وأقبِل على الصلاح، والا تُقطع أيديك كما تقطع أيدى بقية السارقين .

٤ـ أن المتكلم يُفْصح عما يعتقده على أحسن صورة، لانه يعرض مراده على صورة المجهول، ويجعل نفسه فى الظاهر مترددا فيه، ومستفهما وطالبا الصواب . فلايعبر عن مراده جازما، لئلا يخيل انه يريد ان يلقى فكرة، فتنكر ولا يصغى اليها ابتداء .

وايضا ان المتكلم يجعل المخاطب مشاركا له فيه ويدعوه الى التأمل والاجابة، فيسد عليه طريق الانكار ابتداء .

٥ـ ان المتكلم يعرض مراده فى بعض اساليبه معرض المعلوم الذى يكفيه ادنى ملاحظة، ويجعل المخاطب فيه اعلم به فى الظاهر ، قال الدسوقى فى بلاغة «اين تذهبون ؟» عند افادة التنبيه على الضلال :

«واعلم ان استعمال أداة الاستفهام فى التنبيه المذكور ... يتضمن معنىً لطيفا، وهو الاشارة الى ان كون ذلك الامر ضلالا امر واضح يكفى فى العلم به مجرد الالتفات، وايهام ان المخاطب اعلم بتلك الطريق من المتكلم من حيث اتيانه له بالاستفهام الذى من شأنه انه انما يوجه لمن هو اعلم بالمستفهم عنه»[١٧٢].

١٧٢ـ دسوقى ٢/٢٩٣ .

المبحث الثالث الامر

عرفوا الامر بتعبيرات مختلفة، منها :

١ــ اقتضاء فعل غير كف مدلول عليه بغير كف[١٧٣].

٢ــ طلب فعل غير كف على جهة الاستعلاء[١٧٤].

٣ــ طلب حصول الفعل من المخاطب على وجه الاستعلاء مع الالزام[١٧٥].

والاستعلاء أعم من أن يكون الآمر عاليا فى الحقيقة، كقول الأب لابنه: اجلس مكانك . أو السيد لخادمه : اذهب الى السوق فاشتر كذا وكذا .

اولم يكن عاليا، بل يُظهر نفسه بمظهر من له علو المرتبة، كأن يطلب الابن من ابيه والخادم من سيده شيئا على سبيل الاستعلاء والالزام .

ثم الامر لطلب الماهية، لالتكرار ولامرّة وان كانت ضرورية، اذ لا تتحق الماهية باقل منها، وليس حقه الفور خلافا لقوم فى جميع ذلك[١٧٦].

صيغ الامر :

الألفاظ الدالة عليه أصالة، والصيغ الموضوعة له حقيقة، أربع :

الاول ــ فعل الامر، كقوله تعالى : «يا يحيى خذ الكتاب»[١٧٧].

١٧٣ــ جمع الجوامع ٢١٢/١ .

١٧٤ــ المختصر ٣٠٨/٢ــ٣٠٩ .

١٧٥ــ جواهر البلاغة، ٧٧ .

١٧٦ــ راجع جمع الجوامع ٢٢٠/١ .

١٧٧ــ مريم، ١٢ .

الثانى ـ المضارع المجزوم بلام الامر، كقوله : «لينفق ذوسَعةٍ من سعته»[١٧٨].

الثالث ـ اسم الفعل بمعنى الامر، نحو : «عليكم انفسكم لايضركم من ضلّ إذا اهتديتم»[١٧٩].

الرابع ـ المصدر النائب عن فعل الامر نحو: سعياً فى سبيل الخير[١٨٠].

واختلفوا فيما تدل عليه تلك الصيغ بالوضع والحقيقة، «والاظهر ـ انها ـ موضوعة لطلب الفعل استعلاء»[١٨١] لانه المتبادر الى الفهم عند السماع. ثم الامر كسائر اقسام الانشاء لايعد من صميم المباحث البلاغية الا باعتبار لطائف واغراض تتحقق بعدول الامر من حقيقته الاصلية اليها، وتحصل باخراج صيغه عليها، فيلتقى مبحث الامر حينئذ مع المجاز أوالكناية.

وهذه الاغراض كثيرة والحاكم فيها هو الذوق، وتستفاد بمعونة السياق والقرائن. لعل صاحب عروس الافراح و «جمع الجوامع» اكثر من حشدوا تلك الاغراض[١٨٢]، فنذكرها هنا ثم ننقدها.

الاغراض البلاغية المستفادة من صيغ الأمر :

كثيرا ما تخرج صيغ الأمر عن حقيقها، وتستعمل للاغراض الآتية :

١٧٨ـ الطلاق، ٧.

١٧٩ـ المائدة، ١٠٨.

١٨٠ـ راجع جواهر البلاغة، ٧٨.

١٨١ـ تلخيص المفتاح ٢/٢١١.

١٨٢ـ راجع عروس الافراح ٢/٣١٢ـ٣٢٢ وجمع الجوامع ١/٢١٥ـ ٢١٧.

١ـ الاباحة، نحو : كلوا من الطيبات[١٨٣].

٢ـ التهديد، نحو : اعملوا ما شئتم[١٨٤].

٣ـ التعجيز، نحو : فأتوا بسورة من مثله[١٨٥].

٤ـ التسخير، بمعنى التذليل والامتهان، او التحويل من حال الى حال نحو : كونوا قردة خاسئين[١٨٦].

٥ـ الاهانة، نحو : ذق انك انت العزيز الكريم[١٨٧].

٦ـ التسوية، نحو : فاصبروا او لا تصبروا[١٨٨].

٧ـ التمني، كقول امرء القيس :

الا ايها الليل الطويل ألا انجلي   بصبح وما الإصباح منك بأمثل

٨ـ الدعاء، نحو : ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق[١٨٩].

٩ـ الالتماس، وهو الطلب ممن يساويك رتبة، حقيقة او ادعاء، نحو: افعل كذا.

١٠ـ الندب، نحو : فكاتبوهم ان علمتم فيهم حقا[١٩٠].

١٨٣ـ المؤمنون، ٥١.

١٨٤ـ فصّلت، ٤٠.

١٨٥ـ البقرة، ٢٣.

١٨٦ـ البقرة، ٦٥.

١٨٧ـ الدخان، ٤٩.

١٨٨ـ بني اسرائيل، ٥٠.

١٨٩ـ الاعراف، ٨٨.

١٩٠ـ النور، ٣٣.

١١ـ الارشاد، نحو : واستشهدوا شهيدين من رجالكم[١٩١].

١٢ـ الانذار، نحو : قل تمتعوا فان مصيركم الى النار[١٩٢].

١٣ـ الامتنان، نحو : كلوا مما رزقكم الله[١٩٣].

١٤ـ الاكرام، نحو: ادخلوها بسلام آمنين[١٩٤]. فالسلام والامن قرينة على كون الصيغة للاكرام .

١٥ـ الاحتقار، نحو : القوا ما انتم ملقون[١٩٥]. فان ما يلقيه السحرة و ان كان عظيما لكنه محتقر بالنسبة الى معجزة موسى .

١٦ـ التكوين، وهو الايجاد عن العدم بسرعة، نحو: كن فيكون[١٩٦].

١٧ـ الخبر، نحو : اذا لم تستح فاصنع ماشئت .

١٨ـ الانعام، بمعنى تذكير النعمة نحو: كلوا من طيبات مارزقناكم[١٩٧].

١٩ـ التفويض، نحو : فاقض ما انت قاض[١٩٨].

٢٠ـ التعجب، نحو : اظر كيف ضربوا لك الامثال[١٩٩].

٢١ـ التكذيب، نحو : قل فاتوا بالتوراة فاتلوها[٢٠٠].

١٩١ـ البقرة، ٢٨٢ .

١٩٢ـ ابراهيم، ٣٠ .

١٩٣ـ الانعام، ١٤١ .

١٩٤ـ الحجر، ٤٦ .

١٩٥ـ يونس، ٨٠ .

١٩٦ـ البقرة، ١١٧ .

١٩٧ـ البقرة، ٥٧ .

١٩٨ـ طه، ٧٢ .

١٩٩ـ بنى اسرائيل، ٤٨ .

٢٠٠ـ آل عمران، ٩٣ .

وايضا، نحو : قل هلم شهداءكم الذين يشهدون ان الله حرّم هذا[٢٠١].

٢٢ـ المشورة، نحو : فانظر ما ذا ترى[٢٠٢].

٢٣ـ الاعتبار، نحو : انظروا الى ثمره اذا أثمر[٢٠٣].

٢٤ـ الامتثال، كقولك لآخر عند العطش : اسقنى ماء .

٢٥ـ الاذن، كقولك لمن طرق الباب : ادخل .

فهذه الاغراض المستفادة من صيغ الامر، اذا لم تقم قرينة على منع ارادة المعنى الحقيقى تعتبر معانى كنائية، اوتعد من مستتبعات الكلام .

واذا قامت قرينة، تعتبر معانى مجازية، وترجع العلاقة بينها و بين المعنى الاصلى للامر، الى المشابهة وشبه التضاد، او الملازمة، او العموم والخصوص، او الإطلاق والتقييد . ومن أراد تفصيل ذلك فليرجع الى حاشية البنانى[٢٠٤] على شرح جمع الجوامع، وحاشية عبد[٢٠٥] الحكيم على المطول، وشروح[٢٠٦] التلخيص مع حاشية الدسوقى .

نقد الاغراض المذكورة للامر :

اعلم ان ما سبق من معانى الامر، هو ما ذكره القوم فى هذا المجال . وهو قابل للمناقشة من وجوه :

الاول ـ ان منها ـ كما عرفت ـ اغراضا تتشابه وتتقارب معا بحيث

٢٠١ـ الانعام، ١٥٠ .

٢٠٢ـ الصافات، ١٠٢ .

٢٠٣ـ الانعام، ٩٩ .

٢٠٤ـ ٢/٢١٥ .

٢٠٥ـ ٣٦٥ .

٢٠٦ـ ٢/٣١٣ـ٣٢٠ .

لاترى الفصل بينها سهلاولاتحديد كل منهاظاهرا، فلو رجعت الى اصل واحد لكان اولى . و ذلك لما فيه من الاختصار مع التخلص من التمحل والتكلف فى الاعتبارات المختلفة لبيان الفرق والفصل بينها .

فمن تلك الاغراض المتشابهة الانذار والتهديد، فيمكن ان يرجعا الى اصل كلّى وهو التخويف مطلقا .

قيل فى الفرق بينهما : ان الانذار لايستعمل الا بمصاحبة الوعيد، كما مر فى قوله تعالى : قل تمتعوا فان ...

واما التهديد فيستعمل مع الوعيد نحو دم على عصيانك فالعصا امامك، وبدونه كقوله تعالى : اعملوا ما شئتم .

ومنها ـ الامتنان والانعام، فيجوز رجوعهما الى اصل واحد كبيان التفضل ونحوه .

وقيل فى الفرق بينهما : ان الامتنان يختص بـأعلى مـايحتاج إليه الإنسان، بخلاف الإنعام[٢٠٧].

ومنها ـ الندب والارشاد، فهما يرجعان إلى اصل كلّى وهو الدلالة على الخير او المصلحة .

قالوا فى الفرق بينهما : ان المصلحة فى الندب اخروية و فى الارشاد دنيوية[٢٠٨].

ومنها ـ التسخير ـ بمعنى التذليل والامتهان ـ والاهانة والاحتقار، فيمكن ارجاعهما الى اصل عام مثل الاستخفاف وقلة المبالاة مطلقا .

يقال فيما يمتاز به كلّ منها : انه يؤتى مع الإهانة لفظ يدل على الخير والكرامة، ولكن يراد منه ضد ذلك .

٢٠٧ـ راجع حاشية البنانى ٢١٧/١ .

٢٠٨ـ راجع البنانى ٢١٥/١ .

وان التسخير يحصل الفعل المامور به معه، بخلاف الاهانة .

وان الاحتقار كما يمكن بالقول والفعل وتركهما، يمكن بالاعتقاد ايضا[٢٠٩].

ومنها ـ الاذن والاباحة، فيجوز ان يرجعا الى اصل واحد وهو رفع الحظر .

وقيل في الفرق بينهما : ان الاول مسبوق بالسؤال والانتظار، بخلاف الثاني .

الثاني ـ من وجوه المناقشة، ان المستعمل للتسوية في المثال المذكور هو المجموع المركب من صيغة الامر و «او» فلايصدق ان صيغة الامر تاتي للتسوية .

وكذا معنى التمني في بيت امرىء القيس، فانه مستفاد من صيغة الامر مع «ألا»[٢١٠].

والتسوية تفارق الاباحة بان المخاطب فيها كأنّه توهم أن احد الطرفين من الفعل وتركه انفع له وارجح بالنسبة اليه، فرفع ذلك التوهم وسوّى بينهما[٢١١].

المبحث الرابع النهي

وهو طلب الكف عن الفعل استعلاء .

٢٠٩ـ راجع البناني ٢١٦/١، والدسوقي ٣١٨/٢ .

٢١٠ـ راجع حاشية البناني ٢١٦/١ .

٢١١ـ راجع المطول ٢٤١ .

وقالوا فى تعريفه ايضا : هو اقتضاء كف عن فعل لابقول كف[٢١٢].

وله صيغة واحدة وهى المضارع السجزوم بلاءالنهى، نحو: ولاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل[٢١٣].

والنهى على عكس الامر حقه الفور والدوام جزما، لانه لدفع المفسدة، فعلى هذا لو قيل لاحد : «لاتشرب الخمر» فشرب بعد النهى مدة ثم تركها، اوتركها مدة ثم عاد اليها، لم يعد ممتثلا فى كلتا الصورتين[٢١٤].

تستعمل صيغة النهى فى معان غير طلب الكف، مجازا أو كناية أو غيرهما.

فسنها ـ الكراهية، كقوله تعالى : ولاتمش فى الارض مرحا[٢١٥]. و كقوله ايضا : ولاتيمّموا الخبيث منه تنفقون*.

ومنها ـ الدعاء ، كقوله تعالى : ربنا لاتزغ قلوبنا[٢١٦].

ومنها ـ الارشاد، نحو: لاتسألوا عن أشياء ان تُبْدَ لكم تسؤكم[٢١٧].

ومنها ـ التسوية، نحو : أولاتصبروا[٢١٨]. ويرد عليه ان التسوية ليست مستفادة من صيغة النهى وحدها، بل من المجموع المركب منها ومن كلمة «او» .

ومنها ـ الاحتقار والتقليل، نحو : لاتمدنّ عينيك الى ما متعنا به

٢١٢ـ جمع الجوامع ٢٢٦/١ .

٢١٣ـ آل عمران، ١٨٨ .

٢١٤ـ راجع الدسوقى ٣٢٥/٢، وعبد الحكيم، ٣٦٦ .

٢١٥ـ بنى اسرائيل، ٣٧ . * البقره، ٢٦٧ .

٢١٦ـ البقرة، ٢٦٨ .

٢١٧ـ المائدة، ١٠١ .

٢١٨ـ الطور، ١٦ .

أزواجا منهم[٢١٩]. اى فهو قليل حقير بخلاف ما عندالله .

ومنها ــ بيان العاقبة، نحو : ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء[٢٢٠]. اى ان عاقبة الجهاد فى سبيل الله الحياة لاالموت .

ثم يرد على هذا المعنى ايضا انه مستفاد من مجموع صيغة النهى و كلمة «بل»، لامن النهى فقط .

ومنها ــ اليأس، نحو : لاتعتذروا اليوم[٢٢١].

ومنها ــ الاهانة، نحو : اخسئوا فيها لاتكلمون[٢٢٢].

ومنها ــ التهديد، كقولك لمن يعصيك : لاتطع امرى .

ومنها ــ الالتماس، كقولك لمن يساويك فى الرتبة بدون الاستعلاء : لاتتركنى ايها الصديق .

ومنها ــ التمنى، نحو : لاترحل أيها الشباب .

وترجع العلاقة بين هذه الاغراض والمعنى الموضوع له الى ما سبق فى الأمر .

المبحث الخامس النداء

النداء هو طلب اقبال المدعو بحرف نائب مناب «ادعو» سواء كان

٢١٩ــ الحجر، ٨٨ .

٢٢٠ــ آل‌عمران، ١٦٩ .

٢٢١ــ التحريم، ٧ .

٢٢٢ــ راجع جمع الجوامع ١/٢٢٦ــ٢٢٧، والاتقان ٢/٨٤ــ٨٥ .

ذلك الحرف ملفوظا نحو : يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض[٢٢٣]. او مقدرا نحو : يوسف أعرض عن هذا[٢٢٤].

النداء يفارق اقسام الطلب المذكورة بانه لايدل على طلب الاقبال مباشرة، لأن مفاد الحرف ومدلوله هو «ادعو» واما الاقبال فهو مطلوب باللزوم، لان الانسان انما يدعى للاقبال .

حروف النداء :

إن حروف النداء على ما ذكره سيبويه خمسة، حيث قال : «فاما الإسم غير المندوب فينبّه بخمسة أشياء: بيا، وأيا، وهيا، وأى وبالالف»[٢٢٥].

لقد جاء فى كل من «أى» و «أ» لغة أخرى[٢٢٦] وهى «آى» و «آ» ولكن لم يذكرها سيبويه .

تمتاز «يا» بامور وهى :

الاول ــ انها تستعمل فى كل نوع من انواع المنادى : مندوبا او مستغاثا او غيرهما .

الثانى ــ انها تتعين وحدها لنداء اسم الله تعالى .

الثالث ــ تعينها وحدها ايضا للاستغاثة، نحو : يا لله لِلمسلمين[٢٢٧] .

الرابع ــ جواز حذفها و ذكرها .

٢٢٣ــ راجع المواهب ٣٣٢/١ . ص، ٣٨ .

٢٢٤ــ يوسف، ٢٩ .

٢٢٥ــ الكتاب ٣٢٥/١ .

٢٢٦ــ راجع التصريح مع التوضيح ١٦٣/٢، و راجع مغنى اللبيب ٨/١ و ٤٠ .

٢٢٧ــ راجع التوضيح مع التصريح ١٦٤/٢ .

الخامس ــ انه لايستعمل مع أيّها وايتها غيرها .

ان حروف النداء غير الهمزة لنداء البعيد او ما يشبهه، واما الهمزة فهى لنداء القريب .

قال صاحب الالفية :

وللمنادى النائى او كالنائى، يـا ، وأى، وآ، كذا أيـا، ثـم هيـا

هذا، هو الظاهر من كلام سيبويه حيث يقـول : «إلا ان الاربعـة غير الالف قد يستعملونها اذا أرادوا أن يمدوا أصواتهم للشىء المتراخـى عنهم، او للانسان المعرض عنهم الذى يرون انه لايقبل عليهم الا باجتهاد ، او النائم المستثقل»[٢٢٨].

وقال بعضهم : ان أيا وهيا للبعيد، واى والهمزة للقريب، ويا حقيقة فى القريب والبعيد[٢٢٩].

لطائف واغراض بلاغية لصيغ النداء :

لقد ظهر مما سبق ان صيغ النداء موضوعـة لطلب اقبال البعيـد او القريب، بمعنى انه لوحظ فى معناهـا شيئـان : طلب الاقبـال والفاصلة المكانية، فيعرض لها باعتبار العدول من كلّ منهما لطائف واغراض بلاغية تجعل مسائل النداء من صميم المباحث البلاغية .

فالموضوعة لنداء البعيد قد تستعمل فى القريب مجـازا علـى سبيل الاستعارة التبعية لنكت :

منها ــ الدلالة على بلادة المخاطب وغفلته وانه لايتنبه الا بـاجتهاد وامتداد صوت، نحو : يا ايها الغبى، أين تذهب ؟

٢٢٨ـ الكتاب ١/٣٢٥ .

٢٢٩ـ راجع مطول ١/٢٤٤ .

وكقول ابى العتاهية يعنى نفسه :

أيا مَنْ يؤمّلُ طولَ الحياة وطولُ الحياةِ عليه خطر
إذا ما كبرتَ و بانَ الشباب فلا خيرَ فى العيش بعدالكبر

ومنها ـ اظهار الحرص على اقبال المنادى، لان النفس اذا اشتاقت الى الشيء تحسب الزمان والمكان قبل الوصول اليه طويلا وبعيدا . نحو : يا موسى أقبِل»[٢٣٠].

ومنها ـ التنبيه على عظم شان المدعّو اليه، وكون الخطاب المتلو للنداء معتنىً به، نحو : يا ايها الرسول بلّغ ما أنزل إليك[٢٣١]. يا أيها الناس اعبدوا ربكم[٢٣٢].

ومنها ـ قصد تعظيم شأن المدعّو نحو : يا ربّ .

ومنها ـ قصد انحطاطه كقول فرعون: وإنّى لأظنّك يا موسى مسحورا[٢٣٣].

والموضوعة للقريب، قد ترد لنداء البعيد مجازا تنبيها على انه حاضر فى قلب المتكلم ولايغيب عنه فكانه ماثل أمام عينيه . كقول الشاعر :

أسكّانَ نعمانِ الأراكِ تيقّنوا بأنكم فى ربع قلبى سُكّانُ

وقد تستعمل هذه الصيغ فى غير طلب الاقبال، على سبيل المجاز او الكناية او غيرهما كما هو التحقيق، و ذلك مثل :

١ـ الاغراء ، نحو قولك لمن أقبل يتظلم : يا مظلومُ . فانت تريد اغراءه على بث الشكوى واظهار التظلم، ولاتطلب اقباله لانه حاصل .

٢٣٠ـ القصص، ٣١ .

٢٣١ـ المائدة، ٧٠ .

٢٣٢ـ البقرة، ٢١ .

٢٣٣ـ بنى اسرائيل، ١٠١، راجع الدسوقى ٢/٣٢٤، والإتقان ٢/٨٥ .

٢ـ والاستغاثة، نحو يا لله للمؤمنين .

٣ـ والتعجب، نحو يا للماء .

وكقول الشاعر :

يـا لكِ مِنْ قُبّرَةٍ بمَعْمَـر خلا لكِ الجَوُّ، فبيضي واصفري

٤ـ والتدلّه والتضجر والتحيّر، كما نرى في نداء الاطلال والمنازل والمطايا، قال الشاعر :

أيـا منازلَ سلمى أينَ سلماكِ ؟ مِنْ أجل هذا بكيناها بكيناكِ

٥ـ والتوجع والتحسر، كقوله :

فيا قبر معنٍ كيف واريتَ جوده وقد كان منه البرّ والبحر مُتْرعا

وكقوله :

يـا عينُ بكّي كـلّ صبـاح جـودي بأربعـة علـى الجرّاح

٦ـ والاختصاص، هو في الاصطلاح تخصيص اسم ظاهر أتـى بعـد ضمير المتكلم[٢٣٤] بيانا له، بحكم قد علق على ذلك الضمير . وهذا الاسـم يمكن ان يكون «ايّها» مع صفته، نحو : انا أكرم الضيف ايّها الرجل . أو معرّفا بأل، نحو : نحن العرب أقرى الناس للضيف . او معرفا بالإضافـة، نحو : نحن معاشر الانبياء لا نورث . او معرفا بالعلمية نحو : بنـا تميمـا يُكشف الضباب .

والمراد هاهنا، تخصيص ذلك الاسم اذا جـاء علـى صورة المنادى، بالحكم . مثل : نحن ذخائر الوطن ايّها الطلاب .

فالاصل فيه* تخصيص الطلاب بطلب الاقبال على المتكلم، ولكنه جرّد

٢٣٤ـ والمتكلم اعم من ان يكون وحـده او مع الغير، فهـذا البـاب يجيئ فيهما . راجع عبد الحكيم، ص ٣٧٠ .

* اى فى هذا المنادى، واليه يرجع ضمير جـرّد، او الى الطلاب باعتبار المنادى .

من ذلك المعنى ونقل الى تخصيصه بما اسند الى ضمير «نحن» ، اذ ليس المراد بالطلاب شيئا غير ما يدل عليه ضمير المتكلم .

وفائدة الاختصاص اما التفاخر، نحو : أنا اكرم الضيف ايها الرجل .

اوالتصاغر، نحو : انا المسكين ايها الرجل .

او مجرد بيان المقصود بذلك الضمير نحو : انا ادخل ايها الرجل .

٧ـ والندبة، نحو: يامحمداه ! ، كأنك تدعوه وتقول له : تعال، انا مشتاق اليك[٢٣٥]. فهذه المعانى كثيرة لاتنحصر فيما سبق بل يستخرج فى كل مقام ما يناسبه . فيحمل نحو قول الشاعر :

أيا منزلى سلمى، سلامى عليكما هل الأزمنُ اللائى مَضيْن رواجع؟

على التذكر .

و نحو قوله :

ايّها القلبُ قد قضيتَ مراما فإلامَ الولوعُ بالشهوات ؟

على الزجر[٢٣٦].

العلاقة بين هذه الاغراض والمعنى الاصلى

اعلم ، انك اذا استعملت صيغ النداء فى المعانى المتقدمة و قامت قرينة على عدم ارادة المعنى الحقيقى، لم يبق الا ان تكون مجازا يعتمد على علاقة بين المعنيين . فهذه العلاقة اما مشابهة، او اطلاق وتقييد، او عموم و خصوص .

٢٣٥ـ راجع المطول ١/٢٤٥ـ٢٤٦ .

٢٣٦ـ راجع جواهر البلاغة، ١٠٦ .

فمثلا العلاقة بين النداء والتعجب او التحسر والتوجع مشابهة، اذ كل منها ينبغي الاقبال عليه والاهتمام به وامتلاء القلب بشأنه .

والعلاقة بينه والاختصاص اطلاق وتقييد، و ذلك لان اصل النداء للتخصيص بطلب الاقبال، ففي الاختصاص يجرّد من طلب الاقبال فيقيد بالتخصيص بما نسب لمدلول الضمير .

والعلاقة في الاستغاثة العموم والخصوص، لان صيغة النداء موضوعة لمطلق طلب الاقبال، والاستغاثة طلب الاقبال لخصوص الاغاثة[٢٣٧].

أساليب النداء

يجري النداء على هذه الاساليب في الاكثر :

١ـ يصحب الأمر والنهي، متقدما وهو الغالب، نحو : يا ايها الناس اعبدوا ربكم[٢٣٨]. يا عبادي فاتقون[٢٣٩].

ـ يا ايها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدي الله[٢٤٠].

او متأخرا، نحو : وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون[٢٤١].

٢ـ يصحب الجملة الخبرية، متلوة بجملة الامر، نحو : يا ايها الناس ضرب مثل، فاستمعوا له[٢٤٢]. ونحو يا قوم هذه ناقة الله لكم... فذروها[٢٤٣].

٢٣٧ـ راجع شروح التلخيص مع حاشية الدسوقي ٢/٣٣٥ـ٣٣٧ .

٢٣٨ـ البقرة، ٢١ .

٢٣٩ـ الزمر، ١٦ .

٢٤٠ـ الحجرات، ١ .

٢٤١ـ النور، ٣١ .

٢٤٢ـ الحج، ٧٣ .

←

او غير متلوة بها، نحو : يا عبادى لاخوف عليكم اليوم[٢٤٤]. يا ايها الناس انتم الفقراء إلى الله[٢٤٥]. يا ابت هذا تأويل رؤياى[٢٤٦].

٣ـ تصحبه الجملة الاستفهامية، نحو : يا ابتِ لِمَ تعبد مالا يسمع و لا يبصر[٢٤٧].

ـ يا ايها النبى لم تحرّم ما احلّ الله[٢٤٨] ؟

ـ ويا قوم مالى أدعوكم[٢٤٩] ؟

ثم ان اسلوب «يا ايها» من حقه ان يستعمل فى أمور عظام وخطوب جسام، ومعان تستحق التيقظ والتنبه لها، والاقبالَ بالقلب والبصيرة عليها، و ذلك لان فيه بلاغة ليست فى غيره .

وهذه البلاغة جاءت من التأكيد والتنبيه فى «يـا» ومن التنبيه فـى «ها» ومن التّدرج من الابهام فى «أىّ» الى التوضيح .

وهذا الاسلوب هو اكثر اساليب النداء فى القرآن الكريم[٢٥٠].

←

٢٤٣ـ الاعراف، ٧٣ .

٢٤٤ـ الزخرف، ٦٨ .

٢٤٥ـ فاطر، ١٥ .

٢٤٦ـ يوسف، ٤ .

٢٤٧ـ مريم، ٤٢ .

٢٤٨ـ التحريم، ١ .

٢٤٩ـ المؤمن، ٤١ .

٢٥٠ـ راجع الإتقان ٢/٨٥ .

المبحث السادس التمنى

التمنى، هو طلب حصول شيء بشرط المحبة ونفى التوقع والطماعية فى وقوعه، و ذلك النفى اما لكون حصول الشيء مستحيلا، نحو : ليت الشباب يعود . ليت الانسان يعرف ماذا يكسب غدا .

او لكونه ممكنا مقطوعا بعدم وقوعه، نحو : يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون[٢٥١].

فخرج بقيد بشرط المحبة، سائر أنواع الطلب لأن المحبة ليست بشرط فيها . أما نفى التوقع والطماعية، فلاخراج الرجاء خاصة اذا كان المتمنى ممكنا .

فالفرق بين الرجاء والتمنى فيما اذا كان المتمنى ممكنا، انه يشترط فى التمنى نفى التوقع والطماعية فى حصول المطلوب بخلاف الرجاء .

اعلم انه اذا كان المطلوب ممكنا ولم ينتف التوقع والطماعية، يستعمل له لعل وعسى . «ان كان فيه توقع يستعمل فيه لعل، وان كان فيه طمع يستعمل فيه عسى . والفرق بين التوقع والطمع ان الاول ابلغ من الثانى، ولهذا اخر الطماعية عن التوقع»[٢٥٢].

لقائل ان يقول : إنّ القوم لم يتفقوا على اشتمال الترجى على الطلب، بل قال بعض منهم : انه ليس بطلب بل هو ترقب الحصول[٢٥٣].

٢٥١– القصص، ٧٩ .

٢٥٢– چلبى، بدون رقم الصفحة .

٢٥٣– دسوقى ٢/٢٣٩ . هذا اشارة الى فرق آخر بين الرّجاء والتمنى.

كلمات التمنى

اللفظ الموضوع للتمنى المتعلق بالنسبة التى بين المسند والمسند اليه، والذى يدل عليه اصالة هو «ليت» لا غير[٢٥٤].

لكن المستعمل له أربع كلمات :

١ـ ليت .

٢ـ هل .

٣ـ لو .

٤ـ لعلّ .

« ليت »

تستعمل «ليت» فى التمنى حقيقة لجريانه على الوضع والاصل، نحو : يا ليتنى كنت معهم فافوز فوزاً عظيماً[٢٥٥].

« هل »

ـ «هى قد تستعمل فى التمنى تجوزا اذا امتنع حملها على معناها

٢٥٤ـ مفتاح العلوم، ١٤٧ .

٢٥٥ـ النساء، ٧٣ .

الأصلى أعنى حقيقة الاستفهام، كقوله تعالى حكاية عن الكفّار : فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا[٢٥٦]. فهل هاهنا لا يصح حملها على حقيقة الاستفهام، لان الكفار يعلمون انه لاشفيع لهم والاستفهام يقتضى عدم العلم بالمستفهم عنه ثبوتا او نفيا، «فحمل الكلام على الاستفهام يؤدى الى التناقض»[٢٥٧]. فتعين الحمل على معنى آخر غير ما وضع له لعلاقة، و ذلك المعنى عبارة عن التمنى، لانه لما حصل الجزم بانتفاء المستفهم عنه الذى هو مطلوب و محبوب لدى المتكلم، لم يبق الا طلب شيء لايكون فيه توقع ولاطماعية فى حصوله، و ذلك هو التمنى نفسه .

«فهل» مستعمل فى التمنى إما «على سبيل الاستعارة التبعية بان شبه التمنى المطلق بمطلق استفهام بجامع مطلق الطلب فى كل، فسرى التشبيه للجزئيات، فاستعيرت هل الموضوعة للاستفهام الجزئى للتمنى الجزئى ؛ و إمّا على سبيل المجاز المرسل من استعمال المقيد فى المطلق ثم استعماله فى المقيد»[٢٥٨].

بلاغة «هل» فى التمنى

«والنكتة فى التمنى بهل والعدول عن ليت، هو ابراز المتمنى، لكمال العناية به فى صورة الممكن الذى لاجزم بانتفائه»[٢٥٩].

٢٥٦ـ الأعراف، ٥٢ .

٢٥٧ـ دسوقى ٢/٢٤٠ .

٢٥٨ـ المصدر نفسه، ٢/٢٤٠ .

٢٥٩ـ مختصر مطول ٢/٢٤٠ .

« لـو »

هى قدتاتى للتمنى وتحمل عليه، اذاكان المضارع الواقع بعد الفاء فى جوابها منصوبا، نحو : ولو أنّ لنا كَرّةً فنكونَ من المؤمنين[٢٦٠].

و ذلك لانه قد تقرر فى موضعه ان المضارع لاينتصب بعد الفاء إلاّ فى جواب النفى والامر والنهى والاستفهام والتمنى والعرض، ولم يضف احد على الاشياء الستة «لو» .

فاذا انتصب المضارع بعد الفاء فى جوابها، كان ذلك دليلا على انها ليست واردة على أصلها وهو الشرطية والتعليق، فتعين الحمل على معنى آخر يجوز نصب المضارع بعد الفاء فى جوابه، على سبيل التجوز .

والأولى بالحمل عليه بين الاشياء الستة التمنى، و ذلك لان «لـو» «فى الاصل تدخل على المحال والممنوع، والمحال يُتمنى كثيرا»[٢٦١].

بلاغة «لـو» فى التمنى

نقل الدسوقى عن شيخه العدوى، ان النكتة فى التمنى بلو والعدول عن ليت، هى عزة المتمنى حيث أبرز فى صورة ما لم يوجد لان «لـو»

٢٦٠- الشعراء، ١٠٢ .

٢٦١- دسوقى ٢٤١/٢ .

بحسب أصلها حرف امتناع لامتناع[٢٦٢].

ويمكن ان يقال : إن النكتة هو ان المتمنى ليس نفسه مطلوبا، بل المتمنى فی الحقيقة ما يتفرع على مدخول «لو» اعنى جوابه .

والعلاقة بين المعنى الاصلى والمجازى، انه «كما يفرض «بلو» غير الواقع واقعا، كذلك يطلب بليت وقوع مالاطماعية فی وقوعه»[٢٦٣].

« لعل »

هی قد تفيد معنى التمنی، و ذلك كقول عباس بن الاحنف :

أسربَ القطا هل مَنْ يعير جناحَه   لعلی إلی مَنْ قد هويتُ أطير

ذكرنا ان الفرق بين لعل وليت، أن لاتوقع فی حصول مطلوب الثانی بخلاف الاول .

فالمرجو بلعل قديكون بعيد الحصول فيشبه التمنی فی عدم الحصول، فصار ترجيه كانه يتولد منه معنى التمنی فيعطى حكمه فی نصب المضارع بعده .

فعلى هذا ان لعل مستعمل فی معنى الترجی الموضوع له، وافادته التمنی ليست على سبيل المجاز بل هی من مستتبعات التراكيب، أما إفادة «هل» و «لو» معنى التمنی فهی بطريق المجاز كما سبق[٢٦٤].

٢٦٢- دسوقی ٢/٢٤١ .

٢٦٣- مطول، ٢٢٥ .

٢٦٤- راجع حاشية سيدعلی المطول، ٢٢٦؛ وحاشية عبدالحكيم، ٣٥٠ .

قد يقع الخبر موقع الانشاء لأغراض، منها :

١ـ التفاؤل وادخال السرور في قلب المخاطب، نحو : وفّقك الله للتقوى، اى اللهم وفقه للتقوى . فترك هذا الكلام الانشائى وعبر عنه، بالفعل الماضى الدال على تحقق الحصول للتفاؤل .

٢ـ اظهار الحرص فى وقوعه، نحو : رزقنى الله لقاءك ، اى اللهم ارزقنى لقاءه، فعبر عنه بلفظ الماضى لان الطالب اذا عظمت رغبته فى شىء كثر تصوره اياه، فربما يخيل اليه حاصلا فيورده بلفظ الماضى . فالتعبير بلفظ الماضى علامة الحرص والرغبة فى وقوع مدلول الانشاء .

فالتفاؤل واظهار الحرص يختصان بالتعبير بلفظ الماضى فقط، ولا يجريان فى غيره . «والدعاء بصيغة الماضى من البليغ يحتملهما»[٢٦٥].

٣ـ الاحتراز عن صورة الامر، كقولك لمن تعظمه وتبجّله ولاتحب ان تخاطبه بما هو فى الظاهر أمر : يستمع مولاى لحظة الى كلامى، اى استمع لحظة ...

٤ـ حمل المخاطب على تحصيل المطلوب، كقولك لمن لايحب ان يخالفك ويكذّبك : تأتينى غدا، اى ايتنى غدا، فترك لفظ الانشاء وعبّر عنه بالخبر حملا للمخاطب على الاتيان بألطف وجه . اذ لو لم يأت لصار المتكلم كاذبا فى الظاهر .

٥ـ التنبيه على كون المطلوب قريب الوقوع لقوة الأسباب. كقولك للاساتذة بعد اعطاء الفرصة وتمهيد اسباب البحث والتحقيق : تترجمون و تألفون وتدرسون .

٦ـ القصد الى المبالغة فى الطلب حتى كأنّ المخاطب سارع فى الامتثال، نحو قوله سبحانه وتعالى : «وإذ أخذنا ميثاقكم، لاتسفكون

٢٦٥ـ تلخيص المفتاح ٢/٣٣٩ .

دماءكم»[٢٦٦]. لم يقل لاتسفكوا، قصدا للمبالغة فى النهى، حتى كانّهم نهوا فامتثلوا، ثم اخبر عنهم بالامتثال[٢٦٧].

٧ـ الدلالة على الكمال فى بذل النوال ، كقولك : تعطينى . بدل أعطنى، قاصدا بذلك ان المخاطب بلغ فى بذل النوال الى حد الكمال .

٨ـ الاشعار بالاستغناء عن السؤال، كقولك : «سعيتَ فى حاجتى و رحمتَ ذلى وفقرى وفاقتى، مقام اسع وارحم .

٩ـ الاحتراز عما يكرهه المخاطب من عدم التقوى، نحو: «وفقك الله» بخلاف اللهم وفقه[٢٦٨].

فالخبر فى هذه الصور مجاز اوكناية[٢٦٩]، و ذلك لان حصول الفعل فى المستقبل لازم لطلب الفعل فى الجملة، فذكر اللازم واريد الملزوم على ما هو المعروف فى الكناية .

فعلى هذا ان الكناية لاتجرى فى التفاؤل واظهار الرغبة، لان حصول الفعل فى الماضى ليس لازما لطلب الفعل فى الجملة، فتعين كونهما مجازا بعلاقة تشبيه غير الحاصل بالحاصل[٢٧٠].

وقد يُعكس فيقع الانشاء موقع الخبر للطائف منها :

١ـ اظهار العناية بالشىء والاهتمام بشأنه، كقوله تعالى: «قل امر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد»[٢٧١] لم يقل: واقامة

٢٦٦ـ البقرة، ٨٤ .

٢٦٧ـ جواهر البلاغة، ١٠٩ .

٢٦٨ـ شرح المفتاح للسعد مخطوط، بدون رقم الصفحة .

٢٦٩ـ المطول، ٢٤٦ .

٢٧٠ـ راجع عبد الحكيم، ٣٧١ .

٢٧١ـ الأعراف، ٢٨ .

وجوهكم، اشعارا بالعناية بأمر الصلاة لعظيم خطرها وجليل قدرها فى الدين.

٢ــ التحاشى والاحتراز عن مساواة اللاحق بالسابق كقوله تعالى : قال إنى اشهدالله، واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه[٢٧٢]. لم يقل واشهدكم، تحاشيا وفرارا من مساواة شهادتهم بشهادةالله[٢٧٣].

٣ــ اظهار معنى الرضا بوقوع الداخل تحت لفظ الطلب، اظهارا الى درجة كأن المرضى مطلوب . قال كثيّر :

أسيئى بنا او أحسنى لاملومة .

فذكر لفظ الامر بالاساءة ثم عطف عليه بلفظ اوالامر بضدالاساءة، تنبيها بذلك على ان ليس المراد بالامر الايجاب المانع عن الترك، لكن المراد هو الاباحة التى لاتنافى تخيير المخاطب بين ان يفعل وان لايفعل . فاعلا كل ذلك لتوخى اظهار مزيدالرضا باىّ ما اختارت فى حقه من الاساءة او الاحسان[٢٧٤].

اعلم ان وقوع الانشاء موقع الخبر فى الامثلة السابقة يختلف عن وقوع الخبر موقع الانشاء، لان المراد بوقوعه موقع الخبر ان اسلوب الكلام وتركيبه من حيث التلاحم والتلاؤم يقتضى غير الانشاء، لا ان الانشاء فى هذا المقام استعمل فى معنى الخبر . بخلاف وقوع الخبر موقع الانشاء فى الامثلة المتقدمة، لان الخبر فيها قد أريد به الانشاء اما مجازا او كناية .

اما وقوع الانشاء موقع الخبر على سبيل المجاز فكقول النبى (ص) : إذا لم تستح فاصنع ما شئت . اى صنعت ما شئت. فصيغة الامر لم تستعمل

٢٧٢ــ هود، ٥٤ .

٢٧٣ــ جواهر الادب، ١٠٩ .

٢٧٤ــ شرح المفتاح للسعد .

في معناه[٢٧٥]. وكقوله تعالى اصبروا او لاتصبروا، بناء على ان الامر للتسوية .

وقوله : فاتوا بسورة من مثله، اذ ليس المراد طلب اتيانهم بالسورة بل خبر بعجزهم[٢٧٦].

ونحو انا افعل كذا ايها الرجل، فانه خبر معنى[٢٧٧].

مواضع الإنشاء والخبر

إذا عرفت معنى الخبر والانشاء واقسامه، فاعلم انه ليس لاسلوب الإنشاء اوالخبر موضع يخصه وفن ينحصر فيه، فيجوز ان يتواردا في كل موضع وفن، ويستعملا لكل غاية وغرض، منفردين في بناء عمل أدبي، او مختلطين .

فمثال انفراد الاسلوب الخبري بتكون القطعة الأدبية، قول ابن العميد في التهديد واللّوم :

كتابي وانا مُترجّح بين طمع فيك ويأس منك، واقبال عليك و اعراض عنك . فانك تدلّ بسابق حرمة، وتَمُتُّ بسالف خدمة، أيسرهما يوجب رعاية ويقتضي محافظة وعناية . ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة ، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية، وأدنى ذلك يحبط أعمالك، ويسحق كل ما يرعى لك .

٢٧٥- جمع الجوامع ٢١٢/١ .

٢٧٦- راجع عروس الافراح ٣١٨/٢ و٣١٦/٢ .

٢٧٧- دسوقي ٣٣٦/٢ .

لاجرم أني وقفت بين ميل إليك وميل عليك : أقدّم رجلا لصدّك و اؤخر أخرى عن قصدك، وابسط يدالاصطلامك واجتياحك، وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك، واتوقّف عن امتثال بعض المأمور فيك . ضناً بالنعمة عِنْدَكَ، ومنافَسَةً في الصنيعة لديك ، وتاميلا لفيئتك و انصرافك، و رجاء لمراجعتك وانعطافك . فقد يغرب العقل ثم يؤوب، و يعزب اللب ثم يثوب، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، و يُضاع الرأى ثم يستدرك ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو . وكل ضيقةٍ الى رخاء، وكل غمرة إلى انجلاء .

وكما أنك أتيتَ من إساءتك بما لم تحتسبه اولياؤك فلابدع ان تأتى من احسانك بما لاترتضيه اعداؤك . وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت واخترت ما اخترت، فلا عجب ان تنتبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت وسوء ما آثرت .

وسأقيم على رسمى فى الابقاء والمماطلة ما صلح، وعلى الاستيفاء والمطاولة ما امكن، طمعا فى انابتك وتحكيما لحسن الظن بك .

فلست اعدم فيما أظاهره من اعذار وارادفه من انذار، احتجاجا عليك واستدراجا لك .

فان يشاءالله يرشدك، ويأخذ بك الى حظك ويسدّدك، فانه على كل شيء قدير، وبالاجابة جدير[٢٧٨].

ومثال انفراد الاسلوب الانشائى ببناء القطعة الادبية، قول عبدالله بن جعفر الطالبى فى النصيحة :

إذا كنت فى حاجة مُرسلاً فأرسل حكيما ولاتوصهِ
وان بابُ أمر عليك التوى فشاوِرْ لبيبا ولاتَعصه

٢٧٨- يتيمة الدهر ٣/١٦٧ .

وان ناصح" منك يوما َدنا 	فلا تنأ عنه ولاتقصه
و ذا الحق لاتنتقص حقه 	فإن القطيعة في نقصه
ولا تذكر الدهرَ في مجلس 	حديثا ، إذا انت لم تُحصه
و نُص" الحديث الى اهله ، 	فان الامانة في نصه
و كم من فتى عازتٍ لبه 	وقد تعجب العين من شخصه
و آخر تحسبه انوكا 	و يأتيك بالأمر من نصه

فالقطعة الادبية كلها تكونت من اسلوب الانشاء الطلبي اعنى الامر والنهي، وغير الطلبي وهو كم الخبرية[279].

ومثال اختلاط الانشاء بالاخبار ـ و هو الاكثر ـ قول هانيء بن قبيصة الشيباني في تحريض قومه على القتال يوم ذي قار :

يا معشرَ بكر، هالك معذور خير من ناجٍ فرور، ان الحذر لاينجي من القدر، وان الصبر لمن اسباب الظفر. المنيّة ولا الدنيّة . استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثُغَر النحور اكرم منه في الاعجاز والظهور .

يا آل بكر، قاتلوا فما للمنايا من بد"[280].

وفي الختام نضيف ان الخبر والانشاء وان كانا يتورد ان في كل" عمل ادبي ولكل غاية وغرض، الا" ان الانسب ببيان الحقائق العلمية، و وصف الطبيعة، وسرد القضايا التاريخية الاسلوب الخبري ، او الاكثار منه . كما ان الاجدر بالخطابة ومقام الترغيب والترهيب والدعوة الى العمل او الترك هو اسلوب الانشاء .

٢٧٩ـ علم المعاني، ٦٦ .

٢٨٠ـ الوسيط في الادب العربي وتاريخه، ٢٨ .

الفصل الرابع : فى القصر

القصر لغة واصطلاحا

القصر فى اللغة، الحبس . جاء فى القرآن الكريم : حـور مقصورات فى الخيام[٢٨١]، اى محبوسة فيها .

وفـى الاصطلاح ، تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص . و ذلك كقول لبيد بن ربيعة العامرى :

وما المال والاهلون إلاّ وديعة[٢٨٢] ولابدّ يوما ان تردّ الودائـع

ففى هذا البيت قد خصص المال والاهل من طريق «النفى والاّ» ، بالوديعة . يسمى الشيء المخصص فى الاصطلاح مقصـورا او محصـورا ، والشيء المختص به مقصورا عليه او محصورا عليـه، ويسـمى المقصور والمقصور عليه طرفى القصر .

القصر والتخصيص يستلزم دائما النفى والاثبات، و ذلك اعم من ان يكونا مذكورين فى الكلام مثل البيت السابق، او غير مذكورين، نحـو : ايّاك نعبد وايّاك نستعين .

ثم القصر انما يتصور لشيئين بينهما نسبة، لان القصر فى الحقيقة صفة للنسبة، والمراد من النسبة اعم من النسبة الاسنادية اعنى ثبوت شيء لشيء، والتعليقية اعنى تعلق شيء بشيء على نحو من الأنحاء .

فعلى هذا ان القصر فى ما ضرب زيد الا عمرا، قصر لضرب زيد على

٢٨١ــ الرحمن، ٧٢ .

٢٨٢ــ ويروى ودائع .

عمرو . وما قيل انه من قصر الفاعل على المفعول فمن التجوز، والمراد قصر ضاربية زيد على عمرو، فيكون من قبيل قصر الصفة على الموصوف، أعني المنسوب والمنسوب اليه في المعنى لا في اللفظ[٢٨٣].

مواقع القصر

اذا عرفت ان القصر لايقع بين شيئين الا بشرط وجود نسبة اسنادية او تعليقية بينهما، فاعلم ان القصر يقع في الموارد الآتية :

١ـ بين كلّ مسند ومسند إليه، نحو : إنما الحياة الدنيا لعب و لهو[٢٨٤]. لا يخاف إلا الخائنُ . لا تتكسّر بهبوب الرياح إلا الأشجارُ الباسقةُ .

٢ـ بين جميع متعلقات الفعل ماعدا المصدر المؤكد والمفعول معه، فيجري القصر مع هذه المتعلقات :

مع الفاعل والمفعول، نحو : لا يعلم الغيب إلاّ الله .
ـ المفعولين، نحو : ما أعطيته إلاّ كتابا .
ـ المجرور، نحو : ما سمعت هذا الحديث إلاّ منه .
ـ الظرف، نحو : لا يقاتل الجندي البطل إلاّ أمام الصفوف .
ـ الحال، نحو : لا يدعو المؤمنون ربّهم إلاّ مخلصين له الدين .
ـ التمييز، نحو : ما صغر اللئيم إلاّ نفسا .

٢٨٣ـ عبدالحكيم، ٣٢٦ .
٢٨٤ـ محمد، ٣٦ .

ــ الصفة، نحو : ما عرفت زائرا إلاّ والدين كامل الشفقة[285].

ــ البدل، نحو : ما قال لى احد إلاّ أخوك .

ــ المفعول له، نحو : ما أشعلت المصابيح إلاّ إنارةً للشوارع .

أمّا المصدر المؤكد فانهم أجمعوا على منع القصر بينه وبين الفعل[286]، فلايقال : ما رميت الاّ رميا، وما جاء فى القرآن الكريم : ان نظن الا ظنا[287]، فمعناه الاّ ظنا ضعيفا، فهو مصدر نوعى .

واما المفعول معه، فلا يجىء بعد «الاّ» فلا يقال : ما سرت الاّ والنيلَ ، و ذلك لان ما بعد «الاّ» كأنه منفصل من حيث المعنى عما قبله، لمخالفته له نفيا اواثباتا. فتؤذن «الاّ» من حيث المعنى بنوع من الانفصال، وكذلك الواو، فاستهجن عمل الفعل مع حرفين مؤذنين بالفصل . ولهذا الدليل نفسه لايقع عطف النسق بعد «الاّ» فلا يقال : ما قام زيد الاّ و عمرو . واما وقوع واو الحال بعدها فى نحو : ما رأيت عاقلا الاّ وقلبه أمام لسانه، فلعدم ظهور عمل الفعل لفظا بعد الواو[288].

٢٨٥ـ اعلم ان القصر فى الصفه بالنفى والاستثناء كالمثال المتقدم إنما ياتى اذا لم يعلم قطعا دخول مابعد «الاّ» فى ماقبلها، فتكون «الاّ» فى هذه الصورة بمعنى «غير» وتحمل على الصفة، ولكن اعرابها يظهر فيما بعدها . اما اذا علم دخول المستثنى قطعا فى المستثنى منه، فلايكون ما بعد الاّ صفة بل بدلا .

٢٨٦ـ لعل دليل الاجماع هو انه يلزم فى القصر ان يكون الطرفان متغايرين، و ذلك منتف فى المصدر المؤكد مع فعله .

٢٨٧ـ الجاثية، ٣١ .

٢٨٨ـ راجع الدسوقى ٢/٢٢٤ .

أقسام القصر

١ــ القصر باعتبار الطرفين

ينقسم القصر باعتبارات مختلفة الى اقسام، فينقسم باعتبار الطرفين الى قسمين :

١ــ قصر الموصوف على الصفة .

٢ــ قصر الصفة على الموصوف .

فالمراد بالصفة هنا ليس ما يعنيه النحويون، اعني التابع الذى يدل على معنى فى متبوعه، بل تفسر تارة با«لمعنوية» وتارة بـ «المعنى القائم بالغير»[٢٨٩].

قال الدكتور درويش الجندى: «المراد بها مايقابل الذات، وهو المعنى الذى يقوم بغيره سواء دل عليه بالوصف كـ «كاتب» فى قولك : ما زيد الا كاتب، او دل عليه بغير الوصف كالفعل فى قولك : ما زيد الا يكتب .

والمراد بالموصوف هنا كل ما يقوم به غيره، والغالب ان يكون دالا على ذات كما فى الامثلة السابقة، وقد يدل فى نفسه على معنى قائم بغيره، كما فى قوله تعالى : «ما نعبدهم الا ليقرّبونا الى الله زلفى»[٢٩٠] فقد قصرت العبادة على التقريب قصر موصوف على صفة، مع ان العبادة ــ وهى المقصود ــ تدل فى نفسها على معنى قائم بغيره»[٢٩١].

٢٨٩ــ راجع الايضاح، ٢/١٦٩ والتلخيص مع المطول، ١٦٢ .

٢٩٠ــ الزمر، ٢ .

٢٩١ــ علم المعانى، ١٣٠ .

فالنسبة بين الصفة المعنوية وبين النحوية عموم وخصوص من وجه ؛ لتصادفها في نحو : اعجبتني هذه التضحية، وانفراد الصفة المعنوية في نحو: يقدّم شعبنا نفسه الى العالم ببطاقة الاستشهاد والتضحية ، وانفراد النحوية في نحو : أحْسِنْ بهذا الرّجل .

لايقال : كيف يمكن تصادق الصفة المعنوية والنحوية في مادة، وهما متباينتان، لان النحوية من مقولة اللفظ والمعنوية من مقولة المعنى .

لانا نقول : المراد من التصادق التحقق والاعتبار، وان كانت الجهة والحيثية متغايرة فيهما .

ولك ان تقول : ان هذا التقسيم غير حاصر لجميع افراد القصر باعتبار الطرفين، وذلك لان منها قصر الموصوف على الموصوف. مثل قول المعرّي:

وانْ كان في لِبْسِ الفتى شرفٌ لـه
فما السيفُ إلاّ غمدهُ والحمائلُ

فليس واحد من طرفي القصر وهما السيف والغمد بصفة .

وأجيب بان المراد من الصفة ـ وهي المعنى القائم بالغير ـ يعم ما كان تحقيقيا او تقديريا . فعلى هذا يقدر قول المعرّي بـ «فما السيف الاّ كونه غمده ...» او «فما السيف الاّ مقصور على الاتصاف بكونه غمدا...» فيؤول الكلام الى قصر الموصوف على الصفة .

هذا اذا اعتبر التقدير في جانب المقصور عليه، اما اذا اعتبر التأويل في جانب المقصور، فيقدر حينئذ بـ «فما كون السيف الاّ غمده» و يؤول الكلام الى قصر الصفة على الموصوف[٢٩٢].

فظهر مما تقدم ان مايشبه قول المعري يحتمل وجهين: قصر الموصوف

٢٩٢ـ راجع المطول مع حاشية جلبي، ١٦٢ .

على الصفة، وقصر الصفة على الموصوف، ويتغير المعنى على حسب التأويل والتقدير. فيعتبر حصران في حصر واحد «لكن يترجح المتبادر من التركيب منهما»[٢٩٣].

بقيت هنا نكتة، وهي ان التأويل او التقدير كما يصح اعتباره في الصفة المعنوية يصح اعتباره في النحوية ايضا، فيقدّر قولك: احسن بهذا الرجل، باتصاف المشار اليه بكونه رجلا. فتكون الصفة المعنوية أعم مطلقا من النعت النحوي[٢٩٤].

وعندي أن الأولى ان تفسر الصفة بالمنسوب او المسند، والموصوف بالمنسوب اليه او المسند اليه. لان الملحوظ في المسند اليه الذات او ما يقوم به الغير، بخلاف المسند او المنسوب، فالملحوظ فيه جهة القيام بالغير. ويمكن ارجاع جميع مواقع القصر الى القصر بين المسند والمسند اليه، او المنسوب والمنسوب اليه تحقيقا او تقديرا. كان نقول مثلا في لا يدعو المؤمنون ربّهم الا مخلصين ...»: ما المؤمنون إلا مخلصون، او ما دعاء المؤمنين إلا في حال الإخلاص. وفي «ما صَغُرَ اللئيم الا نفسا» ما صِغرُ اللئيم الا في النفس، وقس عليهما بقية مواقع القصر.

فما كان المقصور في التأويل مسندا اليه والمقصور عليه مسندا، فهو من قبيل قصر الموصوف على الصفة، وما كان بالعكس فهو من قبيل قصر الصفة على الموصوف.

٢ـ القصر باعتبار الحقيقة والواقع

ينقسم القصر باعتبار الحقيقة والواقع الى قسمين ايضا:

٢٩٣ـ مواهب الفتاح، ٢/٢٢٤.

٢٩٤ـ المصدر نفسه، ٢/١٧١.

١ــ حقيقي .

٢ــ غير حقيقي .

والحقيقي، عبارة عن اختصاص المقصور بالمقصور عليه في الواقع و نفس الامر، بحيث لايتجاوزه الى غيره أصلا . ويقال ايضا : والحقيقي تخصيص المقصور بالمقصور عليه بالنسبة الى جميع ماعداه. نحو : لايبقى الاّ وجهُه ولايدومُ الاّ ملكُه . فالبقاء والدوام مقصوران في الحقيقة و نفس الامر على الله تعالى وملكه وقدرته، ولايتحققان في غيرهما ابدا .

وانما سمي هذا النوع من القصر بالحقيقي، لان حقيقة القصر تنافي الاشتراك، «ولذلك يتبادر هذا المعنى عند اطلاق التخصيص وما في معناه»[٢٩٥].

وغير الحقيقي، هو تخصيص المقصور بالمقصور عليه، بمعنى انه لايتجاوزه الى بعض ملحوظ، لا الى جميع ماعدا المقصور عليه . ويسمى هذا القسم القصر المجازي والاضافي ايضا. ومثال ذلك قولك: وما الشبابُ الاّ ضيفٌ مرْتَحِلٌ . فالشباب في الواقع ليس مقصورا على الوصف بانه الضيف المرتحل، بمعنى انه لايوصف بصفة اخرى . بل انما وقع القصر والتخصيص بالنسبة الى أن الشباب ليس بدائم ولا باق، كما قال فيلسوف المعرّة :

سار الشبابُ فلم نعرف له خبراً و رأينا خيالا منه مُنْتابَا
إن الشبيبةَ نارٌ، إن اردتَ بها أمراً، فبادره إنّ الدهرَ مُطْفيها

اعلم انه قد يقصد بالقصر حقيقيا اوغيرحقيقي المبالغة، لعدم الاعتداد

٢٩٥ــ حاشية السيد على المطول، ٢٠٤ . هذا اذا اطلق الحقيقي على ما يقابل المجازي، واما اذا اطلق على ما يقابل الاضافي فالتسمية بالحقيقي باعتبار ان القصر فيه بالنسبة الى جميع ماعدا المقصور عليه .

بما عدا المقصور عليه كله او بعضه، فتصير الاقسام أربعة :

١ـ القصر الحقيقي تحقيقا، بمعنى ان المقصور لايوجد في غير المقصور عليه في الواقع، من غير قصد المبالغة . و ذلك نحو : لايُنيرُ القمرَ الا شمسُ نهارِنا .

٢ـ القصر الحقيقي مبالغة، بمعنى ان تخصيص المقصور بالمقصور عليه وعدم تجاوزه منه، مبنيٌ على المبالغة وعدم الاعتداد بغير المذكور ، و ذلك لوجدان المقصور في غير المقصور عليه تحقيقا. كقول ابي العتاهية:

ألا إلى اللهِ تصيرُ الامورْ ما أنتِ يا دُنيايَ الا غرورْ

٣ـ القصر الاضافي تحقيقا، بمعنى تخصيص المقصور بالمقصور عليه بالنسبة الى بعض معيّن لايوجد المقصورُ فيه تحقيقا، كقولك: شرف الفتى بعلمه لا بلبِّه .

٤ـ القصر الاضافي مبالغة، بمعنى ان المقصور وان كان يوجد في ماعدا المقصور عليه المعيّن، لكن ينفي وجوده فيه ادعاء ، لعدم الاعتداد بذلك البعض المعين، كقولك : شرف الفتى بعلمِه لا بكرمِه . فالشرف كما يكون في العلم يكون في الكرم ايضا، لكن يمكن ان يُدّعى في مقام الاهتمام بشأن العلم بقصر الشرف على العلم ونفيه عن الكرم .

فهذه الاقسام الأربعة، اما قصر الموصوف على الصفة اوقصر الصفة على الموصوف، فتصير الاقسام ثمانية . غير ان قصر الموصوف على الصفة قصرا حقيقيا على وجه التحقيق ـ مثل : لم يكُن جمالُ الدين الاسدآبادي الا حرباً على المستعمرين ـ لايكاد يوجد، لتعذر الاحاطة بصفات الشيء حتى يمكن اثبات شيء منها ونفي ماعداها بالكلية . وايضا للصفات المنفية نقائض لايصح نفيها، لامتناع ارتفاع النقيضين . فاذا اريد في المثال

٢٩٦ـ راجع مواهب الفتاح وحاشية الدسوقي ٢/١٧٤ـ١٧٥ .

المذكور ان جمال الدين لايوصف بغير كونه حربا على المستعمرين، لـزم ان لايوصف مثلا بالقيام ولابنقيضه وهو محال[٢٩٧].

اما قصر الصفة على الموصوف، فلاتعذر ولا تعسر فى وقوعه. بل منه ما يقع كثيرا، مثل : لاإله إلا الله . و ما خاتم الأنبياء الا المصطفى (ص) .

فان قلت : ماالفرق بين القصر الحقيقى مبالغة، وبين القصر الاضافى تحقيقا او مبالغة ؟ قلت : انهما وان كانا يشتركان فى صحة اتصاف المقصور بغير المقصور عليه، الا ان النفى فى الحقيقى على وجه المبالغة يتوجه الى جميع ماعدا المقصور عليه، فيقتضى عدم الاعتداد بغيره كله . وايضا لا يشترط فيه اعتقاد المخاطب على احدى الصور المعتبرة فى الافراد، والقلب، والتعيين، التى ينقسم اليها القصر الاضافى .

وفى القصر الاضافى، يتوجه النفى وعدم الاعتداد الى بعض ما عدا المقصور عليه، ويشترط فيه اعتقاد المخاطب على احدى الصور الملحوظة ايضا[٢٩٨].

بقى ان يقال: ان الادعائى من الحقيقى يستلزم الاضافى الحقيقى، بانه لايتحقق فى نفس الامر والواقع، فيعتبر مجازا لاكذبا لبنائه على التأويل . امّا الاضافى الحقيقى فيتحقق فى الواقع و نفس الامر اذا كان صادقا، و اذا لم يتحقق اعتبر كاذبا بالنسبة الى القصر والتخصيص لخلو الكلام من تاويل يبرّر عمليّة القصر .

٢٩٧ـ راجع التخليص مع المطول، ١٦٢ .

٢٩٨ـ راجع حاشية السيد، ٢٠٦ .

٣ـ القصر باعتبار اعتقاد المخاطب

ينقسم القصر من هذه الناحية الى ثلاثة اقسام :

١ـ قصر افراد .

٢ـ قصر قلب .

٣ـ قصر تعيين .

فالأول ـ ماكان المخاطب به من يعتقد وجود المقصور في المحصور عليه وغيره، بمعنى انه يعتقد شركة صفتين اواكثر في موصوف واحد في قصر الموصوف على الصفة، وشركة موصوفين اواكثر في صفة واحدة في قصر الصفة على الموصوف، فينفي المتكلم الشركة ويخص المقصور بالمقصور عليه فقط . و ذلك كقول المعرّي :

خَفِّفِ الوطءَ ما أظنُّ اديمَ الـ أرضِ، إلاّ مِنْ هذهِ الأجْسادِ

في قصر الموصوف على الصفة، اذا كان المخاطب من يعتقد تكوّن الارض من الأجساد ومادة اخرى غيرها .

وكقولك : عِندَ الامتحانِ يُكرمُ المرءُ اويُهان .

في قصر الصفة على الموصوف، اذا كان من تخاطبه بهذا الكلام رجلا يعتقد بوجود الاكرام والاهانة في الامتحان وغيره .

انما سمي هذا القسم افرادا، لانك نفيت الشركة التي اعتقدها المخاطب، وافردتَ المحصور بالمحصور عليه .

ويشترط في قصر الموصوف على الصفة افرادا عدم تنافي الوصفين ، فلايكون مفهوم احدهما عين نفي الاخر كالمتفحمة والشاعرية، ولاملزوما له لزوما بيّنا يحصل في الذهن بحصوله كالقعود والقيام . اذلو كان كذلك لم يتصور اعتقاد المخاطب اجتماعهما، لان امتناع اجتماع النفي والاثبات

من أجلى البديهيّات فلايتحقق قصر الافراد لابتنائه على اعتقاد الشركة .

وفى قصر الصفة على الموصوف عدم تنافى الاتصافين ، والا لم يتأت الاعتقاد من جانب المخاطب بشركة الموصوف المذكور وغيره فى تلك الصفة ولم يقع قصر الافراد، كما ترى فى قولك : لا أبَ لزيدٍ الاّ عمرو . فالابوة مما لايصلح قيامه بمحلين[٢٩٩].

والثانى ـ ماكان المخاطب به من يعتقد عكس الحكم الذى اثبته المتكلم . كقولك لمن يعتقد ان اخاك غيرُ صائم : ليس اخى الاّ صائما ، ولمن يعتقد ان شاعر الرسول غير حسان بن ثابت : ليس شاعر الرسول الاّ حسان بن ثابت .

سمى هذا القسم بقصر القلب لما فيه من قلب حكم المخاطب كلّه من جانب المتكلم .

والثالث ـ ماكان المخاطب[٣٠٠] به مترددا بين ثبوت المقصور عليه و غيره للمقصور «اعنى الاتصاف بالصفة المذكورة وغيرها فى قصر الموصوف، واتصاف الامر المذكور وغيره بالصفة فى قصر الصفة»[٣٠١] وذلك مثل قولك لمن يتردد بين جوعك وعطشك : ما انا الاّ جائع، ولِمن يتردد فى حفر بئر زمزم بين عبدالمطلب وابى طالب : ما حافرُ بئرِ زمزمٍ الاّ عبد ـ المطلب .

فرفعتَ فى كلّ من المثالين تردّد المخاطب، وعيّنتَ ما كان غير معين عنده، ولهذا سمّى هذا القسم بقصر التعيين .

٢٩٩ـ راجع حاشية عبدالحكيم، ٣٣١ وحاشية الدسوقى ٢/١٨٢ .

٣٠٠ـ قد يخاطب بهذه الاقسام من يعتقد ان المتكلم يعتقد الشركة ، او عكس الحكم المذكور، اويتردد بين ثبوت المحصور عليه وغيره .

٣٠١ـ المختصر، ٢/١٨١ .

ثم ان كلا من قصر القلب والتعيين يتحقق مع تنافي الوصفين او الاتصافين ومع عدمه، خلافا للخطيب القزويني في اشتراطه التنافي في قصر القلب .

وان كلا من الافراد والقلب والتعيين يجري مع قصر الموصوف على الصفة ومع قصر الصفة على الموصوف كما رأيت، غير ان الظاهر من عبارة الايضاح والتلخيص[٣٠٢] اختصاص تلك الاقسام بالاضافي وعدم جريانها في القصر الحقيقي

وعلله التفتازاني بقوله: «اذ العاقل لا يعتقد اتصاف امر بجميع الصفات، ولا اتصافه بجميع الصفات غير صفة، ولا يردده ايضا بين ذلك . وكذا اشتراك صفة بين جميع الامور»[٣٠٣].

وفيه نظر اذ لا مانع في قصر الصفة على الموصوف ان يعتقد المخاطب حقيقة او ادعاء اتصاف كل شيء بصفة من الصفات او اتصاف غير من أثبتت له، بها . وكذلك لا مانع في قصر الموصوف على الصفة، ان يعتقد المخاطب اتصاف امر بجميع الصفات او اتصافه بجميع الصفات غير صفة ادعاء . نعم ان وجود الاعتقاد في الاضافي اكثر واظهر وان الحقيقي لا يقصد به في الغالب نفي الاعتقاد[٣٠٤].

طرق القصر

سبق ان القصر في الاصطلاح هو تخصيص شيء بشيء بطريق

٣٠٢- شروح التلخيص ٢/١٧٥ .

٣٠٣- المطول، ٢٠٧ .

←

مخصوص ، ومعنى هذه العبارة ان عمل التخصيص لا يتاتى فى الكلام مطلقا وكيفما يجرى على اللسان، بل يحتاج الى رعاية امور واعتبار أسباب فى الكلام بحيث اذا خلا منها لم يقع القصر .

فهذه الامور والأسباب، تسمى طرق القصر. و هى كثيرة ، فنكتفى هاهنا على اشهرها، منها :

١ــ العطف بحروف تقتضى ثبوت ضد حكم ما قبلها لما بعدها ، و هى «لا» و «لكن» و «بل»، و ذلك كقول عنترة بن شدّاد العبسى :

وإذا غبارُ الخيل مدَّ رواقه سكرى به، لا ما جَنَى العنقودُ

وقوله ايضا :

فيا ربَّ لاتجعل حياتى مذمّةً ولا موتتى بين النساء النوائح

ولكن قتيلا يدرج الطير حوله وتشرب غربانُ الفلا من جوانحى

وقول المتنبى :

ليس التعجب مِنْ مواهبِ ماله بل من سلامِتها الى أوقاتِها

وشك بعضهم فى افادة العطف القصر، وقال انه لا يدل الا على اثبات ونفى، فقولك : الحرُّ يتحمّلُ الجوعَ لا المذلّة، بمنزلة الحرّ يتحمل الجوع والحر لا يتحمل المذلة . و ذلك لا يكفى فى القصر، لانه انما يكون بنفى جميع الصفات حقيقة او مجازا، فليس خاصا بنفى الصفة التى يعتقدها المخاطب[٣٠٥].

اقول : ليس المعطوف دائما صفة خاصة، بل يمكن ان يكون شيئا عاما . وايضا ان العطف كما يجرى فى القصر الحقيقى تحقيقا او ادعائيا ،

→

٣٠٤ــ راجع المواهب ١٧٧/٢ .

٣٠٥ــ راجع عروس الافراح ١٨٧/٢ .

يجرى في الاضافى حتى انه اشتهر عندهم ان القصر بالعطف لايكون الا اضافيا[٣٠٦]، ومن المعلوم ان النفى فيه يتوجه الى ما يعتقده المخاطب[٣٠٧].

على انا لانسلم ان العطف لا يدل الا على اثبات ونفى، بل العطف يدل على اثبات ونفى وتاكيده، وهذا هو معنى الحصر بعينه. والدليل على ذلك انهم قالوا: «لايعطف بـ «لا» الا بشرط ان يتضمن ماقبلها - بمفهوم الخطاب - نفى الفعل، فيكون الاول لايتناول الثانى، نحو جاءنى رجل لا إمرأة، وعالم لاجاهل، فلو قلت: مررت برجل لا عاقل لم يجز، إذ ليس فى مفهوم الكلام الاول ما ينفى الفعل عن الثانى. فهى لاتدخل إلا لتأكيد الثانى.

فإذا اردت ذلك المعنى جئت «بغير» فتقول: مررت برجل غير عاقل وغير زيد»[٣٠٨].

واشترط فى القصر بـ «بل» افادتها ثبوت ضد حكم ماقبلها لما بعدها مع تقرير النفى لما قبلها. واما اذا كان لنقل حكم ما قبلها لما بعدها وجعل ما قبلها مسكوتا عنه حتى بعد النفى كما قيل، فلايكون قصرا[٣٠٩].

قال المعرّى فى رثاء والده:

فهل انتَ - ان ناديتُ رمسك - سامعٌ

نداءَ ابنِك المفجوعِ، بل عبدِك القنّ؟

٣٠٦- راجع المواهب ٢/١٩١ وحاشية الدسوقى ٢/١٨٦.

٣٠٧- فيكون القصر حينئذ قلبا او افراد اوتعيينا، ولكن كلام الشيخ صريح فى ان «لا» تاتى لقصر القلب فقط.

٣٠٨- عروس الافراح ٢/١٨٩.

٣٠٩- راجع المواهب ٢/١٩٠.

٢ـ النفى والاستثناء ، كقوله تعالى : «وما محمدٌ الاّ رسولٌ قد خلَتْ من قبلِهِ الرسلُ ، أفإنْ ماتَ او قُتِلَ انقلَبْتُم على أعقابِكم؟» ٣١٠ فى قصر الموصوف على الصفة . وقول عنترة :

ولا عاش الا مَنْ يُصاحب فِتْيةً
غَطاريفَ، لا يعنيهم النّحسُ والسّعْدُ

فى قصر الصفة على الموصوف .

ليس النفى والاستثناء يختصان بأداة معينة دون اخرى، بل يعم النفى أىَّ أداة تفيد معنى النفى مثل «ليس» و «إن» و «لا» واداة الاستفهام اذا استعملت فى النفى، ويشمل الاستثناء ايضا «الاّ» واخواتها، مثل «سوى» و «غير» و «حاشا» و «عدا» وغيرها . قال موسى شهوات فى عبدالله بن عمر بن عثمان :

ليس فيما بدا لنا مِنْك عيبٌ عابَه الناسُ ، غيرُ أنك فانى

وقال قابوس بن وشمگير :

قل للذى بصروف الدّهرِ عيّرنا هل عاند الدّهرُ إلاّ من له خطرُ؟

اعلم انهم اختلفوا فى افادة الاستثناء القصر، فذهب بعضهم الى ان الاستثناء يفيد القصر سواء كان مع النفى ام لا، فعلى هذا كان قوله تعالى: «إنّ الانسانَ لفى خسرٍ الاّ الذين آمنوا...» ٣١١ قصراً لعدم الخسران على الذين آمنوا ٣١٢.

و رأى صاحب مواهب الفتاح ان الاستثناء فى الكلام الموجب لا يعدّ من طرق القصر، اذ الغرض من ذلك الكلام الاثبات، والاستثناء فيه يعتبر

٣١٠ـ آل عمران، ١٤٤ .
٣١١ـ العصر، ٢ .
٣١٢ـ راجع عروس الافراح ١٩١/٢ .

قيدا . فقولك : يُمدَح المناضلون ويُلام القاعدون الا اولي الضرر ، كان بمنزلة : يلام القاعدون المغايرون لاولي الضرر . فلو كان الاستثناء في هذه الحالة من طرق القصر لكان «غير ذي عدد» في قول قابوس :

ففي السماء نجوم غيرُ ذي عدد وليس يُكسَف الا الشمسُ والقمرُ

ايضا من طرقه .

بخلاف ما اذا كان الكلام منفيا ـ سواء كان المستثنى منه مذكورا ام لا ـ فان الغرض فيه النفي ثم الاثبات المُحققان للقصر[313].

واما السكاكي فقد اقتصر في هذا المجال على النفي والاستثناء ، ولم يتعرض الى الاستثناء في الكلام الموجب . ولكن قال شارحه الفاضل «السيد الشريف» : «واما الاستثناء من الاثبات كقولك جاء القوم الا زيدا فلم يعد من طرق القصر»[314].

ويستفاد من حاشية الشارح في تعليل افادة النفي والاستثناء القصر افرادا او قلبا : أن هذا الحكم جارٍ في المفرّغ وما يؤول اليه، يعني ما اذا صُرّح فيه بمقدر كلّي. لان المستثنى فيهما جزئي من جزئيات المستثنى منه، فيحسن ان يعتبر اعتقاد المخاطب الشركة او العكس او تردده، لاختلاف الجزئيات في الاحكام . واما اذا كان المستثنى جزءاً من المستثنى منه كما في قولك ما جاءني القوم الا زيدا، فلا يحسن ذلك الاعتبار، لقلة تخالف الاجزاء في الاحكام[315].

لقد اشار المحشي المُحقق عبد الحكيم في حواشيه على المطوّل الى

٣١٣ـ راجع المواهب ٢/١٩١ .

٣١٤ـ شرح المفتاح، بدون رقم الصفحة، مخطوط بمكتبة «آستان قدس» تحت رقم ٤٠٨١ .

٣١٥ـ حاشية السيد على شرح المفتاح، مخطوط .

ما نقلنا من شرح المفتاح وحاشيته، ثم قال: «والتحقيق ان القصر مختص بالنفى والاستثناء المفرغ وما فى حكمه مما يكون المستثنى جزئيا للمستثنى منه . لانه حينئذ يكون المقصود به الاثبات الذى يستفاد من المستثنى وانما ذكر النفى تاكيدا لاثباته، فيكون حكما واحدا متضمنا للاثبات القصدى والنفى التبعى. بخلاف ماسواهما، فان الحكم فى المستثنى منه مقصود اصالة، وكذا الحكم على خلافه فى المستثنى... فكلا الحكمين من الاثبات والنفى مقصودان بالافادة، ثابتان بنفس اللفظ ...

فاذا كان الحكمان مقصودين من الكلام لايكون مفيدا للقصر، لانه حكم واحد وهو تخصيص شىء بشىء يتضمن الاثبات القصدى والنفى التبعى»[٣١٦].

والذى يدل عليه كلام الخطيب هو ان طريق النفى والاستثناء انما يفيد القصر اذا كان الاستثناء مفرغا، لانه بيّن سبب افادة النفى والاستثناء القصر بين المبتدا والخبر والفاعل والمفعول وغيرها، بقوله : «ووجه الجميع ان النفى فى الاستثناء المفرغ يتوجه الى مقدر هو مستثنى منه عام مناسب للمستثنى فى جنسه وصفته، فاذا اوجب منه شىء بإلا جاء القصر»[٣١٧].

ثم ان طريق النفى والاستثناء ، يستعمل لقصر الموصوف على الصفة و بالعكس افرادا او قلبا او تعيينا، كما نص عليه الخطيب فى الايضاح[٣١٨].

لكن ذكر السيد فى حواشى المطول انه «لايبعد ان يقال ان طريق النفى والاستثناء ظاهر فى قصر الافراد، فانك اذا قلت ما جاءنى الا زيد

٣١٦- حاشية عبدالحكيم، ٣٣٣ .

٣١٧- التلخيص مع شروحه، ٢٣١-٢٣٢ .

٣١٨- الايضاح مع شروح التلخيص ١٩٢/١ .

كان المعنى ما جاءني احد الا ّ زيد .

فان اجرى على عمومه كان قصرا حقيقيا لا يتصور فيه الافراد والقلب والتعيين . وان خُصَّ بالذين وقع فيهم النزاع كان معناه ما جاءني احد من هؤلاء الا زيد . ويتبادر منه الى الفهم افراد زيد من بينهم بهذا الحكم اعني المجيء»[٣١٩].

وظاهر كلام الشيخ يدل على ان طريق النفي والاستثناء ياتي لقصر الافراد والقلب سواء ، فيرى ان نحو ما جاءني الا ّ زيد يحتمل وجهين :

احدهما ان تريد تخصيص المجيء بزيد ونفي الحكم عما عداه، بمعنى ان يكون كلاما تقوله لمن به حاجة الى ان يعلم انه لم يجيء اليك غيره ، لا الى ان يعلم ان زيدا قد جاءك . – اذ لا يشك في مجيئه –

الثاني، ان يكون كلا ما تقوله لمن يحتاج الى ان يعلم ان الجائي زيد لا غيره .

وعلى ذلك قوله تعالى : «ما قلتُ لهم الا ّ ما امرتَني به : ان اعبدوا الله ربي و ربَكم»[٣٢٠] لانه ليس المعنى : اني لم أزِدْ على ما امرتني شيئا، ولكن المعنى : اني لم ادَعْ ما امرتَني به ان اقوله لهم، و قلت خلافه .

ومما جرى على هذا المعنى قوله :

قد عَلِمَتْ سلمى و جاراتُها ما قطَّر الفارسَ إلا ّ أنا[٣٢١]

فالمعنى: الذي قطر الفارس انا لا غيري، وليس المعنى على انه يريد

٣١٩– حاشية السيد على مطول، ٢١١ .

٣٢٠– المائدة، ١٣ .

٣٢١– جاء في اللسان : قال الليث : اذا صرعت الرجل صرعة شديدة، قلت : قطرته، وانشد البيت .

ان يزعم انه انفرد بهذا العمل ولم يشركه فيه غيره[٣٢٢].

ثم ان الشيخ يؤيد ما سبق ويكرّره حيث يقول : «واعلم ان حكم «غير» في جميع ما ذكرنا حكم «الا» فاذا قلت : ما جاءني غير زيد ، احتمل ان تريد نفي ان يكون جاء معه انسان آخر ، وان تريد نفي ان لايكون قد جاء وجاء مكانه واحد آخر»[٣٢٣].

وصرح السكاكي[٣٢٤] بان طريق النفي والاستثناء يفيد قصر الموصوف على الصفة ، والصفة على الموصوف افرادا وقلبا . ومما جرى على معنى الافراد ، قوله تعالى: «وما انا بطارد المؤمنين ، ان انا الا نذير»[٣٢٥] فمعناه أنا مقصور على النِذارة لا أتخطاها الى طرد المؤمنين . وعلى معنى القلب ، قوله ايضا : ما قلتُ لهم الا ما امرتَني به .

٣ـ انما[٣٢٦] ، فهي تاتي اثباتا لما يُذكر بعدها ، ونفيا لما سواه . و **لهذا قال** بعض النحويين في قوله تعالى : «قل انما حرّم ربي الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن»[٣٢٧] ان المعنى : ما حرّم ربي الا الفواحش . ولهذا

٣٢٢ـ دلائل الاعجاز ، ٢٦٠ـ٢٦١ .

٣٢٣ـ دلائل الاعجاز ، ٢٦٨ .

٣٢٤ـ مفتاح العلوم ، ١٣٩ .

٣٢٥ـ هود ، ٢٩ .

٣٢٦ـ جاء في شرح مختصر المنتهى (٢/٣٢٣) انه اختلف في افادة «انما» القصر ، فقيل لايفيد الحصر فهو ان وما مؤكدة . فقولك : انما انت نذير ، في قوة انك نذير .

وقيل يفيده بالمنطوق ، فلا فرق بين انما انت نذير وبين ما انت الا نذير .

وقيل يفيده بالمفهوم .

٣٢٧ـ الاعراف ، ٣٢ .

فصل الفرزدق ضمير المتكلم في قوله :

أنا الذائدُ الحامي الذّمار وانّما يُدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

كما يفصل مع الاّ . لان المعنى : ما يُدافع عن أحسابهم إلا انا او مثلي[٣٢٨].

تستعمل «انما» لقصر الموصوف على الصفة كقوله تعالى : «انما انت مُنذِرُ مَنْ يخشاها»[٣٢٩].

ولقصر الصفة على الموصوف بلا خلاف، كقوله عزّ من قائل : انما تُنذِرُ مَن اتّبعَ الذكرَ وخشي الرّحمٰنَ بالغيب»[٣٣٠] وقولهم : انما يعجَل من يخشى الفوت .

واما استعمالها للافراد والقلب فمحل خلاف . وبيان الشيخ في دلائل الإعجاز صريح في ان «لا» و «انما» تاتيان لقصر القلب فقط، لانه يقول في بيان المراد من جاءني زيد لا عمرو :

«فهو كلام تقوله مع من يغلط في الفعل قد كان من هذا، فيتوهم انه كان من ذلك .

والنكتة أنه لاشبهة ليس ههنا جائيان، وانه ليس الاّ جاء واحد . و انما الشبهة في ان ذلك الجائي زيد ام عمرو . فأنت تحقق على المخاطب بقولك : جاءني زيد لا عمرو انه زيد وليس بعمرو .

ونكتة اخرى : وهي انك لاتقول : جاءني زيد لاعمرو، حتى لا يكون قد بلغ المخاطب انه كان مجيءٌ اليك مِنْ جاءٍ، الاّ انه ظن انه كان من عمرو، فاعلمته أنه لم يكن من عمرو، ولكن من زيد» .

٣٢٨ـ راجع دلائل ٢٥٢ـ٢٥٣ .

٣٢٩ـ النازعات، ٤٥ .

٣٣٠ـ يس، ١١ .

ثم يقول : «واذ قد عرفت هذه المعانى فى الكلام بلا العاطفة فاعلم انها بجملتها قائمة لك فى الكلام بإنما»[٣٣١] ثم يفسر انما جاءنى زيد كما فسر جاءنى زيد لاعمرو .

ولكن ذكر صاحب الايضاح ان «لا» و «انما» تاتيان للقلب والافراد سواء . وعبارة التلخيص ايضا ينبىء عما اعتقده فى الايضاح من القلب والافراد فيهما[٣٣٢].

فائدة ــ لم يذكر البلاغيون فى طرق القصر «أنما» بالفتح مع ان الموجب للحصر أعنى التضمن للنفى والاموجود فيها ايضا. قال الزمخشرى[٣٣٣]: انما لقصر الحكم على شىء او لقصر الشىء على حكم كقولك : انما زيد قائم وانما يقوم زيد . وقد اجتمع المثالان فى هذه الآية: «قل انما يُوحى الىّ أنما الهكم اله واحد»[٣٣٤].

٤ــ التقديم، وهو ينقسم الى قسمين :

الاول ــ تقديم ماحقه التأخير كتقديم الخبر على المبتدأ والمعمولات مثل المفعول والمجرور والحال على العامل . وذلك كقول محمود درويش:

الى الأعلى
حنا جرُ نا
الى الأعلى مَعاجرُ نا
الى الاعلى أمانينا
الى الأعلى أغانينا[٣٣٥]

٣٣١ــ دلائل الاعجاز، ٢٥٩ .

٣٣٢ــ راجع الايضاح ١٨٧ــ١٩٣ والتلخيص ١٩٧ــ١٩٣ .

٣٣٣ــ الكشاف، ٣/ ٢٣ .

٣٣٤ــ الانبياء، ١٠٨ .

وكما نقرأ في سورة الفاتحة : «اياك نعبد واياك نستعين» .

وكقول فدوى طوقان :

لن يَقعدَ الأحرارُ عن ثأرهم وفي دم الأحرارِ يغلي النغم [٣٣٦]

يشترط في تقديم الخبر على المبتدأ المفيد للقصر ان لايكون المبتدأ نكرة قدم عليها الخبر وجوبا، لان التقديم حينئذ لا يفيد القصر [٣٣٧] كقولك : على قلبي سكاكينُ، وفي صدري حكايات" .

وتقديم ما حقه التأخير، يصلح لقصر الموصوف على الصفة، والصفة على الموصوف افرادا اوقلبا اوتعيينا .

الثاني ـ تقديم المسند اليه على المسند في مثل : ما انتم تسمعون صُراخَ الجِياع، ايها المترفون . اي : ما سمعتم هذا الصراخ مع انه مسموع لغيركم، فلايقال هذا الكلام الا اذا ثبت أن الصراخ مسموع و كان القصد ان ينفى أن يكون المخاطبون المترفون سامعين له، فالشبهة في انفراد المترفين بالسماع اومشاركتهم لغيرهم فيه .

اما اذا كانت الشبهة في صراخ لم يثبت سماعه، فالصحيح ان يقال: ما تسمعون صراخ الجياع ايها المترفون .

ولايكون تقديم المسند اليه نصا في التخصيص عند عبدالقاهر الا اذا ولي حرف نفي كما رايت في المثال، وفي غير هذه الصورة قد يفيد التقديمُ التخصيص افرادا وقلبا، وقد يفيد تقوي الحكم وتقريرَه مضمرا

٣٣٥ـ الشعر المقاتل في الارض المحتلة، ١٣٢ .

٣٣٦ـ وحدي مع الايام، ١٣٧ .

٣٣٧ـ راجع المطول، ١٠٥ والمواهب، ١١٢/٢ و حاشية الدسوقي ٢٠٢/٢ .

كان المسند اليه او مظهرا، معرفة او نكرة، مثبتا كان الفعل او منفيا[٣٣٨].

ومذهب السكاكى ان المسند اليه ان كان نكرة فتقديمه للتخصيص ان لم يمنع منه مانع، وان كان معرفة فان كان مظهرا فلايكون للتخصيص قطعا، وان كان مضمرا فان اعتبر تقدير كونه فى الاصل مؤخرا على انه فاعل معنى فهو للتخصيص[٣٣٩]، نحو : أنت تزدانُ بالعدلِ والاحسانِ .

فالسكاكى يجيز تقديم الفاعل المعنوى دون اللفظى، ولايخفى انهما سواء فى امتناع التقديم ما بقيا على حالهما[٣٤٠].

٥ـ التعريف بلام الجنس، كقولك فى قصر الموصوف على الصفة : الحرُّ من لم يكن عبدً نفسه . وفى قصر الصفة على الموصوف : قضيةُ فلسطين المأساةُ .

اعلم انك اذا جعلت المعرّف بلام الجنس مبتدأ، صار مقصورا على الخبر . سواء كان الخبر معرفا بلام الجنس اوغيره، مثل : الكرم هو التقوى اى لاغيرها، والمؤمن الشجاع اى لاالجبان، والبطل هذا، وغير ذلك . او غير معرّف اصلا، نحو : التوكل على الله، والتفويض الى امر الله، والفصاحة للقريش .

وان جعلته خبرا فهو مقصور على المبتدأ، كقولك : سلاحنا الايمان وشعارنا الإسلام[٣٤١].

واذا كان المبتدأ والخبر كلاهما معرفا بلام الجنس كقولك : العقل

٣٣٨ـ دلائل الاعجاز، ٩٦ـ٩٩ والمطول، ٨٨ـ٩٤ .

٣٣٩ـ فتقديم المسنداليه فى هذه الحالة يرجع الى القسم الاول، اعنى تقديم مالحقه التاخير .

٣٤٠ـ راجع المطول، ٩٤ـ٩٥ .

٣٤١ـ المطول، ١٤٦ .

الزَيْنُ، والجهل الشَيْنُ، والعلم البال، فالظاهر انه قصر للمبتدأ على الخبر . لان القصر فى هذا الباب مبنى على قصد الاستغراق وشمول جميع الافراد، و ذلك أنسب بالمبتدأ اذ القصد فيه الى الذات وفى الخبر الى الصفة[٣٤٢].

وقال عبدالحكيم : «الصواب ان يقال انه اذا كان احدهما اعم فهو المقصود، وان كان بينهما عموم من وجه يفوض الى القرائن، وان لم توجد قرينة فالاظهر قصر المبتدأ على الخبر»[٣٤٣].

ولايخفى ان القصر بلام التعريف يختص بالمبتدأ والخبر ويجرى فيهما فقط .

بقيت نكتة، وهى ان التعريف بلام الجنس ـ اعم من ان يتحقق فى المبتدأ او الخبر ـ لايفيد القصر دائما، كما ترى فى قول الخنساء فى مرثية اخيها صخر :

اذا قبُحَ البكاءُ على قتيلٍ رأيتُ بكائَكَ الحسنَ الجميلا

فالخنساء لم ترُد قصر الحسن على بكائه بأن لايتجاوزه الى شيء آخر، والا لم يحسن جعله جوابا لقوله اذا قبح البكاء على قتيل، اذ لا معنى للقصر فى نحو قولنا : «اذا قبح البكاء على قتيل لم يحسن الا بكاؤك» على ما لايخفى على من له معرفه باساليب الكلام . لظهور ان الغرض ان تثبت لبكائه الحُسْنَ، وتخرجه من جنس بكاء غيره من القتلى[٣٤٤].

٣٤٢ـ راجع حاشية السيد على المطول ، ١٧٨ـ١٧٩ .

٣٤٣ـ حاشية عبدالحكيم ، ٢٩٢ .

٣٤٤ـ المطول ١٤٧ .

٦ـ ضمير الفصل، قال التفتازانى : التحقيق ان الفصل قد يكون للتخصيص اى قصر المسند على المسند اليه، نحو : زيد هو افضل من عمر، و زيد هو يقاوم الاسد .

ذكر صاحب الكشاف فى قوله تعالى : «ألم تعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده»[٣٤٥]، أن «هو» للتخصيص والتأكيد[٣٤٦].

وقد يكون لمجرد التأكيد اذا كان التخصيص حاصلا بدونه بان يكون فى الكلام ما يفيد قصر المسند على المسند اليه، نحو : انّ الله هو الرّزاق، اى لا رازق الاّ هو ، وقصر المسند اليه على المسند ، نحو ، الكرم هو التقوى، والحسب هو المال، اى لا كرم ولا حسب الا المال. قال ابو الطيب:

اذا كان الشبابُ السُّكْرَ والشيب همّا ، فالحياةُ هى الحِمام[٣٤٧]

ميزات طرق القصر الستة

ان هذه الطرق المذكورة بعد الاشتراك فى افادة القصر تختلف من وجوه :

يمتاز العطف من بقية الطرق بالنص على المثبت والمنفى نفسهما نحو: الفخر بالتقوى لا بالنسب، فلهذا لا يعقل منه الحكمان دفعة واحدة ، بخلاف سائر الطرق حتى النفى والاستفهام . لان صورة العطف تحتمل الاستقلال، والاستثناء مرتبط بالمستثنى منه فيفيد الحكمين معا بواسطة

٣٤٥ـ التوبة، ١٠٥ .

٣٤٦ـ الكشاف، ٢/ ١٧١ .

٣٤٧ـ المطول، ٨٦ .

ذلك الارتباط[348].

نعم قد يذكر موضع المنفى ما يدل عليه اجمالا فيما اذا كان متعددا يوجب ذكره نفسه الاطناب فنقول : الفخر بالتقوى لاغير، اذا كان المخاطب معتقدا الفخر بالنسب والمال والجاه و ...

واما بقية الطرق فالاصل فيها ان ينص على المثبت فقط كما عرفت .

ويجتمع النفى بلا العاطفة سائر طرق القصر غير النفى والاستثناء ، و ذلك لان شرط المنفى بلا ان لا يكون منفيا قبلها بغيرها من أدوات النفى.

واشترط[349] السكاكى لاجتماعها مع «إنما» ان لا يكون الوصف الذى أريد حصره مختصا بالموصوف نحو قوله تعالى : إنما يستجيبُ الذين يسمعون .

ولكن الشيخ عبدالقاهر يرى ان هذا من شرط الحسن لا الصحة ، لانه قال فى دلائل الاعجاز :

«ومما يجب ان يعلم : انه اذا كان الفعل بعدها فعلا لايصح الا من المذكور، ولايكون من غيره، كالتذكر الذى يعلم انه لا يكون الا من اولى الالباب، لم يحسن العطف بـ «لا» فيه كما يحسن فيما لا يختص بالمذكور ويصح من غيره»[350].

ويمتاز النفى والاستثناء بان الاصل فيه ان يستعمل لامر ينكره المخاطب ويشك فيه، فلهذا لا تقول لرجل وانت ترفقه على اخيه وتنبهه على مايجب من صلة الرحم : ما هو الا اخوك، لان المخاطب يعرف هذا

٣٤٨ـ المواهب، ٢/٢٢٢ .

٣٤٩ـ راجع الايضاح والتلخيص ٢/٢١٢ .

٣٥٠ـ دلائل الاعجاز ٢٧١ .

الخبر ولايشك فيه[٣٥١].

واما «انما» فتمتاز بانالاصل فيها ان تستعمل لخبر لايجهله المخاطب ولا يدافع عنه، كقوله تعالى: «انما يستجيب الذين يسمعون»[٣٥٢]. وكقولهم : انما يعجل من يخشى الفوت .

نعم، تستعمل «انما» للخبر المجهول تنزيلا له منزلةالمعلوم لاعتبار مناسب . و ذلك كقوله تعالى حكاية عن اليهود : «واذا قيل لهم لاتفسدوا فى الارض، قالوا : انما نحن مصلحون»[٣٥٣].

وكقول قيس بن الرقيات :

انما مصعب" شهاب" من الله قد تجلّت عن وجهه الظلماء

كما قدينزل المعلوم منزلة المجهول فيستعمل له طريق النفى والاستثناء.

وتمتاز «انما» ايضا بان احسن مواقعها مالايراد بالكلام بعدها نفس معناه ولكن التعريض بامر هو مقتضاه، كقوله تعالى : «إنما يتذكر أولو الألباب»[٣٥٤].

فليس الغرض منه انيعلم السامعون انالتذكر يختص باصحاب العقول، بل المراد به التعريض بانالكفار من شدة عنادهم وغلبة الهوى عليهم لا يتذكرون وكأنهم ليسوا من زمرة ذوى العقول .

ويمتاز التقديم بان دلالته على الحصر بالفحوى والسياق وحكم الذوق، بخلاف سائر الطرق فان دلالتها على القصر بالوضع .

٣٥١– راجع دلائل الاعجاز، ٢٥٦ .

٣٥٢– الأنعام، ٣٦ .

٣٥٣– البقرة، ١١ .

٣٥٤– الرعد، ٢١ .

اما ضمير الفصل والتعريف باللام فالظاهر ان دلالتهما على القصر بالفحوى وحكم الذوق ايضا، الا انهما يختصان بالمسند والمسند اليه ، وان ضمير الفصل يختص دائما بقصر الصفة على الموصوف كما سبق .

وهذه الطرق تتفاوت ايضا من حيث موضع المقصور عليه في الكلام، ففي النفي والاستثناء يتاخر المقصور عليه عن المقصور ويقع بعد «الا» بلا فصل، فتقول في القصر على الفاعل : ما يخشى الله الا العلماء وفي القصر على المفعول : ما يخشى العلماءُ الا الله .

ويجوز تقديم المقصور عليه مع «الا» على المقصور ، ولكن ذلك قليل لاستلزامه قصر الصفة على الموصوف او الموصوف على الصفة قبل التمام . فيقال في المثال المذكور : ما يخشى الا العلماء الله .

والمقصور عليه في «انما» ياتي دائما في نهاية الجملة※، كقوله(ص): انما الاعمالُ بالنيات . فالمقصور عليه ههنا لم يقع بعد «انما» بلا فصل بل اتى في آخر الجملة ولا يجوز تقديمه[355].

٣٥٥ــ راجع التلخيص ٢/٢٣٢ــ٢٣٣ .

٣٥٦ــ دلائل الاعجاز ٢٦٥ .

※ قال عبدالحكيم (٣٤٦): اى يكون المقصور عليه في «انما» هو الجزء الاخير، والمراد بالجزء الاخير ما يكون فيه جزء بالذات عمدة او فضلة، لا ما ذكر في آخره فقط . فان الموصول المشتمل على قيود متعددة جزء واحد وكذا الموصوف مع صفته، فالمقصور عليه في قولك : انما جاءني من اكرمته يوم الجمعة امام الامير، هو الفاعل اعني الموصول مع صلته . وفي قولك : انما جاءني رجل عالم، هو الموصوف مع صفته .

وانما يؤخر المقصور عليه دون المقصور، لان المقصور مقدم طبعا فقدم وضعا . كذا في : شرح المفتاح الشريفي» .

اماالمقصور عليه فى «لا» من حروف العطف فيقع قبلها معطوفا عليه[٣٥٦]، فيكون دائما مقابلا لما يجىء بعد «لا» معطوفا، مثل : الانسان بقلبه لا بجسمه .

وفى «بل» و «لكن» يقع المقصور عليه بعدهما، نحو : ما كان محمد ابا أحدٍ ولكن رسولَ الله[٣٥٧]... ، وما الفخر بالنسب بل بالعلم والأدب .

وفى التقديم يأتى المقصور عليه دائما مقدما كما رأيت فى «اياك نعبد» و «الى الأعلى أمانينا وغيرهما» .

وفى ضمير الفصل، يقدم المقصور عليه ايضا، كقوله تعالى: «واولئك هم المفلحون» .

واما فى التعريف باللام، فالمقصور عليه ما دخله اللام، فتارة يكون خبرا فيؤخر مثل عمرو الشجاع، وتارة يكون مبتدأ فيقدم مثل : التوكل على الله .

اما اذا كان المبتدأ والخبر كلاهما معرفا بلام الجنس مثل : العلم المال، فالظاهر ان المقصور عليه هو المبتدأ المقدم .

٣٥٧ــ الاحزاب، ٤٠ .

الباب الثانى الصورة

والمراد بالصورة ما يستمد منه الانسان او الاديب والفنان، فى خلق التراكيب المختلفة والتعابير غير المتناهية، وفى توصيل ما يحسه من التجارب المتنوعة، وفى إلباس مايرتسم على نفسه حلةً من الجمال والجلال.

ولتوضيح هذا البيان نقول : ان الانسان كما يتأمل ويتفكر، يحس و يشعر ويتأثر، ويرى نفسه ازاء الكون والطبيعة والحياة الانسانية وما يجرى فيها : من الحسن والقبح، والسعد والشقاء، والبؤس والرخاء، والحب والكراهية، والسلام والقتال وغيرها ، فيملأ قلبه تياراتٌ من الأحاسيس والعواطف، ويُثقل صدرَه قدورٌ هائجة بالإنطباعات والأفكار . فيريد أن يتنفس منها ويوحى الى غيره بما ارتسم فى نفسه، ويُشرِك الآخرين فى احساسه وتجربته، ويحفزَهم على العمل والنشاط .

وأحيانا ينفد الانسان فى أقطار عالم الخيال ويحلّق فى سمائه، حيث لايُرى حجابٌ ولايعرض جدار . فهناك يجد الانسان نفسه فى عالم غير متناه، عالم لاتحيط به الآفاق ولاتحدّه الكلمات، ذلك عالم الخيال وعالم المعنى فيُحبُّ أن يبوح بقصة هذه الرحلة وما شاهده فيها، ويعطىَ الآخرين تجربته منها . فالانسان على عكس بخله بالمال وسعيه فى إخفائه، يحرص على أن يبذل ما يعرفه ويشعره، ويسعى فى أن يُبيِّن خواطره و

آراءه . لعل سبب ذلك ـ اضافةً على التخفيف عما أثقله والإسهام لغيره فى سروره وحزنه، واحساسه وتجربته ـ أنه يعتقد فناءه ولا يريد ان يستسلم له كأن لم يكن شيئاً مذكورا، بل يقاوم ويجاهد فى ان يترك من بعده اثرا يخلّد ذكراه فى الباقين، ويكرّر حديثه فى الغابرين، فيخدم الانسان من سبيل الفن نفسه وشخصه .

والتعبير عن الاحاسيس والعواطف، وما جناه الفكر والخيال، ونقل التجربة وتوصيلها ليس بالأمر الهيّن، اذهناك عقباتٌ صعبة يضلّ فيها الانسان، وتزل منها الأقدام . من تلك العقبات قصور وسائل التعبير وقلة أدواته، لان الكلمات او الالفاظ التى اصطلح الناس عليها محدودة ومتناهية بخلاف ما يعرض للانسان من المفاهيم، فانه لا يقبل التحديد كما لا يقبل الوضع والاصطلاح . الا ترى ان ما يرتسم فى نفس الشخص يتلوّن بلونه ويتعدد بتعدده، فالاحساس والشعور فى كل شخص غيرهما فى الآخر و كذلك التفكر والتخيل، فكيف يتصور الوضع والاصطلاح للتعبير عن نتائجها .

ومنها الغموض والابهام فى نفس التجربة، فثمّة ضروب من الإحساس الشموس وأنواع من الانطباع الشرود، و ذلك لان صاحبهما لم ينظر الى الحياة الاّ الى جوانبها الغوامض الدقاق دون الوانها المحدّدة الواضحة . فهذه التجربة تحتاج فى التعبير عنها الى استخدام وسائل خاصة وطرق معينة كالصور الأدبية . «فالصور الكلامية التى يستخدمها الشعراءً إن أجيد استخدامها كانت اداة مفيدة فى ايديهم، فبفضلها تشخص المعانى المجرّدة ، وتصبّ فى صورة مرئية محسوسة، وبذلك تكتسب قوةً و نصوعا»[١].

١ـ فنون الادب، ٩١ .

فهذه العقبات هى ما دفع الانسان منذ زمن قديم الى الاستعانة بوسائل تكمّل ما فى لغته من قصور، وتشدّ أزره فى عالم مبهم، فلجأ الى صور ادبية وفنون بيانية كالتشبيه والمجاز والاستعارة والكناية، مُحاوِلا بذلك نقل أحاسيسه الغائمة وتوصيلَ تجاربه الجامعة[٢].

فلا اقتحم العقبة إلاّ كشّاف رائد فى دولة الرّوح والخيال، و ذو موهبة يهتدى الى ربط الأشياء بعضها ببعض وإحلالها بعضها محلّ بعض، وأديب مسيطر على خيال قرّائه، وفنان مقتدر على الخلق والإبداع . ألا ترى ان لغة الادب تختلف عن اللغة المألوفة، وأن الادب هو الوسيلة لتوصيل التجارب ونقلها كاملة غير منقوصة من ذهن الى ذهن[٣]، وأن العمل الفنى ليس مجرد تقليد للعالم المرئى، بل يصبغ عليه الفنان لونا من روحه ونظره الثاقب، ويعطيه صورة رائعة ويكمل ما فيه من نقص، فتجدُ أنّ الحجر الذى تناوله الفنان اجمل مما لم تمسه يد . «فلئن عجز الانسان عن أن يُضيف الى عالم المادة ذرّة واحدة، فقد عوّضه الله عن هذا العجز خير العوض، اذ أتاح له أن يوسّع لنفسه من عالم الرّوح كيف شاء»[٤].

ويلمح فى هذا تشابهٌ مع ما قال الأستاذ عبد الحميد حسين فى تعليل وضع صورة عقلية مكان أخرى، فهو يرى أن سبب ذلك يرجع الى العقل الباطن و رأى فرويد فى الأحلام. فان الأحلام فى رأيه، نتيجة رغبات مكبوتة تظهر خلال النوم متخفية ومتسترة على أشكال مختلفة وهيآت متباينة . وأن العقل يجد سرورا فى إخفاء هذه الرغبات، ويجد فى هذا

٢ــ فى النقد الادبى، ١١١ .
٣ــ قواعد النقد الادبى، ٣٥ .
٤ــ فى النقد الادبى، ٣٠ .

السيدان المجازى وما فيه من افتنان، مجالا وتوسعا لإظهارها بشكل جديد[٥].

فالصورة او التصوير ضرورة قصور اللغة وغموض التجربة، و وليدة حسن العرض وقوة الابانة، وظاهرة الرغبات المكبوتة ، فهى كيفية فى الجملة والبيان تكسبها قوة ونصاعة وتلبسها جمالا وجلالا، وتبرزها فى معرض مرآة تتجسد وتتجلى عليها الاشياء، وتنقسم الى التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية. فهذه الاقسام منها ما أساسه الخيال كالتشبيه والمجاز والاستعاره، فانها ترجع الى عملية الخيال وتعاونه مع العاطفة إمّا بكشف التشابه والتجانس بين الاشياء التى لاترتبط عادة، فيقرن الخيال بينها ويتصورها فى أحوال متنوعة مفردة ومركبة، وإمّا باضفاء الحياة على الاشياء و إكسابها حياة انسانية او حيوانية، وإمّا بانتقال الذهن من معنى الى آخر.

ومنها ـ ما أساسه الرمزية، كالكناية وما يتصل بها من تلميح اواشارة او تلويح[٦].

فالخيال له حَظٌ كبير فى مباحث هذا الباب ومسائله، ويعتبر ميزة لها بالنسبة الى سائر المباحث . ولانعنى من هذا ان ماعدا مسائل هذا الباب فارغة عن الخيال وعمليته، ولكن نريد ان «الصورة» اشدّ ارتكازا عليه وأوصَلُ ارتباطا معه . و ذلك لأنّ الخيال قوة لاتسير الحياةُ العقلية بدونها*، وله فى الفن عامة وفى الأدب خاصة قيمة كبيرة، لأن الفن كالمرآة

٥ـ الاصول الفنية للادب، ١٠٩ .

٦ـ المصدر نفسه، ١٠٦ـ١٠٧ .

* يرى «كانت» الفيلسوف الالمانى : ان الخيال اجلّ قوى الإنسان، و انه لاغنى لأيّة قوة اخرى من قوى الانسان عن الخيال. (النقد الادبى الحديث، ٤١٢).

التي تنعكس عليها صور الحقائق وظلالها لا الحقائق نفسها . والشاعر أو الاديب يحاول إظهار ما يشعر به وينطبع على قلبه لا ما يراه او يسمعه، فهو انما يعبر عما ارتسم على صفحات نفسه، ويعمد الى تصدير الاثر الذى احس به، وعدّته في ذلك وفي ايصال التجارب والمعانى الى ذهن القارى او السامع انما هو الخيال[٧].

الفصل الأول التشبيه

معنى التشبيه و علاقته بالخيال

التشبيه فى اللغة التمثيل[٨]، جاء فى القاموس: وشبّهه اياه وبه تشبيها، مثّله . وفي الإصطلاح، فسّروه بصور مختلفة وعبارات متنوعة تنبىء عن عقد مشاركة بين طرفين فى معنى بطرق مخصوصة . و ذلك كقوله تعالى: «يومَ يكونُ الناسُ كالفراشِ المَبثوثِ و تكونُ الجبالُ كالعِهنِ المَنفوشِ»[٩].

وقال الشاعر :

كَمْ مِنْ فؤادٍ كأنّه جبَلٌ أزالَهُ مِنْ مَقرّه النّظَرُ

فالتشبيه فى اللغة كما رأيت يساوى «التمثيل» ويرادفه، واما فى الاصطلاح فمنهم ـ كالزمخشري وابن الاثير ـ من لا يفرّق بينهما و يستعمل كلاً منهما موضع الآخر[١٠]، ومنهم من يرى أن التمثيل أخص من

٧ـ الاصول الفنية للادب، ٩٧ـ٩٨ .

٨ـ الصحاح، واللسان، مادة شبه .

٩ـ القارعة، ٤ـ٥ .

١٠ـ فن التشبيه، ٢٩/١ .

التشبيه ويجعل التمثيل قسما منه، فكل تمثيل عنده تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلا . ويرأس اصحاب هذا الرأى الشيخ عبدالقاهر الجرجانى، فتناول فى كتابه «أسرار البلاغة» الفرق بينهما من جوانب مختلفة فى مواضع متعددة[١١]. ولأن المقام لايسع لأكثر من هذا، نترك المسألة وسنرجع إليها بشىء من التفصيل عند الحديث عن «التمثيل» وبيان نظرية الشيخ الخاصة فيه، إن شاءالله تعالى .

واذ قد عرفت أن التشبيه عقد مشاركة بين الأشياء وجمعها فى معنى، فهو عمل تركيبى يستمد من قوة تتصرّف فيها، لأن الاشياء فى الخارج و فى الطبيعة ليست على تلك الصورة التى تشاهد فى التشبيه، «فالقلب» مثلا لايوضع بجانب «الجبل» ، و «الخدّ» لايقترن با«لورد»، و «الألفاظ» او «الكلام» ليست مع «العسل» . فالخيال هو الذى يعمل على الربط بين الاشياء المتباينة، وايجاد الصلة بين مظاهر الطبيعة مما لايظن وجود الصلة بينها . فالتشبيه صورة تتوالد من المقارنة بين الأشياء المتباعدة والمختلفة، بمعاونة الخيال

التشبيه ظاهرة عامة

التشبيه ظاهرة عامة، لاتختصّ بانسان دون آخر، ولاتنحصر على شعب دون شعب، فنجدها عند كل امّة وفى كلّ لغة، ويعرفها العجمى كما يعرفها العربى، ويهتدى اليها الصغير كما يهتدى اليها الكبير .

فهو من الناحية النفسية عمل طبيعى يهتدى اليه الانسان بالفطرة كلما

١١– اسرار البلاغة، صفحة ١٠٧ وما بعدها .

دعت الأسبابُ والعوامل اليه، ولونٌ من الهبات الإنسانية والخصائص الفطرية والتراثِ المُشاع بين الانواع البشرية جميعا[١٢]. ويُستَدلّ على ارتكاز عملية التشبيه في النفس الانسانية وعموميتها بوجوه :

الاول - انّ الانسان مطبوع على حب النظام والترتيب والتواصل، والكره لكل ما لم ينخرط فى سلكه ولم يوضع بجانب مماثله . فهو لاينظر الى الطبيعة ومناظرها كخرزات مبعثرة لاتنخرط فى سلك، او كمائدة وضع عليها ألوان من الأطعمة لايربطها رابط ولايجمعها جامع، بل ينفذ فى أغوارها ويرى بواطنها ويكشف القناع عن وجوهها، ويحصل على الروابط بينها او احيانا يخلقها . فلئن فاته فى الطبيعة وضعُ الأشياء بعضها بجانب ما يناسبه، ومشاهدة صورة مع أخرى تشبهها كما يتصوره، فلايفوتها الحصول على ذلك فى طبعه، لأن كتاب الطبع والأغوار النفسية أوسع سطوراً واشمل مادة .

الثانى - ان التشبيه - كما قال عبدالقاهر قياس، والقياس يجرى فيما تعيه القلوب وتدركه العقول، وتستفتى فيه الأفهام والأذهان، لا الأسماع والآذان[١٣].

واذن فليس بستبعد على انسان مهما قل حظّه من العلم والمعرفة أن يقيس بعض الأشياء الى بعض ويحكم عليهما بالتشابه، الا ترى أن الطفل يقوم بعملية القياس والحكم بالتشابه حينما يهش الى الثدى الصناعى ويبادر الى التقامه[١٤].

١٢- راجع بلاغة ارسطو، ٢٧١، وفن التشبيه ١/٤٣ .

١٣- اسرار البلاغة، ٢٦ .

١٤- فن التشبيه ١/٤٦ .

الثالث ـ انه يقال ان التشبيه اقدم صور البيان، وانه من اكثر كلام الناس[١٥].

اهميّة التشبيه و بلاغته

لقد ورد من علماء البلاغة وأعلامها اقوال وآراء تدل على اهمية التشبيه وبلاغته، فقال قدامة : واما التشبيه فهو من أشرف كلام العرب، و فيه تكون الفطنة والبراعة عندهم[١٦].

وقال الرمانى : وهذا الباب يتفاضل فيه الشعراء وتظهر فيه بلاغة البلغاء ، و ذلك انه يُكسب الكلام بيانا عجيبا ... فبلاغة التشبيه الجمع بين شيئين بمعنى يجمعهما يُكسب بيانا فيهما[١٧].

وقال العسكرى : والتشبيه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيدا ، ولهذا اطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن احد منهم عنه[١٨].

وقال الباقلانى : والتشبيه تُعرف به البلاغة[١٩].

وجعل الشيخ عبدالقاهر التشبيه فى اصول يرجع جلّ محاسن الكلام

١٥ـ المصدر نفسه ١/٤٥، والكامل ٣/٨٥٨ .

١٦ـ نقد النثر بالنقل عن فن التشبيه ١/٤٨ .

١٧ـ النكت، ٧٥ .

١٨ـ الصناعتين، ٢٤٣ .

١٩ـ اعجاز القرآن، ٢٠٧ .

اليها ، وعده فى أقطاب تدور المعانى عليها[٢٠].

وأضاف: وهل تشك فى انه يعمل السحر فى تاليف المتباينين حتى يختصر بعد ما بين المشرق والمغرب ويجمع ما بين المُشئم والمُعرق، وهو يريك للمعانى الممثلة بالأوهام شبها فى الأشخاص الماثلة والأشباح القائمة، وينطق لك الأخرس ويعطيك البيان من الأعجم، ويريك الحياة فى الجماد ويريك التئام عين الأضداد، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين والماء والنار مجتمعين، كما يقال فى الممدوح : هو حياة لاوليائه ، موت لأعدائه ...[٢١]

ورأى ابن رشيق أن التشبيه يُخْرِج الأغمض الى الأوضح ويقرّب البعيد[٢٢].

وقال ابن الاثير : فالتشبيه ... يجمع صفات ثلاثة، هى : المبالغة ، والبيان ،والايجاز[٢٣].

وقال السكاكى : اذا مهرتَ فيه ملكت زمام التدرب فى فنون السحر البيانى[٢٤].

وقال الخطيب : انه مما اتفق العقلاء على شرف قدره وفخامة أمره فى البلاغة ، وأن تعقيب المعانى به لاسيما قسم التمثيل منه يضاعف قواها فى تحريك النفوس الى المقصود بها، مدحا كانت او ذمًا او افتخارا اوغير ذلك[٢٥].

٢٠ـ اسرار البلاغة، ٣٣ .
٢١ـ المصدر نفسه، ١٤٨ـ١٤٩ .
٢٢ـ العمدة ١/٢٨٧ .
٢٣ـ المثل السائر ١/٣٩٤ .
٢٤ـ مفتاح العلوم، ١٥٧ .
٢٥ـ الايضاح على هامش شروح التلخيص ٣/٢٩٦ .

وقال النويري : وهو ركن من أركان البلاغة لإخراجه الخفي الى الجلي، وإدنائه البعيد من القريب، وهو حكم اضافي لايوجد الا بين الشيئين بخلاف الاستعارة[٢٦].

فالتشبيه من أشرف كلام العرب، وهو موطن الفطنة والبراعة، وركن من أركان البلاغة، ومرجع لمحاسن الكلام ومدار للطائف المعاني، وطريق الى الحصول على فنون البيان الساحر. وذلك لأن التشبيه يزيد المعنى ايضاحا وتصويرا اوتأكيدا ، ويفعل في النفوس تحريكا وترغيبا، ويصوّر عالما يلبس الحياة فيه الجماد، ويتآخى على مسرحه الأضداد، ويعرض فناً تصير فيه الصور الخارجيّة افكاراً ذاتية، والأفكار الذاتية صوراً خارجيّة، فتصبح الطبيعة فكرة والفكرة طبيعة .

فهو بيان يموج بالقوة والبراعة، ويفور بالوضوح والتشخيص، و يمتاز بالإيجاز والمبالغة . فهذه ألوان من بلاغته و زوايا من براعته :

١ـ نقل الشعور والانطباع من قلب الى قلب، قال الاستاذ العقّاد : «وما ابتدع التشبيه لرسم الاشكال والالوان المحسوسة بذاتها كما تراها ، وانما ابتدع لنقل الشعور بهذه الاشكال والالوان من نفس الى نفس»[٢٧].

٢ـ إخراج الأغمض الى الأظهر وابرازه في معرضه، ويقع على وجوه:

منها ـ إخراج مالاتقع عليه الحاسة الى ما تقع عليه، و ذلك مثل تشبيه المعدوم بالغائب، قال الله تعالى : «والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ

٢٦ـ نهاية الارب ٣٨/٧ .

٢٧ـ النقد الادبي الحديث، ٤٤٧ .

٢٨ـ النور، ٣٩ .

٢٩ـ الاعراف، ١٧١ .

بقيعةٍ يحسبه الظمآنُ ماءً حتى اذا جاءَه لم يجِدْه شيئا»[٢٨] فاخرج مالا يُحسّ الى ما يُحسّ، والجامع بطلان التوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة.

وقال على (ع) : العلم قفلٌ مفتاحُه السؤالُ.

وقال المتنبى :

كل ذِمرٍ يزدادُ فى الموتِ حسناً كبدورٍ تمامُها فى المحاقِ

ومنها ـ إخراج ما لم تجرِ به العادة الى ما جرت به، و ذلك كتشبيه البعث بعد الموت بالاستيقاظ بعد النوم، وجاء فى القرآن الكريم : «واذ نتقنا الجبلَ فوقهم كأنه ظُلّة»[٢٩] فقلعُ الجبل و رفعها فى السماء مما لم تجرِ به العادة .

وقال ابو نواس :

فإنْ تكُ اثوابى تمزّقنَ عن بلىً فإنى كسيفٍ فى خَلَقِ الغِمدِ

ومنها ـ إخراج مالايعلم بالبديهة الى ما يعلم بها، مثل تشبيه اعادة الاجسام باعادة الكتاب، وجاء فى التنزيل : «مثل الذين حُمِلوا التوراةَ ثم لم يحملوها، كمثل الحمار يحمِلُ أسفارا»[٣٠] فحمل العلم والجهل به مما لايُعلم فى النظر الاول .

وقال النابغة الذبيانى :

فإنك كالليلِ الذى هو مدْركى
وانْ خِلتُ أنّ المُنتأى عنكَ واسعُ

ومنها ـ إخراج مالاقوة له فى الصفة الى ما له قوة فيها، و ذلك كتشبيه ضياء السراج بالنهار، وكقوله تعالى : «وله الجَوار المنشآتُ فى

٣٠ـ الجمعة، ٥ .

البَحْر كالأعلام»[٣١] فقد اجتمع الطرفان فى العظم الا ّ أن الجبال أعظم شأنا.

وقوله ايضا : «أجعلتم سقايةَ الحاجّ وعمارةَ المسجدالحرامِ كمَن آمن بالله واليوم الآخر وجاهَد فى سبيل الله»[٣٢] فقد اجتمع الطرفان فى عمل كبير الا ّ انالايمان بالله واليوم الآخر و ... شيء آخر عندالقياس بسقاية الحاج وعمارةالمسجد[٣٣].

وقال المنفلوطى : يتفجر من صدوع الصخرة ماءٌ زلال رقراق كأنه ذوب البلّور فى شفوفه ولمعانه . فالماء والبلّور كلاهما شفاف ولمّاع الا ّ انالبلور اشهر بهما .

٣ــ تنزيل التضاد منزلةالتناسب وتقريب المتباعدين، وابداع مالايقع فى عالم الحس «وكلُ هذا يؤدى الى تجديدالبيان واختراع الصور التى لاوجود لها، وانت اذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشدّ كان اعجب الى النفس وأطربَ لها»[٣٤].

و ذلك، كأن تقول للجبان هو أسد، وللعىّ هو سحبان، وللبخيل حاتم. وتقول فى المدح : هو حياة لأوليائه وحَتف لاعدائه .

وقال ابن مقلة :

انا نارٌ فى مُرتقى نظر الحا سد، ماءٌ جارٍ مع الإخوان

٤ــ الإيجاز والاختصار، «لأن قولنا : زيد اسد، او كالاسد، يسدّ

٣١ــ الرحمان، ٢٤ .

٣٢ــ التوبة، ١٩ .

٣٣ــ النكت، ٧٥ــ٧٨ وبديع القرآن، ٥٨ــ٥٩ والصناعتين، ٢٤١ــ ٢٤١ .

٣٤ــ علم البيان، ١٠٧ .

مسدّ قولنا : زيد من حاله كيت وكيت، وهو من الشجاعة والشدة على كذا وكذا، مما يطول ذكره»[٣٥].

وقد يختصر في التشبيه الى حد الايماء ، كقول احد الرجّاز :

حتـى اذا كـادَ الظـلامُ يختلـط

جاؤا بمَذْقٍ ، هـل رأيتَ الذئبَ قطّ ؟

يريد أن اللبن حكى لون الذئب، فكلمة الذئب هنا أغنتنا عن تفصيل كثير كنا في حاجة اليه لو لم يات التشبيه .

وقول زُهير في معلقته :

بكرنَ بكوراً واستحرنَ بسُحرة   فهُنّ و وادي الرس كاليدِ للفمِ

يريد أنهن اتجهن الى هذا الوادي وقصدنه قصدا دقيقا مثل قصد اليد للفم بالطعام، فما اخطأنه كما ان اليد لاتخطىء الفم ولاتنحرف منه .

فانظر كيف ناب هذا التشبيه عن كلام طويل مع حسن التاليف والوفاء بحق المعنى[٣٦].

٥ــ المبالغة والتأكيد والتقرير، قال ابن الاثير : «انك اذا مثلت الشيء بالشيء فانما تقصد به اثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به او بمعناه، و ذلك أوكدُ في طرفي الترغيب فيه والتنفير منه»[٣٧].

اعلم ان التأكيد والمبالغة والتقرير، من الالوان التي ترافق جميع وجوه التشبيه فانه لايخلو من افادة المبالغة في حال من الاحوال، والا لم يُستحسن ان يكون تشبيها، لان افادة المبالغة هي مقصده الاعظم وبابه

٣٥ــ المثل السائر ٣٩٤/١ .

٣٦ــ فن التشبيه ٥٨/١ــ٥٩ .

٣٧ــ المثل السائر ٣٩٤/١ .

الاوسع . غير انها فى التشبيه المضمر الاداة وما كانت اداته «كأن» اقوى واظهر[٣٨].

فاذا كانت منزلة التشبيه وبلاغته كما مرّ، فلا أظن أن الدكتور شوقى ضيف اراد بقوله : «ان التشبيه لون مفرد بل هو صبغ من أصباغ لون مفرد، هو لون التصوير، وهو صبغ حسّى لم يشفع بثقافة عميقة ولا بفلسفه»[٣٩] ان يحطّ من منزلة التشبيه واهميته، ولعله يريد به ان يضع التشبيه فى درجة دون المجاز والاستعارة . والاّ فالحكم على التشبيه مطلقا بانه لون مفرد وصبغ حسى لم يشفع بثقافة عميقة، ليس قريبا الى الحق . اذ ان التشبيهات العقم والمتبكرة وماكانت العلاقة بين الطرفين منتزعة من امور متعددة لاتستمد عناصرها من المنظور فقط، بل من المتصور والمفروض ايضا .

فتعتمد هذه التشبيهات على مزيج معقد مخلوط من مناظر مرئية و غير مرئية، شعورية وغير شعورية، وفيها خطوط والوان واصوات من كلّ ما تقذف به العاطفة، ومن كلّ ماينبع من فكر وعلم وحكمة وخيال[٤٠].

والتشبيه الذى اكتفِى فيها بالوقوف عند التشابه الحسى بين الاشياء من المسموعات او المبصرات او غيرهما دون ربط التشابه بالشعور المسيطر على الشاعر فى نقل تجربته لايستحق الالتفات اليه ولايترتب فائدة جليلة عليه . قال الاستاذ العقاد : «واذا كان كذلك من التشبيه ان تذكر شيئا احمر ثم تذكر شيئين او اشياء مثله فى الاحمرار، فمازدتَ على ان ذكرت اربعة

٣٨- فن التشبيه ١/٧٥، وعروس الافراح ٣/٣٩٤ .
٣٩- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، ١٢٧ .
٤٠- راجع فن التشبيه، ٣/٨٧ .

او خمسة اشياء حمراء بدل شيء واحد . ولكن التشبيه ان تطبع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع في ذات نفسك»[٤١].

فلو كان امر التشبيه مختوما عند التشابه الحسي بين الأشياء بدون الحاجة الى التغلغل في أغوارها والتقلب في اطوارها لكان الحصول عليه سهلا واقتناصه هيّنا، ولعرفه المبدِع والمتبع، والعالم والجاهل، والمهرة والسوقي على السواء، وقلّ الخطأ والعثار فيه، ولما قال ابن الاثير في حقه : «انه بين انواع التشبيه مستوعر المذاهب، وهو مقتل من مقاتل البلاغة»[٤٢].

اركان التشبيه

لقد عرفت ان التشبيه يحكي عقد مشاركة بين طرفين في معنى بطرق مخصوصة، فعلى هذا يتكون التشبيه من هذه العناصر : طرفان يقصد الحاق احدهما بالآخر، ومعنى يُجعَل وصلة بينهما، وطرق خاصة تسبب عملية العقد . يُسمى الطرفان المشبه والمشبه به، والمعنى وجه الشبه والجامع ، والطرق ادوات التشبيه .

فأركان التشبيه اربعة :

١ـ المشبه .

٢ـ المشبه به .

٣ـ وجه الشبه .

٤١ـ الديوان للعقاد والمازني، بالنقل من النقد الادبي الحديث، ٤٤٧ .

٤٢ـ المثل السائر ١/٣٩٤ .

٤ـ ادوات التشبيه .

وهذه الاركان قد يذكر كلّها فى الجملة، كقول المعرّى :

انتَ كالشمسِ فى الضياء ، وإن جا
وزْتَ كيوانَ فى علوّ المكانِ

وقول ابن الفارض :

أعوامُ إقبالِه كاليومِ فى قِصَرٍ ويومُ إعراضِه فى الطول كالحِجَجِ

فكل من هذين البيتين يشتمل على جميع اركان التشبيه، ففى البيت الاول «انت» مشبه، و «الشمس» مشبه به، وفى «الضياء» وجه الشبه، والكاف أداة التشبيه .

والبيت الثانى يجمع تشبيهين، وأركانهما المذكورة بالقياس على البيت الاول ظاهرة . ثم الأكان قد يحذف بعضها، والمحذوف اما وجه الشبه فقط كقول عنترة بن الشداد :

ولقد ذكرتكِ والرّماحُ نواهِلُ منّى وبيضُ السيفِ تقطرُ مِنْ دمى
فوددتُ تقبيلَ السيوف لأنها لمعَتْ كبارقِ ثغركِ المتبسم

شبّه لمعان السيف ببرَقان الثغر فى اللّون، ولكن حذف وجه الشبه للضرورة او للاختصار او ليذهب السامع كلّ مذهب ممكن .

او وجهُ الشبه مع اداة التشبيه، كقولك : صدورُ الأحرار قبورُ الأسرار. والاصل صدور الأحرار كقبور الأسرار فى الإخفاء والكتمان .

او الاداة فقط، نحو : هو عظم سمك فى انه لا يُرجى خيره ولا ينتظر نفعه .

أمّا حذف طرفى التشبيه كليهما او احدهما بحيث لا يحتاج الى تقديره فى تركيب الجملة كما يقع فى الاستعارة، فهو غير جائز عند بقاء الكلام على الاسلوب التشبيهى المحض. نعم، جائت امثلة حذف فيها المشبه والكلام

باق على النمط التشبيهي المجرد، كقوله تعالى : «صُمٌ بُكمٌ عُمىٌ فهم لا يَرْجعون»[43] لكن المشبه فيها لم يترك ولم يحذف على انه لاحاجة اليه في بناء الجملة، بل هو ملحوظ تقديرا ومعتبر في تركيب الجملة، فتقدير الآية : «هم صم ...» على ان «هم» مبتدأ بني عليه «صمٌ» و «عمي» .

أدوات التشبيه[44]

الأسباب التي يتوسل بها الى عقد التشبيه، ثلاثة اقسام : حرف واسم وفعل .

١ــ الحرف، الكاف وكأنّ، واضاف بعضهم عليهما «لعل» نحو قوله تعالى : «تتخذون مَصانع لعلكم تخلـُدون»[45] جاء في البخاري عن ابن عباس ان معنى الآية : كأنكم، وفي الكشاف ترجون الخلود في الدنيا ، اوتشبه حالكم حال من يخلد[46].

٢ــ الاسم، كمثل ومثيل وشبه وشبيه وغيرها، من الاسماء الدالة على المـُضاهاة والمقاربة والموازنة والمعادلة والمحاكاة .

٤٣ــ البقرة، ١٨ .

٤٤ــ ليس الفرض ههنا تعريف ادوات التشبيه وتمييزها من سائر اركان التشبيه، لان فيما سبق غنية عن ذلك . بل المقصود بيان انحصارها في اشياء معينة يمكن النص عليها، و ذكر خصائص مفيدة لاتدرس في المباحث الآتية، بخلاف سائر اركان التشبيه، ولهذا لم نتعرض لها عليحدة.

٤٥ــ الشعراء ، ١٢٩ .

٤٦ــ راجع عروس الافراح ٣/٤٩٢ــ٤٩٣ ففيه انه عدّ من أدوات التشبيه ياء النسبة، وافعل التفضيل، وكلمة سواء .

قيل يستثنى من كون «مثل» اداةالتشبيه نحو قولهم: مثلك لايشبع وجاره جائع، لانالمعنى ليس علىالتشبيه .

واجيب بانالمراد من هو على صفاتك لايفعل ذلكالفعل، فليست كلمة «مثل» ههنا زائدة مقحمة كما قيل، بل هى نفى للفعل عنالمخاطب بطريق برهانى[٤٧].

٣ـ والفعل، مثل يشابه، يماثل ويضاهى . وقد يذكر فعل ينبىء عن التشبيه، نحو ترى، تخال، يكاد، تعلم، تحسب، يحكى وما شابهها .

وهذهالأدوات وان كانت تشترك فىافادةالتشبيه الا انها تتفاوت من وجوه مختلفة .

فمن تلكالوجوه انالتشبيه اذا كان صادقا قلت فيه : كأنه اوكذا .

قال امروءالقيس :

نظرت اليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشب لقفال

واذا قارب الصدق قلت فيه : تراه، اوتخاله، اويكاد[٤٨].

ومنها ـ انه يقال : علمت زيدا اسدا ان قرب التشبيه، وحسبته اسدا ان بعدالتشبيه، لما فى الحسبان من الدلالة علىالظن دونالتحقيق[٤٩].

ومنها ـ انالكاف وكأن ومثل للتشبيه فى اى شيء كان، فلاتختص بنوع دون آخر، كما صرح الراغب فىمادة «الند» ـ واماالشكلوالشبه والمساواةمن ادواةالتشبيه اوطرقه فالاول يستعمل لما يشاركه فى القدر، والثانى للكيفية مثل اللون، والثالث للمشاركة فىالكمية كالوزنوالكيل.

٤٧ـ راجع عروس الافراح ٣/٤٩٢ـ٤٩٣ .

٤٨ـ عيارالشعر، ٢٣ .

٤٩ـ راجعالتلخيص معالمطول، ٣٣٠ .

ومنها ـ ان «كأنّ» لاتستعمل الا حيث يقوى الشبه حتى يكاد الرائى يشك فى أن المشبه هو المشبه به او غيره، فهى أبلغ من الكاف و لذلك لما جيء بعرش بلقيس وقيل لها : «أهكذا عرشُكِ؟ قالت : كأنّه هو»[٥٠] ولم تقل هكذا هو، فتحقق عندها انه لم يبق فرق بين عرشها و بين ما تراه فى مجلس سليمان[٥١].

وأما الادوات الاسمية فهى سواء فى افادة معنى التشبيه ومقداره، و مساوية للكاف وكأن فى الاختصاص بالتشبيه الصادق .

ومنها ـ ان الاصل فى الكاف وفى مثل وما شابهه، ان يليها المشبه به لفظا او تقديرا، و ذلك كقوله تعالى : «مثل الذين كفروا بربّهم أعمالُهم كرمادٍ اشتدّت به الريحُ فى يومٍ عاصفٍ لايقدرون مما كسبوا على شيء»[٥٢].

وقوله : «اوكصيّبٍ من السماء»[٥٣] والتقدير او كمثل ذى صيّب من السماء .

وقد يقع بعدها غير المشبه به، كقوله تعالى : «واضرب لهم مثلَ الحياة الدنيا كماءٍ انزلناه من السماءِ فاختلط به نباتُ الارض فاصبح هشيماً تَذْروه الرّياح»[٥٤] فالمشبه ليس الماء المذكور ولا النبات المحذوف، بل الحالة الحاصلة للنبات من الخضرة بسبب الماء مدة قليلة ثم ترجع الى الذبول واليبس بسرعة فيكون النبات هباء منثورا[٥٤] .

٥٠ـ النمل، ٤٢ .

٥١ـ راجع عروس الافراح ٣/٣٩٤، وفن التشبيه ١/١٨١ .

٥٢ـ ابراهيم، ٢١ .

٥٣ـ البقرة، ١٩ .

٥٤ـ الكهف، ٤٤ .

واختلف فى افادة «كأن» للتشبيه، فقال الزجاج انها تفيد التشبيه اذا كان خبرها جامدا، نحو : كأن زيدا اسد، والشكّ اذا كان مشتقا، نحو : كأنك قائم . لأن الخبر فى هذه الصورة عين المبتدأ فكيف يمكن ان يشبه الشيء بنفسه .

وقيل إنها للتشبيه مطلقا، ويؤول امثال كانك قائم بانها جاءت على حذف الموصوف والتقدير كانك شخص قائم. لكن لما حذف الموصوف و جعل الاسم بسبب التشبيه كانه الخبر بعينه صار الضمير يعود الى الاسم لا الى الموصوف المقدر[٥٥].

والحق انها قد تستعمل عند الظن بثبوت الخبر من غير قصد الى التشبيه سواء كان الخبر جامدا اومشتقا، نحو كأن زيدا اخوك وكانه فعل كذا . وهذا كثير فى كلام المولدين[٥٦].

اقسام التشبيه

اعلم ان علماء البلاغة قد اكثروا فى تقسيم التشبيه، فقسموه باعتبارات مختلفة الى اقسام متعددة، فبعض هذه الاقسام لاطائل تحته غير أن زاد فى طنبور التقسيم نغمة اخرى . فلاندرس ههنا اقسام التشبيه غثها وسمينها، رخيصها وثمينها، بل تتناول ماله شأن فى البلاغة ونقف عند ماله منزلة فى البراعة، مثلنا فى ذلك مثل النحل الذى يمتص من الأزهار ما يفيده ،

٥٥ـ راجع المطول ٣٢٩ـ٣٣٠ .

٥٦ـ المطول، ٢٦١ .

لا الطفل الذى يلتقط كل ما يجده ولا الشحيح الذى يجمع اللعل والنعل.
فمنها :

١ــ التشبيه البليغ

وهو ما حذف وجهه واداته، كقوله تعالى : «هنّ لباسٌ لكم وانتم لباسٌ لهن»[٥٧] ونحو : الشكرُ نسيمُ النعم . وانما سمّى بليغا لان حذفَ الاداة ينبىء عن الاتحاد بين المشبه والمشبه به، وحذف وجه الشبه يشير الى ان الاتحاد يتناول جميع الوجوه والصفات حتى كان المشبه هو عين المشبه به من غير تفاوت .

وليس المراد من البليغ هنا ما يطابق مقتضى الحال او يشتمل على الحسن والطرافة والبراعة حتى يخيل ان التشبيه اذا ذكر فيه الاداة والوجه لايكون مطابقا لمقتضى الحال ولايتضمن الجدّة والبراعة، بل المراد به التشديد[٥٨] والتأكيد فى تقريب المشبه من المشبه به، والمبالغة فى دعوى الاتحاد بين طرفى التشبيه من جميع الوجوه . فعلى هذا كلما تحقق حذف الوجه والاداة تحقق التأكيد والمبالغة فى تقريب المشبه من المشبه به من جميع الجهات، ومتى لم يتحقق حذفهما اوحذف احدهما لم يتحقق التأكيد والمبالغة .

فلا او افق الاستاذ على الجندى فى قوله : «وليس يكفى ان يقع

٥٧ــ البقرة، ١٨٧ .

٥٨ــ فكلمة البليغ بهذا المعنى مشتقة من بلغ يبلغ بلوغا العلّة ، اى اشتدت، لامن بلُغ يبلُغ بلاغة اى صار فصيحا .

التشبيه محذوف الاداة والوجه معا ليستحق ان يوصف بانه بليغ ... والحق ان كثيرا من التشبيهات المرسلة المفصلة اجمل والطف وابرع من بعض هذه التشبيهات التى يسمونها بليغة لمجرد أنها مؤكدة مجملة»[٥٩]. اذ ليس البليغ هنا اللطيف البارع والجميل البديع كما ظنّه.

وكيف يجوز ان تفسّر البليغ هنا بما يطابق مقتضى الحال او بما يشمل على اللطافة والجمال والبراعة، مع اننا قد نرى ان ذكر الاداة فى بعض موارد التشبيه ابلغ و ذلك كقول العباس الصولى : الاصدقاء كالنار قليلها متاع وكثيرها بوار.

فليس الغرض من الكلام ان يقال ان الاصدقاء نار، بل المراد يقال انهم فى شىء خاص يشبهون النار، وهو نفع القليل وضر الكثير.

صور وقوع التشبيه البليغ

يقع التشبيه البليغ على الصور الاتية

١ـ أن يقع المشبه به خبرا، سواء كان مع ذكر المشبه نحو : صدورُ الأحرار قبورُ الأسرار، او مع حذفه كقوله تعالى : «صمٌ بُكم عمى فهم لا يرجعون»[٦٠]. ويجوز ان يجعل المشبه به مبتدأ كان تقول فى المثال الاول: قبور الأسرار صدور الاحرار، لان المبالغة فى التشبيه تدور على دعوى الاتحاد، ولا فرق فى ذلك بين ان يجعل المشبه به خبرا اومبتدأ.

٥٩ـ فن التشبيه ٢/٢٨٩.

٦٠ـ البقرة، ١٨.

٢ـ ان يقع مفعولا ثانيا في باب علمت، نحو علمتُ بذيء اللّسان كلبا عقورا .

٣ـ أن يقع مصدرا مبيّنا للنوع، كقوله تعالى : وهي تمرّ مرّ السحاب[٦١]. ويرجع هذا الى كون المشبه به صفة للمشبه اذ التقدير : وهي تمرّ مرورا كمرور السحاب .

٤ـ أن يقع حالا، نحو : كرّ عليّ أسدا .

٥ـ أن يقع مبيّنا للمشبه، كقوله تعالى : «وكلوا واشربوا حتى يتبيّنَ لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفجر»[٦٢]. وترجع هذه الصورة الى كون المشبه به حالا للمشبه .

والظاهر من كلام الشيخ في «أسرار البلاغة» ان الآية من باب الاستعارة[٦٣]، لكن الزمخشري جعلها من باب التشبيه فقال : «فان قلت أهذا من باب الاستعارة ام من باب التشبيه ؟ قلت : قوله «من الفجر» اخرجه من باب الاستعارة، كما أن قولك رأيت اسدا مجاز فاذا زدتَ «من فلان» رجع تشبيها[٦٤].

٦ـ أن يقع مضافا الى المشبه به، نحو : عقيق الشفق، وثوب العافية[٦٥].

والتشبيه البليغ يسمى تشبيها مؤكدا وتشبيها بالكناية ايضا غير انهما اعم، اذ يكفى فيهما حذف الاداة فقط ـ قال النويري في بيان تشبيه الكناية: «وهو ان يُشبه» شيئا بشيء من غير اداة التشبيه، كقول المتنبي :

٦١ـ النمل، ٨٨ .

٦٢ـ البقرة، ١٨٧ .

٦٣ـ اسرار البلاغة، ٣٦٦ .

٦٤ـ الكشاف ١١٦/١ .

٦٥ـ فن التشبيه ٢٨٦/٢ .

بدتْ قمراً، وماسَتْ خوطَ بانٍ وفاحت عنبراً، ورنَتْ غزالا[٦٦]

٢- التشبيه التمثيلى

من أقسام التشبيه باعتبار وجه التشبيه التشبيلى ، فذهب القوم فى تفسيره الى مذاهب شتى :

فعند الجمهور هو ما كان وجهه منتزعا من متعدد سواء كان حسيا مثل قول البشار :

كأن مُثارَ النَقْع فوقَ رؤوسنا واسيافَنا ليلٌ تهاوى كواكبُه

فوجه الشبه فيه هو الهيئة الحاصلة من هَوِيّ أجرام مشرقة مستطيلة متناسبة المقدار متفرقة فى جوانب شىء مظلم، ولايخفى انها حسية .

او غيرَ حسى، كقوله تعالى : «مثل الذين حُمّلوا التوراةَ ثم لم يحملوها كمثل الحمار يَحْمل أسفارا» فوجه الشبه بين احبار اليهود الذين كُلّفوا العمل بما فى التوراة ثم لم يعملوا بها وبين الحمار الحامل للاسفار هو حرمان الانتفاع بابلغ شىء نافع مع الكد والتعب فى استصحابه، وهذا الوصف منتزع من متعدد وليس بحسى .

وعند الشيخ ما كان اشتراك الطرفين فى وجه الشبه راجعا الى التأول ، وبيان ذلك ان الاشتراك فى الصفة يقع تارة فى نفسها وحقيقة جنسها، و ذلك كتشبيه الخد بالورد فى الحمرة، فانهما يشتركان فى نفس الحمرة وهى موجودة فيهما حقيقة، وانما يتصور التفاوت بالشدة والضعف، والقلة والكثرة .

٦٦- نهاية الارب ٧/٤٣ .

وتارة فى حكم لها وما تقتضيه، و ذلك كتشبيه اللفظ بالعسل فى الحلاوة، فاللفظ لايشارك العسل فى جنس الحلاوة ونفسها، اذ ليست الحلاوة موجودة فيه حقيقة، وانما وقع الاشتراك بينهما من جهة امر يقتضيه الحلاوة، اعنى اللذة او الحالة التى تحصل للنفس إذا صادفت بحاسة الذوق ما يميل اليه الطبع ويقع منه بالموافقة[٦٧].

فالاشتراك فى الصورة الاولى جاء تحقيقا وتصريحا، وفى الثانية تقديرا وتأويلا.

ولمعرفة صور التحقيق من التأويل نعود الى الشيخ، فنرى انه ذكر ان كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس، او فيما يرجع الى الغريزة والطباع مثل الشجاعة والدهاء والفطنة، او الى الأخلاق كلها كالسخاء والكرم واللؤم وغيرها من الصفات العقلية الثابتة، لايجرى فيه التأوّل ولايُفتقر اليه فى تحصيل وجهه[٦٨].

فعلى هذا أن التأول يجرى فى كل ما كان غير حسى وغير عقلى محققٍ وموجودٍ، كأن يكون امرا اعتباريا، مفردا كان اومركبا. فالتمثيل عند الشيخ ما كان الوجه فيه محتاجا الى تاوّل، او ما كان الوجه فيه امرا عقليا غير محقق.

ثم ان التشبيه الذى يحتاج وجهه الى تاول يتفاوت تفاوتا شديدا، فمنه ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول اليه ولايحتاج الى كثير من الدقة والتأمل حتى كاد ان يدخل فى التشبيه الصريح، و ذلك كقولهم فى صفة الكلام: الفاظه كالماء فى السلاسة، وكالنسيم فى الرّقة، وكالعسل فى الحلاوة.

٦٧ـ اسرار البلاغة ١١٠ـ١١٢.

٦٨ـ المصدر نفسه ١٠١ـ١٠٣.

ومنه ما يدّق ويغمض حتى يحتاج فى استخراجه الى فضل رويـة و دقة فكرة، و ذلك مثل قول كعب الاشقرى فى وصف بنى المهلب للحجاج: «كانوا كالحلقة المفرَغة لا يُدرى أين طرفاها» . فلا يعرف ببديهة السماع أن المقصود من هذا التشبيه هو انهم متساوون فى الشرف ولا يكون بينهم متقدم ومتاخر[٦٩].

وعند السكاكى ان التمثيل هو التشبيه الذى كان وجهه وصفا غير حقيقى وكان منتزعا فى عدة امور[٧٠]، كقوله تعالى : «مثل الذين حُمّلوا التوراة ...» فقال السكاكى : «فان وجه الشبه ... هو حرمان الانتفاع بما هو ابلغ شىء بالانتفاع به مع الكدّ والتعب فى استصحابه، وليس بمشتبه كونه عائدا الى التوهم ومركبا من عدة امور»[٧١].

والفرق بين رأى الشيخ والسكاكى هنا، هو ان التمثيل عند الشيخ اعم من ان يكون وجهه منتزعا من امور متعددة كالآية المتقدمة، فانه روعى فيها من جانب المشبه به ثلاثة اشياء :

الاول، فعل خاص وهو الحمل .

الثانى، كون المحمول شيئا مخصوصا وهو الأسفار .

الثالث، جهل الحامل بما فى المحمول .

او يكون منتزعا من شىء واحد، و ذلك مثل حلاوة العسل[٧٢]. غير انّ الاصل والأولى فى التمثيل ان يكون الوجه ماخوذا من امور متعددة[٧٣].

٦٩ــ المصدر نفسه ١٠٥ــ١٠٦ .

٧٠ــ المفتاح، ١٦٤ .

٧١ــ المصدر نفسه، ١٦٥ .

٧٢ــ اسرار البلاغة، ١١٣ــ١١٤ .

٧٣ــ المصدر نفسه، ١٢٢ــ٢٧٤ .

ولكن السكاكي لا يرى التمثيل الا حيث كان الوجه منتزعا من امور متعددة، فكل ما روعي فيه التعدد بعد كونه غير حقيقي استحق التمثيل عنده، واذا خلا من التعدد لم يستحق ذلك .

فالتمثيل عند الشيخ اعم منه عند السكاكي من هذه الناحية، لا من ناحية ان الوجه عند الشيخ اعم من ان يكون عقليا موجودا او عقليا اعتباريا كما يظهر من قول التفتازاني والسيد الشريف في شرحهما للمفتاح وقول التفتازاني ايضا في المطول[٧٤]. و ذلك لان الشيخ لا يعني من الشبه العقلي كل موارده كما يتبادر الى الفهم من نقل هذين العَلَمين لعبارة الشيخ، فانهما اوردا عبارة الشيخ هكذا : قال الشيخ في اسرار البلاغة: «التمثيل التشبيه المنتزع من امور، واذا لم يكن التشبيه عقليا يقال انه يتضمن التشبيه ولا يقال ان فيه تمثيلا وضرب مثل، وان كان عقليا جاز اطلاق اسم التمثيل عليه»[٧٥].

فما حصلت في اسرار البلاغة على كلام للشيخ كما نقلاه ، بل الذي حصلت عليه منه هكذا : «ان الاصل في كونه مثلا وتمثيلا هو التشبيه المنتزع من مجموع امور، ... فاذا كان الشبه بين المستعار منه والمستعار له من المحسوس والغرائز والطباع ومايجري مجراها من الاوصاف المعروفة كان حقها ان يقال انها تتضمن التشبيه ولا يقال ان فيها تمثيلا وضرب مثل ، واذا كان الشبه عقليا جاز اطلاق التمثيل فيها ...»[٧٦].

فترى في كلام الشيخ ان التمثيل لا يتعين فيما يكون وجهه منتزعا

٧٤ـ المطول، ٣٣٩ .

٧٥ـ شرح المفتاح المخطوط بلا رقم الصفحة، المطول، ٣٣٩ .

٧٦ـ اسرار البلاغة، ١٢٢ .

من امور متعددة، بل الاصل – اوالاولى – فيه ان يكون هكذا، وايضا ان العقلى جاء فى مقابل المحسوس والغرائز والطباع وما جرى مجراها من الصفات المشهورة، فالظاهر ان المراد به الصفات العقلية الاعتبارية .

امّا التمثيل عند صاحب الكشاف فهو يرادف التشبيه ويستعمل بمعناه بلاتفاوت[٧٧]، فكل تمثيل تشبيه وكذا عكسه .

لقد جاء التمثيل فى «كتاب الشعر» لأرسطو ويُراد به نقل" وقع بين طرفين يرتبط كل منهما بشيء آخر وينتسب اليه، بحيث يذكر مع ذلك الشيء اويخطر فى القلب معه . فالنقل فى الحقيقة جرى فى ذلك الارتباط ، بمعنى ان نسبة الطرف المنقول اليه مع الشيء القرين له كنسبة الطرف المنقول مع المرتبط به . فعلى هذا التمثيل عنده لايتحقق بين الشيئين البسيطين، بل يحتاج الى ملاحظة أشياء اربعة تكون نسبة الثانى الى الاول كنسبة الرابع الى الثالث . «واعنى بقولى بحسب التمثيل جميع الاحوال التى تكون نسبة الحد الثانى الى الحد الاول كنسبة الرابع الى الثالث، لان الشاعر سيستعمل الرّابع بدلا من الثانى والثانى بدلا من الرّابع ...

ولايضاح ما اعنى بالامثلة اقول : ان النسبة بين الشيخوخة والحياة هى بعينها النسبة بين العشية والنهار، ولهذا يقول الشاعر عن العشية : ... انها شيخوخة النهار، وعن الشيخوخة انها عشية الحياة، او غروب العيش .

وفى بعض احوالِ التمثيلِ لايوجد اسم، ولكن يعبر عن النسبة فمثلا نثرُ الحَبّ يسمى «البذر» ولكن للتعبير عن فعل الشمس وهى تنشر اشعتها لايوجد لفظ، ومع ذلك فان نسبة هذا الفعل الى اشعة الشمس هى بعينها نسبة «البذر» الى الحبّ ، ولهذا يقال : «تبذُر نوراً الهيّا»[٧٨].

٧٧– شرح المفتاح للتفتازانى ، المخطوط .

٧٨– كتاب الشعر ، ٥٩ .

فالتمثيل عند ارسطو مجاز بنى على تشبيه وقع بين نسبتين سواء كان طرفاهما حسيين ام لا .

صور وقوع التشبيه التمثيلى

يقع التشبيه التمثيلى على صور مختلفة :

منها ـ أنه لايوجد فى طرفى التشبيه تعدد حتى يتصور تقابل اجزاء المشبه لاجزاء المشبه به الا بتكلف[٧٩]، لانه لم يقصد الا تشبيه صورة او حالة بصورة اخرى، و ذلك مثل قوله تعالى : «مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً ...»[٨٠].

ومنها ـ أن كلا من المشبه والمشبه به يشتمل على اجزاء يمكن ان يتصور بينها التشابه والتقابل فى النظرة الاولى، ولكنه فى النظرة الثانية يظهر فساده لعدم صحة المعنى . و ذلك مثل قول القاضى التنوخى :

كانما المرّيخُ ، والمشترى قدّامَه فى شامخِ الرِّفعه
مُنصرِفٌ بالليل عن دعوةٍ قد أسرِجَتْ قدّامَه شمعه

فالشبه فى الحقيقة ليس للمريخ او المشترى وحده، اذ ليس فى هذه المشابهة معنى وطرافة، بل المراد تشبيه الحالة الحاصلة للمريخ من كون المشترى امامه، فلايصح افرادهما بالذكر .

ومنها ـ ان التقابل وتصور التشبيه بين اجزاء طرفى التشبيه صحيح و

٧٩ـ اولايظهر فى طرفى التشبيه تعدد اصلا، و ذلك كتشبيه الكلام بالعسل فى الحلاوة عند الشرخ .

٨٠ـ البقرة، ١٧ .

لكن الحمل على تشبيه الصورة اجمل واحسن من الحمل على تشبيه المتعدد*،
و ذلك كقول ابى طالب الرّقى :

و كأنّ اجرامَ السماءِ لوامعا   دررٌ نُثرنَ على بساط أزْرَق[٨١]

ثم إن التمثيل امّا يقع فى ابتداء الكلام بأن يجىء المعنى ابتداء فى صورة التمثيل، فيكون قياسا موضحا وبيانا مؤثرا فى اقبال القلوب على ذلك المعنى، وهو وان قل وقوعه فى الكلام فانه كثير الوقوع فى القرآن الكريم، فمنه قوله تعالى : «مثلُ الذين اتّخذوا مِنْ دونِ اللهِ اولياءَ كمثل العنكبوت اتّخذتْ بيتا»[٨٢].

وكقول النبى (ص) : «عمّالكم كأعمالكم وكما تكونون يُولّى عليكم» وقوله ايضا : «المرأةُ كالضلع العوْجاء ان قوّمتَها كسّرتَها وان دارَيْتَها استمتعْتَ بها»[٨٣].

واما يقع بعد تمام المعنى لايضاحه وتقريره فى النفوس وايداعه التاثير المخصوص، فيكون كالبرهان الذى يثبت به الدعوى، والحجة الناصعة التى تدحض كل زعم، والدليل القاطع الذى يدفع الريب باليقين[٨٤]،
و ذلك كقول بشار بن برد :

٨١- اسرار البلاغة، ٢٢١-٢٢٥ - مواهب الفتاح ٣/ ٤٢٠، فن التشبيه ٢/ ١٥-١٧ . نهاية الارب، ٧/ ١٤٢ .

٨٢- العنكبوت، ٤١ .

٨٣- الصور البيانية، ١٢٨ .

٨٤- فن التشبيه ٢/ ٢٧ .

* فهذان القسمان الاخير ان كما يسمى تمثيلا يسمى ايضا مركبا ، فالتمثيل على مذهب الجمهور أعم من التشبيه المركّب .

ولا تَجْعَلِ الشورى عليك غَضاضةً
مكانُ الخَوافي قُوّةٌ للقوادِمِ

ومن صور وقوع التمثيل ايضا انه قد يحذف المشبه به وتنقل الجملة التي جرت عليه الى المشبه حتى كانه صاحب الجملة، و ذلك كقول يزيد بن الوليد لمروان بن محمد : «فانى أراك تُقدّم رجلا وتؤخّر اخرى» . اى اراك كمن يقدّم رجلا ... او اراك من يقدم ... فحذف المشبه به ونقلت الجملة الى المشبه .

وقد يضرب بجمل لابد فيها من ذكر المشبه به، ولا يمكن حذفه والاكتفاء بذكر المشبه ونقل الكلام إليه، من ذلك قول النبى (ص) : «الناسُ كإبلٍ مئةٍ لاتكاد تجد فيها راحلةً» فلو قلت الناس لاتجد فيهم راحلة او لاتجد فى الناس راحلة كان ظاهر التعسف .

ومنه ايضا قوله تعالى : «إنما مثلُ الحياةِ الدّنيا كماءٍ أنزلناه من السماء» فلايصح حذف المشبه به ونقل الجملة التى بعدها الى المشبه لان الافعال المذكورة المحدث بها عن الماء لايصح اجراؤها على الحياة[٨٥].

ثم الجملة التى تقع بعد المشبه به لاتخلو من ثلاثة اوجه :

١ـ أن تكون صلة للمشبه به اذا كان موصولا، كقوله تعالى : «مثلُهم كمثلِ الذى استوقدَ ناراً فلما اضاءَتْ ما حولَه» .

٢ـ أن تكون صفة له اذا كان نكرة، مثل قول النبى (ص): «الناسُ كابلٍ مئةٍ لاتجدُ فيها راحلةً» .

٣ـ أن تكون مبتدأة، متى كان المشبه به معرفة ولم يكن موصولا، و ذلك كقوله تعالى : «كمثل العنكبوت، اتخذت بيتا» على قراءة الوقف

٨٥ـ اسرار البلاغة، ١٢٦ـ١٢٧ .

على العنكبوت، ويجوز اعراب الجملة بناء على انها حال[٨٦].

بلاغة التمثيل :

التمثيل اعم من أن يجيء فى ابتداء الكلام او يقع فى أعقاب المعانى، يكسوها ابّهة، ويكسبها شرفا ومنقبة، ويرفع من شأنها .

فان كان مدحا كان أبهى وأفخم، وأنبل فى النفوس وأعظم، وأسير على الألسن وأذكر، و أولى بأن تعلقه القلوب وأجدر . قال المتنبى :

وما انا منهمُ بالعيش فيهم ولكنْ معدنُ الذهبِ الرّغامُ

وان كان ذما كان مسّه أوجع، وميسه ألذع، و وقعه أشدّ وحدّه أحدّ، و ذلك كقوله تعالى فى الذين يعرضون عن التذكرة : «كأنهم حمرٌ مستَنْفِرة فرّتْ من قسْوَرَة»[٨٧].

وان كان حجاجا كان برهانه أوضح وأثره فى النفس أوقع، قال ابو العتاهية :

ترجو النجاةَ ولم تسلك مسالكها إنّ السفينةَ لاتجرى على اليَبسِ

وان كان اعتذارا كان أقرب الى القبول وأجذب للقلوب، وأنزع للضغائن، وأدعى الى الصداقة والمحبة، وأبعث على حسن الرجوع، قال الشاعر :

لاتحسبوا أنّ رقصى بينكم طرَبٌ

فالطيرُ يرقص مذبوحاً من الألم[٨٨]

٨٦- المصدر نفسه و ذيله، ١٢٨ .

٨٧- المدثر، ٥٠-٥١ .

٨٨- الصور البيانية، ١٢٨ .

وان كان وعظا كان أشفى للصدر، وأبلغ في التنبيه والزجر، و ذلك كقول النبي عليه الصلاة والسلام: «مثلُ الذي يعلم الخير ولايعمل به مثلُ السراج الذي يُضيء للناس ويحرق نفسه».

والسبب في أن للتمثيل هذا التأثير البليغ، هو ان النفوس جبلت على الميل الى العلم من طريق الحواس او الى ما يكون معلوما لديها بالاضطرار والطبع، فالعلم المستفاد من طرق الحواس، او المركوز في النفس من جهة الطبع والضرورة، يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام وبلوغ الثقة فيه غاية التمام، كما قالوا: ليس الخبر كالمعاينة.

فالفضل فيه يرجع اما الى ان المعاني الممثّلة يفيد الصحة ونفي الريب والشك، كما اذا كانت المعاني التي يجيء التمثيل في أعقابها غريبا بديعا يمكن ان يُخالف فيها ويُدعى استحالتها، كقول المتنبي:

فانْ تَفُقِ الانامَ وأنتَ منهم فإنّ المسكَ بعضُ دمِ الغزالِ

او الى انها تفيد بيان مقدار تلك الصفة ومبلغها في القوة والضعف والزيادة والنقصان، و ذلك كأن تقول: مثلُ مَنْ لايحصل من سعيه على طائلٍ مثلُ الرّاقم على الماء.

وايضا أن لتصور الشبه من الشيء في غير جنسه وشكله، والتقاط ذلك من غير محلته بابا آخر من الظرف واللطف، ومذهبا من مذاهب الاحسان لايخفى موضعه من العقل. ولهذا نرى كلما كان التباعد بين طرفي التشبيه أشدّ، كان التشبيه الى النفوس أعجب والقلوب اليه أرغب.

ولايخفى ان التمثيل أخص شيء بهذا الشأن وأقرب جار لهذا المكان وأمس رحما لهذا الباب[٨٩].

٨٩- اسرار البلاغة، ١٢٨-١٤٨.

منزلة التشبيه التمثيلى :

اعم انك اذا نظرت الى وجود الشبه وحصوله فى طرفى التشبيه ، و اشتراكهما فى نفس الصفة وحقيقتها وجدت ان التشبيه الحقيقى الاصلى هو ما يقابل التمثيل، اعنى التشبيه الصريح الظاهر [٩٠]، واما اذا نظرت الى مدى تأثير التشبيه فى النفوس والعقول، وحظه من الخيال وإعمال الفكر رأيت ان التمثيل أفضل أنواع التشبيه، ولهذا قال الشيخ : «واذا ثبت هذا الاصل وهو ان تصوير الشبه بين المختلفين فى الجنس مما يحرك قوى الاستحسان.. فان التمثيل أخص بشيء بهذا الشأن» [٩١].

ومما يدل على أهمية التمثيل ومنقبته، ان تشبيه التمثيل دليل على خصوبة الخيال وغزارة مادته، لان الاصل فيه مراعاة اشياء متعددة وملاحظتها مجتمعة منظمة ، فيكثر فيه الصور وتزاحمها وتفاعلها وتجمعها وتفرقها، وليست هذه الامور إلا وليدة الخيال المبتكر والادراك السامى والتفكير القوى . فالادب الذى يشتمل على تشبيه التمثيل ادب خصب الخيال، والتمثيل من بين صفوف التشبيه هو الدافع الى الابداع والابتكار [٩٢].

ومما يتصل بالتشبيه التمثيلى ويعد من صوره ما يعرف بالتشبيه الضمنى غير ان التسمية فيه لم تتأت من ناحية وجه الشبه، فلهذا ندرسه فيما يلى كقسم مستقل من اقسام التشبيه .

٣ـ التشبيه الضمنى

هو ما لم يرد على تلك الصور المعروفة للتشبيه التى سبق ذكرها ،

٩٠ـ المصدر نفسه، ١١٢ .
٩١ـ المصدر، ١٤٨ .
٩٢ـ بلاغة ارسطو، ٢٧١ .

ولم يذكر فيه طرفا التشبيه بحيث ينبئان عن المشابهة في النظرة الأولى . فلم يحمل احدهما على الآخر، ولم يقع بينهما نسبة، ولم يكن معهما ما يدل على عقد التشابه، حتى ان كلا منهما جملة مستقلة كانت بمعزل عن الاخرى في الغالب . و ذلك كقول المتنبي :

مَنْ يهُن يسهُل الهوانُ عليه　　ما لجرحٍ بميتٍ ايلامُ

فالمراد تشبيه حالة من اعتاد بالهوان وسهل ذلك عليه ولم يتاثر به، بحالة الميت اذا جرح لم يتالم به . فهذا المعنى لايدرك من البيت في النظرة الاولى، لانه لم يصرح به، بل جاء على سبيل الكناية والاشارة وفي ضمن الكلام، ولهذا قال التفتازاني : «وليُسمَّ هذا التشبيه ضمنيا ومكنيا عنه»[٩٣] لعل انه اول من قدم عنوان التشبيه الضمني لهذا القسم . فالتسمية والقسمة جاءتا باعتبار ان الكلام ظاهر الدلالة وصريحها على التشبيه ام لا .

ومن أمثلة التشبيه الضمني قول ابي الفتح البستي :

فالحرُّ عزيزُ النفسِ حيث ثوى　　والشمسُ في كل برجٍ ذاتُ انوارِ

وقول ابن ابي عيينة :

فدَعِ الوعيدَ فما وعيدُكَ ضائري　　أطنينُ أجنحةِ الذُّبابِ يضيرُ

وقول البارودي :

فلا عَجب إن لم يصرّني منزلٌ　　فليس لعقبانِ الهواءِ وُكورُ

و قول أبي فراس :

سيذكرني قومي اذا جدَّ جدُّهم　　وفي ليلةِ الظلماءِ يفتقد البدرُ

وقول المتنبي :

فإن تفُقِ الانامَ وانتَ منهم　　فإنّ المِسك بعضُ دمِ الغزالِ

٩٣ـ المطول، ٣٣١ .

فاذا أمعنت النظر فى هذه الامثلة رأيت ان التشبيه عرض فى معرض الدعوى مع البينة والبرهان، فالجملة التى تضمنت المشبه أتت متقدمة فى صورة دعوى مشتملة على مطلب غريب وبديع، قابل للمخالفة والانكار وادعاء استحالة وجوده . ثم اتى بالجملة التى تضمنت المشبه به فى صورة امر محقق ومسلم، وكبرهان لرفع الغرابة ونفى المخالفة والانكار فى امر المشبه، فقرّب المشبه من القبول وصحّح وجوده .

فالتشبيه الضمنى يُرى عليه مسحة العقل اكثر ومنحة الفكر اوفر ، فلهذا نرى انه يكثر استعماله عند امثال المتنبى وابى تمام ممن عُرفوا بشاعر العقل والفكرة .

بلاغة التشبيه الضمنى :

يمكن تلخيص بلاغة التشبيه الضمنى فيما يلى :

١ــ أنه دعوى مع البينة والبرهان .

٢ــ أنه إبراز لما يبدو غريبا ومستحيلا فى معرض القريب الملموس الممكن .

٣ــ أنه جمع بين أمرين متباعدين وجنسين غير متقاربين .

٤ــ أنه دلالة على التشبيه بالاشارة والكناية لا بالوضوح والصراحة، لان النيل الى المطلب بعد اعمال الفكر الذ وأعز .

٤ــ تشبيه المركب بالمركب

من اقسام التشبيه باعتبار طرفيه تشبيه المركب بالمركب، والمراد بالتركيب هنا اعتبار اشياء مختلفة وانتزاع هيئة منها و جعلها مشبها او

مشبها بها[٩٤]، و ذلك كقوله تعالى : «إنما مثلُ الحياةِ الدّنيا كماءٍ أنزلناه من السَّماء فاختلَط به نباتُ الأرضِ مما يأكلُ الناسُ والأنعامُ حتى اذا اخذتِ الأرضُ زخرفَها وازّيَّنت وظَنَّ اهلُها أنهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلاً اونهاراً، فجعلناها حَصيداً كأنْ لَم تَغْنَ بالأمسِ»[٩٥].

فشُبِهت حالُ الدنيا في سرعة زوالها وانقراض نعيمها بعد الاقبال، بحال نبات الأرض في جفافه و ذهابه حطاما بعد ما التفّ وتكاثف وزيّن الارضَ، و ذاك تشبيه صورة بصورة لانه لوحظ في كلّ من المشبه والمشبه به أشياء مختلفة فرتبت وتظمت ثم انتزعت منها تلك الهيئة او الصورة[٩٦].

ولا يخفى انه كلما كان طرفا التشبيه مركبين كان الوجه مركبا ولا عكس، كما نرى في قول ابي النجم او ابن المعتز :

والشمسُ كالمرآةِ في كفِّ الأشَل لما رأيتها بَدتْ فوقَ الجبل

فوجه الشبه هنا مركب، لانه كما قال السكاكي[٩٧] هو الهيئة الحاصلة من الاستدارة مع الاشراق والحركة السريعة المتصلة، وشبه تموج الاشراق . واما طرفا التشبيه أعني الشمس والمرآة فمفردان[٩٨].

٩٤ـ المختصر، ٣/٣٥٧ .

٩٥ـ يونس، ٢٥ .

٩٦ـ المثل السائر، ١/٤٠٤ .

٩٧ـ مفتاح العلوم، ١٦٠ .

٩٨ـ لقد تنبهت الى ان التشبيه المركب قد ياتي في صورة التشبيهات المفردة، مثل :

للورد عندي محلُ لانه لايُمَلّ
كل الرياحين جند وهو الامير الأجلّ
ان غاب عزوا وباهوا حتى اذا عاد ذلوا

واذا خلا المشبه والمشبه به فى الكلام من التركيب سمى تشبيه المفرد بالمفرد، و ذلك كقوله تعالى : «وجعلنا الليلَ لباسا»[٩٩] فشبه الليل باللباس فى ستر الهارب من العدوّ ، واخفاء كلّ ما لايحبّ الشخصُ ان يطلع عليه الآخرون من امره. فكل من المشبه والمشبه مفرد خالٍ من التركيب والتعدد.

ومنه ما جاء فى المثل : «اللّيلُ جُنّةُ الهارب» .

واذا كان المشبه مفردا والمشبه به مركبا او بالعكس، سمى الكلام تشبيه المفرد بالمركب، او المركب بالمفرد .

فالاول ـ كقوله تعالى : «مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدّتْ به الرّيحُ فى يومٍ عاصف»[١٠٠].

ومنه فى الشعر قول ابى نواس :

اذا امتحن الدّنيا لبيبٌ تكشّفتْ   له عن عدوٍّ فى ثيابِ صديقِ

والثانى ـ قليل الاستعمال لندرة وجود المشابهة بين المشبه والمشبه به حينئذ، قال ابن الاثير[١٠١] : «وعلى كثرة ما حفظته من الاشعار لم أجد ما امثل به هذا القسم الا مثالا واحدا، وهو قول ابى تمام فى وصف الرّبيع :

يا صاحبَيّ تقصّيا نظرَيْكما   ترَيا وجوهَ الأرض كيف تُصَوَّر
تريا نهاراً مُشمِساً قد شابَهُ   زهرُ الرُّبا فكأنّما هو مُقمِرُ

فشبه النهار المشمس مع الزهر الأبيض بضوء القمر» .

والتشبيه المركب بين هذه الاقسام اجلّ شأنا واعظم مرتبة، لأن الفكرة

٩٩ـ عمّ ، ١١ .

١٠٠ـ ابراهيم ، ٢٢ .

١٠١ـ المثل السائر ، ٤١٥/١ .

والرّوية فيه اوفر، و دقة النظر فيه اكثر، وآفاق الاخيلة فيه اوسع، و مؤونته أرفع، إذ إيجاد العُلقة والرابطة بين طائفتين مختلفتين وتقريبهما اصعب من ان تربط شخصين معا وتضع احدهما بجانب الآخر.

ولهذا متى امكن حمل التشبيه على المركب فلايعدل عنه الى المفرد، حتى لاتفوت معه دقة التركيب المرعية فى وجه الشبه. فالتشبيه المركب اعز وقوعا من التشبيه المفرد والمتعدد الخالى من التركيب، لان امرهما سهل هيّن[١٠٢]. فتشبيه المركب ابلغ الاقسام واعزها واجلها.

الفرق بين التشبيه المركب والمقيد والمتعدد

وقد يقع التشبيه على صور يحتاج فى حملها على تشبيه المركب بالمركب اوالمفرد بالمفرد الى الدقة والتامل، و ذلك:

١ـ كأن يكون طرفا التشبيه مقيّدين بقيود على صورة الاضافة او المفعول اوالوصف اوالحال اوالمجرور او غير ذلك، ولها اثر فى وجه الشبه. كما تقول: من لايحصل من سعيه على فائدة كالرّاقم على الماء. فكل من المشبه والمشبه به فى المثال لم يكن شيئا واحدا، بل اعتبر معهما امور اخرى مثل عدم الحصول على الفائدة والكتابة على الماء. فهل يعدّ من باب تشبيه المركب بالمركب او من باب تشبيه المفرد المقيد بالمفرد المقيد؟

ليس الجواب على هذا السؤال سهلا، و ذلك لان الفرق بين المركب

١٠٢ـ فن التشبيه، ٢/١٧.

والمفرد كما قال العلامة التفتازانى : «احوج شىء الى التأمل فكثيرا ما يقع الالتباس»[١٠٣].

والتحقيق فى بيان الفرق بينهما ان المقصود بالذات للمتكلم فى امثال «من لا يحصل ...» ان كان عبارة عن المقيد وكان القيد تبعا له، عدّت من باب تشبيه المفرد المقيد بالمفرد المقيد .

وان كان المقصود هو الهيئة الاجتماعية والقيود وسيلة للتوصل، ولا ترجيح بين اجزاء طرفى التشبيه بعضها على بعض، كانت من باب تشبيه المركب بالمركب .

فالفرق بين المقيد والمركب هو القصد الراجح فى شىء مخصوص و عدمه .

أما الرّجحان باعتبار المتكلم او عدمه، فمبنى على انّه يهتم بجزء اكثر من جزء آخر، او انه لا يهتم إلاّ بالمجموع .

وأما الرجحان باعتبار السامع فمبنى على القرائن الدالة على قصد المتكلم، او انه لو استعمل ذلك التشبيه لم يطابق ذوقه الاّ مع ذلك الرجحان المقتضى للتقييد او عدمِهِ المقتضى للتركيب .

والحاصل انه لا يوجد فى التركيب اللفظى ما يدل على ان امثال «من لا يحصل ...» من باب تشبيه المقيد او المركب، وانما المعتبر فى ذلك قصد الهيئة بالذات والاجزاءُ تبعٌ لها، او قصد جزء من الاجزاء والربط بغيره تبع . والحامل على أحد القصدين وجود الحسن فيه دون الآخر، ويرجع ادراكه الى حكومة الذوق والطبع[١٠٤].

١٠٣- المختصر، ٣/٤٢٢ .

١٠٤- مواهب الفتاح، ٣/٤٢٢ .

ويقال ايضا في الفرق بينهما : إن المركب كل واحد من اجزائه جزء الطرف، والمفرد المقيد يكون الطرف فيه ذلك المقيد، والقيد شرط لا جزء[١٠٥].

٢ـ او كأن يكون طرفا التشبيه متعددين، مثل قول امرىء القيس :

كأنَّ قلوبَ الطيرِ رَطبا ويابسا

لدى وكرِها العنابُ والحشفُ البالي

لقد عقد البيت على تشبيه شيئين بشيئين، فيرى في النظرة الاولى ان لاجتماعهما اثراً في المشابهة، وانه قصد أنْ يجعلَ بينهما اتصالا حتى يحصل من ذلك هيئة تكون مقصودة بالتشبيه . لكن اذا امعنت النظر رأيت أن البيت من باب تشبيه المفرد بالمفرد، وانه لم يقصد من تشبيه القلوب الرطبة ان تكون مجتمعة بجانب القلوب اليابسة، اذ لا فائدة في ذلك الاجتماع والهيئة الحاصلة منه، اكثر مما تجد اذا اكتفيت بتشبيه القلوب الرطبة فقط . قال الشيخ : «ولو ان اليابسة من القلوب كانت مجموعة ناحية والرطبة كذلك في ناحية اخرى لكان التشبيه بحاله . ولذلك لو فرقت التشبيه هنا فقلت : كأن الرطب من القلوب عناب، وكأن اليابس حشف بال لم تر احد التشبيهين موقوفا في الفائدة على الآخر، وليس كذلك الحكم في المركبات»[١٠٦].

فانك اذا فضضت التركيب في المركبات، وجدت في بعضها أن احد طرفيه يخرج عن ان يكون صالحا للمشابهة بما جاء في مقابلته مع التركيب. كما ترى في قول ابن المعتز :

١٠٥ـ اسرار البلاغة، ١٦٢ـ١٦٣ .

١٠٦ـ المصدر نفسه، ٢٢١ .

غـدا والصبحُ تحتَ الليلِ بـادٍ كطِرْفٍ أشهبَ ملقَى الجِلالِ

فالشاعر نظر الى الصبح والليل جميعا وتامل حالهما معا، فحصل عنده هيئة من مجموع الشكلين فأراد ان يشبهها بنظير لها، فوجد ذلك النظير في هيئة الفرس الاشهب قد "القِيَ الجل منه . فلو فككت التركيب فيه و جعلت «الجلال» في مقابلة الليل وقلت : «كأن الليل جلال» وسكت لم يكن شيئا .

و وجدت في بعضها الآخر ، ان تفريق التشبيه وان كان صحيحا الا ان الكلام يفقد شيئا كثيرا من روعته ومقدارا من احسانه، كقول ابي طالب الرقي :

وكـأنّ اجرام النجومِ لوامعـاً درر نُثِرْنَ على بساطٍ أزرقِ

فاذا قلت فيه كأن السماء بساط ازرق، وكأن النجوم درر، وجدت التشبيه صحيحا ومقبولا غير انه كان في صورة التركيب اروع واحسن . و ذلك لان المقصود كما قال الشيخ : «ان يريك الهيئة التي تملأ النواظر عجبا، وتستوقف العيون، وتستنطق القلوب بذكر الله تعالى، من طلوع النجوم مؤتلفة مفترقة في أديم السماء وهي زرقاء ، و زرقتها الصافية التي تخدع العين والنجوم تتلألأ وتبرق في اثناء تلك الزرقة . ومن لك بهذه الصورة اذا فرقت التشبيه وأزلت عنه الجمع والتركيب»[١٠٧].

والحاصل ان الفرق بين التشبيهات المجتمعة والتشبيه المركب هو أن التركيب يفيد شيئا لا يوجد عند التفريق، وأن الوجه في المركب مأخوذ من امور كان كل واحد منها مقصودا بالأصالة بحيث لو حذف شيء منها لاختل التشبيه، وايضا انه روعي في المركب حالة اجتماع الاشياء على نظام

١٠٧ــ المصدر، ٢٢٢ .

معين من حيث التقديم والتأخير والتسلسل المنطقى والعقلى، حتى لو قدم او تأخر شيء عن موضعه لاختل التشبيه كما اختل بالحذف. و ذلك مثل قول الشاعر[١٠٨].

كما ابرقتْ قوماً عِطاشاً غمامةٌ فلمّا رأوْها أقشعتْ و تجلّتِ

فوجه الشبه ابتداء مُطْمِعٌ متصل بانتهاء مُؤيسٍ، فلهذا لايصح الاكتفاء بالمصراع الاول لأن الإنتهاء المؤيس ايضا ملحوظ فى التشبيه، وكذلك لايصح التصرف فى الترتيب بتقديم مضمون المصراع الثانى على الاول.

اما التشبيهات المجتمعة التى لاتفيد حالة الإجتماع معنى زائداً فى التشبيه، ولايعتبر فيها ترتيب ونظام خاص مثل: هو كالجبل شموخاً، و كالبحر جوداً، فهى اذا فرقتها اوغيّرت ترتيبها لايحصل فيها خلل[١٠٩].

فالتشبيهات المجتمعة لها خاصيتان، الاولى انه لايجب فيها الترتيب. الثانية انه اذا سقط البعض لايتغير حال الباقى[١١٠].

٥ـ التشبيه المقلوب

هو فى الاصطلاح ما عُكس طرفا التشبيه فى متعارف الناس، بان جعل

١٠٨ـ يقال انه كثيّر عزّة، وقبله فيما زعموه:

لقد اطمعتنى بالوصال تبسما فلمّا رآنى اعرضتْ وتولّتِ

ونهز اسرار البلاغة، ١٢٤.

١٠٩ـ راجع، الايضاح، المواهب، العروس، ٣/٣٧٨.

١١٠ـ راجع نهاية الايجاز، ٦٩.

ما يستعمل فی متعارفهم مشبها، مشبها به، وما يستعمل مشبها به، مشبها .
فمما هو معروف عندالناس تشبيه‌الجبين بالصبح، ولكن عكس محمدبن وهيب ما تعالمه‌الناس وقال فی قصيدة فی مدح‌المأمون :

و بـدا الصباحُ كأنَّ غرّته   وجهُ‌الخليفةِ حين يُمْتَدح

فشبه‌الصبح بوجه‌الخليفة تنزيلا لما هوقاصر فی‌الحقيقة منزلة‌الكامل الزائد .

وجعل‌الشيخ‌التشبيه‌المقلوب من باب جعل‌الفرع اصلا على عادة التخييل ليوهم ان ما هو قاصر عن نظيره فی‌الصفة زائد عليه فی‌استحقاقها واستيجاب أن يجعل اصلا فيها[111].

واما ابن‌الاثير فهو يسميه «الطرد والعكس» ويجعل‌الغرض منه المبالغة[112].

والتشبيه‌المقلوب لايطرد فی عكس كل تشبيه‌القاصر بالزائد، بل انما يتأتّى ويحسن فی عكس تشبيه تعارفه‌الناس واصطلحوا عليه . ولهذا نرى القلب فی قول‌البحتری :

فی طلعة‌البدرِ شیءٌ مِنْ محاسنها   و للقضيب نصيبٌ مِنْ تثنّيها

جاء حسنا، لان‌العادة والعرف ان يشبه‌الوجه‌الحسن بالبدر والقدّ الحسن بالقضيب[113].

ومما هو حسن جميل و وقع فی موقعه قول‌الصاحب‌بن عباد للقاضی ابی‌الحسن حينما اهداه عطر‌الفطر عقب خروجه عن مجلسه :

١١١ـ اسرارالبلاغة، ٢٥٧ .

١١٢ـ المثل‌السائر ١/٤٢١ .

١١٣ـ المصدر نفسه، ١/٤٢٢ .

يا ايها القاضي الـذى نفسى لـه مع قُرْبِ عهدِ لقائِه، مُشتاقهْ
أهديتُ عِطراً مثلَ طيب ثنائِه فكأنّما أهـدى لـه اخـلاقهْ

فالمتعارف عندالناس ان يشبه الاخلاق بالعطر او بما يفوح مثلـه، فاذا قصدت المبالغة وجعل الفرع الاصل وقلت : ان العطر كاخلاقـه جـاء التشبيه حسنا ومقبولا[١١٤].

اما اذا لم يقصد في العكس المبالغة وايهام ان الناقص كالزائد، بـل اقتصر على الجمع بين الشيئين في مطلق الصورة والشكل واللون، او جمع وصفين على حدّ يوجد في الفرع والاصل كليهما، فهو يستقيم ويحسن في كل مورد اعم من ان يكون مما تعارفه الناس ام لا[١١٥].

غير ان من المعاني ما لا يقلب، ولايحسن ان يعكس قصدت المبالغة ام لا، و ذلك كانك تقول : نام القومُ حتى كأنهم موتـى، ولايحسن ان تقول : ماتوا حتى كانهم نيام[١١٦].

التشبيه المقلوب من الناحية النفسية

التشبيه المقلوب من الناحية النفسية وليدة عدم اشباع رغبة الادباء و عدم وجدان ضالتهم في التشبيه العادي، فلذلك ترى بعضهم يزدري شـأن التشبيه ولايهتم به كقول المتنبي مفتخرا بنفسه :

أمِطْ عنك تشبيهي بمـا وكأنـه فما أحدٌ فوقي ولا أحدٌ مثلـي

١١٤ـ اسرار البلاغة، ٢٧٠.

١١٥ـ المصدر نفسه، ٢٥٧.

١١٦ـ فن التشبيه، ٢٧٩/١.

او انه يطلب نظيرا لما أعْجِب به ويسعى وراءه، لكنه يعزّ عليه فيرجع خائبا، و ذلك كقول البحترى :

قد طَلبنا فلم نجد لك فى السُوءْ ددِ والمجدِ والمكارمِ مثلا

او انه يرفع شان ما أعجِب به عما يشبه به فى العادة، كقول المتنبى:

ولو لا احتقارُ الأسدِ شبهتُهم بها ولكنّها معدودَةٌ فى البهائم

فبحثوا عن قوالب تفى برغائبهم وتصور نزعاتهم، وسعوا وراء تعبير يؤدى تلك المبالغة التى ملأت نفوسهم، فجاء طريق القلب ثمرة لهذا البحث والسعى .

وأحيانا كانت هذه الرغائب والنزعات بحيث لم يَبلَّ التشبيهُ المقلوب غلة الشعراء فيها و لم يبرأ جوعهم منها ، فاضافوا الى القلب اشياء تزيده مبالغة اشبه بالغلوّ والاغراق . قال مجنون ليلى :

أخذتْ محاسنَ كلِّ ما ضنّت محاسنه بحسنه
كاد الغزالُ يكونُها لو لا الشوى و نشوزُ قرنه

وقال ايضا :

وعيناكِ عيناها ، وجيدُكِ جيدُها ولكنّ عظمَ الساقِ منكِ دقيقُ

وقال بديع الزمان الهمدانى :

وكاد يَحكيكْ صوبَ الغيثِ مُنسَجِما
لو كان طلقُ المُحيّا يُمطِرُ الذهبا[117]

ومع ان التشبيه المقلوب وليد عدم تحقق بغية الادباء ، فهو من نتائج عصر الاناقة والترف وغلبة الفن على الذوق، فلهذا نرى انه فى العصر

١١٧- راجع فن التشبيه ١/٢٦٦-٢٦٧ .

الجاهلى اقل بكثير منه فى العصر العباسى، واهون شأنا من حيث الدقة والحسن والجمال١١٨.

جمال التشبيه المقلوب و بلاغته

ان التشبيه المقلوب بما يؤدى من المبالغة والاهتمام بشأن ما هو ناقص فى الواقع وفى متعارف الناس، استهوى الادباء والشعراء واعجبوا به وانكروا على من لم يسلك مسلكه. نقل ابو هلال العسكرى عن الاصمعى انه قال : سمعت اعرابيا يقول : إنكم معاشرا هل الحضر، لتخطئون المعنى، ان احدكم ليصف الرّجل بالشجاعة فيقول : كانه الاسد، ويصف المرأة بالحسن فيقول : كانّها الشمس، ولم لا تجعلون هذه الاشياء بهم اشبه ؟ ثم قال : والله لأنشدنّك شعرا يكون ذلك اماما . ثم انشدنى :

إذا سألتَ الورى عن كلّ مكرمة ... لم تُلفِ نسبتها إلا إلى «الهَوْل»
فتى جوادا أعار النيلَ نائله ... فالنيلُ يشكر منه كثرةَ النَّيْل
والموتُ يرهب أن يلقى منيته ... فى شدّة عند لفّ الخيل بالخيل
لو عارض الشمسَ ألفى الشمس مظلمة ... او زاحم الصُمّ ألجاها الى المَيْل
او بارز الليل غطّته قوادمُه ... دون الخوافى كمثل الليل فى الليل
امضى من النجم ان نابته نائبة ... وعند اعدائه أجرى من السيل١١٩

ومرجع هذه الابيات الى تشبيهات مقلوبة غير صريحة .

ويلخص بلاغة التشبيه المقلوب فيما يلى :

١١٨- المصدر نفسه ١/ ٢٦٠-٢٦١، ٣٠٧ .

١١٩- نهاية الارب، ٣/ ١٨٥ .

١ـ الايهام فى الشىء الناقص عن نظيره فى الصفة، انه زائد عليه فى استحقاقها .

٢ـ ايقاع المبالغة فى النفس من حيث لايشعر، وافادتها من غير ان يظهر لها ادعاء، لانه يوضع الكلام موضعا كانه يقاس فيه على اصل متفق عليه، ويبرز الخبر فى معرض امر مسلم لاحاجة فيه الى دعوى، ولااشفاق من خلاف مخالف وانكار منكر . والمعانى اذا وردت على النفس هذا المورد كان لها سرور خاص وفرح عجيب، لانها بمنزلة نعمة لم تكدرها المنة .

٣ـ انك تنال الربح فى صورة رأس المال، وترى الفائدة قد ملأت يدك من حيث حسبتها قد جازتك[١٢٠] .

٦ـ التشبيه المجمل والمفصل

من أقسام التشبيه باعتبار ذكر وجه الشبه وعدمه، المجمل والمفصل .

المجمل ـ ما لم يذكر فيه نفس وجه الشبه او ما يستلزمه على الطريقة المعروفة فى الجامع بين الطرفين، سواء لم يذكر معهما وصف ينبىء عن التشبيه، كقولك : العلم نور، او ذكر ولكن لا على الطريقة المعروفة ـ اعنى على صورة التمييز او المجرور بفى ـ و ذلك مثل : هم كالحلقة المُفْرَغَةِ لا يُدرى اين طرفاها . فوجه الشبه التناسب والمساواة و عدم التفاوت، وهو غير مذكور فى الجملة ولكنه دلّ عليه بقول : «لا يدرى أين طرفاها» الذى لم يجىء على الطريقة المعروفة فى الوصف الجامع .

١٢٠ـ اسرار البلاغة، ٢٥٧ـ٢٥٩ .

وكقول ابى تمام فى الحسَن بن سهل :

صدفتُ عنه ولم تصدف مواهبُه عنّى، وعاوده ظنّى فلم يَخب
كالغيث إنْ جئتَه وافاكَ ريّقه، وإن ترحّلتَ عنه لجّ فى الطلبِ

فوجه الشبه الإفاضة فى حالتى الطلب وعدمه وهو غير مذكور، غير انه ذكر مع كل من المشبه والمشبه به ما ينبيء عنه، ولكن لا على الطريقة المعروفة فى الوصف الجامع، فلهذا عدّ نحوُ هذه الأمثلة من مصاديق المجمل .

والمفصل ما ذُكر فيه وجه الشبه نفسه، او ما يستلزمه على الطريقة المعروفة فى الوصف الجامع، فالاول كقولك : هو بحرٌ جوداً، وهو جبلٌ فى الاستقامة . والثانى نحو : كلامه كالعسل حلاوة، وهذه الحجة كالشمس فى الظهور .

فالحلاوة وكذا الظهور ليسا نفس وجه الشبه ههنا، لانهما غير موجودين فى المشبه حقيقة، فهما وصفان يستلزمان وجه الشبه الاصلى أعنى الملائمة مع الطبع والموافقة له فى المثال الاول، وعدم الانكار وفقدان الشك فى المثال الثانى .

والفرق بين هذا القسم من المفصل والمجمل الذى ذُكر فيه وصف يُنْبىء عن وجه الشبه، ان الوصف فى المفصل جاء على الطريقة المعروفة فى الوصف الجامع، بخلافه فى المجمل كما عرفت .

اغراض التشبيه

لقد سبق أن رسالة التشبيه نقلُ شعورِ الكاتب والاديب وتصويرُ

احساسهما، ولما كان محل هذا الشعور ومثاره هو المشبه، كان من الطبيعى ان يعود الغرض من التشبيه اليه .

وقد قالوا فى تعليل رجوع غرض التشبيه الى المشبه : انه لما كان التشبيه بمنزلة القياس فى ابتناء شىء على آخر كان الوجه ان يكون الغرض منه عائداً الى المشبه الذى هو كالمقيس، او انه لما كان المقصود من التشبيه بيان حال المشبه كان الغرض منه عائداً اليه[١٢١].

والأغراض الراجعة الى المشبه فى الغالب هى :

١ــ تهويلُ المشبه وجعلُه مُهاباً .

اذا كان المشبه به أخوفَ شىء فى متعارف الناس، اومعروفا عندهم بالمهابة . و ذلك كقول عنترة بن شداد :

وأنا المنيةُ وابنُ كلِّ منيّةٍ ، و سوادُ جلدى ثوبُها ورِداها

وقوله ايضا :

و أنا المنيّةُ حين تشْتَجِرُ القنا والطعنُ منى سابقُ الآجالِ

ويكثر هذا فى مقام المدح :

٢ــ بيان حاله .

اذا كان المشبه به معلوما عند السامع بتلك الصفة التى يقصد اشتراك الطرفين فيها، بخلاف المشبه . و ذلك كقول النبى (ص) .

«الحياءُ من الإيمان كالرأسِ من الجسدِ .

وقول عروة بن الورد :

ألا إنَّ أصحابَ الكنيفِ وجدتُهم كما الناسِ ،لماأخْصَبوا وتَموّلوا

١٢١ــ راجع حاشية عبدالحكيم، ٤٥٥ وحاشية چلبى على المطول، ٢٦٤ .

وقول المتنبي :

وما الموتُ الا سارقٌ دقَّ شخصُه   يصولُ بلا كفٍّ ويسعى بلا رِجْلِ

وهذا النوع كما قال الاستاذ علي الجندي : «يرِد كثيرا في المسائل العلمية للإفهام والتوضيح، فهو جزيل الفائدة عظيم النفع، كما انه يقع بكثرة في كلام الناس لصلته القوية بالفطرة، لان الانسان بطبيعته يستظهر بمعارفه المختزنة على الاحاطة بما يجهله»[١٢٢].

٣ـ بيان مقدار حال المشبه في القوة والضعف والزيادة والنقصان .

و ذلك اذا عرفت حال المشبه في مطلق تلك الصفة التي يقصد الإشراك فيها للمشبه به، ولكن جهلت مقدارها في القوة والضعف . فيلزم ان يكون المشبه به اعرف بتلك الصفة واتم فيها، و ذلك كقوله تعالى : «ثم قَسَتْ قلوبكُم فهي كالحجارَةِ ، او أشَدُّ قسوة»[١٢٣].

وكقول عنترة :

لئِنْ أكُ أسْوداً فالمِسْكُ لوني   وما لسوادِ جلدي مِنْ دواءِ
و لكن تَبْعدُ الفحشاءُ عنّي   كبُعْدِ الأرض مِنْ جوِّ السماءِ

وقوله ايضا :

أحبّك يا ظلومُ ، فانتِ عندي   مكانَ الرّوحِ مِنْ جَسدِ الجَبانِ
و لو أني اقولُ مكانَ روحي   خشيتُ عليكِ بادرةَ الطِعانِ

٤ـ تقرير حاله وتقوية شأنها .

يشترط في هذا النوع ان يكون المشبه به حسيا[١٢٤]، وان يكون اقوى

١٢٢ـ فن التشبيه، ٢٠١/١ .

١٢٣ـ البقرة، ٧٤ .

١٢٤ـ حاشية الدسوقي، ٣٩٨/٣ .

واظهر فى وجه الشبه . والغالب عليه تشبيه المعقول بالمحسوس، و ذلك لأن إلف النفس بالحسيات أتم من إلفها بالعقليات، فاذا ذكرت المعنى العقلى الجلىّ ثم عقّبته بالتمثيل الحسى، فكأنك نقلت النفس من المعنى الغريب الى المعنى القريب[١٢٥]، فتسكن اليه وتطمئن عنده . كقوله تعالى : «والذين كفروا اعمالُهم كسرابٍ بقيعةٍ يحسبُه الظمآنُ ماءً ...»[١٣٦].

وقول النبى (ص): مثلُ الذى يعلمُ الخيرَ ولايعملُ به مثلُ السراجِ الذى يُضىء للنّاسِ ويُحرِقُ نفسَه .

وقولهم : التعليمُ فى الصغرِ كالنقشِ فى الحجرِ .

وقول امرىء القيس :

كأنّى غداةَ البينِ يوم تحمّلوا ※ لدى سَمُراتِ الحىِّ ناقفُ حَنظلِ

وقد يقع فى تشبيه المحسوس بالمحسوس، اذا كان المشبه به أقوى فى ظهور الحجة . و ذلك كقول امرىء القيس :

كأنّ دماء الهاديـاتِ بنَحْرِه عُصارةُ حِنّاءٍ بشيبٍ مُرجّلِ

والفرق بين هذا النوع والذى قبله ان ما فيه بيان المقدار ان قُصِدَ من حيث التقرير لما فيه من قوة الظهور والتمام، كان من التقريرِ .

وان قُصد من حيث مُجرّد فهم الكيفية، كان من بيان المقدار[١٣٧] .

وامّا الفرق بينه وبين بيان الحال فهو يعدّ قسما من بيان الحال، و لكنه بيان على وجه التسكين بتوضيح حال المشبه فى ذهن السامع[١٣٨] .

١٢٥ـ راجع فن التشبيه، ١/٢٠٧ـ٢٠٨، والمطول، ٣٣١ .

١٢٦ـ النور، ٣٩ .

١٢٧ـ المواهب، ٣/٣٩٩ .

※ وفى بعض النسخ : يوم ترحلوا .

١٢٨ـ فن التشبيه، ١/٢٠٤ .

وفى هذا الوقت الذى اكتب هذه السطور، يخطر على بالى ان تقرير الحال فى الاصل يقع فيما ادُعِي للمشبه امر" او نسب اليه حكم، وقصِد من طريق ذكر مثل وتظير له ان يستقر فى النفس ويتمكن فيها، فعلى هذا ان المشبه فى تقرير الحال حينئذ جملة* مشتملة على حكم يقرّب من الذهن بإتيان نظير معروف ومأنوس له . و ذلك كقول الصنوبرى :

مِحَنُ الفتى يُخبِرنَ عن أخلاقِهِ
كالنّارِ مُخْبِرةٌ بفضلِ العَنْبَرِ

ويمتاز تقرير الحال عن بيان الإمكان الذى يأتى قريبا : بان الحكم الذى ينسب الى المشبه فيه ليس امرا غريبا يُشكّ فيه او يُدّعى امتناعه.

٥ــ بيان إمكان المشبه .

و ذلك اذا كان المشبه مشتملا على امر غريب يمكن ان يشك فيه او يدّعى امتناعه، فيؤتى بنظير له مسلّمِ الحكم ومقبوله، تدعيما لحال المشبه، كقول المتنبى :

وما انا منهمْ بالعيشِ فيهم ولكِنْ معدِنُ الذّهبِ الرّغام

وهذا النوع من الغرض يأتى غالبا مع صورة التشبيه الضمنى كما رأيت فى قول المتنبى، وليس مراد التفتازانى بقوله : «وليُسمَّ مثلُ هذا تشبيها ضمنيا او مكنيا عنه»[١٢٩] ان التشبيه المسوق لبيان الامكان تشبيه ضمنى او كنائى دائما كما ظنه الاستاذ على الجندى[١٣٠]، بل المراد ان ما اتى

١٢٩ــ المطول، ٣٣١ .

١٣٠ــ فن التشبيه، ٢١٩/١ .

* حقيقة كمثال المتن او تاويلا مثل : العلم فى الصغر ... فانه فى تاويل : العلم فى الصغر لايزول اثره، اويبقى اثره طويلا، ومثله النقش فى الحجر .

على سبيل قول المتنبى :

فإنْ تفقِ الأنامَ وانتَ منهم ... فإنّ المِسْكَ بعضُ دمِ الغزال

بأن لم يذكر طرفا التشبيه على ما هو المعروف فى بابه، يسمى تشبيها ضمنيا ومكنيا عنه، لان بيان الامكان قد يتحقق مع التشبيه الصريح كما نقله صاحب[١٣١] عروس الافراح عن السكاكى من التمثيل بقول ابن الرومى :

قالوا : ابو الصقر مِنْ شيبانَ، قلت لهم :
كلاّ لعمرى ، و لكِنْ مِنْه شيبانُ
كم مِنْ أبٍ قد علا بابنٍ ذُرى شرفٍ
كما علا برسولِ الله عدنانُ

فالغرض من التشبيه فى البيت الاخير بيان الامكان ، مع انه لم يسلك سبيل التشبيه الضمنى .

ولا او افق الاستاذ الجندى فى تمثيله لبيان الامكان الذى اتى على صورة التشبيه الصريح بقول المتنبى :

فإن يكُ سيّارُ بنُ مكرّم انقضى ... فإنك ماءُ الوردِ إنْ ذهبَ الوردُ

لان معنى البيت : ان ذهب سيّار وبقيتَ فلا بأس، كما انه لا بأس اذا ذهب الورد وبقى ماؤه، فلم يذكر طرفا التشبيه فيه على الطريقة المعروفة فى التشبيه الصريح، وليس المخاطب فى البيت وحده مشبها لجملة «ماء الورد ان ذهب الورد» التى فى معنى : بقى ماء الورد ان ذهب الورد، كما لايخفى على المتأمّل .

٦ــ تنظيم شأن المشبه وتحسينه .

١٣١ــ المواهب، ٣/٣٩٦، تفحصت فى المفتاح عن هذا التمثيل و اكن ما وجدته .

و ذلك اذا شبهت شيئا بما هو معروف عند الناس بالجلال و الرفعة والحسن والقبول، تكريما له وترغيبا فيه، كقول الشنفرى :

ولى دونكم أهلونَ : سِيْدٌ عَمَلَّسٌ ،
و أرقطُ زُهْلولٌ ، و عرفاءُ جَيْأَلُ
هم الأهلونَ، لامُسْتَوْدَعُ السِّرِّ ذائعٌ
لديهم، ولا الجانى بما جرَّ يُخذَلُ

وقول عنترة :

بها ليلٌ مثل الأُسْدِ فى كلِّ موطنٍ
كأنَّ دمَ الأعداءِ فى فمِهم شهدُ

وقول[132] ابن الانبارى فى ابن بقية الوزير، وقد صلبه عضد الدولة :

علوٌّ فى الحياةِ و فى المماتِ
لحقٌّ أنتَ إحدى المُعْجِزاتِ
كأنَّ النّاسَ حولكَ حينَ قاموا
وفُودُ نداكَ ايّامَ الصِّلاتِ
مَددْتَ يديك نحوهم احتفاءً
كمدِّهما اليهم بالهِباتِ
و لما ضاقَ بطنُ الأرضِ عن أنْ
يضُمَّ عُلاكَ مِنْ بعدِ المماتِ
أصاروا الجوَّ قبركَ واستعاضُوا
عَنِ الأكفانِ ثوبَ السافياتِ[133]
لعظمِكَ فى النفوسِ تَبيتُ تُرْعَى
بحُرّاسٍ و حُفّاظٍ ثِقاتِ
و تُشْعَلُ عندكَ النيرانُ ليلا
كذلك كنتَ ايامَ الحياةِ

٧ـ تحقير شأن المشبه وتقبيحه .

و ذلك اذا جعلت المشبه به شيئا معروفا عند الناس بالمهانة والدناءة والقبح، تحقيراً للمشبه وتقبيحه، كقول عروة بن الورد :

١٣٢ـ فن التشبيه، ٢٢٩/١ .
١٣٣ـ السافيات : الرياح .

لَحَا اللهُ صُعْلوكاً اذا جَنَّ ليلُهُ مُصافي المشاش آلفاً كلَّ مجزر[١٣٤]
يَعُدُّ الغِنى مِنْ نفسِهِ كلَّ ليلة أصابَ قِراها مِنْ صديقٍ مُيَسَّرِ
ينامُ عِشاءً ثمَّ يُصْبِح ناعِساً يَحُتُّ الحَصا عن جنبِهِ المُتعفِّرِ
يُعينُ نساءَ الحيِّ ما يستعِنَّهُ ويُمْسي طَليحاً كالبعيرِ المُحَسَّرِ

وقال المتنبي في الهجاء :

واذا أشار مُحدِّثاً فكأنّه قِرْدٌ يُقهقِهُ او عجوزٌ تلطِمُ

وقد جمع تحسين المشبه وتقبيحه قولُ عنترة :

ماءُ الحياةِ بذلةٍ كجهنّمٍ وجَهنّمٌ بالعِزِّ أطيبُ مَنْزِلِ ※

ولا يخفى ان في التحسين والتقبيح اثرا واضحا في تربيته النفوس على الفضائل وردعها عن الرذائل، وترغيبها في الخير وترهيبها عن الشر، وحثها على العمل الصالح وملئها بالحماسة والإقدام وحبِّ التضحية والفداء والوقوف في وجه الظلم[١٣٥].

وقد يعود الغرض من التشبيه الى المشبه به، وهو على ما اشار اليه صاحب التلخيص ضربان :

١ـ المبالغة في شأن المشبه به وايهامُ انه أتم من المشبه كما نراه في التشبيه المقلوب، قال البحتري[١٣٦] يصف قصرا فوق هضبةٍ :

١٣٤ـ المشاش : جمع مشاشة، راس العظم . المجزر : الموضع الذي تنحر فيه الابل .

١٣٥ـ فن التشبيه، ١/٢٤٣ .

١٣٦ـ البلاغة الواضحة، ٦٢ .

※ وقال البارودي : عيش الفتى في فناء الذلّ منقصة ـ والموت في العزّ فخر السادة النُبَلِ .

فی رأسِ مُشرفةٍ حَصاها لؤلؤٌ   وترابُها مِسْكٌ یُشابُ بعنبرِ

وتقول : حَجَرٌ كقلب الظالم .

٢ـ الاهتمام بشأن المشبه به، و ذلك اذا تركت فی التشبیه المشبه به الأصلی وما هو انسب والیق بالمشبه، وجئت بآخر لایكون بینه وبین المشبه اتصال وثیق ولاقرابة ماسّة، والبلیغ لایرتكب هذا العمل الا لغرض او نكتة مثل الاهتمام بشأن المشبه به . كما اذا كنت جائعا وشبّهتَ وجها كالبدر فی الاستدارة والانارة بالرغیف، اهتماما بشانه . وأظن انّ قولَ عنترة :

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نَواهِلٌ   منّی وبیضُ السیف تقطرُ مِنْ دمی

فوددتُ تقبیلَ السیوف لأنّها   لمَعَتْ كبارقِ ثغرِكِ المتبَسِّمِ

من هذا الباب، لان المعروف ان یشبه لمعان السیوف بلمعان البرق او النجوم او ما هو مثلها فی قوة اللمعان وشدة البرقان، ولیس كذلك الثغر. فلایعنی عنترة من هذا التشبیه غیر الاهتمام بشأن المشبه به وادعاء انه لا یغیب عن قلبه حتی فی ساحة القتال .

وهذا الضرب علی عكس الضرب الاول لایختص بالتشبیه المقلوب و ما وجدت فی كلام القوم من یدعی الاختصاص به، غیر ان الظاهر من كلام الاستاذ الجندی اختصاص هذا الضرب بالتشبیه المقلوب كالذی قبله[١٣٧]، و لا یخفی ضعفه لان الامثلة المتقدمة لبیان الاهتمام بشأن المشبه به، لاتؤید الاستاذ .

وأضیفُ علی الضربین المذكورین ضربا ثالثا، وهو تحسین المشبه به

١٣٧ـ فن التشبیه، ١/٢٨٤ـ٢٨٥ .

بالطريق الأولى على وجه الكناية، ويتاتى ذلك فى التشبيه المقلوب . قال عنترة :

لَئِنْ أكُ اسوداً فالمِسْكُ لونى وما لسِوادِ جلدى مِنْ دواء

وأظنّ ان قوله تعالى على لسان آكلى الرّبا : «انما البيعُ مثلُ الرّبا»[١٣٨] من هذا الباب .

التشبيه فى ميزان النقد

هذه الظاهرة العامة التى توجد عند كل شعب وقوم ويعرفها الصغير والكبير ويستعلها اهل الوبر والحضر، تتفاوت صنوفها شرفا وخسة، حسنا وقبحا، إصابة وخطأ وبلاغة وسقوطا، وكذلك تختلف فى الاهمية وفى اشتمالها على الفن والمهارة وعمق الخيال .

ومما يقرّب التشبيه الى القبول والصحة ويزيده الحسنَ والبراعةَ، اشتمالُه على نقل العواطف والتجارب الذى هو فلسفة ابتداع التشبيه[١٣٩]، والوفاءُ بالغرض المراد منه، واخراجُ الخفى والمستور الى الظاهر والمكشوف[١٤٠]، وجمعُ الاشياء برِباط وثيق يختص به طرفا التشبيه فى قصد المتكلم، واتفاقُ المشبه والمشبه به فى معنيين او اكثر من الوجوه المشتركة التى تدعو الخيالَ الى التركيب والتأليف[١٤١]، والوقوفُ عند

١٣٨ــ البقرة، ٢٧٦ .

١٣٩ــ النقد الادبى، ٤٤٧ .

١٤٠ــ سر الفصاحة، ٢٩٠ . والصناعتين، ٢٥٧ والعمدة ١/٢٨٧ .

١٤١ــ سر بلاغة ارسطو ، ٢٧١، عيار الشعر، ١٧ .

جهات لا يتم التشبيه لدى المتكلم إلاّ بها، وأن يقع التشبيه موقعه[١٤٢] خاليا من الغلو والافراط، بعيدا عن الرداءة والتنافر وكلّ ما يذهب بسلاسة التعبير وسهولته، وأن يكون اشتراك المشبه والمشبه به فى الصفات اكثر من انفرادهما حتى يَتَبيَّن وجهُ التشبيه ولا كُلفة الاّ ان يكون المطلوب من التشبيه اشهر صفات المشبه به واكملها[١٤٣]، وأن تكون المشابهة بين الطرفين متحققة ومتأصلة ومقبولة بحيث لو جُعل كل منهما مشبها به لم يُخِلّ بالكلام، قال ابن طباطبا : «فاحسن التشبيهات ما اذا عُكِسَ لم ينتقض»[١٤٤].

هذه نماذج من التشبيه المختار الحسن البارع :

قال الله تعالى : «مثَلُ الّذين اتّخذُوا مِنْ دونِ الله اولياءَ كمثلِ العنكبوتِ اتخذَتْ بيتاً، وانّ أوهَنَ البيوتِ لبيتُ العنكبوت»[١٤٥].

وقال ايضا : «هُنَّ لباسٌ لكم وانتم لباسٌ لهنّ» .

وجاء فى الامثال : «الليلُ جُنّةُ الهاربِ»[١٤٦].

وقال مسلم بن الوليد :

فإنْ أغْشَ قوماً او أزورُهم
فكالوحشِ يُدنيها مِنَ الانس المحلُ

١٤٢ـ عيار الشعر، ٦ .

١٤٣ـ مقدمة شرح الحماسة للمرزوقى، بالنقل عن الرمزية فى الادب العربى، ١٨ .

١٤٤ـ عيار الشعر، ١١ .

١٤٥ـ عنكبوت

١٤٦ـ المثل السائر، ٣٩٩ــ٤٠٠ .

و انّـى و اسمـاعيـل بعـدَ فـراقـه
لكالغِمْد يـوم الروع زايَله النصـل[١٤٧]

وقال ابو العلاء المعرّى :

والـخِلُّ كالمـاءِ يُبدى لـى ضمائرَه
مـعَ الصفاء ، و يُخفيـها مَعَ الكـدَرِ

وقال الحسين بن مطير الاسدى يرثى معن بن زائدة :

فتىً عاشَ فى معروفِه بعدَ موتِه كما كانَ بعد السيلِ مجراه مرتَعا

وقال عنترة بن شدّاد العبسى :

و خـلا الذُبابُ بهـا فـليس ببـارحٍ
غَـرِداً كـفعـلِ الشـارب المُتَرنّمِ
هزِجاً يَحكُّ ذراعَـهُ بـذراعِهِ
قدحَ المُكِبِّ علـى الزِنادِ الأجـذمِ[١٤٨]

وقال امروءالقيس فى اثبات الليل واقامته :

كأنَّ الثريّا عُلّقتْ فى مَصامِها بأمراسِ كتّانٍ الى صُمِّ جندلِ

وقال مجنون ليلى :

اريدُ لأنسى ذكرَها ، فكأنّمـا تمثّلُ لى ليلـى بكلِّ سبيلِ[١٤٩]

ذكر ابن الاثير فى التشبيه المقبول والحسن قسما خاصا يرجع الى قالب التشبيه وعرضه، فقال :

«واعلم ان محاسن التشبيه ان يجىء مصدريا، كقولنا : أقدمِ إقدامَ

١٤٧- عيار الشعر، ٨٩ .

١٤٨- سر الفصاحة، ٢٤٠ .

١٤٩- الكامل ٣/١١٤، ١٢٣ .

الأسد ، وفاض فيضَ البحر . وهو احسن ما استعمل فى باب التشبيه»[١٥٠].

إذا كان وجود الاوصاف المتقدمة سببا لإجادة التشبيه وإصابته، وعلةً لبلاغته وبراعته، فلاشك ان الخلو منها يوجب قبحه وخطأه ويضع من قدره و روعته، ويجلب عيوبا تحطّ من شأنه .

فهذه العيوب اما ترجع الى الالفاظ المفردة ، او الى صياغة الكلام و تركيبه، او الى المعنى، او الى عملية الخيال او غير ذلك . وفيما يلى نماذج من العيوب التى اعتورت التشبيهَ وجعلته قبيحا :

قال بشار بن برد :

كأنَّ ابريقَنا والقطرُ فــى فمِـه طيــرٌ تناولَ ياقوتــاً بـنقــارِ

والمعروف ان كلمة «طير» اذا استعملت يقصد بها معنى الجمع ، جاء فى القرآن الكريم : «والطيرُ صافات»[١٥١]، «وارسل عليهم طيراً ابابيـل، ترميهم بحجارةٍ مِنْ سجّيل»[١٥٢]. ذكر علامة الزمخشرى ان الطير اسم جمع مذكر وانما يؤنث على المعنى[١٥٣].

اما اذا قصد بها معنى المفرد كما وقعت فى بيت بشار فهى رديئـة ، والحسن المقبول فيها لفظة «طائر» .

ومثله قول المتنبى :

و ملمـومـةٌ سيـفيّـةٌ ربعيّـةٌ

يَصيحُ الحصا فيها صيـاحَ الـلّقالِقِ[١٥٤]

١٥٠ـ المثل السائر ١/٣٩٥ .

١٥١ـ النور، ٤١ .

١٥٢ـ الفيل، ٣ـ٤ .

١٥٣ـ الكشاف، ٤/٢٣٤ .

١٥٤ـ الملمومة : الكتيبة المجتمعة . سيفية : منسوبة الى سيف الدوله . ربعيّة : منسوبة الى قبيلة ربيعة وهى قبيلة سيف الدولة .

فان لفظة «اللقالق» مبتذلة بين العامة، فلا تقع موقع القبول والرضى[١٥٥].

وقال ذو الرّمة :

كأنّ اصواتَ ، مِنْ ايغالهنّ بنا ،

أواخرِ الميْسِ ، أصواتُ الفَراريجِ[١٥٦]

يريد : كأن اصوات او اخر الميس اصوات الفراريج من ايغالهن بنا، لكن هذا المراد لا يعرف بغير اعمال الفكر والتّروية، لان الخلل الناشىء فى الصياغة بسبب التقديم والتاخير قد ذهب بسلامة التعبير وسهولته .

ومثلُه قول بعضهم :

فاصبحتْ بعدَ خَطَّ بهجتِها كأنّ قفراً رُسومَها قلماً

والأصل : فاصبحت بعد بهجتها قفرا، كأن قلما خطّ رسومها .

وقال خُفاف بن نُدبة :

أبقى لها التعداءُ مِنْ عَتَداتِها و متونِها كخيوطةِ الكتّانِ

اراد أن قوائمها ومتونها من اثر العَدْوِ والركضِ دقّت حتى صارت كالخيوط ، وهذا التشبيه بعيد لاشتماله على الغلو[١٥٧].

وفى البيت عيب آخر وهو انه اراد ضلوعها، فقال متونها .

وقال الأخطل مخاطبا عبدالملك فى شأن زُفَر بن الحارث :

بنى اميّةَ إنّى ناصحٌ لكم فلا يبيتنَّ فيكم آمِنا «زُفَرُ»

مُفتَرِشا كالليثِ كلكلَهُ لوقعةٍ كائنٍ فيها لها جزرُ

١٥٥- المثل السائر، ١٨٢-١٨٣ .

١٥٦- الميس الرحل، الخشبة الطويلة التى بين الثورين، اوغل فى السير : اسرع، والقوم : امعنوا فى سيرهم . والفراريج: افراخ الدجاج .

١٥٧- عيار الشعر، ٩٠ والصناعتين، ٢٥٦ .

فهذا التشبيه لايفى بما يريده الشاعر منه، لانه رفع شأن «زفر» حتى خوّف منه مع ان الشاعر أراد ان يضع من قدره .

ومثله قول كُثيِّر :

الا إنّما ليلى عَصا خيزُرانةٍ   اذا غَمَزُوها بالأكُفِّ تلينُ

فكلمة العصا التى توحى بمعانى اليبس والجساوة والغلظة لاتناسب ما قصده الشاعر من وصف حبيبته باللين والرّقة والللدونة .

روى أن كُثيِّرًا لما انشده بشارا ضحك، وقال : لله ابو صخر، جعلها عصا ثم يعتذر لها، والله لو جعلها عصا مُخٍّ او عصا زُبدٍ لكان قد أساء[158].

ومثله ايضا قول العرجى :

يدِبُّ هواها فى عِظامى وحبُّها   كما دَبَّ فى الملسُوع سمُّ العَقارب

فتشبيه دبيب الهوى فى العظام بدبيب السم فى الملسوع غاية فى البشاعة، وهذا التصوير للحب ليس دليلا على الحبّ الذى اراد الشاعر التأكيد عليه .

وقال ابوبكر بن ظهار :

وكأنَّ الظلامَ لمّا تولّى   نَمِرٌ راعَه مِنَ الفجرِ ليثُ

والنمر ليس معروفا بالسواد والظلمة ولا الأسد بالبياض والاشراق، فلم يجمع طرفى التشبيه رباط وثيق، فلا تجد فى هذا التشبيه بيانا يقرّب ما اراده الشاعر من الأذهان ويزيل عنه الابهام والغموض . وفى البيت عيب آخر وهو ان وصف المشبه به بالارتياع من الاسد لم يقع فى موقعه، اذ «أنّ النمر لايرتاع من الاسد ارتياع الثور منه، او ارتياع الشاة من الذئب

١٥٨ـ فن التشبيه ٣/١٤١ـ١٤٣ .

حتى يُمثّل به، بل المعروف ان النمر يقاوم الاسد ويصارعه ولايستسلم ليهلكه معه»[١٥٩].

اعلم ان جمع الاشياء برباط وثيق يستدّ الى قرابةٍ ونسب ووقوع التشبيه موقعه، عقبةٌ صعبة لم يعبرها الا فرسان البلاغة، ومقتلٌ من مقاتل البيان لم ينجُ منه الا اصحاب البراعة . فلهذا نرى اكثر عيوب التشبيه ترجع الى هذه المسألة .

قال ساعدة بن جؤية يصف السهام :

كساها رطيبُ الرّيش فاعتَدلَت ْ قداحٌ كاعناقِ الظباءِ الفوارِقِ

فتشبيه السهام بالاعناق ليس مقبولا لفقدان المقاربة بينهما، وايضا ان المطلوب في السهام الدقة والاستواء، فتشبيهها بمايعرف بهذين الوصفين أنسب والى الصواب اقرب .

ومثله قول بعضهم :

كلا حاجبيك الشيبُ حتّى كأنّه ظباءٌ جرَتْ منهاسنيحٌ وبارحُ

شبه الشاعر شعرات البيض في حاجبيه بظباء سوانح وبوارح، ولا يخفى ما فيه من البعد وعدم القرابة[١٦٠].

ومن هذا الباب ايضا قول ابي تمام :

لا تَسقِني ماءَ الملامِ فانّني صبٌّ قد استعذبتُ ماءَ بكائي

فجعل للملام ماء وهو بعيد، اذالماء مستلذ والملام مستكره، فيكون بينهما من هذه الناحية منافرة ومخالفة . ولهذا روى ان بعض اهل المجانة ارسل الى ابي تمام قارورة وقال : «ابعث في هذه شيئا من ماء الملام»[١٦١].

١٥٩ـ فن التشبيه ٢/٦٧.

١٦٠ـ الصناعتين، ٢٥٧ـ٢٥٨، والمثل السائر، ١/٤١٩ .

١٦١ـ المثل السائر، ١/٤١٨ .

وقال ابو نواس يصف الاسد :

كـأنما عيـنـه إذا نظَـرتْ بارزَةَ الجفنِ ، عينُ مخنـوقِ

فالشاعر أخطأ في اختيار المشبه به لعين الاسد، اذ المعروف ان عين الاسد غائرة لا بارزة، كما قال ابن عبد ربه :

ليثٌ تطيرُ لـه القلوبُ مَخافةً مِنْ بين همهَمةٍ لـه و زئيـرِ
و كأنّه يُومـي اليـك بطرفِه عَنْ جمرتين بجلمَدٍ منقـورِ

ومثله قول النابغة الجعدي :

كـأنّ حِجاجَ مقلتِهـا قليبٌ مِنَ الشّيقيْنِ ، حلّق مُستقاها[163]

فالشاعر شبه حجاج مقلة ناقتة بالقليب الذي غار ماؤه فأخطأ ، لان الحجاج هو العظم الذي ينبت عليه شعر الحاجب فلا يغور .

ويمكن ان يفرق بين خطأ ابي نواس والنابغة : بان الشاعر في الاول لم ير المشبه او راه رؤية عابرة اوسمع بوصفه، ولكنه في الثاني لم يدقق الملاحظة في احواله واجزائه مع انه رآه عيانا غير مرّة[164].

وقال الكميت :

كانّ الغُطـامِـط مِنْ غليـهـا أراجيزُ أسْلَمٍ تهجو غِفارا[165]

١٦٢- سر الفصاحة، ٢٥٤ .

١٦٣- القليب : البئر، وقد يؤنث . الشيقين : موضع . حلق : غار . مستقاها : ماؤه :

١٦٤- عيار الشعر، ٩٠-٩١، والصناعتين، ٢٥٨، وفن التشبيه ، ٣/٢٢٥-٢٢٦ .

١٦٥- الغطامط بضم الغين : صوت غليان موج البحر، والمراد هاهنا: غليان القدر .

فأخطأ الكميت فى تشبيهه، لانه اختار مشبّها به لم يقع فى الخارج ولم يسمع به احد، فان قبيلة اسلم ما هجت يوما غفارا.

ومما لم يكن التشبيه مصيبا ولم يقع موقعه قول المرّار:

و خال على خدّيك يبدو كأنه
سنا البدر فى دعجاءَ بادٍ دجونها[١٦٦]

لان الخدود بيض والغالب المشهور فى الخال ان يكون اسود، فتشبيه الخدود بالليل، والخال بضوء البدر تشبيه ناقض للعادة.

وقول الحكم - لعله عبدالرحمن بن الحكم -:

كانت بنو غالبٍ لأمّتها كالغيث فى كلّ ساعةٍ يَكِف

ومثله قول أيمن:

فانا قد وجدنا امّ بشر كامّ الأسد مِذْكاراً و لَودا

فلا تعرف امّ الأسد بانها مذكار و ولود، فوَصْفُها بهذه الصفة لم يقع موقعه[١٦٧].

ومن العيوب التى ترجع الى عملية الخيال اوالاحساس والشعور قول المتنبى فى مدح سيف الدولة ونكايته بالرّوم:

نثرتَهم فوق «الأُحَيْدِبِ» كلّه كما نُثِرت فوق العروس الدّراهمُ

يريد ان مزّق أعداءه كلّ ممزّق وبدد شملهم وفرق جثثهم واشلاءهم على هذا الجبل، كما يفرّق الدراهم والدنانير على العروس.

فالتشبيه من ناحية اللفظ والمعنى مقبول، الا انه من حيث الجوّ العاطفى وعملية الخيال معيب، اذ الشطر الاول كما قال الاستاذ على الجندى:

١٦٦- دعجاء: سوداء، صفة لمحذوف تقديره ليلة. ودجونها سوادها.

١٦٧- سر الفصاحة، ٢٤٥.

«يهيم الانسان في جوٍّ قابض كئيب عابس، وهو جوّ الموت والجراح والدماء والأشلاء والأنين والتوجع.

والثاني ينقله الى جوٍّ ضاحك فرح بهيج، اعني جوّ العروس المجلوة على المنصة في أبهى زينتها بين اترابها الناضرات يرقصن، ويغنّين وينثرن فوقها الدراهم»[١٦٨].

فلم يجر الشطران في هذه العملية على وتيرة واحدة، ولم يظهر الطرفان عند الاحساس والشعور على مسرح مشابه.

وقال ابن المعتز في وصف هلال الفطر عقب رمضان:

انظُرْ اليه كزورقٍ مِنْ فضّةٍ قد اثْقَلَتْه حمولةٌ مِنْ عنبرِ

فهذا التشبيه من الناحية اللفظية والمعنوية مقبول ايضا، الا انه من حيث عدم ربط التشابه بالشعور المسيطر على الشاعر في نقل تجربته معيب. لانه لا ينقل الينا شعوره الصادق بجمال هلال الفطر و روعته في هذا التشبيه، وكل ما جاء به انه بحث عن نظير حسي لما يراه دون ان يتصل هذا النظير بشعور محدّد او فكرة.

وقد يكون في هذا التشبيه دلالة نفسية على رغبته في الهرب من عالم الواقع، او دلالة على بيئة الترف التي الفها ابن المعتز، ولكن هذه الدلالة النفسية لاشعورية، ولاصلة لها بالمنظر الطبيعي الذي يقصد ابن المعتز الى تصويره[١٦٩].

١٦٨ــ التشبيه ٣/١٧٣.
١٦٩ــ النقد الادبي الحديث، ٤٤٤.

الفصل الثانى المجاز

معنى الحقيقة والمجاز

لما كان المجاز يذكر فى مقابل الحقيقة، وكان يتفرع عليها ولايتصور بدونها، جرت العادة بالبحث عن الحقيقة وتفسيرها كالمجاز، وان كان المقصود الاصلى هو الاخير.

الحقيقة لغة :

جاء فى اللسان : والحقيقة : ما يصير اليه حقُّ الامر و وجوبه . وبلغ حقيقة الامر، اى يقين شأنه .

وفى الحديث : لايبلغ المؤمنُ حقيقةَ الإيمان حتى لايعيبَ مسلما بعيبٍ هو فيه . يعنى خالص الايمان ومحضه وكنهه .

وحقيقة الرّجل : ما يلزمه حفظُه ومنعُه[١٧٠].

والحقيقة، امّا فعيل بمعنى مفعول من حققتُ الشىءَ أحُقُه اذا اثبتّه، واما فعيل بمعنى فاعل من حقّ الشىءُ يَحق إذا وجب .

و «التاء» فيها عند السكاكى للتأنيث مقدّرةً بمعنى الفاعل او بمعنى المفعول، لاعتباره الصفةً غير مُجْراة على الموصوف، اعنى الكلمة قبل التسمية[١٧١]. ولكن التفتازانى يرى ان «التاء» فيها للنقل من الوصفية الى الاسمية[١٧٢].

١٧٠ـ اللسان، مادة حق .

١٧١ـ مفتاح العلوم، ١٧١ .

١٧٢ـ المطول، ٢٧٩ .

ومعنى كونها للنقل، ان «التاء» في الاصل تدل على معنى فرعي و هو التأنيث، فاذا روعي نقل الوصف عن أصله الى ما كثر استعماله فيه و هو الاسمية، اعتبرت التاء فيه واتى بها اشعارا بفرعية الاسمية فيه كما كانت فيه حال الوصفية اشعارا بالتأنيث . فالتاء الموجودة بعد النقل غير الموجودة قبله[١٧٣].

وسواء قدرت التاء للتأنيث او للنقل يقال بالمعنى الاسمي : لفظ حقيقة كما يقال كلمة حقيقة .

وقال النويري : والحقيقة، في اللغة فعيلة بمعنى مفعولة، من حقّ الامر يحقّه اى اثبته، او من حققته اذا كنت منه على يقين[١٧٤].

الحقيقة اصطلاحا :

الحقيقة اذا اطلق على القول يراد بها في الاصطلاح : ما جرى مجراه الاصلي وسلك مسلكه الطبيعي من حيث المعنى والعلاقة بين الاجزاء .

قال ابن جني : الحقيقة، ما أقرّ في الاستعمال على اصل وضعه في اللغة[١٧٥].

وقال عبدالقاهر في تحديد الحقيقة في المفرد : كلّ كلمة اريد بها ما وقعت له في وضع واضع ـ وان شئت قلت : في مواضعة ـ وقوعا لا يستند فيه الى غيره .

فالاسد اذا استعمل مرادا به الحيوان المفترس الذي وقع له في وضع

١٧٣ـ راجع المواهب والدسوقي ٤/٤ .

١٧٤ـ نهاية الارب، ٣٧/٨ .

١٧٥ـ الخصائص ٤٤٢/٢ .

واضع اللغة، فقد ادى ذلك من غير ان يحتاج الى اعتبار اصل للحصول على المعنى المراد[١٧٦].

وقال ابن الحاجب: الحقيقة، اللفظ المستعمل في وضع اول[١٧٧].

وقال السكاكي: فالحقيقة، هي الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له من غير تاويل في الوضع، كاستعمال الاسد في الهيكل المخصوص، فلفظ الاسد موضوع له بالتحقيق ولاتاويل فيه[١٧٨].

وقال ابن الاثير: فاما الحقيقة، فهي اللفظ الدال على موضوعه الاصلي[١٧٩].

وقال النويري: فحدها في المفرد، ان كل كلمة اريد بها ماوضعت له فهي حقيقة، وفي الجملة، ان كل كلمة كان الحكم الذي دلت عليه كما هو في العقل فهي حقيقة[١٨٠].

وقال صاحب الطراز: قد اكثر الحذّاق من علماء البيان والاصول في تحديد الحقيقة وبيان مفهومها وأتوا بأمور غير مرضية، وأجمعها ما ذكره الحسين البصري: ما افاد معنى مصطلحا عليه في الوضع الذي وقع فيه التخاطب[١٨١].

وقال صاحب التلخيص: والحقيقة الكلمة المستعملة فيما وضعت له

١٧٦ـ اسرار البلاغة، ٣٩٦ـ٣٩٧ ذكر عبدالقاهر ان كل واحد من وصفي المجاز والحقيقة اذا كان الموصوف به المفرد غير حده اذا كان موصوفا به الجملة. وانا نحدّهما في المفرد.

١٧٧ـ مختصر المنتهى مع شرحه ٤٣/١.

١٧٨ـ مفتاح العلوم، ١٦٩.

١٧٩ـ المثل السائر، ٥٨/١.

١٨٠ـ نهاية الارب، ٣٨/٨.

١٨١ـ الطراز، ٤٧/١.

فى اصطلاح به التخاطب[١٨٢].

فهذه الأقوال على اختلافها فى الدقة والملاحظة تقصد هدفا واحدا وتتلاقى عنده، وهو أن الحقيقة اللفظ الجارى على مجراه الاصلى، والمستقرّ فى موطنه المعيّن له.

المجاز لغة :

جاء فى اللسان : جُزْتُ الطريق وجاز الموضع جوزاً و جَوازاً و مَجازاً، وجازية : سار فيه وسلكه.

والمجاز والمجازة : الموضع.

وقولهم : جعل فلان ذلك الامر مجازا الى حاجته، اى طريقا و مسلكا[١٨٣].

فالمجاز فى اللغة اما مصدرُ جُزْتُ المكان اذا تعديته، كما يقال: قمت مقاما، وقلت مقالا[١٨٤]. واما اسم للمكان الذى يُجاز فيه كالمَعاج والمَزار واشباههما[١٨٥].

المجاز اصطلاحا :

لقد عرف العلماء والأدباء منذ قديم المجاز، وتنبهوا لأهميته و دوره فى التعبير وإلباس المعنى والاحساس الوضوحَ والنصاعة، فحاموا حوله وسعوا فى تحديده وبيان المراد منه فى الاصطلاح. لعل ارسطو فيما نعلم

١٨٢ـ المطول، ٢٨٥.

١٨٣ـ اللسان، مادة جاز.

١٨٤ـ العمدة، ٢٦٦/١.

١٨٥ـ المثل السائر ٥٨/١.

اول من أتى بتحديدالمجاز فانه قال : «والمجاز نقل اسم يدل على شيء الى شيء آخر»[١٨٦].

وجاء في الأدب العربي العالمان الجليلان : ابو عبيدة مَعْمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ) وتلميذه ابو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ـ٢٧٦هـ) واستعملا المجاز في معنى عام اعني طريق القول واسلوبه[١٨٧]. فقال الدينوري:

«و للعرب المجازات في الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذه . ففيها الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم والتأخير، والحذف والتكرار، والاخفاء والاظهار، والتعريض والافصاح، والكناية والايضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصدُ بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، و ...»[١٨٨].

واما الشيخ عبدالقاهر (ـ ٤٧١ هـ) فهو يحدّد المجاز هكذا : كل كلمة اريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والاول فهو مجاز . وان شئت قلت : كل كلمة جُزْتَ بها ماوقعت له في وضع الواضع الى ما لم توضَع له، من غير ان تستأنف فيها وضعا، لملاحظة بين ماتجوز بها اليه وبين اصلها الذي وُضِعَت له في وضع واضعها، فهي مجاز[١٨٩].

وقال ابن رشيق (ـ ٤٥٦ هـ) : وماعدا الحقائق من جميع الالفاظ ثم لم يكن محالا محضا فهو مجاز، لاحتماله وجوه التأويل . فصار التشبيه

١٨٦ـ فن الشعر، ٥٨ .

١٨٧ـ راجع مجاز القرآن، ٨، ١١، ١٢ .

١٨٨ـ تاويل مشكل القرآن، ١٥، ١٦ .

١٨٩ـ اسرار البلاغة، ٣٩٨ .

والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز، الاّ انهم خصّوا بالمجاز بابا بعينه، و ذلك ان يسمى الشيء باسم ما قاربه اوكان منه بسبب.

قال جرير :

إذا سقط السماءُ بأرضِ قومٍ رعيناه وإنْ كانوا غضابا

فأراد من السماء المطر لتقاربهما، ومن الضمير الراجع الى السماء بمعنى المطر، النبات الذى يكون عنه[١٩٠].

وقال السكاكى: (ت ٦٢٦ هـ) واما المجاز، فهو الكلمة المستعملة فى غير ما هى موضوعة له بالتحقيق، استعمالا فى الغير بالنسبة الى نوع حقيقتها، مع قرينة مانعة عن ارادة معناها فى ذلك النوع[١٩١].

وقال ابن الحاجب (ت ٦٤٦ هـ) : والمجاز، المستعمل فى غير وضع اول على وجه يصح[١٩٢].

وقال ابن الاثير (ت ٦٣٧ هـ) : و امّا المجاز فهو ما اريد به غير المعنى الموضوع له فى اصل اللغة ... كقولنا : زيد اسد، فانزيدا انسان، والاسد هو هذا الحيوان المعروف وقد جزنا من الانسانية الى الاسدية[١٩٣].

والمجاز عند النويرى (ت ٧٣٦ هـ) كلّ كلمة اريد بها غير ما وضعت له لمناسبة بينهما، او كلّ جملة اخرجتَ الحكم المفاد بها عن موضعه فى العقل بضرب من التاويل[١٩٤].

١٩٠ـ العمدة ١/٢٦٦.

١٩١ـ المفتاح، ١٧٠.

١٩٢ـ مختصر المنتهى مع شرحه ١/٤٣.

١٩٣ـ المثل السائر، ١/٥٨.

١٩٤ـ نهاية الأرب، ٨/٣٨.

وقال يحيى بن حمزة العلوى (ت ٧٤٩ هـ) : احسن ما قيل فيه، «ما افاد معنى غير مصطلح عليه فى الوضع الذى وقع فيه التخاطب، لعلاقة بين الاول والثانى»[١٩٥].

وجاء فى الايضاح فى تحديد المعنى الاصطلاحى للمجاز : اما المفرد فهو الكلمة المستعملة فى غير ما وضعت له، فى اصطلاح به التخاطب، على وجه يصح، مع قرينة عدم ارادته .

واما المجاز المركب، فهو اللفظ المستعمل فيما شبه بمعناه الاصلى تشبيه التمثيل للمبالغة فى التشبيه[١٩٦].

فهذه الاقوال وان كانت تتفق فى ان اللفظ الخارج عن موطنه المعين، والجارى فى غير مجراه الاصلى يسمى مجازا، تختلف قربا وبعدا من الحقيقه، وقصدا وارادة للمصاديق وشمولا واحتواء لها . فالمجاز عند ابى عبيدة وابن قتيبة كما رأيت لا يضاد الحقيقة ولا يقابلها، لان طريق القول واسلوبه كما يتحقق مع خروج اللفظ عن المجرى الاصلى ، يتحقق مع استقراره فى الموطن المعين له . وايضا ان المجاز عندهما اشمل معنىً، و اوسع مصاديق .

والمجاز عند ابن رشيق وابن الاثير ايضا يشمل التشبيه الذى هو من مصاديق الحقيقة عند الآخرين، لكن الظاهر من كلام الاول ان التشبيه مطلقا داخل تحت المجاز، لأنه يعلل رأيه هذا بأن المتشابهين فى اكثر الاشياء انما يتشابهان بالمقاربة على المسامحة والاصطلاح لا على الحقيقة[١٩٧].

واما ابن الاثير فهو لا يجعل من المجاز غير التشبيه المضمر الاداة كما

١٩٥ـ الطراز، ١/٦٤ .

١٩٦ـ الايضاح مع شروح التلخيص، ٤/٢٢-٢٤، ١٤١-١٤٢ .

١٩٧ـ العمدة، ١/٢٦٨ .

رأيت من مثاله، ولانه يقول : «ان المجاز ينقسم الى قسمين : توسع في الكلام ، وتشبيه، والتشبيه ضربان تشبيه تام وتشبيه محذوف، فالتشبيه التام ان يذكر المشبه والمشبه به». فيعني من التشبيه التام، المضمر الاداة[١٩٨].

لعل ما جاء في «الايضاح» أضيق دائرة، واكثر دقة، وامس الى فلسفة التحديدات جمعا ومنعا .

ثم، انك اذا تأملت هذه الاقوال ظهر لك أشياء :

منها ـ ضرورة المناسبة بين المعنى الاصلي والفرعي لوجهين: الاول ـ تيسير الانتقال من المعنى الحقيقي الى المجازي بسبب تلك العلاقة الملحوظة بينهما. الثاني ـ ان الكلمة لا يصح استعمالها في جميع غير ما وضعت له، لأن تشريك معنى فرعي للمعنى الاصلي في اللفظ دون سائر المعاني الفرعية يحتاج الى دليل ومرجح، والا فلا حكمة في التخصيص .

ومنها ـ ان كل مجاز له اصل و حقيقة[١٩٩] ، لان اللفظ انما يطلق عليه المجاز بالخروج والنقل عن المعنى الاصلي .

غير ان هذا الخروج لما كان نتيجة التطور الطبيعي لاستعمال اللغات، لا نحتاج اليوم في فهم المراد من هذه اللغات الى تصور معناها الاصلي . قال الاستاذ العقاد : «فلا يلبث التشبيه المجازي ان يؤدي معناه المقصود بغير وساطة الشكل المستعار، ولا يشتغل الذهن بالصورة المحسوسة لانتقاله منها على الإثر الى الوصف الذي يقارنها»[٢٠٠].

ومنها ـ ان الحقيقة والمجاز فرع استعمال اللفظ ، فلا توصف كلمة أو كلام بالحقيقة او المجاز قبل استعمالهما .

١٩٨ـ المثل السائر، ١/٣٥٦ـ٣٥٧ .

١٩٩ـ المثل السائر، ١/٦٢ .

٢٠٠ـ اللغة الشاعرة، ٣٨ـ٣٩ .

المجاز آيةالمواهب :

لما كان المجاز عبارة عن خروج اللفظ عن موطنه الاصلى، وعدم جريه على ما عيِّن له، كان لايُعرَف فيه القرار والاصطلاح، ولايمكن الاهتداءُ اليه والإجادة فيه بالتعلم والدرس . لان المجاز هو ثورة اللفظ على تلك الاجواء الضيقة التى خلقتها له القرارات والاصطلاحات، فكيف ينقاد اليها مرة اخرى . فهو يعتمد على الذوق والطبع، والبراعةُ فيه لاتعرف غيرهما، لانها ـ كما قال أرسطو ـ : ليست مما تتلقاه عن الغير بل هى آية المواهب الطبيعية، لان الإجادة فى المجازات معناها الاجادة فى ادراك الأشباه[٢٠١].

فالمجاز عصيان اللفظ على الوضع والاصطلاح، وتحطيم قيود القرارات والتحديدات، و وليد الأذواق والقرائح، فيتجلّى على أيدى مهرة البيان وأهل الخطابة والشعر، الذين يتوسعون فى الأساليب المعنوية، فينقلون الحقيقة الى المجاز . ولم يكن ذلك من واضع اللغة فى اصل الوضع ؛ و لهذا اختص كلّ منهم بشيء اخترعه فى التوسعات المجازية .

هذا امرؤالقيس قد اخترع شيئا لم يكن قبله، فمن ذلك انه اول من عبّر عن الفرس بقوله «قيدالاوابد» وقال :

وقد أغتدى والطيرُ فى وكُناتها بمُنجرِدٍ قيدِ الأوابِدِ هيكلِ

ولم يُسمع ذلك لاحد من قبله .

و روى عن النبى (ص) انه قال يوم حُنين : «الآن حَمِيَ الوطيسُ»، أراد بذلك شدة الحرب، فان الوطيس فى أصل الوضع هو التنّور ، فنقل

٢٠١ـ فن الشعر، ٦٤ .

الى الحرب مجازا، ولم يُسمع هذا اللفظ على هذا الوجه من غير النبى (ص)[٢٠٢].

اللفظ بين الحقيقة والمجاز :

اعلم انهم اختلفوا فى وقوع الحقيقة والمجاز، فذهب بعضهم الى ان اللغة كلها حقيقة وأنكروا ورود المجاز فى القرآن وغيره[٢٠٣]. نُقل عن الاستاذ ابى اسحاق الاسفرائنى القول بنفى المجاز فى اللغة.

وحجته ان المجاز على ما يصفه من يقول به يستدعى منقولا عنه متقدما ومنقولا اليه متأخرا، وليس فى لغة العرب تقديم وتأخير بل كلّ زمان قُدّر أن العرب قد نطقت فيه بالحقيقة فقد نطقت بالمجاز، لان الاسماء لاتدل على مدلولاتها لذاتها، اذ لا مناسبة بين الاسم والمسمى فجَعْلُ هذا حقيقة و ذلك مجازا ضربٌ من التحكم وترجيح بلا مرجّح، فإن الاسد مثلا كما وضع للسبع وضع للرجل الشجاع[٢٠٤].

ويقال ايضا فى الاحتجاج على انكار المجاز : ان افادة اللفظ للمعنى المجازى اما بواسطة القرينة المخصوصة أو بدونها. فان أفاد المعنى بالقرينة كان اللفظ فيه حقيقة، لان اللفظ لايفيد خلافه مع القرينة، فلايصح عده مجازا، وبدون القرينة لايفيد . فحصل ان اللفظ لايكون مجازا لا مع القرينة ولا مع عدمها[٢٠٥].

ذهب بعض آخر الى ان اللغة كلها مجاز وأن الحقيقة غير محققة فيها[٢٠٦].

٢٠٢- المثل السائر ١/٦١.
٢٠٣- الطراز ١/٤٤.
٢٠٤- المزهر، ١/٢١٤.
٢٠٥- الطراز ١/٧٣-٧٤.
٢٠٦- المصدر السابق ١/٤٤.

يرى ابن جنى أن اكثر اللغات مجاز يظهر ذلك بالتامل، فعامة الأفعال مثل قام زيد وقعد عمرو، وانطلق بشر، وجاء الصيف، وانهزم الشتاء مجاز عنده . ويستدل على رأيه بأنّ الفعل يفاد منه معنى الجنسية، فاذا قيل : قام زيد، فمعناه : كان منه القيام، اى هذا الجنس من الفعل . ومعلوم انه لم يكن منه جميع القيام، لانه من المحال ان يجتمع لانسان واحد جميع أنواع القيام الداخلة تحت الوهم . فاذا كان كذلك علمت ان «قام زيد» مجاز لاحقيقة، وانما هو على وضع الكل موضع البعض للاتساع والمبالغة وتشبيه القليل بالكثير .

ويدل على ان الفعل يفيد معنى الجنس ويتناول جميع أجزائه، اننا نقول : قمت قومةً، وقومتين، ومائة قومةٍ، وقياماً حسناً وقياماً قبيحاً، وقال مجنون ليلى :

فقد يجمعُ اللهُ الشتيتَيْنِ بعدَ ما يظنّانِ كلَّ الظنِّ أنْ لاتلاقِيا

فإعمالنا للفعل فى هذه الاجزاء، فى بعضه أو كله يدل على ان الفعل صالح بحسب الوضع لان يتناول جميع اجزائه .

وكذلك قولك : «ضربت زيدا» فهو مجاز من جهة الفعل، ومن جهة المفعول ايضا . اما من جهة الفعل، فلأنك انما فعلت بعض الضرب لاجميعه. واما من جهة المفعول فلأنك انما ضربت بعض جسمه، مثل يده، او اصبعه، اوناحية اخرى من جسده . ولهذا اذا احتاط الانسان واستظهر جاء ببدل البعض، فقال : ضربت زيدا وجهه او رأسه[٢٠٧].

والتحقيق أن انكار الحقيقة فى اللغة افراط، كما ان انكار المجاز

٢٠٧- راجع الخصائص ٤٤٧/١-٤٥٠ .

٢٠٨- الطراز ٤٤/١ .

تفريط[٢٠٨]، واللغة مشتملة على الحقيقة والمجاز كليهما[٢٠٩].

توارد الحقيقة والمجاز على لفظ واحد :

الالفاظ والكلمات خاضعة لنواميس التطور والارتقاء، فهي تحيى و تعيش، وتتطور وتزدهر ثم تموت . فعلى هذا انها لاتجمُد أبدا على حالة واحدة بل تتحول وتتغير، فما كان حقيقة في معنى ٍ اليوم َ يمكن أن يُصبح استعماله غداً في ذلك المعنى مجازاً وبالعكس، ولهذا يقال : «فالحقيقة متى قلّ استعمالها صارت مجازا عرفا، والمجاز متى كثر استعماله صار حقيقة عرفا»[٢١٠]. وايضا ان الشيخ يرمز الى هذا التطور في تعبيره عن المجاز بقوله : «كلّ كلمة جُزْتَ بها ما وضعت له في وضع الواضع الى ما لم توضع له، من غير ان تستأنف فيها وضعا ...»[٢١١].

فهو ـ كما ترى ـ يشترط لاعتبار المجاز في اللفظ ان لايستأنف فيه وضع آخر اي لا يتفق الناس على استعماله في معنى جديد لانه اذا استؤنف فيه وضع آخر أصبح استعمال اللفظ في المعنى الجديد حقيقة لامجازا .

فعبد القاهر ـ وكذا البلاغيون الآخرون ـ لم يتجاهلوا تطور الدلالة على مرّ العصور، ولم يحطّوا من شأنه، ولم يفرضوا ان اللفظ يتجمد إزاء معنى واحد ولايتعداه . فهم راعوا ذلك التطور والتغيير، فاعتبروه مرة حقيقة واخرى مجازا[٢١٢].

٢٠٩ـ المزهر ٢١٣/١ .

٢١٠ـ المصدر نفسه ٢١٦/١ .

٢١١ـ اسرار البلاغة، ٣٩٨ .

٢١٢ـ راجع الصور البيانية، ٢١٣ـ٢١٥ .

فالحقيقة والمجاز يمكن تواردهما على لفظ واحد، أمّا باعتبار المعنيين فهو ظاهر ولايتعلق به غرضنا ههنا، وأمّا باعتبار المعنى الواحد فهو يرجع الى وضعين، كاللفظ الموضوع فى اللغة لمعنى وفى الشرع او العرف لمعنى آخر، فيكون استعماله فى احد المعنيين بالنسبة الى ذلك الوضع حقيقة، وبالنسبة الى الوضع الآخر مجازا[٢١٣].

الفرق بين الحقيقة والمجاز :

تُعرَف الحقيقة من المجاز بطرق مختلفة :

منها ــ تبادر الذهن الى فهم المعنى الحقيقى لولا القرينة .

ومنها ــ ان الحقيقة تصرّف بتثنية وجمع واشتقاق بخلاف المجاز، و ذلك مثل كلمة «امر» فاذا استعملت فى القول يقال فيها : هذان أمْرانِ ، وهذه أوامِرُ الله وأوامِرُ رسوله، وأمَرَ يأمُر أمراً فهو آمِرٌ .

واذا استعملت فى الحال والشأن والافعال، صارت عارية من هذه الاحكام .

ومنها ــ عدم صحة النفى، فلايصح ان يقال للحيوان المفترس : هذا ليس بأسد . بخلاف المعنى المجازى، فانه يصح نفى الاسد عن الرجل الشجاع .

ومنها ــ تقوية الكلام بالتأكيد، فانها من علامات الحقيقة دون المجاز لان أهل اللغة لايقوّون المجاز بالتاكيد، فلايقولون: أرادَ الجدارُ إرادةً ولا قالت الشمسُ قولاً .

ومنها ــ الاطّراد فيما يدل عليه الكلمة، لان الحقيقة اذا وضعت

٢١٣ــ المزهر ٢١٦/١ .

لافادة شيء وجب اطرادها، والا كان ذلك ناقضا للغـــة . فامتناع الاطراد فيها يدل عليه الكلمة من دلائل المجاز، و ذلك كتسمية الجَدّ أباً وابـــنِ الإبنِ ابناً، فانها لاتطرد[٢١٤].

اقسام المجاز :

ينقسم المجاز فى المرحلة الاولى الى قسمين، لان المعتبر فى معرفــة خروج اللفظ عن مجراه الاصلى، وعدم استقراره فى موطنه الطبيعى إمـــا الوضع والاصطلاح فيسمى لغويا ، اوالعقل فيسمى عقليا .

١ــ المجاز اللغوى : هو استعمال اللفظ فى غير ما وضع له لعلاقـــة مع قرينة مانعة عن ارادة المعنى الحقيقى، وان شئت قلت : خروج اللفظ عن مجراه الاصلى من حيث معناه الذى عيّن له فى اللغة والاصطلاح لغرض . و ذلك كقول النبى (ص) : «الآن حَمِيَ الوطيسُ» اراد بـذلك شـــدة الحرب، فاستعمال الوطيس فى الحرب مجاز، لانه لم يسمع من اهل اللغــة استعمال الكلمة فى هذا المعنى والقرارُ عليه . والنبى (ص) اول من عبّر عن الحرب بالوطيس .

فالمجاز اللغوى إما مفردٌ او مركبٌ ، وكـل منهـما إمّا مجـازٌ استعارىٌ أومجازٌ مُرْسَلٌ . فاقسام المجاز اللغوى اربعة :

١ــ مفرد استعارى .

٢ــ مركب استعارى .

٣ــ مفرد مرسل .

٤ــ مركب مرسل .

٢١٤ــ راجع جمع الجوامع ١/١٨٤م والمزهر ١/٢١٢ .

والمعتبر فى تقسيم المجاز اللغوى الى الاستعارى والمرسل كيفية العلاقة بين المعنى الاصلى والمجازى، فاذا كانت تلك العلاقة عبارة عن المشابهة فى شىء او صفة سُمّىَ المجاز استعاريا، وسيأتى الكلام عليه فى فصل يخصّه لأهميته .

واما اذا كانت العلاقة غير المشابهة فان المجاز حينئذ يسمى مرسلا، لاسترساله وعدم تقيده بعلاقة خاصة[٢١٥].

فالعلاقة فى المجاز المرسل مفرداً او مركباً كثيرة، نأتى فيما يلى بما هو معروف منها :

١ــ الكلية والجزئية، كقولك فى تسمية الكل بالجزء : نشَرت الحكّامُ الجائِرون عيونَهم فى الشوارع والأحياء والأسواق، محافظةً على عروشهم المتزلزلة بالكبتِ والإرهاق . فسمى الجواسيس بالعيون تسمية للكل باسم جزئه .

وشرطها ان يكون لذلك الجزء مزيد اختصاص بالمعنى الذى قصد بالكل، فلهذا لايصح إطلاق اليد اوالأصبع على الجاسوس[٢١٦].

واما تسمية الجزء بالكل فكقوله تعالى : «يجعلُون أصابعَهم فى آذانِهم مِنَ الصَّواعق حذرَ الموتِ »[٢١٧] فالمراد من الأصابع الأنامل التى هى أجزاء من الأصابع .

ومنها قولهم : له الفُ رأسٍ من الغنمِ .

٢ــ السببية والمسببيّة ـ اما تسمية السبب بالمسبب، فكقوله تعالى:

٢١٥ــ حاشية الدسوقى ٢٩/٤ .

٢١٦ــ راجع المختصر، ٣/٣٥ــ٣٦ .

٢١٧ــ البقرة، ١٩ .

«يُنَزِّل لكم من السماء رِزقا»[218] اى المطر الذى هو سبب للرزق .

وقوله ايضا: «إنّما يأكلُون فى بطونِهم ناراً»[219] فعبَّر عن أكل الحرام بالنار التى تُنشأ منه .

وقوله : «فاذا قرأتَ القرآنَ فاستَعِذْ باللهِ »[220] اى اردت القراءة.

ومنها قولُهم : امطرت السماءُ نباتاً .

واما تسمية المُسبَّب بالسبب، فكقوله تعالى : «فمن اعتدى عليكم فاعتدُوا عليه بمِثْلِ ما اعتدى عليكم»[221] سمى جزاء الاعتداء اعتداء ، لانه مسبب عن الاعتداء .

وقوله ايضا : «وجزاءُ سيّئةٍ سيّئةٌ مثلها»[222] فعبر عن الاقتصاص بالسيئة لتسببه عنها .

وقال الشاعر :

اكلتُ دماً إنْ لم أرُعْكِ بضَرَّةٍ

بعيدةِ مهوى القُرْطِ طيّبةِ النّشرِ

اراد من الدم الدية التى هى مسببة عن الدم[223].

٣ــ الحالية والمحلّية ــ اما تسمية الحال باسم محله، فكقوله تعالى: «فليدع نادية»[224] . اى اهل نادية «فالنادى» اسم لمكان الاجتماع

٢١٨ــ المؤمن، ١٣ .

٢١٩ــ النساء، ١٠ .

٢٢٠ــ النحل، ٩٨ .

٢٢١ــ البقرة، ١٩٤ .

٢٢٢ــ الشورى، ٤٠ .

٢٢٣ــ راجع الايضاح مع شروح التلخيص ٤/٣٨ــ٣٩ .

٢٢٤ــ العلق، ١٧ .

ومجلس القوم وقد اطلق على اهله الذين يحلّون فيه[٢٢٥].

ومنها قولك: سرَقَ اللّصُّ المنزلَ، تريد انه سرق ما في المنزل، و شربت كوباً مِن الشاي، اى شربت ما في كوب.

واما تسمية المحل باسم حاله، فكقوله عزشأنه: «واما الذين ابيضّتْ وجوهُهم ففى رحمةِ الله»[٢٢٦] اى فى الجنة التى هى محل الرحمة.

٤ـ اعتبار ما كان ـ كقوله عزّوجل: «وآتوا اليتامى اموالهم»[٢٢٧] سُمّىَ البالغون باليتامى، تسمية للشيء بالاسم الذى كان هو عليه فى الزمان الماضى.

وكما يقال: مِنَ الناس من يأكلُ القمح، و منهم من يأكل الذرةَ والشعيرَ، اى الخبز الذى كان فى الأصل قمحا او شعيرا او غيرهما.

٥ـ اعتبار مايكون ـ كقوله تعالى: «إنّكَ إنْ تَذَرْهُم يُضلّوا عبادَكَ، ولاتَلِدوا الا فاجراً كفاراً»[٢٢٨]. سمى المولود بالفاجر تسمية للشيء بما يؤول اليه فى المستقبل مجازا، لان المولود لايتصف حين الولادة بالفجور اوالكفر.

وقوله ايضا: «إنّى أرانى أعصِرُ خمراً»[٢٢٩] اى عنبا يؤول بعد العصر الى الخمر.

٥ـ الآليّة ـ كقوله تعالى: «وما أرسَلْنا مِنْ رسولٍ الاّ بلسانِ قومه»[٢٣٠]، اى بلغة قومه، فعبر عن اللغة باللسان الذى هو آلة لها.

٢٢٥ـ المواهب ٤/٤١.
٢٢٦ـ آل‌عمران، ١٠٧.
٢٢٧ـ النساء، ٢.
٢٢٨ـ نوح، ٢٧.
٢٢٩ـ يوسف، ٣٦.
٢٣٠ـ ابراهيم، ٤.

وتقول : هو كاتب" له قلم" بليغ، تريد من القلم كلامه، فسميت الكلام باسم آلته .

٦ـ المجاورة ـ قال عنترة :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه   ليس الكريم على القنا بمحرم

اراد قلبه او صدره، فعبّر عنه بالثياب تسمية للشيء باسم مجاوره .

فهذه الأمثلة كلها من باب المجاز المرسل في المفرد، واما مثال المرسل في المركب فكقول جعفر بن علبة الحارثي :

هَوايَ معَ الرّكبِ اليمانينَ مُصْعِدُ

جنيبٌ و جُثماني بمكةَ مُوثَقُ

فهذا المركب موضوع للاخبار بمفارقة المحبوب، ولكن الغرض منه اظهار التحزن والتحسر اللازم لذلك الاخبار[٢٣١].

وقال حارث بن وعلة :

قومي هم قتلوا ـ أميمَ ـ أخي   فاذا رميتُ يصيبني سهمي

اراد التحزن والتفجع اللازم لهذا الاخبار، لأن اميمة عالمة بان القاتلين لأخيه قومه .

وكقوله تعالى حكاية عن زكريا (ع) : «رب إني وهن العظم مني»[٢٣٢].

وقوله ايضا : «هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟»[٢٣٣]

٢٣١ـ المطول، ٣٠٩، وحاشية عبدالحكيم ٥٠٥ .

٢٣٢ـ مريم، ٤ .

٢٣٣ـ الزمر، ١٩ .

فالمراد فى الاول اظهار الضعف والتخشع، وفى الثانى تحريك حمية الجاهل[٢٣٤].

المجاز فى ادوات الاستفهام و صيغ الامر والنهى :

اعلم ان استعمال ادوات الاستفهام فى معانى مثل الاستبطاء والتعجب والنفى، وكذا صيغ الأمر والنهى فى غير معناهما كالتهديد والتعجيز والإهانة، يُعَدّ مجازا الاّ انّ تحقيق كيفية هذا المجاز وبيان انه من ايّ نوع من أنواعه مما لم يحُم احد حوله، كما قال التفتازانى[٢٣٥].

وعلّل السيد فى حواشى المطول ترك المسألة من جانب القوم، بصعوبة بيان علاقة المجاز وكيفية المناسبة المجوّزة له، ثم قام نفسه ببيان هذه العلاقة فى اكثر استعمالات ادوات الاستفهام فى غير معناها . ويرجع خلاصة ما ذكره الفاضل المحشى الى أن نوع المجاز مرسل، وأن العلاقة عبارة عن الاستلزام[٢٣٦].

ويرى عبدالحكيم السيالكوتى أن استعمال أدوات الاستفهام فى غير معناها ليس مجازا دائما، بل هو متردد بين المجاز والكناية ومستتبعات الكلام . فقال فى بيان «ما لِيَ لا أرى الهُدْهُدَ» :

عدم الرؤية قد يكون لحال فى جانب الرائى، وقد يكون لحال فى جانب المرئى، فقوله : «مالى لا ارى الهدهد ؟» ان كان استفهاما عن حال فى جانب الرائى يوجب عدم الرؤية، فالاستفهام لا يمكن حمله على حقيقته اذ لامعنى للاستفهام عن حال نفسه، فهو مجاز عن التعجب .

٢٣٤ــ راجع المطول، ٣٥ــ٣٦ .
٢٣٥ــ راجع المطول، ٢٣٥ .
٢٣٦ــ راجع حاشية السيد على المطول، ٢٣٥ .

وان كان استفهاما عن حال فى جانب المرئى يوجب عدم الرؤية كالساتر، فيجوز ان يكون الاستفهام على حقيقته.

فان قصد منه التعجب ويكون ارادة المعنى الحقيقى لمجرد التصوير والانتقال كان كناية، وان قصد منه المعنى الحقيقى مع التعجب كان التعجب من مستتبعات الكلام.

ثم أضاف: وبما ذكرنا ظهر الجمع بين كون الاستفهام على حقيقته و كونه للتعجب[٢٣٧].

بقيت ههنا نكتة وهى بيان نوع المجاز، بمعنى انه هل مفرد او مركب؟ فالظاهر من كلامهم أنه يُعدّ من المجاز المفرد، ولكن لا أرى منعا فى حمله على المجاز المركب ايضا*، كما رأيت فى قوله تعالى: «هل يستوى الّذين يعلَمُونَ والّذينَ لايَعْلَمُونَ».

وفى ختام البحث عن المجاز المرسل لابأس ان يُعْرَف أن السكاكى وابن الاثير لم يأتيا بعنوان «المرسل» لهذا القسم من المجاز، بل جاء السكاكى بموارده تحت عنوان المجاز المفيد والمجاز الخالى عن الفائدة[٢٣٨]. واما ابن الاثير فانه يَرُدُّ مواردَه الى قسم سمّاه بالمجاز فى التوسع[٢٣٩].

٢ـ المجاز العقلى:

المجاز العقلى هو اسناد الفعل الى غير ما هو له لعلاقة، وان شئت قلت: خروج اللفظ عن مجراه الأصلى من حيث الرابطة او النسبة التى وقعت

٢٣٧ـ حاشية عبدالحكيم، ٣٥٩.

٢٣٨ـ المفتاح، ١٧٢.

٢٣٩ـ المثل السائر ٢٥٦/١.

* وان كان الاستفهام لطلب التصور دون التصديق.

بين الكلمات، و ذلك كأن يقال : جدّ جدُك .

اذا تأملت فى هذا الكلام عرفت انه لم يجر مجراه الحقيقى، لان الجدّ لا يصلح لان ينسب اليه فعل الجدّ . ولاشك ان هذه المعرفة لم تتأتّ من ناحية اللغة و وضعها، بل الحاكم هنا هو العقل، ولهذا يُسمى بالمجاز العقلى.

وليس من واجبات هذا المجاز ان يكون مكانُ الحكم الأصلى معلوما بنفس العقل مثل المثال المتقدم، بل اذا استعان العقل فى معرفة الحكم بشىء آخر غير الوضع جاز ولم يخرجه عن كونه عقليا، كما اذا قلت: هزمَ الأميرُ الجندَ. فالعقل هنا يحكم باستعانة العادة انّ الامير لا يهزم الجند بنفسه[٢٤٠].

لما كان المجاز العقلى راجعا الى الرابطة والنسبة بين الكلمات كان من الطبيعى ان لا يتحقق الا فى المركبات .

وجدير بالذكر ان النسبة التى توصف بالمجاز اعم من ان تكون تامة او ناقصة كما فى المركبات الاضافية، واعم من ان تتحقق بين الفعل والمفعول والسبب والزمان والمكان والمصدر، او بين ما فى معنى الفعل معها .

فالنسبة تكون مجازا عقليا فى الموارد الآتية :

١ـ نسبة الفعل ومعناه الى المفعول حال كونهما مبنيين للفاعل، و ذلك كأن تقول : بَرِى القلمُ . والاصل برى الكاتبُ القلم، لكن تُسْنِدُ الفعل المبنى للفاعل الى المفعول اشارة الى ان القلم للينته كانه يساعد على عمل البرى .

ومثل ما يقال : «عيشةٌ رَضِيَتْ» و «عيشةٌ راضيةٌ» .

فالرّاضى فى الاصل الشخص لا العيشة .

قال الحطيئة :

٢٤٠ـ المفتاح، ١٨٦ .

دعِ المكارمَ لا ترحلْ لبُغيتِها
واقعُدْ فإنّكَ أنتَ الطاعمُ الكاسى

اراد انت المطعوم والمكسوّ . واصل النسبة هكذا : فانك الناسُ طاعمك وكاسيك، فأسند الوصف الى المفعول على سبيل التهكم، او للإشارة الى ان المفعول يُبْرِز نفسه فى معرض الفاعل .

٢ــ نسبة الفعل ومعناه الى الفاعل حال كونها مبنيَيْن للمفعول ، نحو : صاحبُ العشيةِ رُضىً . والمرضىّ فى الاصل العيشة لا صاحبها، لكن اسند الفعل المجهول الى الفاعل قصدا للمبالغة فى الرضاء ، لانه اذا كان الشخص مرضيا للعيشة كانت تستلم له وتدور معه، فكأنما خلقت له وخلق لها، فيحصل التراضى من الجانبين .

وجاء فى القرآن الكريم : «واذا قرأتَ القرآنَ جعلنا بينكَ و بين الذين لا يؤمنون حجاباً مستوراً»[٢٤١].

والمستور فى الاصل القرآن او الرسول لا الحجاب الساتر، لكن اسندت الصفة الى الفاعل وهو الحجاب، مبالغة فى انه حجاب يستر أنْ يُبصَر فكيف يُبْصر المحتجبُ به، كما قال الزمخشرى[٢٤٢].

٣ــ نسبة الفعل ومعناه الى السبب، نحو قوله تعالى : «يُذبّح ابنائَهم»[٢٤٣].

والمُذبّح فى الحقيقة أعوان فرعون لا نفسه، لكن اسند الفعل اليه اشارة الى انه هو السبب لتلك الجريمة .

٢٤١ــ الاسراء، ٤٥ .
٢٤٢ــ الكشاف ٢/٢٦٣ .
٢٤٣ــ القصص، ٤ .

وكقوله ايضا : «فما رَبِحَتْ تجارتُهم»[٢٤٤] والرابح فى الاصل هو اصحاب التجارة، فاسند الفعل الى السبب مجازا تحقيرا لشأنه وتاكيدا على الخسران الناشىء منه .

وكقولك : هذا سيفٌ قاتِلٌ .

والقاتل هو الشخص، لكن اسندت الصفة الى السبب وهو السيف مبالغة فى شأنه .

وكقول عمرو بن العاص فى ذكر الكلمات التى استحسنها . هُنَّ مُخْرِجاتى مِنَ الشام»[٢٤٥].

٤ـ نسبة الفعل ومعناه الى المصدر، اى المفعول المطلق[٢٤٦]، نحو : عظمَتْ عظمتُه وصالَتْ صولتُه .

والفاعل فى الحقيقة صاحب العظمة والصولة، لكن اسند الفعل اليهما للمبالغة .

وكما يقال : شِعرٌ شاعرٌ .

٥ـ نسبة الفعل ومعناه الى الزمان، كقول طرفة بن العبد :

ستُبدى لكَ الايامُ ما كنتَ جاهلاً
و يأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لم تزوّدِ[٢٤٧]

اراد ان الحوادث التى تقع فى الأيام تبيّن للانسان ما يجهله، لكن

٢٤٤ـ البقرة، ٦ .

٢٤٥ـ اسرار البلاغة، ٤٣٣ .

٢٤٦ـ حاشية عبدالحكيم، ٢٣ .

٢٤٧ـ اخذت بعض هذه الامثلة من كتاب البلاغة الواضحة، ١١٩ .

اسند الفعل الى الزمان الذى توطّنت النفسُ على وقوعه، ليطمئن السامع على ان الخبر واقع .

جاء فى القرآن الكريم : «يوم يجعلُ الوِلْدانَ شيبا»[٢٤٨].

وكما يقال : يومٌ عاصِفٌ .

فاليوم لا يكون عاصفا، وانما العاصف الريح التى تعصف فيه، فاسندت الصفة الى الزمان مجازا .

٦ــ نسبة الفعل ومعناه الى المكان، كقوله تعالى : «واخرجَتِ الارضُ أثْقالَها»[٢٤٩].

والاخراج فى الحقيقة ليس فعل الأرض، لكن نسب اليها تجسيما للتسريع فى العمل، واشارة الى درجة انقياد الأرض فى عملية هذا الإخراج، فكأن نفسها هو المُخْرِج للاثقال .

وكما يقال : ذلك نهرٌ جارٍ . وتلك حديقةٌ غَنّاءُ .

ففى الحقيقة ان الجارى ماءُ النّهر وان الغَنّاء طيور الحديقة اوذبابُها، لكن اسندت الصفة فى المثالين الى المكان مبالغة فى الجرى والغنّ .

٧ــ نسبة الخبر الى المبتدأ الخارجةُ عن موضعها، نحو: زيدٌ أسدٌ، وانما هى اقبالٌ وادبارٌ .

قالت الخنساء :

تَرْتَعُ ما رتَعَتْ، حتّى اذا ذَكَرتْ
فإنّما هى إقْبالٌ و إدْبارُ

فالحكم بالاتحاد بين زيد و اسد، وكذا بين الناقة والاقبال والادبار

٢٤٨ــ المزمل، ١٧ .

٢٤٩ــ الزلزال، ٢ .

خارج عن موضعه فى العقل[٢٥٠].

قال الشيخ فى دلائل الاعجاز : ومما طريق المجاز فيه الحكم قول الخنساء : «وترتع ... البيت» . و ذلك انها لم تُرِدْ بالاقبال والادبار غيرَ معناهما فتكون قد تجوّزت فى نفس الكلمة، وانما تجوّزت فى أنْ جعلتها لكثرة ما تُقبِل وتُدْبِرُ، ولغلبة ذاك عليها واتصاله بها، وانه لم يكن لها حالٌ غيرهما، كانها قد تجسّمت من الإقبال والإدبار[٢٥١].

فالظاهر من كلام الشيخ هنا ومن كلامه فى اسرار البلاغة فى تعريف المجاز العقلى حيث يقول : «ان كلَّ جملة أخرجتَ الحكم المفاد بها عن موضعه فى العقل لضرب من التأويل فهى مجاز»[٢٥٢] هو ان النسبة المتصفة بالحقيقة او المجاز تشمل نسبة الخبر الى المبتدأ ايضا . فحصرُها فى نسبة الفعل او معناه الى ملابساته، واخراجُ النسبة الواقعة بين المبتدأ والخبر من الاتصاف بالحقيقة او المجاز كما فعله الخطيب القزوينى، تعسف[٢٥٣].

تلك أمثلة كانت للمجاز العقلى فى النسبة التامة، و اما المجاز العقلى فى النسبة الناقصة فكقوله تعالى : «وانْ خِفتُم شقاقَ بينهِما»[٢٥٤] و «مكرُ الليلِ والنهارِ»[٢٥٥].

واصل الكلام هكذا : وان خفتم شقاق الزوجين فى الحالة الواقعة

٢٥٠ـ راجع عبدالحكيم، ١٢٣ .

٢٥١ـ دلائل الاعجاز، ٢٣٣ .

٢٥٢ـ اسرار البلاغة، ٤٣٠ .

٢٥٣ـ التلخيص مع شروحه ٢٢٤/١، الايضاح على هامش شروح التلخيص ٢٤٦/١ .

٢٥٤ـ النساء، ٣٦ .

٢٥٥ـ سبأ، ٣٣ .

بينهما، ومكر الناس في الليل والنهار . فاضيف المصدر في الاول للمكان لان البين اسم مكان، وفي الثاني للزمان، فهو من اضافة المصدر لفاعله المكاني في الاول والزماني في الثاني[٢٥٦]. ولا يخفى ما في هذه الاضافة من تفخيم شأن الشقاق والمكر .

قال الشيخ في اسرار البلاغة : «ومما يجب أنْ يُعلَم في هذا الباب ان الاضافة في الاسم كالاسناد في الفعل، فكل حكم يجب في اضافة المصدر من حقيقة او مجاز فهو واجب في اسناد الفعل»[٢٥٧].

اجتماع المجاز العقلي مع اللغوي :

لما كان الاعتداد في المجاز العقلي بالنسبة و في اللغوي بالمعاني الموضوعة لها الالفاظُ ، جاز اجتماعهما في جملة لاختلاف موردهما . فاذا شبّهْتَ معنى بمعنى او صفة بصفة واستعَرْتَ لاحدهما اسم الآخر، ثم أثبتَّ حكما لما لا يصلح له، كان في كلّ واحد من الاثبات والمثبت مجاز . و ذلك كأن تقول لصاحبك : احيَتني رؤيتُك .

تريد آنستني وسرّتني ونحوهما، فقد جعلتَ الانس والمسرة الحاصلة بالرؤية حياةً اولا، ثم جعلتَ الرؤية فاعلة لتلك الحياة .

ومثلُه قولُ المتنبي :

ويُحيِي له المالَ الصَّوارمُ والقنا ويقتلُ ما يُحيي التبسمُ والجَدا

فالشاعر جعل الزيادة والوفور في المال حياة له، وتفريقه بالجود والعطاء قتلا له، ثم اثبت الحياة فعلا للصوارم والقتل فعلا للتبسم مع العلم

٢٥٦ـ الدسوقي ١/ ٢٤٠ .

٢٥٧ـ اسرار البلاغة، ٤٢٥ـ٤٢٦ .

بانه لايصح منهما هذه الافعال[٢٥٨].

رجوع المجاز العقلي الى اللغوي :

لقد انكر السكاكي المجاز العقلي و رأى ان جميع موارده يرجع الى المجاز اللغوي . فجعل المنسوب اليه في تلك الموارد مستعملا في غير معناه ادعاء على سبيل الاستعارة المكنية، وهي ان يُذْكَر المشبهُ ويراد منه المشبه به بواسطة قرينة، وقال :

«والذي عندي هو نظم هذا النوع ـ اعني المجاز العقلي ـ في سلك الاستعارة بالكناية، بجعل الربيع* استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقي بواسطة المبالغة في التشبيه على ما عليه مبنى الإستعارة كماعرفت، وجعل نسبة الإنبات اليه قرينة الاستعارة .

وبجعل** الامير المُدبّر لأسباب هزيمة العدوّ استعارةً بالكناية عن الجند الهازم، وجعل نسبة الهزم اليه قرينة للاستعارة»[٢٥٩].

واعترض الخطيب القزويني على نظرية السكاكي هذه، و ذكر في نقضها وجوها لاتُمرّ ولاتحلى، ومن أراد الوقوف عليها فليراجع الايضاح والتلخيص مع شروحه[٢٦٠].

وتبع السكاكي في الإنكار للمجاز العقلي وارجاعه الى اللغوي صاحبُ «الطراز» ، غير انه يعدّه من المجاز المركب الذي يفسره هكذا :

٢٥٨ـ اسرار البلاغة، ٤١٩ .

٢٥٩ـ المفتاح، ١٨٩ .

٢٦٠ـ شروح التلخيص على هامشه الايضاح ١/٢٦٦ـ٢٧١ .

* اى في نحو : انبت الرّبيع البقل .

** اى في نحو : هزم الامير الجند .

«وحاصل الامر في ذلك هو ان يستعمل كلّ واحد من الالفاظ المفردة في موضوعه الاصلي، لكن المجاز انما حصل في التركيب لاغير، وهذا كقوله :

أشابَ الصغيرَ و أفنى الكبيرَ كرُّ الغداةِ و مرُّ العشيّ

فكل واحد من هذه الالفاظ المفردة فيما ذكرناه مستعمل في موضوعه الاصلي، لكن انما جاء المجاز من جهة اسناد الإشابة والإفناء الى كرّ الغداة والى مرّ العشي، وهو غير مطابق لما عليه الحقيقة . فان الإشابة والإفناء انما يحصلان بفعل الله لا بكرّ الغداة ولا بمرّ العشي»[٢٦١].

فهذا العالم الجليل مع اعترافه بان المجاز في امثال هذه المركبات جاء من جهة اسناد الشيء الى غير ما هو له، جعله لغويا وقال :

«اعلم ان هذه المجازات المركبة التي ذكرناها ومثلناها كلها مجازات" لغوية استعملت في غير موضوعاتها الأصلية»[٢٦٢].

ثم وجّه نظريته بما لايخلو من التعسف، وهو ان صيغ المنسوب او المسند في الامثلة التي ذكرها لهذه المجازات المركبة لم تستعمل في موضوعاتها، لانها وضعت في اللغة لان يسند الى الفاعل القادر لا الى غيره.

ويمكن بيان نظرية السكاكي وصاحب الطراز هكذا :

١ـ المجاز العقلي ـ مجاز مفرد لغوي عند السكاكي، ولكنه مركب لغوي عند صاحب الطراز .

٢ـ ان المستعمل في غير معناه الحقيقي هو المنسوب اليه عند السكاكي، واما عند صاحب الطراز فهو عبارة عن نفس المنسوب . ف

٢٦١ـ الطراز ٧٤/١ .

٢٦٢ـ المصدر نفسه ٧٥/١ .

«الإشابة» مثلا وضعت فى اصل اللغة لصدورها من القادر الفاعل، فاذا اسندت الى غيره لم تقع فى موقعها .

اطلاق آخر للمجاز العقلى :

قد عرفت ان المجاز العقلى هو المركب الذى أخرج الحكم المفاد به عن موطنه فى العقل لعلاقة، وهذا المعنى هو المتبادر منه عند الاطلاق .

غير انه قد يطلق ويراد به المجاز الواقع فى الكلمة المستعملة فى غير معناها لعلاقة المشابهة، كأن تقول : دخلتْ شرارةٌ فى قلبى مِنْ سماعِ ذلك الخبرِ الهائلِ .

فيقال للشرارة المستعملة فى معنى الهمّ والحزن أنها مجاز عقلى، بمعنى ان المبَرِّرَ لاستعمال الكلمة فى غير معناها الحقيقى هو الادعاء الذى صيّر المشبه فردا من افراد المشبه به، فكأنه استعمل فى معناه الأصلى .

ولما كان هذا الادعاء راجعا الى التصرف فى امر عقلى، سمى ماجرت فيه هذه العملية مجازا عقليا لا لغويا، ولكن الجمهور لم يقولوا بهذه التسمية و ذهبوا الى ان استعمال اللفظ فى غير معناه لعلاقة المشابهة يسمى مجازا لغويا .

فعلم مما ذكرنا ان المجاز العقلى يطلق على أمرين : احدهما اسناد الشيء الى غير من هو له .

والثانى التصرف فى المعانى العقلية على خلاف ما فى الواقع[٢٦٣].

الملحق بالمجاز :

اعلم انه كثيرا ما نرى ان بعض اجزاء الجملة او الكلام لم يقع موقعه

٢٦٣– راجع المطول، ٢٨٨–٢٨٩، وحاشية الدسوقى ١/ ٥٨ .

ولم يحتفظ بما هو يستحقه، وجرى على شكل كان من حقه ان لايجرى عليه . فنرى في الجملة نوعا من التجوز والتوسع، ولكن ليس ذلك في اللغة ولا في الاسناد بل في حكم خاص للكلمة اكتسبته بمقتضى اصول وقواعد قررها أهل فن خاص .

قال الشيخ ... «اعلم ان الكلمة كما توصف بالمجاز لنقلك لها عن معناها كما مضى، فقد توصف به لنقلها عن حكم كان لها الى حكم ليس هو بحقيقة فيها»[٢٦٤].

ويُعرف هذا التغير عندهم بالمجاز في الحذف او بالمجاز في الزيادة، و ذلك لان سبب هذا التوسع يرجع إمّا الى الحذف نحو : واسالِ القرية[٢٦٥]، وجاء ربُّك[٢٦٦]. «فالحكم الاصلى لربك والقرية وهو الجرّ قد تغيّر في الاول الى الرفع وفي الثاني الى النصب»[٢٦٧].

وامّا الى الزيادة نحو ليس كمثله شيء . «فالحكم الاصلى لمثله هو النصب لانه خبر ليس وقد تغير الى الجرّ بسبب زيادة الكاف»[٢٦٨].

اما السكاكى فسمّى الاول المجاز بالنقصان والثاني المجاز بالزيادة ، ثم هو يعتقد ان اللفظ بعد الزيادة او النقص استعمل في غير ما وضع له، فغيّر معناه كما غير لفظه .

«وفيه نظر لان تغير المعنى واستعمال اللفظ في غير ما وضع له في هذا النوع من المجاز ممنوع»[٢٦٩].

٢٦٤ـ اسرار، ٤٥٧ .
٢٦٥ـ يوسف، ٨٢ .
٢٦٦ـ الفجر، ٢٢ .
٢٦٧ـ المطول، ٣٢٦ .
٢٦٨ـ المصدر نفسه، ٣٢٦ .
٢٦٩ـ المصدر نفسه، ٣٢٧ .

بلاغة المجاز :

لما كان الاصل فى اللفظ ان يجرى فى موضعه ويستقر فى موطنه، فإنه لايعدل عنه الا لأغراض ولطائف، منها :

١ـ ان الفاظ المجازات قد تكون اشد الفة واكثر أنسأ بها من كلمات الحقيقة، و ذلك لخفتها على اللسان والسمع . فمثلا ان كلمة «العين» المراد بها الربيئة ـ اى الرقيب ـ اخف على السمع واللسان، وأسهل لدى السامع والقارىء من الربيئة[٢٧٠].

جاء فى مقدمة تلخيص البيان : «لم يورد ـ الحكيم سبحانه ـ الفاظ المجازات لضيق العبارة عليه، ولكن لانها أحلى فى اسماع السامعين وأشبه بلغة المخاطبين»[٢٧١].

٢ـ انها قد تكون أصلح للقافية فى الشعر اوالسجع فى النثر[٢٧٢].
و ذلك كما مر فى قول الحطيئة :

دعِ المكارمَ لا ترحلْ لبغيتها
فاقعدْ فإنكَ انتَ الطاعمُ الكاسى

لعل اقتضاء القافية كان مما دعى الشاعر للعدول من «المكسو» الى الكاسى .

٣ـ افادة الايجاز الذى هو مقصد هام فى البلاغة، و ذلك فان قولنا: «بنو فلان يطأهم الطريق» أوجزْ من «بنو فلان يطأهم اهل الطريق» و كذا «قر المجلس» اقل مؤنةً مِنْ «قرّ أهلُ المجلِس» .

٢٧٠ـ علم البيان، ١٥٨، الطراز ٧٩/١ .
٢٧١ـ تلخيص البيان فى مجازات القرآن، ١٠ .
٢٧٢ـ الطراز ٧٩/١ .

٤ـ أنه من شأن المجاز أن يفخم عليه المعنى وتحدث فيه النّباهة والمبالغة، فان قوله : «فنام ليلى وتجلّى همّي» ليس حال المعنى وموقعه فيه كما اذا تركت المجاز وقلت : فنمتُ ليلى وتجلّى همّي . وكذا الحال في رأيتُ اسداً[٢٧٣].

٥ـ أن العبارة المجازية قد تنقل السامع عن خلقه الطبيعي في بعض الاحوال، فترى البخيلَ عند سماعها يسمح، والجبانَ يشجع، والطائشَ المتسرعَ يحكم . فاذا زالت تلك الحالُ العارضة عن السامع و رجع الى نفسه تجده نادما على ما كان منه من بذل مال او ترك عقوبة، او اقدام على امر مخوف، وهذا هو فحوى السحر الحلال، المستغنى عن إلقاء العصا والحبال[٢٧٤].

ولهذا قال القيرواني: «والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة، واحسن موقعا في القلوب والاسماع»[٢٧٥].

٦ـ انه قد يُتْرَكُ التعبيرُ بما يدل على المعنى الأصلي لما فيه من الثقل على النفس والرّوح، و ذلك لانه يحكي عن شيء موحش او مؤلم، فيُعْدَل الى ما يدل على شيءٍ يستأنس ويتفاءل به، و ذلك كتسمية اللّديغ بالسليم، والبريّة المُهْلكة بالمَفازة .

٧ـ انّ المجاز كما قال العقاد: «هو الأداة من أدوات التعبير الشعريّ، لانه تشبيهات وأخيلة وصُوَرٌ مستعارة واشارات ترمزُ الى الحقيقة المجرّدة بالأشكال المحسوسة، وهذه هي العبارة الشعرية في جوهرها

٢٧٣ـ دلائل الاعجاز، ٢٢٨ .

٢٧٤ـ المثل السائر ٦٣/١ .

٢٧٥ـ العمدة ٢٦٦/١ .

الاصيل»[٢٧٦].

٨ـ التوسعُ في اللغة وفتحُ آفاق جديدة من التعبير امام الشاعر او الأديب، فيستطيع ان يعبّر عن تجاربه واخيلته مهما كثرت وعظمت .

تلك أغراض يتضمنها المجاز، ويهدف اليها اللفظ الخارج عن مجراه الاصلي . وليس من واجبات المجاز ان تجتمع تلك الاغراض واللطائف في كل موردٍ من موارده، بل يجوز اجتماعها كما يجوز افتراقها. لكن ابن جني حينما قنص أغراضا كثيرة للمجاز بالفاظ قليلة كالاتساع والتوكيد والتشبيه ، رأى أن المجاز يدور معها جميعا وجودا وعدما، فقال : «و انما يقع المجاز ويُعدَل اليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهي : الاتساع والتشبيه والتوكيد . فان عدم هذه الاوصاف كانت الحقيقة البتة»[٢٧٧].

ثم اكدّ على نظريته هذه بانه جاء بامثلة كثيرة من المجاز وسعى في اثبات احتوائها على تلك الأغراض .

فمثلا ذكر في قوله تعالى : «وأدْخَلْناه في رَحْمتِنا»[٢٧٨] انه مجاز و فيه الأوْصاف الثلاثة .

اما السعة فلأنه كأنه زاد في أسماء المَحالّ والجهات اسما آخر و هو الرحمة .

واما التشبيه فلأنّه شبّه الرّحمة التي لم يصح دخولها بما يجوز ان يدخل فيه، فلذلك وضعت موضعه .

٢٧٦ـ اللغة الشاعرة، ٣٧ .

٢٧٧ـ الخصائص، ٢ ٤٤٢ .

٢٧٨ـ اللغة الشاعرة، ٣٧ .

واما التوكيد فلأنه اخبر عن العرض بما يخبر به عن الجوهر، ويعدّ هذا نوعا من التعالى بالعرض والتفخيم لشأنه، اذ صُيِّر الى حيِّز ما يُشاهَد ويُلمَس ويعاين[٢٧٩].

فاذا كان وجود جميع الأوصاف الثلاثة واجبا فی كل مجاز فمن البدهی أن المجاز عنده لايخلو على اى حال من التشبيه، ولذلك قال فی قوله تعالى: «وَاسْأَلِ القرية التی كنّا فيها»[٢٨٠] الذی يُعرَف بالمجاز فی الحذف، فيه المعانی الثلاثة.

اما الاتساعُ فلأنه استعمل لفظ السؤال مع مالايصح فی الحقيقة سؤاله.

واما التشبيه فلأنها شبّهت بمن يصح سؤاله لمّا كانَ بها ومؤلفاً لها.

واما التوكيد فلأنه فی ظاهر اللفظ إحالة بالسؤال على من ليس من عادته الإجابة. فكأنهم تضمنو لأبيهم عليه السلام انه ان سأل الجمادات والجبال أنبأته بصحة قولهم. وهذا تناه فی الخبر. اى لو سألتها لانطقها الله بصدقنا فكيف لو سألت من عادته الجواب[٢٨١].

الفصل الثالث فی الاستعارة

المراد منها:

وهی كما مرّ قسم من المجاز بُنِی على التشبيه، ويقال فی تعريفها:

٢٧٩ـ الخصائص، ٣ ٤٤٣.

٢٨٠ـ يوسف، ٨٢.

٢٨١ـ الخصائص، ٤٤٧.

استعمال اللفظ فى غير ماوضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى الاصلى والفرعى، مع قرينة مانعة عن ارادة المعنى الحقيقى[٢٨٢] . و ذلك كقول تعالى :

«كتابٌ أنزلناه إليكَ لتخرجَ الناسَ مِنَ الظلمات إلى النور»[٢٨٣].

اى من الضلالة الى الهداية .

وقول المتنبى لما قابله ممدوحه وعانقه :

فلم أرَ قبلى مَنْ مشى البَحرُ نحوَه

ولا رجلاً قامَتْ تعانِقُه الأُسْدُ

فاستعمال البحر والاسد فى الرّجل الممدوح استعارة، واسناد المشى والمعانقة إليهما قرينة .

واركان الاستعارة على ما قال الرّمانى[٢٨٤] ثلاثة :

١ـ المستعار منه، وهو المعنى المنقول عنه، اوالمعنى الأصلى .

٢ـ المستعار له، وهو المعنى المنقول إليه، اوالمعنى الفرعى. و يسمى المستعار منه والمستعار له طرفى الاستعارة، وهذان الطرفان لايذكران معا، بل يحذف احدهما دائما بحيث لايحتاج اليه فى التركيب الكلامى كما رأيت .

٣ـ المستعار، وهو اللفظ الدال على المعنى المنقول عنه .

ثم المستعار لايقع فى الجملة على صورة الخبر او ما ينوب منابه كالحال ،بل يأتى اما فاعلا، اومفعولا، او مجرورا، او مبتدأ .

ليست آراء القدماء ونظراتهم فى المراد من الاستعارة سواء ، إذ أن

٢٨٢ـ جواهر البلاغة، ٣٠٣ .

٢٨٣ـ ابراهيم، ١ .

٢٨٤ـ ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن، ٨٦ .

منهم من يقصد بها ما يتعارفه الناس في معنى العارية وان لم يكن طريق نقله التشبيه .

فهذا ابن قتيبة (٢١٣–٢٧٤) يعني من الإستعارة وضع كلمة مكان اخرى لعلاقة السببيّة او المجاورة او المشاكلة، و ذكر في امثلتها قول مُعَوِّد الحكماء ، معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب :

إذا سَقَطَ السَّماءُ بأرضِ قومٍ   رَعَيناهُ وإنْ كانوا غِضابا*

فعدّ السماء المستعمل في المطر بعلاقة السببية او المجاورة استعارة[285].

وقد حذا حذوه ابو بكر بن دريد (ـ ٣٢١ هـ، ف) فانه ذكر في باب الاستعارة قولهم «رَعَينا الغَيْث» وما هو أبعد من ذلك[286].

وقال الآمدي : (ـ ٣٧٠ هـ) : «وانما استعارت العرب المعنى لما ليس هو له اذا كان يقاربه او يناسبه او يُشبِهه في بعض أحواله، او كان سببا من أسبابه، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه»[287]. وفي ضوء هذا الرأي سمى استعمال المجلس في أهله بعلاقة المحلية استعارة في قول المهلهل :

نُبِّئْتُ أنَّ النَّارَ بعدكَ او قِدَتْ

واستَبَّ بعدكَ يا كليبُ المَجلِسُ[288]

وقال ابو هلال (ـ ٣٩٥ هـ) في تفسير الاستعارة : نقل العبارة عن موضع استعمالها في اصل اللغة الى غيره لغرض . ثم ذكر لها امثلة كثيرة منها قوله تعالى :

٢٨٥ـ تاويل مشكل القرآن، ١٠٢ .
٢٨٦ـ راجع اسرار البلاغة، ٤٤٢ .
٢٨٧ـ الموازنة، ١/ ٢٥٠ .
٢٨٨ـ اسرار البلاغة، ٢٤٣ .
* و روى البيت لجرير ايضا ، راجع ٢٤٧ من هذا الكتاب .

«ذَرْنى ومَنْ خلقتُ وحيداً»[٢٨٩] فالأصل : ذَرْ بأسى وعذابى.

وقول الشاعر :

إذا سقطَ السماءُ بأرضِ قومٍ رَعَيناه وإنْ كانوا غِضابا[٢٩٠]

ومنهم مَنْ يحصر آفاق الاستعارة على التعبير عن المعقول بالمحسوس، كما فعل اسامة بن منذر (٤٤٨-٥٣٠ ؟) فقال : «اعلم ان الاستعارة هو أنْ يُستعارَ الشيء المحسوس للشيء المعقول، كما قال الله تعالى : «لا تُظْلَمُونَ فتيلا»[٢٩١].

ومنهم مَنْ أراد من الاستعارة استعمال اللفظ فى غير ما وضع له بعلاقة المشابهة، فهؤلاء اما صرّحوا بهذه المشابهة كالقاضى الجرجانى (٣٦٦ هـ) فانه قال : «وانما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الاصل، ونقلت العبارة فجعلت فى مكان غيرها . وملاكها تقريب الشبه، و مناسبة المستعار له للمستعار منه، وامتزاج اللفظ بالمعنى، حتى لا يوجد بينهما منافرة، ولا يتبيّن فى احدهما إعراض عن الآخر»[٢٩٢].

وكالشيخ عبد القاهر الجرجانى (ف ٤٧٤) فانه صرّح فى مواضع متعددة من كتابيه القيّمين بأن مبنى الاستعارة التشبيه، فقال :

الف ـ «امّا الاستعارة فهى ضرب من التشبيه»[٢٩٣].

ب ـ «اعلم ان الاستعارة كما علمتَ تعتمد التشبيه أبدا»[٢٩٤].

٢٨٩ـ المدثر، ١١ .

٢٩٠ـ الصناعتين، ٢٧٢، ٢٧٦ .

٢٩١ـ البديع فى نقد الشعر، ٤١ .

٢٩٢ـ الوساطة بين المتنبى وخصومه، ٤١ .

٢٩٣ـ اسرار البلاغة، ٢٦ .

٢٩٤ـ اسرار البلاغة، ٦٣ .

ج ـ «فالاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره، وتجيء الى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه»[٢٩٥].

أولم يصرحوا بها، ولكن هناك أشياء تدل على انهم راعوا علاقة المشابهة في الاستعارة. و ذلك كما ترى الجاحظ (٢٥٥ هـ، ف) يعنى من الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره اذا قام مقامه، فهو لاينص على رعاية المشابهة بين الطرفين في هذه التسمية، لكنه لما طبّق مراده من الاستعارة على جعل المطر بكاء في قول الشاعر:

و طَفِقَتْ سحابَةٌ تغشاها تبكي على عِراصِها عيناها[٢٩٦]

علمنا ان الظاهر من كلامه هو رعاية المشابهة في الاستعارة.

وكما ترى الرماني (٢٧٤ هـ، ف) يكتفي في تعريف الاستعارة بقوله: «تعليق العبارة على غير ما وُضِعَت له في اصل اللغة على جهة النقل للإبانة»[٢٩٧]. فهو ايضا لايصرّح برعاية المشابهة في الإستعارة، ولكن نعلم أن المشابهة ملحوظة عنده في هذا التعليق. و ذلك لأن الرماني فرّق الاستعارة من التشبيه بأن ما كان من التشبيه بأداة التشبيه باق على اصله، لم يغير عنه في الاستعمال، بخلاف الاستعارة[٢٩٨]. فهو يرى أن الاستعارة مبنيّة على التشبيه الا انه لم يبق على اصله.

وكذلك ترى ابن المعتز (٢٩٦ هـ، ف) لايزيد على قوله في بيان المراد منها: «استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها، من شيء قد عرف

٢٩٥ـ دلائل الاعجاز. وفيه يشير الى ان من الاستعارة نوعا آخر وان كان الناس يضمونه الى الاول الا ان التحقيق هو غيره.

٢٩٦ـ البيان والتبيين ١٥٣/١.

٢٩٧ـ ثلاث رسائل، ٧٩.

٢٩٨ـ المصدر نفسه، ٧٩.

بها»[٢٩٩] كلمة او كلاما يدل على رعاية المشابهة في الاستعارة ، ولكنه لما عد الاستعارة في كتابه من اقسام البديع بلا شرط علمنا ان المشابهة معتبرة عنده فيها. فلو لم تكن معتبرة فيها لكانت الاستعارة حينئذ تساوي المجاز، وليس كلّ مجاز بديعا، فلم يصح عدّها بلاشرط في اقسام البديع[٣٠٠].

والدليل الآخر على رعاية المشابهة عند ابن المعتز، انه اورد امثلة كثيرة للاستعارة لايخلو واحد منها عن المشابهة .

فالاستعارة عند من يشترط بناءها على التشبيه لا تساوي المجاز، بل المجاز اعم منها، فكل استعارة عنده مجاز وليس كلّ مجاز استعارة .

والمذهب المرضي او الصواب عند الشيخ في هذا المقام هو ان تقتصر الاستعارة على نقل تشبيهي للمبالغة . وقال : «انا نرى كلام العارفين بهذا الشأن، اعنى علم الخطابة ونقد الشعر، والذين وضعوا الكتب في اقسام البديع يجري على ان الاستعارة نقل الاسم عن اصله الى غيره للتشبيه على حد المبالغة»[٣٠١].

الفرق بين التشبيه والإستعارة

لما كان المذهب المرضي هو بناء الاستعارة على التشبيه واتصالها به وجدنا من المناسب ان نشير الى الفرق بينهما واختلاف آفاقهما فنقول :

التشبيه والاستعارة يتفاوتان في الشكل والمعنى والمورد .

٢٩٩ـ البديع، ١٧ .

٣٠٠ـ راجع اسرار البلاغة، ٤٤٢ .

٣٠١ـ المصدر نفسه، ٤٤٢ـ٤٤٦ .

اما التفاوت فی الشكل فهو ان المشبه والمشبه به لايجتمعان فی الاستعارة ولايفترقان فی التشبيه، بمعنی انه يكتفی باحدهما فی الاستعارة كما مرّ بخلاف التشبيه . نعم، قد يحذف احد الطرفين فی التشبيه ايضا كقوله تعالی : «صمٌ بكمٌ عمیٌ فهم لايعقلون» الا ان الحذف لايتجاوز درجة التلفظ، ولهذا لايُستغنی عن المحذوف من حيث التركيب الكلامی .

وايضا ان المشبه به فی التشبيه يأتی موضع الخبر او ما هو فی حكمه، واما فی الاستعارة فهو يقع موقع المبتدأ، او الفاعل، او المفعول، او المجرور بالحرف او الاضافة[۳۰۲].

واما التفاوت فی المعنی فهو :

الف ــ ان التشبيه استعمال اللفظ فی ما وضع له واحتفاظٌ للمشبه والمشبه به معناهما الحقيقیَ، وكلّ ما يفعله التشبيه هو ربط الصلة بينهما . ولكن الاستعارة استعمال اللفظ فی غير ما وضع له، وبناءٌ علی تناسی التشبيه وتدميجُ احد الطرفين فی الآخر وجعلهما شيئا واحدا . ففرق بين ان يقول الشاعر :

وأسبلَتْ لؤلؤاً مِنْ نرجسٍ فسقت
وَرْداً ، و عضَّتْ علی العنّابِ بالبَرَد

وبين ان يقول : واسبلت دمعا كاللؤلؤ من عين كالنرجس ، و سقت خدا كالورد، وعضّت علی انامل كالعناب بأسنان كالبرد .

فالتشبيه اُقربُ الی تصوير الواقع، ولكن الاستعارةُ أمعَنُ فی الخيال لانها تطمس الأشياء طمسا وتستبدل بها أشباهها ، فالفتاة الباكية فی البيت لم تُمطِرْ من عينها دمعا كاللؤلؤ، بل أمطرت لؤلؤا. فالاستعارة اعظم شأنا

۳۰۲ــ اسرار البلاغة، ۳۷۰ــ۳۷۱ .

فى مواضع التهويل والتجسيم والتشخيص، وأجلّ قدرا من حيث ادعاء الاتحاد وافادة المبالغة. ولهذا نرى أنّ التشبيه اكثر شيوعا فى العصور «الاتباعيّه» التى يكون فيها الشعراء اقل جِـدّة فى الخيال واكثر انصياعاً لأحكام العقل والمنطق، وكانت الاستعارة اكثر شيوعا من التشبيه فى العصور «الابتداعية» التى يشطح فيها الخيال ويجمح، فلايكون العقل عليه ضابطا[٣٠٣].

ب ــ كلّ استعارة تصلح لان تتحول او ترجع الى التشبيه بخلاف العكس، فلايصح ان تجرى الاستعارة فى ايّ تشبيه أردته. بل انما يجوز ذلك اذا كان الشبه بين الشيئين مما يقرب مأخذه ويسهل متناوله ويكون فى الحال دليل عليه وفى العرف شاهد له،حتى يسكن المخاطب إذا اطلقت له الاسم ان يعرف الغرض ويعلم ما اردت.

ألا ترى قول النبى (ص): «الناسُ كإبلٍ مائةٍ لاتَجِدُ فيها راحِلةً» وقول النابغة: «فانّكَ كالليلِ الذى هو مُدْرِكى» فانه لا يجوز فيهما حذف المشبه والاداة و وجه الشبه، وتحويلهما الى الاستعارة لغموض وجه الشبه وصعوبة فهم المراد.

فالاصل فى صحة التحويل أن يرجع التشابه بين الطرفين الى صفة يكون المشبه به اصلا فيها ومعروفا عند الناس بها، فكلما تحقق ذلك الاصل صحّ تحويل التشبيه الى الاستعارة بلا اشكال[٣٠٤].

وامّا التفاوت فى المورد فهو ان التشبيه اكثر دورانا فى النثر العلمى، وفى الموضوعات التى تخاطب العقول، لان المراد من هذه المسائل ان تكون واضحة دقيقة محددة، سهلةَ الإدراك، بعيدةً مِنْ وثبات الخيال، و

٣٠٣ــ فنون الادب، ٩٤ــ٩٥.

٣٠٤ــ اسرار البلاغة، ٢٧٩ــ٢٨٥.

طفرات التصوير، وترف الألفاظ، واناقة الصياغة . والاستعارة ألصق وأنسب بالنثر الأدبي والشعر، واكثر اهمية فيهما من التشبيه[٣٠٥].

« زيد أسد » بين الاستعارة والتشبيه

اعلم أنّه لاخلاف في أنّ «زيد كالاسد» تشبيه وأنّ «رأيتُ اسداً يرمي» استعارة، ولكنهم اختلفوا في «زيدٌ اسدٌ» : فقال قوم هو تشبيه بليغ، وقال الآخرون هو استعارة، ولكلٍ أدلّة يتمسكون بها .

استدل القائلون بالاستعارة بوجوه : الاول ـ أن «الأسد» في هذا المثال قد أُجْرِيَ على «زيد» و أُخبِر به عنه، ومعلوم ان الانسان لايكون اسدا مع ان مقتضى الحمل والإجراء كون المحمول عين الموضوع في المعنى .

الثاني ـ ان المشبه به في نحو المثال المتقدم كثيرا ما يتعلق به الجار والمجرور كقول عمران بن الحطّان السدوسي يهجو الحجّاج ويستهزىء به:

(اسدٌ عليّ) وفي الحروب نَعَامةٌ
فتخاءُ تنفِرُ مِنْ صفيرِ الصّافِرِ

وقول ابي العلاء المعرّي في رثاء والد الشريف الرّضي :

(والطيْرُ أغرِبَةٌ عليه) بأسرِها :
فُتخُ السُراةِ و ساكِناتُ لَصافِ[٣٠٦]

والتعلق دليل على أنّ المشبه به مؤول بالمشتق ومنقول الى غير ما

٣٠٥ـ فن التشبيه ٥١/١ .

٣٠٦ـ والسراة ولصاف : جبلان .

وضع له، اذ لو كان مستعملا فى معناه الاصلى لم يكن لتعلق الجار وجه .

الثالث ـ أن المراد من هذا الكلام اجراءُ الأسد على زيد قضاءً لحق المبالغة المقصودة ، فيلزم ان يكون الاسد منقولا الى معنى المشبه، لانه لو استعمل فى معناه الحقيقى وبُنِيَ الكلامُ على تقدير الأداة ، لزم انتفاء المبالغة وخلّو الكلام من الغرض المراد منه .

فعلى هذا كان «زيد اسد» استعارة وتقديره «زيد رجل شجاع او ذات متصفة بالشجاعة كالأسد» فحذف المشبه والأداة وتنوسى التشبيه ، ثم استعمل المشبه به فى معنى المشبه على سبيل الاستعارة .

فالمشبه هو الرّجل الشجاع او الذات المتصفة بالشجاعة لازيد، لانه لايصلح لأن يكون مشبّها الاّ من حيث كو نه ذاتا صدقت عليها الشجاعة ، ولايخفى انه بهذه الحيثية يعتبر مخبرا به لامخبرا عنه .

وامّا من حيث انه شخص تعيّن بهذا العلم فلايقع مشبها لفقدان وجه الشبه بينه وبين الأسد .

الرابع ـ ان الاستعارة تمتاز عن التشبيه بصحة وضع المشبه فيها موضع المشبه به من غير ان يحصل خلل فى الكلام الاّ انتفاء المبالغة، فكل ماصح فيه هذا الوضع كان استعارة لاتشبيها . فجملة «زيد اسد» استعارة، لانه يصح ان يجعل فيها موضع المشبه به الذى هو خبر لزيد المشبه المقدّر، و يقال : زيد رجل شجاع كالأسد .

اما القائلون بالتشبيه فاستدلوا على صحة رأيهم بوجود المشبه والمشبه به معا فى اللفظ، واستعمال المشبه به فى المعنى الاصلى . وقالوا إن جملة «زيد اسد» تشبيه بليغ بحذف الوجه والأداة وادّعاء الاتحاد بين الطرفين، وان الكلام مبنى على تقدير الاداة[٣٠٧].

٣٠٧ـ راجع شروح التلخيص وحواشيها ٤/٥٠ـ٥٤ .

قال القاضي الجرجاني : «فقد رأيت بعض اهل الأدب ذكر انواعا من الاستعارة عدّ فيها قول ابي نواس :

والحبّ ظهر انت راكبه   فاذا صرفت عنانه انصرفا

ولست أرى هذا وما اشبهه استعارة، وانما معنى البيت ان الحب مثل ظهر، اوالحب كظهر تديره كيف شئت اذا ملكت عنانه، فهو اما ضرب مثل، اوتشبيه شيء بشيء»[٣٠٨].

واستدلوا ايضا بأنه لو كانت جملة «زيد اسد» استعارة لكان لفظ الأسد مستعارا، وأنت خبير بأن المستعار لايقع في الكلام على شكل الخبر او ما في حكمه[٣٠٩].

ولهذا يرى الشيخ عبدالقاهر ان في اطلاق الاستعارة على مثل «زيد اسد» مما كان المشبه به خبرا او راجعا اليه بعضَ شبهة، ويُرجّح ان يعدّ تشبيها على حد المبالغة لا استعارة . وبيان ذلك ان جعل المشبه المشبه به على ضربين :

احدهما ـ أنْ تنزله منزلة الشيء فتذكره بامر قد ثبت له ولا تحتاج الى ان تعمل في اثباته، و ذلك حيث تسقط ذكر المشبه من الشيئين ولا تذكره بوجه من الوجوه، كقولك : رأيت اسدا .

الثاني ـ ان تجعل ذلك كالامر الذي يحتاج الى ان تعمل في اثباته وتحصيله، و ذلك حيث تجري اسم المشبه به بالصراحة على المشبه فتقول: زيد اسد، و زيد هو الأسد . او تجيء به على وجه يرجع الى هذا، كقولك: ان لقيته لقيت به اسدا، وان لقيته ليلقينّك منه الأسد . فانت في هذا كله تعمل في اثبات كونه اسدا وتضع كلامك له، ولهذا يأتي المشبه به على

٣٠٨ـ الوساطة، ٤١ .

٣٠٩ـ نهاية الإيجاز، ٨٨ .

شكل الخبر او ما فى حكمه[٣١٠].

اما فى الصورة الاولى فانت تُخْرِج قولك مخرج مالايحتاج فيه الى اثبات وتقرير، فيأتى المشبه به فيها على شكل الفاعل، اوالمبتدأ، او المفعول، اوالمجرور .

والقياس يقتضى ان يقال فى الصورة الثانية : انها تشبيه على حد المبالغة، ويقتصر على هذا القدر ولاتسمى استعارة[٣١١].

وايضا استدلوا بأن التشبيه يمتاز عن الاستعارة بحسن اظهار الاداة فيه وقبحه فيها، فاذا قيل فى «زيد اسد» : زيد كالأسد، ما عرض فيه قدح وما زالت عنه الفصاحة والبلاغة ولذلك يعدّ تشبيها . وهذا بخلاف ما اذا ذكر المنقول دون المنقول اليه، فانه لايحسن فيه ظهور اداة التشبيه، و متى ظهرت زالت عن ذلك الكلام ما كان متصفا به من الفصاحة والبلاغة ونحوهما، وهذا هو الاستعارة[٣١٢].

وفى نهاية هذا البحث جدير بالذكر ان حجة القائلين بالاستعارة قابلة للمناقشة على مايلى :

١ـ ان اقتضاء الحمل كون الموضوع عين المحمول واتحادهما فى المعنى امر مسلم، لكن هذا الكون والاتحاد اعم من ان يكون حقيقيا او ادعائيا . وايضا اذا صح نقل الأسد الى معنى الرّجل الشجاع هربا من ذلك المحظور، فلم لايصح تقدير الأداة لنفس تلك القضية .

٣١٠ـ اما وقوع المشبه به فاعلا او مفعولا فى نحو : ان لقيته ليلقينك منه الاسد، وان لقيته لقيت به اسدا، فلا بأس فيه لانه فى الحقيقة يرجع الى اجراء اسم المشبه به على المشبه .

٣١١ـ راجع اسرار البلاغة، ٣٦٦ـ٣٧٨ و دلائل الاعجاز، ٥٣ـ٥٤ .

٣١٢ـ المثل السائر ٣٥٧/١ .

٢ـ ان تعلق الجار بالاسد ليس الا ّ باعتبار تضمنه لمعنى الاجتراء او ما يشابهه، ومعلوم ان المشبه الذى نقل اليه لفظ المشبه به ليس ذلك المعنى بل هو ذات مستلزمة لمعنى الاجتراء، ضرورة ان الاجتراء الذى هو وجه الشبه لايكون احد طرفى التشبيه او جزءه، والا ّ لزم الحاجة الى وجه شبه اخر . فاذا صح ّ تعلق الجار بالأسد المستعمل فى معنى المشبه باعتبار استلزامه لمعنى الاجتراء او تضمنه ايّاه، فلما ذا لا يصح التعلق بالأسد المستعمل فى المعنى الاصلى باعتبار استلزامه للبسالة ونحوها، او التعلق بما يستفاد من معنى الأداة المحذوفة ؟

٣ـ ان انتفاء المبالغة فى «زيد اسد» اذا اعتبر تشبيها لا استعارة ممنوع، لان ادعاء الاتحاد بين المشبه والمشبه به المنصوص عليه فى اللفظ ينادى على تلك المبالغة .

٤ـ نحن لا نسلم ان «زيد» باعتبار انه ذات متصفه بالشجاعة يعتبر مخبرا به فلايكون مشبها، لان هذا الاعتبار مبنى على تأويل مدّعى الاستعارة . واما على رأى من يقول بالتشبيه فالمخبر به هاهنا هو «الأسد» على سبيل الادعاء، فحينئذ كان «زيد» المراد به الذات المتصفة بالشجاعة مشبها ومخبرا عنه بلااشكال .

مايحتمل الاستعارة والتشبيه بحسب اعراب المشبه به

قد يرد الكلام على صورة يجوز حمله على الاستعارة والتشبيه المضمر الاداة معا، كما اذا وقع المشبه به فى جملة يجوز بناؤها على ضمير من تقدم ذكره واجراء المشبه به على ذلك الضمير، اوقطعها عما يربطها بما قبلها وبناؤها على المشبه به كجملة مرتجلة . كقول البحترى فى قصيدة يمدح

بها احمدِ وابراهيم ابنى المدبر :

ألامُ علَى هوى الحسناءِ ظُلماً
و قلبى فى يدِ الحسناء عانِ
إذا انصرفتْ ، (اضاءَتْ شمس َدجْنٍ)
و مالَ مِنَ التعطفِ غصن بانِ[٣١٣]

فإذا بنيت جملة «اضاءت شمس دجن» على ضمير الحسناء واجريت كلمة الشمس على ذلك الضمير ونصبتها، جاء الكلام تشبيها لاشتماله على المشبه والمشبه به معا، كانه قال : «اضاءت الحسناء شمسَ دجنٍ» اذ الضمير المستتر الرّاجع الى الحسناء فى حكم المذكور .

اما اذا قطعت الجملة عما قبلها ونقلتها الى غير ضمير الحسناء كجملة مرتجلة، و رفعت كلمة الشمس وبنيت الجملة عليها، فالكلام استعارة لاشتماله على ذكر المنقول فقط .

وهذا الموضع كما قال ابن الاثير : «فيه دقة غموض، وحرف التشبيه يحسن فى الاول دون الثانى»[٣١٤].

الاستعارة بين المجاز اللغوى والعقلى

اختلف القوم فى الاستعارة بين المجاز اللغوى والعقلى، فمنهم من ذهب الى انها مجاز لغوى واحتج بان لفظ المستعار المستعمل فى معنى المشبه لم يوضع له فى اصل اللغة ولا لأعم منه ومن المشبه به فالأسد مثلا فى

٣١٣– ديوان البحترى .

٣١٤– المثل السائر ١/ ٣٦٠–٣٦١، و رواية البيت فيه: (اذا سفرت... ومالت فى التعطف ...) .

قولنا : «للإسلام أسود" تهتف بسجده» وضع فى اللغة للحيوان المفترس لا للرجل الشجاع ولا لأمر يعمهما ،فاستعماله فى الرجل الشجاع تجوز فى اللغة وإخراج للفظ من المعنى الحقيقى الى المجازى .

ومنهم من ذهب الى أنها مجاز عقلى، بمعنى ان التصرف فيها او العملية المُسَوِّغة لها ترجع الى امر عقلى لا أن المجاز وقع فى الاسناد .

وهؤلاء يحتجون بان اللفظ المستعار لم يخرج من موطنه ولم يُنْقَل الى غير موضعه الا" بعد ادعاء دخول المشبه فى جنس المشبه به وجعله فردا من افراده، لان مجرد النقل خاليا عن الادعاء والجعل لايُبرر" الاستعارة ولايسو"غها، والا" كانت الأعلام المنقولة والمشتركات اللفظية استعارة مع انه لم يقل به احد . وايضا لو كانت الاستعارة مبنية على مجرد النقل لما صح لنا القول بأنها أبلغ من الحقيقة، ولما صح التعجب فى قول ابى الفضل بن العميد :

قامَتْ تُظلِّلُنى مِنَ الشمسِ نفس" أعزُّ علىَّ مِنْ نَفْسى
قامَتْ تُظلِّلُنى ومِنْ عَجَبٍ شمس" تُظلِّلُنى مِنَ الشمس

اوالنهى عنه فى قول الشريف ابى الحسن محمد بن احمد ... بن على بن ابى طالب :

لا تعجَبُوا مِنْ بِلى غِلالتِه قد زُرَّ أزْرارُه علىَ القمَرِ

ويمكن ان تُناقِش احتجاجَهم بمايلى :

١ـ انا لانسلم اذا كان النقل فى الاستعارة عاريا من الإدعاء ان لايبقى فيها الامجرد الاطلاق، وان لايكون بينها وبين الاعلام المنقوله والمشتركات اللفظية فرق، لاننا نعلم ان النقل فى الاستعارة لايتحقق الا بواسطة التشبيه بخلاف غيرها من الاعلام المنقولة والمشتركات اللفظية، فلاتساوى بان الاستعارة

٢ـ ان انتفاء الادعاء والجعل لايستلزم مساواة الاستعارة للحقيقة

فى الأبلغية وعدمها، لانه ليس المراد من عبارة «ابلغ من الحقيقة» اكثر مبالغة، حتى يقال إنها تتحقق بادعاء الاتحاد وتنتفى بانتفائه . بل المراد بها ان الاستعارة ادل واقوى واوضح فى بيان الغرض من الحقيقة، فليس بواجب ان تشتمل كل استعارة على المبالغة .

٣ــ ان ادعاء دخول المشبه فى جنس المشبه به لا يُخرِجُ اللفظ عن كونه مستعملا فى غير ما وضع له بحسب اللغة، لضرورة العلم بان «الأسد» مثلا لم يوضع فى اللغة ابتداءً الا للحيوان المفترس لا للرّجل الشجاع ولا لأعم منهما .

٤ــ ان التعجب والنهى عنه قضاء لحق المبالغة بتناسى التشبيه فى الاستعارة .

والتحقيق فى هذا المقام ان النزاع لفظى يدور حول التعبيرات والألقاب والاعتبارات، فلا يترتب عليه نتائج متناقضة اومتخالفة . و ذلك لان من جعل الاستعارة مجازا لغويا لم ينكر الادعاء والجعل فيها، ومن جعلها مجازا عقليا لم ينكر استعمال اللفظ فى غير معناه الحقيقى بالوضع الاول فيها[٣١٥].

توارد الإستعارة والمَجاز المُرسَل على محلّ واحد :

اعلم ان اللفظ الواحد بالنسبة الى المعنى الواحد يجوز ان يكون مجازا مرسلا واستعارة، لكن باعتبارين مختلفين . و ذلك إذا كان بين المعنى الاصلى والفرعى نوعان من العلاقة : احدهما المشابهة والآخر غيرها، كما ترى فى استعمال «المِشْفَر» فى شفة الانسان . فانه يصح ان يعتبر استعارة على قصد المشابهة بينها وبين شفة البعير فى الغلظة، وان يعتبر

٣١٥ــ راجع المواهب، ٤/ ٦٠ــ٦٢ .

مجازا مرسلا باعتبار استعمال مشفر البعير فى مطلق الشفة ثم فى شفة الانسان[٣١٦].

صُوَر الإستعارة

الاستعارة باعتبار الأركان المُكَوِّنَةِ لها والعوامل المؤثرة فيها تنقسم إلى اقسام متعددة، وتتلون بألوان مختلفة . ولسنا هاهنا بصدد استقراء تلك الأقسام و دراسة تلك الصور بكمالها، لأن ذلك العمل لافائدة فيه غير تكثير الأقسام وازدياد المُحتَمَلات، لكن نقف فى هذا المجال عند بعضها قليلا او كثيرا على حسب حظه من الأهمية . فنقول من تلك الصور :

١ـ المفردة والمركبة

ان الشبه اذاكان موجودا فى الشيء على الانفراد من غير ان يكون منتزعا منه ومن اشياء اخرى، ثم انتهى ذلك الشبه الى عملية الاستعارة كما ترى فى استعارة النور للعلم، والظلمة للجهل، والشمس للوجه الجميل ، فالاستعارة فى هذه الصورة تسمى مفردة .

واذا لم يكن الشبه موجودا فى الشيء على الانفراد بل اعتُبِر معه غيرهُ، فليس الاسم الذى وقع موقعا يقتضى كونه مستعارا بمستعار . و ذلك مثل قول داود بن على عم ابى العباس السفاح تاييدا له : وقد أخَذَ القَوْسَ بارِيها .

٣١٦ـ المطول، ٢٩٩ .

فالمراد من «القوس» هاهنا الخلافة ومن «باريها» الخليفة، لكن الشبه لم يقع بين القوس والخلافة على الانفراد بدون ان يعتبر معهما شيء آخر، فلهذا لا يقال الخلافة قوس كما يقال هي نور. وانما الشبه مؤلف من حال الخلافة مع القائم بها ومن حال القوس مع الذى برَاها، والقوس على الانفراد ليس بستعار ولكن مجموع الكلام، فالاستعارة في هذه الصورة تسمى مركبة كما تسمى مثلا[٣١٧]، وتسمى ايضا مماثلة[٣١٨] وتمثيلا، او تمثيلا على سبيل الاستعارة[٣١٩].

وظهر مما تقدم ان الاستعارة التمثيلية لا تجرى فيما كان وجه الشبه فيه مركبا والمشبه والمشبه به مفردين، لانه لا يبقى فى الاستعارة غير لفظ المستعار فاذا كان مفردا والوجه مركبا كما لو قيل: «رأيتُ عُنقوداً ملاحيّةً في السّماء» لم يعرف من ذلك اللفظ تركيب الوجه وانتزاعه من متعدد. وهذا بخلاف تشبيه التمثيل، فان تقارن المشبه والمشبه به فيه مما ينمّان عن تركيب الوجه فضلا عن ذكره فى بعض الأحيان[٣٢٠].

و «التمثيل» ضربٌ من ضروب الإستعارة كما عرفت، ويقال فى تعريفه ايضا: هو ان تمثل شيئا بشيء فيه اشارة[٣٢١]، او هو ان تقصد الاشارة الى معنى فتأتى بالفاظ تدل عليه وتكون مثالا له[٣٢٢]. و ذكره بعضهم فى اقسام الكناية، ولكلٍّ منهم وجه: فمن عده من الاستعارة جعل

٣١٧- اسرار البلاغة، ٢٩٢-٢٩٥.

٣١٨- اعجاز القرآن، ١١٩.

٣١٩- راجع التلخيص مع شرحه المطول، ٣٨٠.

٣٢٠- حاشية عبدالحكيم، ٥٠٣-٥٠٤.

٣٢١- العمدة ١/٢٧٧.

٣٢٢- اعجاز القرآن، ١١٩.

العلاقة بين المعنى الحقيقى والفرعى المشابهة، ومن ذكره فى اقسام الكناية جعل العلاقة الملازمة .

فمما هو من التمثيل :

١ـ قول النبى (ص) : «كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيّته».

٢ـ قول المتنبى :

ومَنْ يَكُ ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ يَجِدْ مُرّاً بِهِ الماءَ الزُلالا

٣ـ ما كتبه الوليد بن زيد لما بويع بالخلافة الى مروان بن محمد و قد بلغه انه يتوقف فى بيعته له : «اما بعدُ فإنى اراكَ تُقدّمُ رِجلاً و تُؤخّرُ أخرى فاذا اتاك كتابى فاعتمِدْ على أيّهما شئتَ . والسلام».

فالمشبه الصورة العقلية المأخوذة من كون الانسان مترددا فى البيعة فيُقدم عليها بالعزم تارة ويُحجم عنها بالاستخارة مرة اخرى، والمشبه به الصورة الحسية للإنسان القائم للذهاب فيُقدّم رجلا تارة للذهاب و يؤخرها أخرى للاحجام عنه، فاستعمل الكلام الّدال بالمطابقة على الصورة الثانية فى الصورة الاولى على سبيل الاستعارة . و وجه الشبه هاهنا هو ما يترتب على الصورتين من الانبعاث للامر والانصراف عنه .

والظاهر أن المستعار هو عبارة «تقدم رجلا وتؤخر اخرى» لاغير، وان «اراك» لادخل فى النقل والتجوز لاننا اذا قلنا: «فلان يقدم رجلا...» حصَل التمثيل ايضا[٣٢٣].

ومعنى «تؤخر اخرى» : تؤخّر تلك الرّجل المقدّمة، فعلى هذا كانت كلمة «اخرى» نعتا لموصوف محذوف اعنى «المرة» لا «الرجل» وتقدير الكلام : تؤخرها مرة اخرى . وانما لم يُجعَل اخرى نعتا للرّجل على ان يكون المعنى وتوخر رجلا أخرى، لان هذا ليس صورة تردد

٣٢٣ـ شروح التلخيص ٤/١٤٣ـ١٤٤ .

الانسان في الذهاب وغيره، فانه «اذا اراد الذهاب رمى رجله أماماً واذا احجم عنه ردّ تلك الرجل الى موضعها، ويُسمّى ردّها لموضعها تاخيرا باعتبار ما انتهت اليه اولا»[٣٢٤].

لقد سبق انه يمكن ان يتوارد المجاز المرسل والاستعارة على محل واحد باعتبارين مختلفين كما رأيته في «المِشْفَر»، فعلى هذا لا بأس في القول بالمجاز المرسل في «انى أراك تقدم رجلا ...» كما رآه عصام الدين حيث يقول: «ومما يختلج في الصدر ولا تجده في صدر بعد الصّدر انّ قوله: انى اراك تقدم رجلا ... مسبب عن التردد فيحتمل ان يكون التجوز باعتباره، فيتحقق المجاز المرسل في المجموع من غير تصرّف في الأجزاء كالاستعارة»[٣٢٥].

٢ـ التهكمية والتمليحيّة

وهي ما استعمل المشبه به في ضدّ معناه الحقيقي او نقيضه، كقوله تعالى: «فبشّرْهُم بعذابٍ اليم»[٣٢٦] فاستعير «التبشير» وهو الإخبار بما يسرّ المُخبَر «للإنذار» وهو التخويف والتهديد، بعد ادعاء دخوله في جنس البشارة على سبيل التهكم والإنذار.

والفرق بين التهكمية والتمليحية هو أنه ان كان الغرض الحامل على استعمال اللفظ في ضد معناه الهزء والسخرية بالمقول فيه كانت الاستعارة تهكمية، وان كان الغرض الحامل على ذلك بسط السامعين وإزالة السآمة عنهم من طريق الإتيان بشيء مليح مُستَظرَف كانت الاستعارة حينئذ

٣٢٤ـ الدسوقي ١٤٣/٤.

٣٢٥ـ عصام الدين، العقد الاول، الفريدة السادسة، مخطوط.

٣٢٦ـ آل عمران، ٢١.

تمليحية[٣٢٧].

٣- المرشحة و المجرّدة والمطلقة

الاستعارة باعتبار ما يلائم الطرفين، مع قطع النظر عن القرينة اللازمة فيها الدالة على أن المستعار لم يستعمل فى معناه الأصلى، تنقسم الى ثلاثة اقسام: مُرَشّحة، مُجرّدة ومُطلَقة.

فالمرشحة: استعارة اقترنت بصفة او تفريع مما يلائم المستعار منه، و ذلك كقولك: بَيْنَ فكيه حسامٌ لايَفُلّ.

وقوله تعالى: «اولئكَ الّذينَ اشتروا الضلالةَ بالهُدى، فما رَبِحَتْ تجارتُهم».

فا«لحُسام» و «والإشتراء» استعارة و «بين فكيه» و «الضلالة» قرينتها، وعبارة «لايَفُلّ» و «فما رَبحتْ تجارتُهم» ترشيح.

ومن امثلة المرشّحة ايضا قول بعضهم فى وصف الكتاب:

لنا جُلساء لانَمَلُّ حديثَهم ألِبّاءُ مأمونونَ غيباً و مشهدا

وقول البحترى:

وأرى المنايا إنْ رأتْ بكَ شيبةً جعَلتك مرمى نبلِها المتواترِ

وقولك: تلطّخ فلانٌ بعارٍ لن يُغسَلَ عنه أبدا[٣٢٨].

والفرق بين الصفة والتفريع ان الملائم ان كان من بقية الكلام المشتمل على الاستعارة يعتبر صفة، وان كان كلاما مستقلا وقع بعد ما فيه الاستعارة وبنى عليه كما رأيت فى آية «اولئك الذين ...» يسمى تفريعا، سواء كان

٣٢٧- الدسوقى ٧٨/٤.

٣٢٨- الامثلة من «البلاغة الواضحة» ، ٨٩، ٩٣.

بحرف التفريع او لا[٣٢٩].

وانما سميت هذا النوع من الاستعارة مرشّحة، لان الترشيح بمعنى التقوية والتزيين، وانك اذا بنيت الاستعارة على تناسي التشبيه و ذكرت ملائمات المستعار منه فقد سعيت فى تقويتها وتزيينها .

والمجرّدة : استعارة اقترنت بما يلائم المستعار له، و ذلك كأن تقول : بين فكيه حسامٌ ينطِق بالحق .

وكقول كُثيّر يمدح عبدَ العزيز بن مروان :

غَمرُ الرّداءِ إذا تبسَّم ضاحكاً غَلِقَتْ بضحكتِهِ رقابُ المال[٣٣٠]

استعار الشاعر «الرّداء» للعطاء لانه يصون عرض صاحبه كما يصون الرداء ما يلقى عليه، ثم وصفه با«لغمر» الذى يناسب العطاء دون الرداء تجريدا للاستعارة، والقرينة سياق الكلام، اعنى قوله : اذا تبسم ...[٣٣١]

ومعنى البيت : ان السائلين يأخذون اموال الممدوح من غير علمه و يأتون بها الى حضرته، فيعرف ذلك ويبتسم فى وجههم ولا ياخذها منهم، فضحكه سبب لتمكن المال فى أيديهم وأمارة على الإباحة لهم[٣٣٢].

وقال عبدالحكيم : «فى «غلقت» اشارة الى انه يعلم ان للسائلين حقا عليه بواسطته صارت الأموال مرهونة عندهم، وانه عاجز عن اداء ذلك الحق . فلذلك لم يقدر على انفكاك الأموال عنهم»[٣٣٣].

٣٢٩ـ الدسوقى ١٢٧/٤ .

٣٣٠ـ الغمر من الثوب : السابغ الواسع. غلق الرهن فى يد المرتهن اذا لم يقدر الراهن على انفكاكه .

٣٣١ـ المطول، ٣٧٧ .

٣٣٢ـ الدسوقى، ١٢٩/٤ .

٣٣٣ـ السيالكوتى، ٥٠٢ .

وكقولك : تَفَضْ صدرَكَ مِنَ الغِلِّ والحقدِ ، اى فَرِّغ صدرَكَ . والتنفيض فى الأصل تحريك الثوبِ ليزول عنه الغبارُ او الشجرِ ليسقط ما عليه من الورق وغيره، ثم استعير لمعنى التفريغ والإخلاء ، فصدرك هاهنا قرينة ومن الغل والحقد تجريد . وما أحسنَ قولَ المعرّى فى هذا المعنى :

ماالخيرُ صومٌ يذوبُ الصائمونَ لـه
و لا صلاةٌ ، ولا صوفٌ على الجسدِ
و انما هو تركُ الشرِ مُطّرحاً ،
و نفضُكَ الصدرَ مِنْ غِلٍّ ومِنْ حَسَدِ [٣٣٤]

والمطلقة : استعارة خلت مما يلائم المستعار منه والمستعار لـه، او اقترنت بما يناسبهما سواء . و ذلك كقول المتنبى :

أحِنُّ الى أهلى و أهوى لقاءَهم
وأيْنَ مِنَ المشتاقِ عنقاءُ مُغربُ ؟ [٣٣٥]

استعار العنقاء لأهله، وسياق الكلام اعنى : «احِنُّ الى اهلى ...» قرينة، ولم يذكر فى البيت اضافة على القرينة صفة او تفريعا مما يناسب المشبه او المشبه به .

وكقولك : فى صدْره حديدٌ لايلين بالنار ولايتأثر بالكلام، اى فى صدره قلب .

وقولك ايضا : بيننا جبالٌ لاتتزلزلُ للرياح ولاتركعُ للصيّاح .

٣٣٤ـ لزوم مالا يلزم ٣٧٥/١ .

٣٣٥ـ شرح ديوان المتنبى للبرقوقى ٣٠٧/١ .

بلاغة المرشحة :

والمرشحة بين هذه الاقسام أقوى من غيرها لاشتمالها على تقوية المبالغة وتحقيقها، فيُبنى الكلام فيها على تناسى التشبيه . ولهذا يدعى المتنبى حينما قابله ممدوحه وعانقه، انه لم ير قبله مشىَ البحر نحوَ رجل ومعانقةَ الأسد معه، فيقول :

فلم أرَ قبلى مَنْ مشىَ البحرُ نحوَه
ولا رجلاً قامَتْ تُعانِقُه الأُسْدُ

ويضع ابو تمام الكلام فى علوّ المنزلة وضعه فى علو المكان ، فقال:

ويصعَد حتى يظنَ الجهولُ بأنّ له حاجةً فى السماء

فلولا ان قصده أن يتناسى التشبيه، ويصرّ على انكاره فيجعله صاعدا الى السماء من حيث المسافة المكانية، لما كان لهذا الكلام وجه[٣٣٦].

اعلم ان الترشيح لا يختص بالاستعارة بل يجرى فى التشبيه والمجاز المرسل ايضا، و ذلك بذكر ما يلائم المشبه به او ما يناسب المنقول منه .

الاول ــ كقول المعرى فى رثاء والده :

كأنّ دعاءَ الموت باسمك نكزةٌ
فرَتْ جسدى، والسمُّ يُنْفثُ فى أذُنى[٣٣٧]

فان «فرت جسدى» وكذا «ينفث ...» فى البيت مما يناسب المشبه به اعنى «النكزة» او «السمّ» لا المشبه .

والثانى ــ كقول النبى (ص) لأزواجه الطاهرات : «أسرعُكُنَّ لحوقاً بى أطولُكُنَّ يداً» . فان اليد مجاز مرسل عن النعمة لحصولها

٣٣٦ــ المطول، ٣٠٨ .

٣٣٧ــ سقط الزند، ١٦، النكزة اللدغة . فرت : قطعت .

عن اليد، و «اطولكن» ترشيح لهذا المجاز لملاءمتها لليد لا للنعمة[٣٣٨].

٤ـ المُصرَّحةُ والمكنيّةُ

تنقسم الإستعارة بإعتبار ذكر المشبه او المشبه به إلى قسمين : مصرّحة ومكنية .

المصرّحة : ما اكتفى فيها من أركان التشبيه بذكر المشبه به ، كقول على (ع) فى وصف القرآن : «لاتُكشَفُ الظلماتُ إلاّ بِه» . استعار الظلمات للشبهات بجامع عدم الاهتدا فيهما من غير دليل، ولم يذكر من أركان التشبيه فى هذه الاستعارة غير الظلمات التى هى المشبه به .

وقول الشَّنْفرى :

(ولى دونَكُم أهلونَ) : سيدٌ عَملَّسٌ
و أرقطُ زهلولٌ ، و عرفاءُ جيْألُ
همُ الأهلُ لا مُسْتَوْدَعُ السرِّ ذائعٌ
لدَيهِم ، ولا الجانى بما جَرَّ يُخذَلُ

استعار الأهل للوحوش بجامع عدم ذيوع الأسرار وعدم خذلان المُذْنِب لديهم .

والمكنية : ما لم يذكر فيها من أركان التشبيه غير المشبه، و ذلك كقوله تعالى : «واخفِضْ لهما جناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحمة»[٣٣٩] جُعِل التذلل والتواضع أمام الوالدين طائرا يحنو على أفراخه بجامع اللين والرحمة، فلم يُذكَر من اركان التشبيه إلاّ «الذل» وهو المشبه .

٣٣٨ـ راجع المطول، ٣٠٥، والمواهب ٤/١٥٦ـ١٥٧ .

٣٣٩ـ الاسراء، ٢٤ .

وكقول على (ع) : لقد رجعَتْ فيهم أبصارُ العبر، وسمعَتْ عنهم آذانُ العقول . فكلٌّ من العبر والعقول هاهنا استعارة مكنية .

وقال تأبّط شراً :

إذا هزّه فـى عظـمِ قِرْنٍ ، تهلّلت

نواجِذُ أفـواهِ المنايـا الضّواحِكِ[٣٤٠]

جعل المنايا سَبُعا بجامع الإهلاك والإعدام، ولم يذكر من أركـان التشبيه سوى المشبه، اعنى «المنايا» .

وانما سمى هذا النوع من الاستعارة بالمكنية لانه لم يُصرّح فيـه بذكر المستعار، بل اقتصر على ذكر لازمه لينتقل منه الى المقصود كما هو شأن الكناية . و ذلك اللازم فى الامثلة المذكورة كان : الجناح، والابصار، والآذان، والأفواه .

٥ــ التحقيقية والتخييلية

والاستعارة باعتبار أن المستعار له موجود فى الواقع ام لا، تنقسـم إلى قسمين : تحقيقية وتخييلية .

التحقيقية : ما كان المراد بالمستعار له امرا معلوما بحيث يمكن ان يُنَصّ عليه ويشار إليه اشارة حسية او عقلية[٣٤١]، و ذلك نحو قوله تعالى: «وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيثَ بـالطيّبِ»[٣٤٢]. استعيـر الخبيث للمال الحرام والطيّب للمال الحلال، وهما امران متحققان حسا .

٣٤٠ــ هزّه : الضمير للسيف . النواجذ : اقصى الأضراس .

٣٤١ــ المطول، ٢٩٢ .

٣٤٢ــ النساء، ٢ .

وقوله تعالى: «الر، كتابٌ انزلناه إليك لتُخرجَ النّاسَ مِنَ الظُلماتِ إلى النّور»[٣٤٣]. استعير الظلماتُ للجهل والنور للعلم، وان شئت فقل للضلالة والهداية، ولا يخفى انهما متحققان عقلا.

ويجرى هذا المجرى قوله عزّ من قائل: «إنما يُريدُ اللهُ ليُذهِبَ عنكم الرّجْسَ أهلَ البيتِ ويُطهّركم تَطْهيرا»[٣٤٤] استعير الرّجس للذنب والعصيان الذى هو امر عقلى[٣٤٥].

والتخييلية: ما لم يكن لمعنى المستعار له وجود فى الواقع، فلا يمكن النص عليه ولا الاشارة إليه فى الحس والعقل، وإنما يتجلّى فى الوهم والخيال ولهذا يذوب فى غيرهما.

ومن امثلتها «أبصارُ العبر» و «آذان العقول» فيما سبق من قول على (ع)، فإنه استعير كلّ من الأبصار والآذان لما يتصور فى الوهم من طرق الإدراك للعبر والعقول، ومن البدهى أن المستعار له لم يكن له وجود فى غير الوهم والتخيّل، وانه ليس فى الواقع ما تشير إليه حسا او عقلا وتجرى عليه لفظ الأبصار والأذان.

آراء حول الاستعارة المكنية والتخييلية

اعلم أنّ القوم لم يتفقوا على المراد من الاستعارة المكنية والتخييلية وتفسيرهما، فذهبوا هاهنا مذاهب شتى، وسلكوا مسالك مختلفة.

٣٤٣– ابراهيم، ١.

٣٤٤– الاحزاب، ٣٣.

٣٤٥– تفسير البيضاوى ٤/١٦٣.

فنعرض فيما يلى هذه الآراء والنظرات على ضوء من التحقيق والتدقيق، فنقول ومن الله التوفيق :

المعروف عند الناس ان المذاهب هنا اربعة :

الف ـ مذهب السلف ـ يراد منه من تقدم السكاكى[٣٤٦].

ب ـ مذهب السكاكى .

ج ـ مذهب صاحب التلخيص .

د ـ مذهب عصام الدين .

الأوّل ـ ان المأخوذ من كلام السلف هو ان الاستعارة المكنية ما لا يصرّح بذكر المستعار، بل بذكر رديفه ولازمه عليه[٣٤٧]. فالمراد مثلا بقول تابط شرا : «تهللَتْ نَواجِذُ أفْواهِ المَنايا» استعارة السبع للمنايا ، إلاّ انه تُركِ التصريح بذكر «السبع» المستعار و دلّ عليه بذكر لازمه و هو «الأفواه» .

قال صاحب الكشاف فى بيان تسمية العهد بالحبل على سبيل الاستعارة فى قوله تعالى : «ينقضُون عهدَ الله»[٣٤٨] «وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشىء المستعار، ثم يرمزوا اليه بذكر شىء من روادفه، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه . ونحوه قولك : «شجاعٌ يفترسُ أقرانه وعالِمٌ يغترِفُ منه الناسُ»[٣٤٩].

ومعنى هذا الكلام هو انه وقعت فى «العهد» و «الشُجاعِ» و «العَالِم» استعارة استعير فيها شىء كالحبل للاول، والأسد للثانى ،

٣٤٦ـ عصام الدين، الفريدة الأولى من العقد الثانى .

٣٤٧ـ المطول، ٣٨٢ .

٣٤٨ـ البقرة، ٢٧ .

٣٤٩ـ الكشاف ٢٠٧/١ .

والبحر للثالث، غير انه لم يذكر لفظ المستعار بل دلّ عليه بلازمه وردفه على سبيل الإشارة والرمز. وهذا الردف واللازم هو النقض للحبل، والافتراس للأسد، والإغتراف للبحر.

ولما كان هذا النوع من الاستعارة يلتقي مع الكناية في ذكر لازم الشيء والإشارة به على مكان ذلك الشيء، ناسب أن يسمى استعارة مكنية او بالكناية وان كان السلف لم يصرّحوا بهذه التسمية.

وجدير بالذكر أن الشيخ ـ وان كان من السلف ـ لايقول في موطن الاستعارة بالكناية الا بتشبيه وتقدير في النفس حَذْفِ المشبه به فيه، ثم ذُكِرِ مايلائمه واستعير للمشبه على طريق ادعاء معنى شيء لشيء. فقال عند تفسير الاستعارة وبيان مَغْزى التشبيه في قول لبيد:

وغَداةِ ريحٍ قد كشفتُ وقِرّةٍ إذ أصبحَتْ بيد الشمالِ زمامُها:

«بل ليس اكثر من أن تخيل الى نفسك ان الشمال في تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالمدبّر المصرِّف لما زمامه بيده، ومقادته في كفه»[٣٥٠]، و ذكر أنّ هذا التشبيه لايأتيك عفوا بل يحتاج إلى إعمال الفكر والتأمل، وانه لايلقاك من استعارة اليد للشمال بل يُستنبَط من الشمال نفسه[٣٥١].

فالشيخ لايرى في الشمال استعارة على معنى انه استعير له لفظ المشبه به المحذوف بل كلّ ما يعتبره هناك لايتعدى دائرة تشبيه مقدّر في النفس، فعلى هذا انما يُسمى بالمكنية استعارة" بالمعنى المصطلح عند غيره من السلف، وتشبيه مقدّر في النفس لايتأتى عفوا بغير التأمل عنده. ثم انه لايسمى هذا التشبيه استعارة ولامكنية، ومن رأى مذهبه وسمّى

٣٥٠ـ اسرار البلاغة، ٥٢ـ٥٣.
٣٥١ـ المصدر نفسه، ٥٣ـ٥٥.

التشبيه بالمكنية فلعل أنه نظر الى خفاء التشبيه وعدم ظهوره، واما التسمية بالاستعارة فالظاهر انه لايرى له وجه.

ذلك هو ما جاء ونُقِل من السلف فى الاستعارة المكنية.

وامّا رأيهم فى التخييلية فالمنقول انهم سوى صاحب الكشاف يرون ان الاستعارة التخييلية هى إثبات لازم المشبه به للمشبه[٣٥٢]، و ذلك كإثبات الجَناح للذّل، والأبْصارِ للعِبَر، والآذان للعُقول فيما تقدم من الأمثلة.

قال الشيخ فى دلائل الاعجاز: «لاخلاف فى ان اليد - من قول لبيد: بيد الشمالِ زمامُها - استعارة" ثم انك لاتستطيع أنْ تزعم أنّ لفظ اليد قد نُقِل عن شىء الى شىء، و ذلك انه ليس المعنى على أنه شبه شيئا باليد فيمكنك ان تزعم أنه نقل لفظ اليد إليه. وانما المعنى على أنه اراد أن يثبت للشمال فى تصريفها الغداة على طبيعتها شبه الإنسان قد أخذ الشىء بيده يقلّبه ويصرّفه كيف يريد، فلما اثبت لها مثل فعل الانسان باليد استعار لها اليد»[٣٥٣].

فكلامه هاهنا وفى «أسرار البلاغة»[٣٥٤] صريح فى أن نحوَ «يد الشّمال» استعارة" لكن لا بمعنى نقل اللفظ عن شىء الى شىء بل بمعنى اثبات اليد للشمال مبالغة فى تحقيق ذلك التشبيه المقدّر فى النفس. ولا يخفى ان الشيخ وان كان يدّعى الاتفاق على وجود الاستعارة فى امثال يد الشمال غير انه لايشير الى التقييد بالتخييلية، ولعل التسمية بالاستعارة التخييلية، جاءت من غيره.

امّا التسمية بالاستعارة - مع أنّ مبناها ليس على نقل اللفظ عن

٣٥٢- عصام الدين، الفريدة الاولى من العقد الثالث.

٣٥٣- دلائل الاعجاز، ٣٣٤.

٣٥٤- راجع اسرار البلاغة، ٥١-٥٣.

معنى إلى معنى آخر بل على أخذ الاسم عما يليق به واثباته لغيره – فهي بملاحظة الاشتراك اللفظي، او ان شئت فقل باعتبار المعنى اللغوي للاستعارة لا المصطلح لها .

وبالتخييلية – فلعل أنها جاءت بسبب تفرّع هذه الاستعارة وتلازمها للتشبيه الذي «لا يتعدى التخيّل والوهم، والتقدير في النفس»[٣٥٥].

والتخييلية عند صاحب الكشاف هي اثبات لازم المشبه به للمشبه بشرط ان لا يكون للمشبه لازم مثله في الواقع والخارج، و ذلك مثل : أفواه المنايا، يد الشمال، جناح الذل، وما يجرى مجراها . اما إذا وجد للمشبه ردف في الواقع كردف المشبه به ولازمه فالاستعارة تحقيقية، كما «في ينقضون عهد الله» وشجاع يفترس أقرانه، وعالم يغترف منه الناس .

فإنك تجد في الواقع للعهد ردفا ولازما كالإبطال، وللشجاع مثل الفتك والبطش وللعالم مثل الانتفاع والاستفادة، ويمكنك الإشارة الى ذلك الردف واللازم واستعمال لازم المشبه به فيه على طريق الاستعارة التحقيقية[٣٥٦].

قال صاحب الكشاف : «شاع استعمال النقض في ابطال العهد من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين»[٣٥٧] هذا كلّ ما ذكره الزمخشري ههنا، لكن فسره الآخرون بما رأيت، وقال التفتازاني بعد نقله ما ذكره : «ولكنا قد استفدنا منه ان قرينة الاستعارة بالكناية لا يجب ان تكون استعارة تخييلية، بل قد تكون

٣٥٥– المصدر نفسه، ٥٣ .

٣٥٦– راجع حاشية الدسوقي ١٥٩/٤ .

٣٥٧– الكشاف ٢٠٧/١ .

تحقيقية، كاستعارة النقض لإبطال العهد»[٣٥٨].

فعلى هذا ان المكنية لاتستلزم التخييلية عند صاحب الكشاف بخلاف العكس، واما عند غيره من السلف فهما متلا زمان، فلايتحقق احدهما بدون الآخر.

الثاني – ان المكنية عند السكاكي عبارة عن ذكر المشبه و ارادة المشبه به منه على عكس الاستعارة المصرّحة، فمثلا في «مخالبُ المنيّة نَشِبت بفلان» أنّ ذكر المنية وارادة السبع بها استعارة مكنية بقرينة إضافة شيء من لوازم المشبه به الى المشبه. فقال في المثال المذكور: «ندعي هاهنا اسم المنيّة اسما للسبع مرادفا له بارتكاب تأويل، وهو ان المنية تدخل في جنس السباع لاجل المبالغة في التشبيه»[٣٥٩] فهذا الادعاء الذي يحمله ذكر المشبه المضاف اليه شيء من لوازم المشبه به، هو نتيجة دعوى السبعية للمنية واستعارة المشبه به للمشبه على الطريق المعروف في الاستعارة. ولما لم تجر الصورة التي تنم عن تلك الإستعارة على ما هي تقتضيه – اعني ذكر المشبه به وإرادة المشبه، منه – سميت مكنية، لان تلك الاستعارة لم تحصل من منطوق الصورة بل جاءت من طريق الاستلزام.

هذا، اذا أردنا من المكنية «المكنى بها» اعني مايتوسل به للحصول على المراد من الكناية، امّا اذا اردنا منها «المكنى عنها» فالاستعارة المكنية عند السكاكي عبارة عن استعارة المشبه به للمشبه، التي لم يُدَلّ عليها صراحة بذكر المشبه به وقصد المشبه منه بل رمز إليها بذكر المشبه وادعاء اسمه للمشبه به. وهذا الادعاء كما عرفت متفرع على استعارة المشبه به للمشبه، لأن دعوى دخول جنس آخر تستلزم صحة تلبس كلّ منهما بلباس

٣٥٨– المطول، ٣٠٦.

٣٥٩– مفتاح العلوم، ١٧٩.

الآخر. فعلى ما فسرت رأى السكاكى فى المكنية لاتناقض بين قوله : «ندعى ههنا اسم المنية اسما للسبع ...»[٣٦٠] وقوله الآخر : «ويسمى المشبه به سواء كان هو المذكور او المتروك مستعارا منه، واسمه مستعارا، والمشبه، به مستعارا له»[٣٦١] فلا او افق الدسوقى وصاحب مواهب الفتاح فى ادعائهما التناقض والخبط فى كلام السكاكى»[٣٦٢].

والفرق بين المكنية عند السلف والمكنية عند السكاكى، ان السكاكى يرمز إليها بذكر المشبه وادعاء اسمه للمشبه به، واما السلف فهم يرمزون اليها بذكر لازم المشبه به واثباته للمشبه[٣٦٣].

والتخييلية عنده ان يكون المشبه المتروك شيئا وهميا لاتحقق له إلاّ فى مجرّد الوهم، و ذلك مثل : لسانُ الحالِ الشبيه بالمتكلم ناطقٌ بكذا . فانك لما شبّهت الحال بالمتكلم اخذ الوهم فى اختراع ما به قوام الكلام فى الإنسان للحال، فيجعل له صورة مثل صورة اللسان للإنسان، ثم يطلق على تلك الصورة المخترعة فى الوهم اسم اللسان المتحقق. وكذا الحال فى مخالب المنية الشبيهة بالسبع نَشِبْت بفلان[٣٦٤].

ولا تلازم بين المكنية والتخييلية عند السكاكى، لانه يرى تحقق كل منهما بدون الآخر[٣٦٥]. اما تحقق التخييلية بدون المكنية فكما رأيت فى الأمثلة السابقة التى جاء بها فى المفتاح، وان كان صاحب التلخيص ادعى

٣٦٠ـ المصدر نفسه، ١٧٩ .

٣٦١ـ المصدر نفسه، ١٧٤ .

٣٦٢ـ شروح التلخيص ٤/١٨٤ .

٣٦٣ـ مفتاح العلوم، ١٧٦ .

٣٦٤ـ مفتاح العلوم، ١٧٨ .

٣٦٥ـ المختصر مع شروح التخليص ٤/١٩٦ .

انه بعيد لايوجد له مثال فى الكلام[٣٦٦]..

أمّا تحقّق المكنية مع غير التخييلية فانه قال : «والمكنى عنها ـ ينقسم ـ إلى ما قرينتها امرٌ مقدّرٌ وهمىٌّ كا«لأنياب» فى قولك : أنيابُ المنية، و «كنطقَتْ» فى قولك : نطقت الحالُ بكذا، او امرٌ محقّق كا«لإنباتِ» فى قولك : «أنبتَ الربيعُ البقل»[٣٦٧].

ولايغرنّك ما جاء فى المفتاح مثل قوله : «وقدظهر أنّ الاستعارة بالكناية لاتنفك عن الاستعارة التخييلية»[٣٦٨] فانه بناء على مساق كلام غيره من الأصحاب وليس برأيه .

بقيت ههنا نكتة وهى ان التخييلية وان كانت تتحقق بدون المكنية عند السكاكى، لكن لاتنفك عن تشبيه بين أمرين متحققين حسا او عقلا ، فهذا التشبيه قد يتحول الى الاستعارة المكنية فتحققُ معها التخييلية ، كقولك : «لسانُ الحال نطقَتْ بكذا» وقد يبقى على حاله فتحققُ التخييليةُ بدون المكنية، و ذلك كأن تقول : لسانُ الحال الشبيه بالإنسان نطقَتْ بكذا .

الثالث ـ ان المكنية والتخييلية عند صاحب التلخيص امران معنويان من افعال المتكلم، لانه يفسر «المكنية» بالتشبيه المضمر فى النفس و «التخييلية» باثبات شىء من لوازم المشبه به للمشبه . فعلى هذا التفسير أنّ لفظى «الاظفار» و «المنية» فى قولك : أظفارُ المنية... ليسا داخلين فى المجاز اللغوى، بل كلاهما حقيقة لغوية .

والمكنية والتخييلية على تفسيره متلازمان لايتحقق احدهما بدون

٣٦٦ـ شرح المفتاح الشريفى، مخطوط بدون رقم الصفحة .

٣٦٧ـ المفتاح، ١٨٩ .

٣٦٨ـ المصدر نفسه، ١٧٩ .

الآخر، إذ التخييلية يجب ان تكون قرينة للمكنية والمكنية يجب ان يُدَلَّ عليها بالتخييلية .

و وجه تسمية التشبيه المضمر با«لكناية» أنه لم يُصرَّح به، بل دُلَّ عليه بذكر الخواص واللوازم، وبا«لاستعارة» مجرد تسمية خالية عن المناسبة .

واما الوجه في تسمية ذلك الإثبات بالاستعارة التخييلية، فلأنه قد استعير للمشبه الامر الذي يخص المشبه بـه ليخيّل ان المشبه من جنس المشبه به[369] .

لقد سبق ان الشيخ قال في موطن الإستعارة المكنية بتشبيه مقدر في النفس، وجعل اثبات شيء من لوازم المشبه به المتروك للمشبه استعارة، غير انه لم يسم ذلك التشبيه استعارة مكنية ولا الاثبات تخييلية . فعلى هذا كان كلام الشيخ المَعينَ الاول لنظرية صاحب التلخيص، والمورِدَ الذي استقى منه مذهبه . فتنبه العلامة التفتازاني لهذا المطلب، فانه لما اشار الى مفاد كلام الشيخ في امثال «اظفار المنية» اضاف قوله : «وهذا قريب مما ذكره المصنف في التخييلية»[370] وليته لم يقصر مفاد كلام الشيخ ههنا على الاستعارة بمعنى اثبات شيء لشيء، بل اشار ايضا إلى ذلك التشبيه المقدر في النفس عنده[371]، حتى يتأتّى له القول بان كلام الشيخ في موطن التخييلية والمكنية قريب من كلام المصنف فيهما .

الرابع ـ ان الاستعارة بالكناية من فروع التشبيه المقلوب، فكما يُجْعَلُ المشبهُ مشبها به مبالغة في شأنه وكماله في وجه الشبه بحيث

٣٦٩ـ المطول، ٣١٠ـ٣١١ :

٣٧٠ـ المصدر نفسه، ٣١٢ .

٣٧١ـ اسرار البلاغة، ٥٢ـ٥٣ .

يستحق ان يلحق به المشبه به، كقول محمد بن وهب :

وبدا الصباحُ كأنّ غرّته ... وجهُ الخليفةِ حين يُمتَدَحُ

فشبه غرّة الصباح بوجه الخليفة، فكذلك يستعار اسم المشبه للمشبه به لنفس تلك المبالغة كما فى اظفار المنية، فيراد بالمنية ههنا السبع ويجعل الكلام حينئذ كناية عن تحقيق الموت بلاريبة . فعلى هذا لاتجوز فى اضافة الاظفار الى المنية، ولا اشكال فى جعل المنية استعارة[٣٧٢].

المكنيّة بين « المكنى بها » و « المكنّى عنها »

لقد سبقت الاشارة الى انه يمكن ان يراد من المكنية «المكنى بها» اعنى ما يتوسل به فى الدلالة على عملية الكناية وما يُرمز به عن الشىء المسكوت، او يراد بها «المكنى عنها» وهو الشىء المسكوت عنه والأمر المرموز اليه . فمثلا فى قوله تعالى : «كانا يأكلان الطعامَ»[٣٧٣] المكنى بها هو العبارة وما دلت عليه بالمنطوق والمباشرة، وامّا المكنى عنها فهو ما يترتب على اكل الطعام وقد تُرِك ذكره فى الآية .

فإذا حملنا المكنية على المعنى الأول، كانت الاستعارة المكنية على قول السلف الشىء المذكور من لوازم المستعار المسكوت عنه، اعنى «الأظفار» المضافة الى المنية فى المثال المعروف، إذ بها يتحقق الرمز والإشارة إلى المستعار المحذوف وهو السبع .

وكانت الاستعارةُ المكنية عند السكاكى المشبهَ المذكور المستعمل

٣٧٢- عصام الدين، الفريدة الثالثة من العقد الثانى .

٣٧٣- المائده ٧٨ .

في معنى المشبه به، لانه بهذا الطريق يرمز الى استعارة المشبه به للمشبه، فكل من اضافة الاظفار الى المنية واستعمال المنية في السبع هو ما يتطلبه استعارة المشبه به للمشبه المسكوت عنها.

وكانت الاستعارة المكنية عند صاحب التلخيص ذكر لازم المشبه به او اثباته للمشبه، إذ به يدل على التشبيه المضمر في النفس المتروك ذكره.

ولايخفى ان المكنية بهذا المعنى مع صحتها لايلائمها ظاهرُ ما نقل عن السلف في معناها، اعني: «هو ان لايصرّح بذكر المستعار بل بذكر رديفه ولازمه الدال عليه»[٣٧٤]. ولا يؤيدها نصُّ عبارة صاحب التلخيص حيث قال: «قد يُضمر التشبيهُ في النفس فلايُصرَّحُ بشيء من اركانه سوى المشبه ويَدُلُّ عليه بان يثبت للمشبه امر مختص بالمشبه به، فيسمى التشبيه استعارة بالكناية او مكنيا عنها»[٣٧٥].

فترى ان بناء ما نُقِل عن السلف على المستعار المسكوت عنه لا على ذكر الرديف واللازم، وان صاحب التلخيص ينص على ان التشبيه المضمر هو الاستعارة بالكناية، ثم انه يقيد المكني بكلمة «عنها» ليشير الى ان المراد بالكناية هاهنا الامر المسكوت عنه لا ما يُرمَزَ به.

أما كلام السكاكي فهو تارة يشير الى أنه يريد من الكناية المكني بها، و ذلك حيث يقول «هي ـ الاستعارة بالكناية ـ كما عرفت ان تذكر المشبه وتريد به المشبه به»[٣٧٦] او يقول في إرجاع التبعية الى المكنية: لو جعلوا «الحال» في نطقت الحالُ بكذا استعارة بالكناية عن المتكلم ... كما يجعلون المنية استعارة بالكناية عن السبع ... لكان اقرب الى الضبط[٣٧٧].

٣٧٤ـ المطول، ٣١١.
٣٧٥ـ المصدر نفسه، ٣١٠.
٣٧٦ـ المفتاح، ١٧٩.
٣٧٧ـ المفتاح، ١٧٤.

فظاهر كلامه ههنا لايلائم حمل الكناية على المكنّى عنها، لأن استعارة المشبه للمشبه به كما يراه تستفاد من متن العبارة ومنطوقها وأن ليس المستعار مسكوتا عنه، فلايبقى فرق بين المكنية والمصرّحة من هذه الناحية .

وتارة أخرى يشير الى انه يعنى من الكناية الشيء المسكوت عنه والأمر المرموز إليه، و ذلك حيث يضع مقابل المصرّح بها «المكنى عنها» وحيث يذكر ان المشبه به سواء كان هو المذكور او المتروك مستعار منه، واسمه مستعار، والمشبه، به مستعار له[٣٧٨].

فحيثما فسّر الكناية بذكر المشبه وإرادة المشبه به منه وجعل «المنية» ونظائرها استعارة بالكناية، اراد من «الكناية» ما يرمز به الى الشيء المسكوت عنه . وحيثما جعل المشبه به هو المستعار منه سواء كان مذكورا او متروكا، اواستعمل عبارة «المكنى عنها» اراد من الكناية الأمر المسكوت عنه . ومن لم يدرس كلام السكاكى على ضوء هذين الوجهين اعترض عليه واتهمه بالخبط والتناقض فى القول .

هل المكنية من اقسام الاستعارة فى المفرد ؟

اعلم ان الظاهر من كلام القوم هو ان المقسم فى التقسيم الى المصرّحة والمكنية والتحقيقية والتخييلية عبارة عن الاستعارة فى المفرد، وايضا ان الامثلة المذكورة لتلك الاقسام لاتخرج من هذه الدائرة . لكن جاء فى تفسير الكشاف عند قوله تعالى : «أفمَنْ حقّ عليه كلمةُ العذابِ ، أفأنتَ

٣٧٨ـ المصدر نفسه، ١٨١ .

تُنقِذُ مَنْ في النارِ ؟»[٣٧٩] ما يُبَرِّرُ جريان المكنية في المركبة حيث قال : «و وجه آخر وهو ان تكون الآية جملتين : ١ــ أفمن حق عليه العذاب فأنت تُخلِّصه ؟ ٢ــ أفأنت تنقذ من في النار ؟

وانما جاز حذف فأنت تُخلِّصه لأن أفأنت تنقذ يدل عليه . نزّل استحقاقهم العذاب وهم في الدنيا منزلة دخولهم النار، حتى نزل اجتهاد رسول الله (ص) وكدّه نفسه في دعائهم الى الايمان منزلة انقاذهم من النار»[٣٨٠] .

فأنت ترى ان تنزيل استحقاقهم العذاب وهم في الدنيا منزلة دخولهم النار يجري مجرى الاستعارة بالكناية في ذكر المشبه وحذف المشبه به، ثم ان تنزيل اجتهاد الرسول وكدّه في الدعوة الى الاسلام منزلة الانقاذ من النار يسلك مسلك قرينة المكنية في «ينقضون عهد الله» فتكون قرينة المكنية ههنا ايضا استعارة مصرّحة تحقيقية .

اجتماع المكنية مع المصرّحة

لاشبهة في ان المشبه في صورة الاستعارة بالكناية لايكون مذكورا بلفظ المشبه به كما في المصرّحة، وانما الكلام في وجوب ذكره بلفظ الموضوع له . والحق عدم الوجوب لجواز ان يشبه شيء بأمرين و يستعمل لفظ احدهما فيه ويثبت شيء له من لوازم الآخر، ففي هذه الصورة تجتمع المكنية والمصرحة في محل واحد ولكن باعتبارين، كما ترى في قوله

٣٧٩ــ الزمر، ١٩ .

٣٨٠ــ الكشاف ٢/٢٩٦ .

تعالى : «فاذاقها الله لباس الجوع والخوف»[٣٨١].

فيجوز ان يعتبر فيه انه شُبِّه ما غشى الانسان عند الخوف والجوع من الضرر والألم من حيث الاشتمال باللباس فيستعار له اسمه، ومن حيث الكراهة بالطعم المرّ البشيع فيضمر التشبيه فى النفس . فعلى هذا يكون اللباس استعارة مصرحة فى الصورة الأولى ومكنية فى الصورة الثانية، و يكون الاذاقة تخييلا[٣٨٢] .

٦ـ الأصلية والتبعية

الاستعارة باعتبار اللفظ المستعار تنقسم الى قسمين : اصلية وتبعية .

الاصلية ـ ما كان اللفظ المستعار اسم جنس حقيقةً ، كالكوكب فى قول التهامى يرثى ابنه :

يا كوكباً ما كان أقصرَ عمرَه و كذاك عمرُ كواكبِ الأسحارِ

اوتأويلا، كما فى الأعلام المشتهرة بصفة . قال المتنبى يمدح ابن العميد:

مَنْ مُبلغُ الأعرابِ أنّى بعدها شاهدْتُ رسطاليسَ والإسكندرا[٣٨٣].

والمراد باسم الجنس هنا غير ما اصطلح عليه النحاة الشامل للمشتقات والجوامد والمقابل لعلم الجنس ، والا يلزم ان يدخل استعارة المشتقات فى الأصلية واستعارة علم الجنس فى التبعية مع ان الامر بالعكس، بل المراد به ما دل على ذات صالحة لان تصدق على كثيرين من غير اعتبار وصف من الاوصاف دلّ عليه بناء الكلمة، او ان شئت فقل : ما دل على ماهية كلية من غير...

٣٨١ـ النحل، ١١٢ .

٣٨٢ـ عصام الدين، الفريدة الرابعة من العقد الثانى، والمواهب ١٨٦/١.

٣٨٣ـ «فرسطاليس» ـ ارسطو ـ معروف بالحكمة ، والاسكندر بالقدرة وسعة الملك .

سواء كانت ماهية المعنى كالضرب، او ماهية العين كالأسد .

اعلم ان اسم الجنس له اطلاقات مختلفة : يُطلَق عند النحاة على مفهوم يلتقى مع النكرة ويتصل بها، فيشمل المشتقات النكرة كما يشمل الجوامد .

ويطلق عند الوضعيين على ما يقابل المصدر والمشتق، فلا يدخلان فى مصاديق اسم الجنس عندهم .

واما عند البيانيين فهو يطلق على معنى كلّى غير معتبر فيه وصف من الأوصاف كما عرفت . فيخرج منه المشتقات ويدخل فيه المصدر وعلم الجنس[٣٨٤].

والتبعية ـ ما كان اللفظ المستعارُ شيئا كالفعل او ما يُشتَق منه اوالحرفِ . قال خالد بن صفوان لرجل : رحم الله اباك، فانه يَقْرِى العينَ جمالا والأذن بيانا[٣٨٥]. اى يُرى العين جمالا ويُسمع الأذن بيانا .

وتقول : البطل هو الكابح لنفسه . اى الحاكم والمسلط على نفسه . قال الله تعالى على لسان فرعون : «ولأصلّبنكم فى جُذوع النخل»[٣٨٦] اى على جذوعه .

و وجه التسمية بالتبعية على ما قالوا أن الاستعارة تعتمد التشبيه والتشبيه يقتضى كون المشبه موصوفا بوجه الشبه اوبكونه مشاركا للمشبه به فى وجه الشبه، وانما يصلح للموصوفية الحقايق ـ أى الامور المتقررة الثابتة ـ مثل الجسم والبياض، دون معانى الافعال والصفات المشتقة فانها

٣٨٤ـ راجع عصام الدين، الفريدة الثانية من المقد الاول، وحاشية صاحب الرسالة الوضعية على نفس الرسالة .

٣٨٥ـ البديع ابن المعتز، ٢٣ـ٢٤ .

٣٨٦ـ طه، ٧١ .

متجددة وغير متقررة لدخول الزمان فى مفهوم الافعال وعروضه للصفات، و دون الحروف .

ولا يخفى ان هذا الدليل كما قال التفتازانى لايتناول اسم الزمان والمكان والآلة، لانها صالحة للموصوفية فيجب أن تكون الاستعارة فيها اصلية وليس الامر كذلك، للقطع بانا اذا قلنا: «هذا مقتل فلان» للموضع الذى ضُرِبَ فيه ضربا شديدا، و «مرقد فلان» لقبره، كان المعنى على تشبيه الضرب بالقتل والموت بالرقاد وكانت الاستعارة واقعة فى المصدر لا فى نفس المكان . وأضاف التفتازانى أن الاولى فى تعليل الاستعارة التبعية فى المشتقات ان يقال : «ان المقصود الأهم فى الصفات واسماء الزمان والمكان والآلة هو المعنى القائم بالذات لا نفس الذات وهذا ظاهر، فاذا كان المستعار صفة او اسم مكان مثلا ينبغى ان يعتبر التشبيه فيما هو المقصود الا همّ، اذ لو لم يقصد ذلك لوجب ان يذكر اللفظ الدال على نفس الذات»[٣٨٧].

ولما لم تكن معانى الأفعال والصفات المشتقة منها والحروف صالحة للموصوفية قدروا التشبيه والاستعارة فى الاولين للمصدر، وفى الحروف لمتعلق معناها .

والمراد بمتعلق معنى الحروف عند السكاكى ما يفسر به معناها فى الظاهر، كأن يقال : «من» معناها ابتداء الغاية، و «إلى» انتهاء الغاية، و «كى» معناها الغرض. فهذه الاشياء ليست معانى الحروف فى الحقيقة، والا كانت الحروف اسماء لإفادتها المعانى المستقلة حينئذ[٣٨٨]. واما عند صاحب التلخيص فمتعلق معانى الحروف عبارة عمّا يجرّ بها، و ذلك مثل كلمة

٣٨٧ـ المطول، ٢٩٩ .

٣٨٨ـ المفتاح، ١٨٠، والمطول، ٢٩٩ .

«جذوع» فى قوله تعالى: «ولأصلبنكم فى جذوع النخل».

فيقدّر التشبيه والاستعارة فى الامثلة المذكورة هكذا:

الف ـ شبهت الإراءة مثلا بالإقراء ـ اى فعل الضيافة ـ بجامع الإفادة فيهما، ثم استعير المشبه به للمشبه، فسرى هذا التشبيه والاستعارة من المصدر الى الفعل، او ان شئت فقل: ثم اشتق من المصدر المستعار ـ اعنى المشبه به ـ الفعل المضارع وهو «يقرى»، و ذكرُ العين ههنا قرينة الاستعارة.

ب ـ وشبه الحكم والتسلط على الشىء بكبحه بجامع القدرة والتفوق فيهما ثم استعير المشبه به للمشبه، فسرى التشبيه والاستعارة من المصدر الى الصفة، او اشتق من المصدر المستعار لفظ «الكابح» فعلى هذا تجرى الاستعارة فى «يقرى» و «الكابح» تبعا للمصدر لا لنفس الفعل والصفة.

ج ـ وشبه الاستعلاء على الشىء بالظرفية فيه بجامع الاقتران بذلك الشىء فيهما، ثم استعير المشبه به للمشبه فسرى ذلك العمل من متعلق معنى الحرف الى نفس الكلمة الدالة على المشبه به اعنى «فى» واستعيرت للمشبه.

هذا عند الجمهور والسكاكى، واما عند صاحب التلخيص فيقال: شبه جذوع النخل المستعلى عليها بما يستقرّ فيه، ثم سرى ذلك التشبيه الى تشبيه تلبس المستعلى بالجذوع بتلبس الظرف بالمظروف، فاستعيرت الكلمة الموضوعة للمشبه به وهى «فى» للمشبه[٣٨٩].

فالاستعارة فى الحرف تابعة للتشبيه عند صاحب التلخيص، واما عند غيره فهى تابعة لاستعارة اخرى اصلية كما فى الفعل والمشتقات.

٣٨٩ـ راجع حاشية الدسوقى ٤/١٢٢.

تحقيق معنى الاستعارة التبعية

اعلم ان ما تقدم من تفسير الاستعارة التبعية وتخريجها هو ما ذكره القوم ههنا، ولى فى هذا المجال ملاحظات اقدّمها كما يلى :

ان معانى الافعال والمشتقات والحروف ليست بسيطة بل تتشكل من اجزاء متعددة وعناصر مختلفة تنحل اليها عند التجزئة . فهذه العناصر فى الفعل النسبة والزمان والمعنى المصدرى، وفى المشتقات الذات والوصف . «قال الامام فى المحصول فى باب الاشتقاق : مدلول المشتق مركب، والمشتق منه مفرد»[٣٩٠]. وفى الحروف المطلق مع القيد، كالاستعلاء على الجذوع مثلا .

فاذا جاءت الاستعارة فيهاجرت غالبا فى بعض من تلك الاجزاء لا فى جميعها، او بعبارة اخرى جرت فى المعنى التضمنى لا المطابقى، فاطلاق الاستعارة على الفعل والمشتق والحرف الموضوعة لمجموعة تلك العناصر من باب التوسع، او بالتبع لاستعارة جزء من مدلولها .

فمثلا فى قوله تعالى : «واشتعل الرأس شيبا»[٣٩١] يراد به ابيض الرأس ... ، فاستعملت كلمة «اشتعل» الدالة على الاشتعال والزمان الماضى والنسبه الى الفاعل فى معنى «ابيض» الموضوعة للحدث المخصوص و زمن المضىّ والنسبة الى الفاعل ايضا، واستعيرت تلك الكلمة لذلك المعنى . فترى ان فعل اشتعل لم يخرج تماما عما وضع له لان الزمان والنسبة لم يتغيرا فى الفعلين، فالزمان فيهما هو الماضى والفاعل هو الرأس.

٣٩٠– عروس الافراح ١٠٩/٤ .

٣٩١– مريم، ٢ .

وانما جاء التغيير والتحويل فى المعنى المصدرى فقط، فاطلاق الاستعارة على «اشتعل» بناء على استعارة جزء منه وتسمية الشىء باسم جزئه .

هذا فى استعارة الفعل باعتبار المعنى المصدرى الذى هو جزء من معناه، أما الاستعارة فيه باعتبار الزمان فكقوله تعالى : «ونُفخ فى الصور»[٣٩٢] فان المراد به ينفخ فى الصور، لكن عبرّ عن المضارع بما يدل على المضى تحقيقا لوقوع الفعل. فانت ترى أن فعل «نفخ» استعمل موضع «ينفخ» واستعير لمعنى المضارع ولم يتغير فى هذا الاستعمال والاستعارة غير الزمان، لان المعنى لمصدرى فى كلا الفعلين هو «النفخ» والمسند اليه فيهما هو «الصور» بلاتفاوت، فجاءت هذه الاستعارة فى الفعل ايضا باعتبار جزء من أجزائه وبالتبع لذلك الجزء .

وأما الاستعارة باعتبار النسبة التى هى جزء مفهوم الفعل فمنعها السيّد فى حواشى المطول، واستدل بأن تلك النسبة مطلقة غير مقيدة بشىء فلا يوجد خصوصية حتى يعتبر التشبيه بملاحظتها . فعنده أن النسبة فى جميع مصاديق الفعل واحدة لاتتغير ولاتتفاوت فلايجرى فيها التشبيه، لانه لايقع بين شيئين متحدين[٣٩٣].

وقيل بجريان الاستعارة فى النسبة وبمنع عدم شهرتها بمايخصها اويجعلها صالحة لطرفى التشبيه، لأن النسبة الى الفاعل الحقيقى المباشر للفعل والقائم به الحدث غير النسبة الى الفاعل المجازى[٣٩٤]. فنسبة الفعل مثلا فى قوله تعالى: «ياهامانُ ابنِ لى صَرْحا»[٣٩٥] الى هامان المُدبر للأمر والمُحرّض

٣٩٢- مريم، ١٠٠ .

٣٩٣- المطول، ٣٧٥ .

٣٩٤- راجع الدسوقى ٤/١١٦ .

٣٩٥- المؤمن، ٣٦ .

على العمل، غير نسبته الى من يباشر نفس العمل ويقوم به .

واعترض عبدالحكيم عليه وقال : وما قيل انه يمكن ان يعتبر النسبة الى المحرّض كالنسبة الى الفاعل فيقال «ضرب زيد» لكونه محرضا عليه، وكذا نسبة الفعل الى الآلة والظرف، فليس بشىء . لأنه إن اعتبر تشبيه المحرّض بالفاعل فهو استعارة بالكناية فلامجاز فى النسبة، وان لم يُعتبر فهو مجاز عقلى نسب الفعل الى غير ما هوَ له لملابسة بينهما من غير قصد المبالغة فى النسبة فلا استعارة[٣٩٦] .

أقول وما ذكره عبدالحكيم قابل للمناقشة من وجهين : الاول ـ أن اعتبار المكنية فى المحرض لاينافى ان نسبة الضرب اليه لم تقع موقعها، و ان «ضرب» جرت فيه الاستعارة بملاحظة تلك النسبة، ألا ترى ان الفعل ههنا قرينة المكنية وهى دائما استعارة تحقيقة اوتخييلية .

الثانى ـ أن انتفاء الاستعارة فى النسبة اذا اعتبرت مجازا عقليا ممنوع، اذ لاتضاد بينهما حتى يمكننا القول بارجاع المجازات العقلية الى الاستعارة التبعية فى النسبة .

والحق أن النسبة فى جميع الافعال ليست سواء بحيث لاترى فيها من تفاوت يبرّر جريان التشبيه والاستعارة فيها، لأن الفعل ـ اضافة على ان نسبته الى الفاعل الحقيقى غير نسبته الى الفاعل المجازى ـ قد يوضع للنسبة الانشائية بقوله تعالى : «فاستَقِمْ كما أمِرْتَ»[٣٩٧] فهى مشتهرة بصفات تصلح لان تشبه بها كالوجوب والإرشاد وغيرهما . وقد يوضع للنسبة الإخبارية وهى مشتهرة بالمطابقة واللاّمطابقة وغيرهما، فيستعار الفعل من أحدهما للأخرى كاستعارة «رحمه الله» للفظ «ارحمه» ، و

٣٩٦ـ السيالكوتى، ٤٩٩ .

٣٩٧ـ هود، ١١٣ .

استعارة «ليتبوأ» في قوله (ص) «مَن كذب عليّ فليتبوّأ مقعدَه مِنَ النار» للنسبة الاستقبالية الخبرية، لان الحديث على معنى يتبوأُ مقعدَه ...[٣٩٨].

فالاستعارة التبعية تجرى في النسبة والزمان من أجزاء مدلول الفعل كما تجرى في المصدر. ذكر العلامة المحقق عضد الملة والدين في الفوائد الغياثية: ان الفعل يدلّ على النسبة ويستدعى حدثا و زمانا في الاكثر والاستعارة متصورة في كل واحد من الثلاثة.

ففي النسبة: كهزم الامير الجند.

وفي الزّمان: كـ «وَنادى أصحابُ الجنّة أصحابَ النار»[٣٩٩] وفي الحدَث: مثل «فبشّرهم بعذابٍ اليم»[٤٠٠].

بقيت ههنا نكتة وهي ان الاستعارة التبعية وان كان يسكن اجراؤها في الزمان والنسبة من مدلول الفعل الا انهم لم يصرحوا بها في غير المصدر كما ادعى عبدالحكيم[٤٠١]، او لم تشتهر اشتهارها في المصدر.

ولا فرق بين الفعل والمشتقات في أن الاستعارة فيها ايضا تقع غالبا باعتبار جزء من مدلولها، فمثلا قوله تعالى: «مَنْ بعثَنا مِنْ مرقدِنا»[٤٠٢] شبه الموت بالرقاد بجامع السكون والإنقطاع عن الحركة والعمل ثم استعير

٣٩٨ـ عصام الدين، ويمكن حمل أمثال «رحمه الله» على الاستعارة التبعية في المصدر بتأول، او المجاز المرسل بعلاقة التضاد الشبيه بالمجاورة، راجع المواهب والدسوقي ١/٤٨٤ـ٤٨٥.

٣٩٩ـ الاعراف، ٤٤.

٤٠٠ـ عصام الدين.

٤٠١ـ السيالكوتي، ١٨٧.

٤٠٢ـ يس، ٥٥.

اسم المشبه به للمشبه، فسرى ذلك التشبيه والاستعارة من المصدر الى اسم المكان، وان شئت فقل : ثم اشتق من المصدر المستعار كلمة «مرقد» ، فترى ان الاستعارة فيها جرت تبعا لمفهومها التضمنى وهو الصفة المجرّد من الذات .

وقد يكون التشبيه والاستعارة فى المشتقات بحسب الزمان الخارج من مدلولها، و ذلك كإطلاق «الضارب» على من وقع منه الضرب فى الماضى لا بعلاقة ما كان عليه فان ذلك مجاز مرسل، بل باعتبار تشبيه حالته بعد الضرب بحالته ضاربا[٤٠٣].

امّا اذا وقعت الاستعارة فى المشتقات باعتبار مفهومها المطابقى ـ اعنى الصفة والذات معا ـ فهى اصلية لا تبعية . و ذلك كان تقول حينما ترى طفلا يقرأ القرآن ويُحسن الترتيل : «عندنا مُغَرِّد» تريد شخصا قراءته كالتغريد وتشبه فى الصغر والخفّة كالطير . فاعتبر التشبيه بين الطفل والطير كما اعتبر بين حسن القراءة والتغريد، فجاءت الاستعارة المبنية على هذا التشبيه فى كلّ مفهوم المغرّد ولهذا نسميها اصليه لا تبعية .

ويجرى مجرى الفعل والمشتقات فى اعتبار الاستعارة بحسب أجزاء المعنى الحروف، فان الموضوع له فيها عند أهل التحقيق عبارة عن المعانى الجزئية . فمثلا ان المعنى الذى وضع له حرف «فى» هو الظرفية الجزئية كظرفية الكوز اوالجذوع او غير ذلك، وان المعنى الحقيقى لكلمة «على» الاستعلائات الجزئية مثل الاستعلاء على السطح او على الجذوع وأغصان الأشجار او غيرها . فعلى هذا ان معانى الحروف مركبة من جزئين مطلق مع قيده، والذى يتغير او يقبل التحول هو الجزء الأول اعنى المطلق بدون القيد .

٤٠٣ـ عروس الافراح ٤/ ١١٠ .

ففى قوله تعالى: «لأصلبنّكم فى جذوع النخل» شبه الاستعلاء المطلق بالظرفية المطلقة بجامع الاستقرار والتمكن فيهما ثم استعير المشبه به للمشبه، فسرى ذلك التشبيه الى استعلاء الجذوع وظرفيتها فاستعير اللفظ الدال على الظرفية الخاصة اعنى «فى» للاستعلاء الخاص.

فالاستعارة ههنا فى الحقيقة جرت فى جزء من معنى «فى» وهو الظرفية لأن الجزء الآخر وهو الجذوع فى المشبه والمشبه به واحد لم يتغير، فجاءت الاستعارة فى الحرف تبعا لجزء معناه وهو المقيد او المطلق.

رأى السكاكى فى الاستعارة التبعية

يرى السكاكى أن الأولى والأقرب الى الضبط إرجاع الاستعارة التبعية الى المكنية، وذلك بان يجعل ما يسميه القوم قرينة التبعية كالفاعل أعنى «الضمائر والقلوب» فى قول المتنبى يصف الكلام:

إذا ما صافحَ الأسماعَ يوما (تبسّمتِ الضمائرُ والقلوب)

والمفعولِ اعنى «لهذميّات» فى قول القطامى:

(نقريهم لَهْذميّاتٍ) نَقدُّ بها ما كان خاطَ عليهم كلُّ زرّاد

استعارة بالكناية ويعامل معها نفس المعاملة فى: «واذا المنيةُ أنشبَتْ أظفارَها» فعلى هذا تكون نسبة التبسم الى الضمائر والقِرى الى اللهذميات قرينة الاستعارة المكنية[٤٠٤].

واعترض عليه صاحبُ التلخيص بأن الفعل والمشتقات والحروف فى هذه الصورة اما مستعملة فى معانيها الأصلية أو لا، فعلى الاول يلزمه القول بانفكاك المكنية من التخييلة على عكس ما رآه من الاستلزام بينهما، اذ

٤٠٤ـ المفتاح، ١٨١.

التخييلية عنده مجاز وقسم من أقسام الاستعارة المصرحة فلا معنى لها عند استعمال الكلمات فى معانيها الاصلية .

وعلى الثانى يلزمه الكرُّ على ما فرّ منه، فلم يكن ماذهب اليه مُغنيا عما ذكره غيره[٤٠٥].

لقد عرفت من تحقيقنا انه لا استلزام بين المكنية والتخييلية عند السكاكى، وان قرينة المكنية عنده يمكن ان تكون امرا مقدرا وهميّا كالانياب فى قولك أنيابُ السنيّة ...، وكنطقت فى نطقتَ الحالُ بكذا، او امرا محققا كالإنبات فى قولك : أنبت الربيعُ البقل[٤٠٦]. لكن لامحيص من الاشكال عليه اللهم الاّ ان يقال انه لايجعل قرينة المكنية استعارة حتى يلزمه القول باستعمال الفعل والمشتقات والحرف فى غير معناها .

التبعية فى المكنية والتمثيلية

اعلم أن ظاهر كلام القوم يشعر بأن تقسيم الاستعارة الى الاصلية والتبعية يرجع الى المصرّحة فى المفرد، بمعنى انه لايجرى هذا التقسيم فى غيرها . لكن يمكن أن يُعتبر ايضا فى المكنية والمركبة، فيُمثّل للتبعية فى المكنية بقولنا : «أراقَ الضاربُ دمَ فلان» ففيه شبه الضرب بالقتل واستعير القتل فى النفس للضرب ثم اشتق من الضرب الذى استعير له القتل صفة الضارب بمعنى القاتل، فطوى ذكر المشبه به وهو القتل و رمز اليه بذكر شىء من لوازمه وهو الإراقة على سبيل الاستعارة المكنية[٤٠٧].

٤٠٥- راجع التلخيص مع شروحه ٢١٧/٤ .

٤٠٦- المفتاح، ١٨٩ .

٤٠٧- الدسوقى ١٠٨/٤ .

وفي المركبة او التمثيلية بقوله تعالى : «اولئك على هُدىً من ربهم»[٤٠٨] قال صاحب الكشاف : «ومعنى الاستعلاء في قوله : «على هدى» مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارِهم عليه وتمسكِهم به، شُبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء و ركبه»[٤٠٩] فمعنى هذا الكلام كما قال التفتازاني ان الاستعارة هنا تمثيلية تبعية، اما التبعية فلجريانها اولا في متعلق معنى الحرف ثم في الحرف بتبعيتها، واما التمثيل فلكون كل من طرفي التشبيه حالة منتزعة من عدة امور[٤١٠].

لقد خطا عصام الدين في هذا المجال خطوة اخرى وادعى ان التمثيل على سبيل الاستعارة كله استعارة تبعية فقال : ولايذهب عليك انه لايمكن الحكم على مفهوم الجملة كما لايصح على مفهوم الفعل والحرف، فلايصح فيه التشبيه الذي هو مبنى الاستعارة بل لابد من التشبيه فيما يسرى التشبيه منه الى التشبيه في مفهوم ذلك المركب، كما يعتبر التشبيه في مضمون[٤١١] الجملة او في الهيئة المنتزعة منها، فيكون الاستعارة فيها ايضا تبعية، وقد خلى عن الإيماء اليه كلام القوم»[٤١٢].

نوع آخر من الاستعارة التبعية

ذكر صاحب عروس الافراح ان الضمائر واسماء الاشارة لها حكم ما

٤٠٨ـ البقرة، ٥ .

٤٠٩ـ الكشاف ٢٤/١ .

٤١٠ـ راجع الدسوقي ١٤٧/٤ .

٤١١ـ والفرق بين المضمون والمفهوم في الجملة، ان المضمون هو

←

يكنى بها من المرجع والمشار اليه، فاذا جاءت الاستعارة فيهما جرت فى الضمير واسم الاشارة ايضا بالتبع . فمثلا اذا قلت فى وصف كتبك : لنا جلساءُ لانملّ حديثَهم، او لنا جلساء لانملّ حديث هؤلاء كان ضمير «هم» واسم اشارة «هؤلاء» استعارة تبعا لاستعارة المرجع او المشار اليه وهو «جلساء» . ولا يخفى ان التبعية على ما ذكره غير ما مر من تبعية الاستعارة فى كلّ الكلمة لبعض أجزاء مدلوله . ويمكن إجراء الاستعارة بهذا المعنى ايضا فى اسم الاشارة، كما اذا استعملت ما هو موضوع للاشارة الى البعيد فى الاشارة الى القريب . لان التحقيق فى وضع اسماء الاشارة انها موضوعة للاشارات الجزئية اى للمطلق مع المقيد، ففى قوله تعالى: «ذلك الكتابُ لا رَيْبَ فيه»[٤١٣] لما استعمل ماوضع للاشارة الى الكتاب البعيد فى الاشارة الى الكتاب القريب لم يتغير غير المقيد لان المشار اليه فى كلتا الصورتين هو الكتاب لا غير .

ثم اضاف صاحب العروس بعد قوله بالتبعية فى الضمائر واسماء الاشارة بذلك المعنى : «او يقال انها لايتجوز بها فان وضعها ان تعود على ما يراد بها من حقيقة ومجاز، فاذا قلت : رأيت اسدا يرمى فاكرمته، فضمير المفعول حقيقة لعوده على مفسره ، و ذلك وضعه . واذا قلت : يا ايها الاسد الرامى بالنبل، مشيرا الى الانسان فالضمير فى قولك الرامى حقيقة»[٤١٤].

←

المصدر المضاف الى الفاعل والمفعول اوغيرهما، والمفهوم هو النسبة التامة. «رسول» .

٤١٢- عصام الدين، الفريدة السادسة من العقد الاول .

٤١٣- البقره، ٢ .

٤١٤- عروس الافراح ٤/١١١ .

بلاغة الاستعارة

الاستعارة اتساع فی الکلام جاء بالاختیار والاقتدار زیادةً فی إفادة المعنی، فلیست عملا اقتضته الضرورةُ فیقع کیفما اتفق، فلهذا لا یعدل الی الاستعارة الا اذا اشتملت علی نُکَت وبلاغة توجب حسنَ بیانٍ وفضلَ مزیةٍ وقلّةَ مؤونة. فان خلت من هذه الاغراض عدّت مسیئة و کانت الحقیقة أولی منها. والاستعارة افضلُ المجاز و أول ابواب البدیع، و لیس من حلی الشعر أعجبَ منها، واذا وقعت موقعها و نزلت موضعها تُعدّ من محاسن الکلام[٤١٥].

وأغراض الاستعارة کثیرة فنشیر الی طائفة منها مشهورة :

١ـ شرح المعنی وفضل الإبانة، وانك تری بها المعانی الخفیة جلیة، کقوله تعالی : «وانه فی أمّ الکتاب لدینا»[٤١٦] وحقیقته أصل الکتاب ، فاستعیر کلمة الأمّ للأصل لأنها أجمع وأظهر فیما یرد الیه مما یُنشأ عنه[٤١٧].

وقوله ایضا: «حتّی یَتَبیّنَ لکم الخیطُ الأبیضُ من الخیط الأسودِ من الفجرِ[٤١٨]» والمراد حتی یتبین بیاض الصبح من سواد اللیل فعبر عنهما بالخیط الابیض والاسود[٤١٩]، ولا یخفی ما فی هذه الاستعارة من الایضاح وحسن البیان، و ذلك انه یجب ان یکتفی فی تبین بیاض الصبح من سواد

٤١٥ـ العمده ٢٦٨/١ .

٤١٦ـ الزخرف، ٤ .

٤١٧ـ النکت، ٨١ .

٤١٨ـ البقره، ١٧٨ .

٤١٩ـ تلخیص البیان، ١٣ .

الليل باقلّ ما يعرف به ذلك وانه اشتهر الخيط بين الناس بالدقة والرقة، فكان أحسنَ كلمة تعبر عن المراد هنا . وجدير بالذكر ان الزمخشرى يرى ان عبارة «من الفجر» أخرج الآية من باب الاستعارة[٤٢٠].

وقال النبى (ص) لما دخل على علىّ وفاطمة (ع) و رآهما فى البيت فردّ الباب : جدَعِ الحلالُ أنفَ الغيرة[٤٢١].

٢ـ افادة المعنى الكثير بالقليل من اللفظ، كقوله تعالى : «مَنْ قتلَ نفسا بغير نفس او فساد فى الأرض فكأنما قتلَ الناسَ جميعا، ومَنْ أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعا»[٤٢٢] .

قال الشريف الرضى : و «أحيا» ههنا استعارة لان احياء النفس بعد موتها لا يفعله الا الله تعالى، وانما المراد من استبقاها وقد استحقت القتل او استنقذها وقد اشرفت على الموت»[٤٢٣] فاستعمل «احياها» مكان احدى الجملتين، وافاد مع قلة حروفه معناها الكثير .

وكقوله ايضا : «فانها لا تعمى الأبصارُ ولكن تعمى القلوبُ التى فى الصدور»[٤٢٤] وحقيقته ولكن تذهل القلوب عن التفكير فى الأدلّة التى تؤدّى الى العلم مع سلامة الجسم وصحة الرؤية و زوال الموانع الظاهرة ، والاستعارة ههنا أبلغ لإفادتها ذلك المعنى بالقليل من اللفظ، وفيها ايضا اشارة الى ان القلوب بمنزلة العيون لان بالقلب يوصل الى المعلومات كما أن بالعين يوصل الى المرئيات[٤٢٥].

٤٢٠ـ الكشاف ١١٦/١ .

٤٢١ـ الصناعتين، ٢٧٧ .

٤٢٢ـ المائدة، ٤١ .

٤٢٣ـ تلخيص البيان، ٣٠ .

٤٢٤ـ الحج، ٤٧ .

٤٢٥ـ تلخيص البيان، ١٥٠ .

وخير مورد لافادة المعنى الكثير بالقليل من اللفظ في الاستعارة الامثال، فانك ترى فيها أوْجزَ عبارة يؤدى مقاصد كثيرة ومعاني وفيرة، بحيث لو لم يكن هناك المثلُ لاستغرقت تلك المقاصد جملا وعبارات طويلة .

والاستعارة تفيد المعنى الكثير بالقليل من اللفظ من وجه آخر، وهو أن كل استعارة ترجع عند التحليل الى التشبيه الكامل الأركان وتفيد معناه، غير انها أوجز وأخصر للاكتفاء فيها بذكر احد طرفي التشبيه فقط .

٣ـ التصوير والتجسيم، و ذلك لانها تبرز المعقولات في صورة المحسوسات فتجعلها ملموسا ومُشاهداً كما تجعل الاوصاف الجثمانية روحانية وتلونها بلون المعقولات والمعنويات . كقوله تعالى : «فنبذوه وراءَ ظهورهم»[٤٣٦] بيّن حال الذين غفلوا عن ذكر الكتاب المنزل عليهم وتشاغلوا عن فهمه، في صورة من أخذ شيئا وألقاه خلفَ ظهرِه بحيث لا يراه فيذكره ولا يلتفت اليه فينظره[٤٣٧].

وكقوله تعالى ايضا : «ولا تجسّسوا ولا يغتبْ بعضُكم بعضا ، أيحِب أحدُكم أن يأكلَ لحمَ اخيه ميتا فكرهتموه»[٤٢٨] اذا اعتبر استعارة[٤٢٩]، لا كناية، اوتشبيها ضمنيا .

٤ـ التشخيص، و ذلك باعطاء الحركة والنطق والحياة للجماد ولما لا يكون أهلا لتلك المُعطيات . كقوله تعالى : «يومَ نقول لجهنم هل امتلاتِ وتقول هل مِن مزيد»[٤٣٠] وقولِه «ثم استَوى الى السماء وهي

٤٢٦ـ آل عمران، ١٨٧ .

٤٢٧ـ تلخيص البيان، ٢٣ .

٤٢٨ـ الحجرات، ١٢ .

٤٢٩ـ تلخيص البيان، ٢٢٧ .

٤٣٠ـ ق، ٣ .

دخان" فقال لها وللأرض ائتيا طائعين»[٤٣١] والاستعارة فى هذه الآيات ترجع الى المكنية[٤٣٢].

لقد سمّى البلاغيون الاستعارة المكنية «التشخيص» حيث تمثل فيه المعانى والجمادات الى أشخاص تكتسب صفات الكائنات الحية أيّا كانت، وتقوم مقامها فى صدور أفعالها . وهم يعدون هذا النوع من الاستعارة من أجمل الصور البيانية لما فيه من التشخيص والتجسيد وبث الحياة والحركة فى الجمادات وتصوير المعنويات فى صورة حية مملوسة[٤٣٣]. و كفاك شاهدا على منزلة المكنية وحظها الوفير من البلاغة قول الشيخ حيث يقول : «الاستعارة بالكناية أقوى من التصريحية فى اقتضائها من الفصاحة والمحاسن التى تظهر به والصور التى تحدث للمعانى بسببه آنق واعجب»[٤٣٤].

٥ـ المبالغة والتأكيد، و ذلك كقوله تعالى : «إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية»[٤٣٥] والمراد لما علا الماء قاهرا، فاستعمل «طغى» مكان «علا» للمبالغة فى عظم الحال[٤٣٦].

وكقوله ايضا : «فاصدَع بما تؤمَر»[٤٣٧] وحقيقته فاعمل بما تؤمر، لكن الاستعارة ابلغ لما فى الصدع الذى يكون فى الزجاج ونحوه من افادة معنى المبالغة فيما امر به، حتى يؤثر فى النفوس من تأثير الصدع فى الزجاج

٤٣١ـ السجدة، ١١ .

٤٣٢ـ راجع نقد النثر، ٦٥ـ٦٦ .

٤٣٣ـ علم المعانى، ١٧٠ .

٤٣٤ـ دلائل الاعجاز، ٣٥٥ .

٤٣٥ـ الحاقة، ١١ .

٤٣٦ـ النكت، ٨٧ .

٤٣٧ـ الحجر، ٩٤ .

وامثاله[٤٣٨].

وقال امروءالقيس :

و قد أغتدى والطيرُ فى وُكناتها بمُنجَرِد قيدِ الأوابـدِ هيكـل

وحقيقته مانع الأوابد من الذهاب والإفلات، والاستعارة أبلـغ لان القيد اعلى مراتب المنع عن الانطلاق والتخلص وأعرفُها عند الناس، وانك تشاهده على تلك الصفة والحالة فلاتشك فيه[٤٣٩]. والاستعارة تفيد المبالغة والتاكيد من وجه آخر، و ذلك بادّعاء دخول المشبه فى جنس المشبه بـه وتناسى التشبيـه بينهما، حتى كان المشبه صار فردا من افراد المشبه به .

٦ـ تحسين المعرض الذى يبرز المعنى والمطلب فيه، و ذلك كقول النبى (ص) لحادى مطيه : «يا أبخشة، رِفْقاً بالقَوارير» فانت ترى هذه العبارة الموجزة كيف يتجلى فيها ضعفُ المرأة وعدمُ صلابتها بدون ان يجرح عزتها وينال كرامتها، و ذلك بسبب شرف اللفظ وعفته[٤٤٠].

٧ـ ابراز البيان ابدا فى صورة مستجدة تزيد قدره نبلا وتوجب له بعد الفضل فضلا، فإنّك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فى الاستعارة فوائد، حتى تراها مكررة فى مواضع ولكن لها فى كل مـن تلك المواضع شأن مفرد ومزية خاصة[٤٤١]. و ذلك كقول ابى الفضل ابن العميد :

قامَتْ تُظلِّلُنى ومِنْ عَجَبٍ شمسٌ تُظلِّلُنى مِنَ الشمسِ

فهذه الاغراض والفوائد يمكن اجتماعها كما يمكن افتراقها، ولكن

٤٣٨ـ بيان اعجاز القرآن، ٤٤ .

٤٣٩ـ الصناعتين، ٢٧١ .

٤٤٠ـ علم البيان، ١٩٧ .

٤٤١ـ اسرار البلاغة، ٣٩، ليراجـع فى الاغراض المذكورة «كتاب الصناعتين» ٢٦٨ .

منها مالا يجوز خلو الاستعارة ابدا منه ولايصح الافتراق فيه، كالمبالغة والايجاز المعتبرين بالنسبة الى التشبيه وشرح المعنى، ولما كانت هذه الأغراض الثلاثة الآتية الصق بالاستعارة وجودا وعدما اقتصر بعضهم عليها. قال ابن ابى الاصبع: «ان مطلوبات الاستعارة واغراضها ثلاثة: المبالغة فى التشبيه، والظهور، والإيجاز»[٤٤٢].

الاستعارة فى ميزان النقد

لما كانت الاستعارة مبنيّة على التشبيه كان حسنها وإصابتها فى المرحلة الاولى برعاية جهات حسن التشبيه، مثل اشتراك الطرفين فى وجه الشبه و وفاء التشبيه بالأغراض المسوق لها وعدم ابتذال وجه الشبه. فكلما كان الشبه بين الطرفين قويا والتناسب بينهما جليا، كانت الاستعارة أولى بالقبول و أوقع فى النفس. ولهذا قال القاضى الجرجانى (ـ ٣٦٦ م): «وملاكُها تقريبُ الشبه ومناسبةُ المستعار له للمستعار منه وامتزاجُ اللفظ بالمعنى، حتى لايُوجدَ بينهما منافرةٌ ولا يتبيّن فى احدهما إعراضٌ عن الأخر»[٤٤٣] فاذا استوفت الاستعارةُ هذه الشروطَ وصفُوها بمثْل «قريبة مختارة وحسنة مصيبة»، وان خلت منها عبّروا عنها بمثْل «بعيدة مطروحة ورديئة قبيحة»[٤٤٤].

فمن الاستعارة المحمودة قول أرطاة بن سُهيّة:

٤٤٢ـ بديع القرآن، ٢٠.

٤٤٣ـ الوساطة بين المتنبى وخصومه، ٤١.

٤٤٤ـ سرّ الفصاحة، ١٤٠، الصناعتين، ٣٠٠ـ٣٠٢، العمدة ١/ ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٤، الوساطة، ٣٩.

فقلتُ لها يا أمَّ بيضاء : إنّني هُريقَ شَبابي واستَشَنَّ أديمي

فالمراد ذهب شبابي، ولكن استعمل مكانه «هُريقَ شَبابي» لما في الشباب من الرّونق والطراوة المقرّبة له من الماء، واستعمل أيضا «استَشَنّ أديمي» مكان يبس أديمي، لأن الشن هو القربة اليابسة، فكان اديمه صار شَناً لما هريق ماء شبابه، فصحت له هاتان الاستعارتان من كل وجه[٤٤٥].

ومنها قولُ ابي نصر بن نباته :

حتّى اذا بَهَرَ الأباطحُ والرُّبا نَظَرَتْ اليكَ بأعيُنِ النوّارِ

فنَظَرُ أعين النوار من أشبه الاستعارات وأليقها، لأن النوار يشبه العيون، واذا كان مقابلا لمن يجتاز فيه ويمرّ به كان كأنه ينظر اليه . اما اذا تأملت في استعارة «عين الدّين» وعيون الشرك في قول ابي التمام :

قرّت «بقرّانَ» عينُ الدّين وانْتَشَرَتْ

بالأ«شترينِ» عيونُ الشِرْكِ فاصْطَلما

فرأيتها من اقبح الاستعارات، لانك لاتجد وَجهاً للشاعر في جعله للدين والشرك عيونا . ومن ظر في هذين البيتين يفهم معنى الاستعارة ، لان النوّار والشرك لاعيون لهما على الحقيقة، غير انّ الاستعارة حسنت في احدهما وقبحت في الآخر، و ذلك لان النوار يشبه العيون، والدّين والشرك ليس فيهما ما يشبهها ولا ما يقاربها[٤٤٦].

ومن الاستعارة المذمومة قول أبي نواس

بُحَّ صوتُ المالِ ممّا مِنْكَ يشكو و يَصيحُ

قال القيرواني : «فايّ شيء أبعد استعارة من صوت المال ؟ فكيف

٤٤٥ــ العمدة ١/٢٧٤ .

٤٤٦ــ سرّ الفصاحة، ١٤١ .

حتى بُحَّ من الشكوى والصياح مع ما انَّ له صوتا حين يوزن او يوضع؟ ولم يرده ابو نواس فيما اقدّر، لان معناه لايتركب على لفظه الابعدا»[٤٤٧].

ومنها ايضا قول خويلد الهذلى او غيره :

تُخاصم قوما لا تلقّى جوابَهم   وقد اخذتْ من أنف احيتِك اليدُ

اى تقبض على مقدّم لحيتك كما يفعل النادم اوالمهموم، وأنف كلِّ شيء : مقدّمه،وانوف القوم : سادتهم . والأنف فى هذاالبيت قبيح لَم يقع موقعه[٤٤٨]، لانه لا وجه لان يجعل الانف لعضو آخر من الانسان او لما يتعلق به كما للحية مثلا . وكفاك شاهدا هذه النماذج من الامثلة للاستعارة الحمودة والمذمومة .

واما حسن الاستعارة فى المرحلة الثانية، فهو انه يجب ان لا يُلمّ لفظ ما اشتمل على الاستعارة بشيء من التشبيه ولا يُشمّ منه رائحةُ التشبيه، لان الالمام والإشمام يبطلان الغرض من الاستعارة «أعنى دخول المشبه فى جنس المشبه به والحاقة به، لما فى التشبيه من الدلالة على كون المشبه به أقوى فى وجه الشبه»[٤٤٩] ولهذا لم يجعل الزمخشريُّ قوله تعالى: «حتّى يتبيّنَ لكم الخيطُ الأبيضُ مِنَ الخيطِ الأسودِ مِنَ الفجرِ»[٤٥٠] من باب الاستعارة، لان عبارة «من الفجر تنبىء عن التشبيه»[٤٥١].

ويمكن أن يخطرَ على البال ههنا أن الاستعارة «المجردة» لا تدخل فى المحمودة منها، لضعف الادعاء فيها وانتفاء التاكيد على الاتحاد بين المشبه

٤٤٧ـ العمدة، ١/٢٧٠ .

٤٤٨ـ الصناعتين، ٣٠١ .

٤٤٩ـ المطول، ٣٢٥ .

٤٥٠ـ البقرة، ١٨٧ .

٤٥١ـ الكشاف ١/١١٦ .

والمشبه به، نعم، ان الادعاء او التاكيد على الاتحاد ضعيف فى «المجرّدة» بالنسبة الى «المرشحة» التى هى من أحسن انواع الاستعارة، وأما ضعفه مطلقا فممنوع[٤٥٢].

فان قلت : اذا كان من حسن الاستعارة رعايةُ جهات حسن التشبيه التى من جملتها ان يكون وجه الشبه بعيدا غير مبتذل، فقربه وجلاؤه ينافى ذلك . قلنا : الجلاء والخفاء مما يقبل الشدة والضعف، فيجب ان يكون من الجلاء بحيث لا يصير الغازا ومن الغرابة والخفاء بحيث لا يصير مبتذلا[٤٥٣].

اعلم انه اذا خفى وجه الشبه بين الطرفين لم تحسن الاستعارة فيهما و يتعين التشبيه، و ذلك كقول النبى (ص) «الناسُ كإبلٍ مائـةٍ لا تَجِدُ فيها راحِلةً» فلا يحسن فيه التحويل الى الاستعارة وأنْ تقـولَ : رايتُ إبلا مائةً ... ، لخفاء وجه الشبه فان المعروف من الابل غاية الصبر اوقلة الفهم مع عظم الجثة، لاعزة الكمال مع كثرة افراد الجنس .

وكقوله ايضا : «مثل المؤمن كمثل النخلة» او «كمثل الخامة»[٤٥٤] فلو قلت فيه رأيت نخلة او خامة، كنت كالمُلْغِز التارك لما يُفْهَم .

واذا قوى وجه الشبه بين الطرفين حتى اتحدا كالعلم والنور والشبهة والظلمة، لم يحسن التشبيه و تعينت الاستعارة[٤٥٥] .

ومِنْ حسن الاستعارة ايضا عند بعضهم ان تكون مستقلة غير مبنية على استعارة اخرى أو على مقدمة او عبارة سائرة عند الناس، فلهذا عاب الخفاجى قول امرىء القيس :

٤٥٢ـ المطول، ٣٢٥ .

٤٥٣ـ المختصر، ٢٢٨/٤ .

٤٥٤ـ الفضّة من النبات .

٤٥٥ـ ليراجع التلخيص مع شروحه ٢٢٨/٤ـ٢٢٩ ونهاية الارب ٥٢/٧.

فقلتُ لـه لمّا تَمطّى بصُلْبِهِ وأرْدَفَ أعجازاًوناءَ بِكَلْكَلِ

و وضعه فى حدّ الوسط وعلل بان هذه الاستعارة مبنية على أخرى ، بمعنى انه لما جعل لليل وسطا وعجزا استعار له اسم الصلب وجعله متمطيا من اجل امتداده، و ذكر الكلكل من اجل نهوضه، فكل هذا انما يحسن بعضه لاجل بعض[٤٥٦].

والمنزلةُ التى تبلغ الاستعارة عندها غاية الشرف والحسن عند الشيخ هى أن يكون مأخذ الاستعارة الصورة العقلية الاعتبارية، وذلك كالاستعارة النور للبيان والحجة الكاشفة عن الحق ... فى مثل قوله تعالى : «واتّبعُوا النورَ الذى أُنزِلَ معه»[٤٥٧] فالاشتراك بين النور والحجة لا يرجع الى عموم الجنس، مثل ما بين طيران الطائر وجرى الفرس فى قوله (ص) : «كلما سَمِعَ هَيْعَةً طارَ اليها» ولا يرجع ايضا الى الاشتراك فى طبيعة معلومة تكون فى الحيوان، مثل ما بين الاسد والرّجل الشجاع، بل الشبه صورة عقلية تحصل عليها من ان القلب اذا وردت عليه الحجة صار فى حالة شبيهة بحال البصر اذا صادف النور و وُجِهَتْ طلائعه نحوه[٤٥٨].

الفصل الرّابع
فى الكناية والتعريض

إن طبيعة البيان والتعبير هى الكشف عما يخطر بالبال ويُركّز فى الذهن ويُستمَدّ من الإحساس والعاطفة، والإبانةُ عما يعترى الإنسانَ

٤٥٦ــ سر الفصاحة، ١٣٩ــ١٤٠ .
٤٥٧ــ الاعراف، ١٥٧ .
٤٥٨ــ أسرار البلاغة ٧٣ــ٧٤ .

من الحاجات النفسية والعقلية، والنقل لما يجر به الشخص او يتلقاه في حياته اليومية . وليس معنى هذا ان اللون الوحيد للتعبير دائما هو التصريح بالمراد وابرازه في المعرض المكشوف، وصوغه في قالب هو أقرب نسباً له وأمس رحما . فإن هناك «ما ينبغي ستره او ما يحمد أن يصان عنه السمع واللسان، او ما يحسن الابهام في التعبير عنه»[٤٥٩] او ان الإبهام يزيد في قدره وشرفه بحيث ترى التستر والإبهام هالة من القداسة تعطى المراد أبعادا مختلفة وتبرزه في صورة رائعة فتقع في النفس موقع الحسن والقبول، و ذلك لانه «كان من المركوز في الطباع والراسخ في غرائز العقول انه متى اريد الدلالة على معنى فترك ان يصرح به ويذكر باللفظ هو له في اللغة، وعمد الى معنى آخر فاشير به اليه وجعل دليلا عليه، كان للكلام بذلك حسن" ومزية لايكونان اذا لم يصنع ذلك و ذكر بلفظه صريحا»[٤٦٠].

فهذه الموارد تستدعي لونا آخر من التعبير غير التصريح، حتى يتأتى للانسان اذا استخدمه ان يمر باللغو مر كراماً، ويجد في المعاريض لمندوحة عن الكذب ويرمي الغرض بلا رمية، ويرى الأزهار من غير أن يذبلها بالمس واللمس، ولاشك في أن الكناية والتعريض يعدان من صميم هذا اللون، فيحملان كثيرا من النكت واللطائف اللائقة بهذه المجالات، وينتجان ما لم ينتج في التصريح بالمراد .

٤٥٩ـ الاصول الفنية للادب، ١٨٢ .

٤٦٠ـ دلائل الاعجاز، ٣٤١ .

آفاق الكناية

الكناية فى اللغة :

هى ان تتكلم بشىء وتريد غيره، ويقال كنيت عن الأمر وكنوت عنه، اذا وريّت عنه بغيره . قال ابوعبيده : «كنيتُ» و «كنوتُ» لغتان فيها، انشد ابوزياد الكلابى :

وانّى لأكنو عن «قَذور»[٤٦١] بغيرها
وأعرِبُ أحياناً بها ، فأصارحُ

وانشد الآخر[٤٦٢]:

وقد أرسلت فى السرّ أنْ قد فضحتَنى،
وقد بُحْتَ باسمى فى النسيبِ وماتكنى[٤٦٣]

الكناية فى الاصطلاح :

لقد عبَرت الكنايةُ فى الاصطلاح كغيرها بالأجواء المختلفة، وجاز بالسهول والأودية المتنوعة، فثقلت حمولتها حينا وحينا خفّت، وضاقت دائرة ما عُنى بها مرّة واخرى اتسعت، وترى انها فى بعض هذه الأطوار تتناول أقساما تحتاج الى نوع من التكهن عند ارجاعها الى اصل واحد .

٤٦١ـ «قذور» اسم امراة .

٤٦٢ـ والبيت لعمر بن ابى ربيعة، و رواية الديوان : «ولم تكن»، ص ٣٩٨ .

٤٦٣ـ لسان العرب، مادة «كنى» .

واليك بعضا من هذه الاطوار :

الف ـ استعمل الفراء (ف ٢٠٧ هـ) فى مواضع من كتابه ـ معانى القرآن ـ لغة الكناية ويعنى منها تركَ التصريح بالمعنى، إما لانه شيء كان الاولى التعبير عنه بما لايكون صريحا، مثل قوله تعالى: «ولكِنْ لا تواعدوهُنَّ سِرّاً»[٤٦٤] وقوله ايضا: «اوجاء احدٌ منكم مِنَ الغائِط»[٤٦٥] فكلمة السرّ والغائط كناية عما لايكون ذكره صريحا مطبوعا.

او لأن فى ترك التصريح بالمراد غرضاً لايتاتى فى التصريح به، وذلك مثل التعبير بالضمير الغائب عن الأشياء، كقوله تعالى: «وان جَنحوا للسلم فاجنَحْ لها»[٤٦٦]. قال الفراء: «ان شئت جعلت «لها» كناية عن السلم، لانها مؤنثة»[٤٦٧].

ب ـ جاءت كلمة الكناية فى «مجاز القرآن» لابى عبيدة معمر بن المثنى التيمى (ف ٢١٠ هـ) وأراد منها نفس ما اراده الفراء، فقال فى قوله تعالى: «يسألونكَ عن الشهر الحرام قتالٍ فيه»[٤٦٨]: «فيه» كناية للشهر الحرام. وفى قوله: «اوجاء احد منكم ...»: كناية عن حاجة ذى البطن[٤٦٩].

ج ـ لقد اورد ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) الكناية فى مبحث المجاز واسلوب الكلام، وأراد منها ترك التصريح بالمراد لأغراضٍ كقصد التعظيم، او

٤٦٤ـ البقرة، ٢٣٥.

٤٦٥ـ النساء، ٤٢.

٤٦٦ـ الانفال، ٦٢.

٤٦٧ـ معانى القرآن، ٢٤٣، ١٥٣، 316.

٤٦٨ـ البقرة، ٢١٧.

٤٦٩ـ مجاز القرآن، ٧٣، ١٢٨.

الإيجاز، اوالتعبير بما يكون ألطف واحسن . فعدّ من انواع الكناية ما تُكنّى به عن اسم الرّجل تعظيما له فى المخاطبة بالكنية، كابى طالب، و ابى ذرّ وابى هريرة .

وما تترك التصريح فيه بالمراد زيادةً فى الدلالة وقصداً للايجاز ، كقوله تعالى : «يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا»[٤٧٠] فكان «فلان» كناية عن اشخاص لو ذُكِرَتْ اسماؤهم لطال الكلام ولم يدخل فيه من تأخّر بعد نزول القرآن من هذا الصنف .

وما تُعبّر به ويكون أحسن وألطف من الكشف والتصريح، كقوله تعالى : «إنّ هذا اخى له تسع وتسعون نعجةً ولى نعجةٌ واحدة»[٤٧١] فورّى عن النساء بذكر النعاج . والكناية عند ابن قتيبة تتناول التعريض والتورية ايضا[٤٧٢].

د ـ تعرّض المبرّد (٢٨٥ هـ) فى كتابه «الكامل» للكناية وقسّمها الى ضروب مختلفة و ذكر لها امثلة متعددة، فهو وان لم يفسر الكناية لكنه يظهر من تلك الامثلة والأقسام أنّ الكناية عنده عبارة عن ذكر الشىء بغير لفظه الصريح قصداً الى التعمية وإخفاء الشىء، اوتحرزاً عن استعمال عبارةٍ وضيعةٍ، او ارادةً للتفخيم والتعظيم بترك التصريح باسم الشىء .

وأحسن انواع الكناية عنده الرغبةُ عن اللفظ الخسيس المُفْحِش الى ما يدل على معناه من غيره، قال الله ـ جلّ وعزّ ـ فى المسيح بن مريم و امه : «كانا يأكلانِ الطّعامَ»[٤٧٣].

٤٧٠ـ الفرقان، ٢٨ .
٤٧١ـ ص، ٢٣ .
٤٧٢ـ ليرجع تاويل مشكل القرآن، ١٩٩ـ٢١٢ .
٤٧٣ـ المائدة، ٧٨ . ليرجع الكامل، ٢/٦٧٤ـ٦٧٧ .

هـ ـ لقد ذكر ابن المعتز (٢٩٦ هـ) في جملة محاسن الكلام الكناية والتعريض ولم يفسرهما على عادته في الاكتفاء بالمثال، ولكن يظهر من كلامه والامثلة التي اوردهما أنهما مترادفان وحاصلان بترك التصريح باللفظ الدال على المعنى المراد والاتيان بعبارة أخرى تؤدي المراد من بعيد او قريب .

فمن الامثلة التي ذكره في هذا المقام انه قال : «كان عروة بن الزبير اذا اسرع اليه انسان بسوء لم يجبه، ويقول: إني لأتركك رفعا لنفسي عنك . فجرى بينه وبين علي بن عبدالله بن عباس كلام" فأسرع اليه عروة بسوء، فقال: اني اتركك لما تترك الناس له: فاشتد ذلك على عروة[٤٧٤].

و ـ وقال العسكري (٣٩٥ هـ) : «وهو أن يكنى عن الشيء ويعرض به ولا يصرح، على حسب ما عملوا باللحن والتورية من الشيء»[٤٧٥]. والظاهر من كلامه انه لا يفرق بين الكناية والتعريض .

ز ـ لقد تصفحت كتاب تلخيص البيان للشريف الرضي (ف ٤٠٦ هـ) وتتبعت لغة الكناية واستعمالها والمراد منها عنده، فوجدت ان الكلمة وردت في مواضع متعددة واريد بها الاستعارة، وبعبارة اخرى أن الكناية في هذا الكتاب جاءت مرادفة للاستعارة . فمثلا قال في تفسير قوله تعالى: «إن هذا اخي له تسع" وتسعون نعجة" ولي نعجة" واحدة" ... : «ان هذا الكلام داخل في حيز الاستعارة، لان النعاج ههنا كناية عن النساء»[٤٧٦].

ح ـ وجعل صاحب سر الفصاحة (ف ٤٦٦هـ) الكناية من باب الإرداف

---

٤٧٤ ـ البديع، ١١٥ .

٤٧٥ ـ الصناعتين، ٣٦٨ .

٤٧٦ ـ تلخيص البيان، ٢٠٤ .

والتتبع الذى هو ترك التصريح باللفظ الخاص بالمعنى المراد، وارادته بلفظ تابع وردف له فيه من المبالغة والشرف والحسن[٤٧٧].

ط ـ اما الشيخ عبدالقاهر (٤٧٤ هـ) فهو ذكرها فى دلائل الاعجاز و عدّها قسما هاماً من اللفظ **الذى** يُطلَقُ ويُرادُ به غير ظاهره. والكناية عنده «أن يريد المتكلم اثبات معنى من المعانى، فلا يذكره باللفظ الموضوع فى اللغة، ولكن يجىء الى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود، فيومىء به اليه ويجعله دليلا عليه» و ذكر فى امثلتها قولهم: «هو طويل النجاد» و قال: «أفلا ترى ان القامة اذا طالت طال النجاد»[٤٧٨].

ى ـ وجاء ابن الرشيق (ف ٤٥٦ هـ) وتعرض للكناية، فتارة يعدّها من المجاز[٤٧٩]، وتارة من انواع الاشارة التى فسرها بقوله: «وهى فى كلّ نوع من الكلام لمحة" دالّة، واختصار وتلويح يُعرَف مجملا ومعناه بعيد من ظاهر لفظه»[٤٨٠].

س ـ وفرّق اسامة بن منقذ (ف ٥٢٨ ؟) بين الكناية والاشارة، فعنده ان الاشارة ما هو الى كلّ شىء حسن، كقوله عزوجل «فيهن قاصِرات الطَرْف»[٤٨١] اشارة الى عفافهن، والكناية ما هو عن كلّ شىء قبيح، كقوله سبحانه: «كانا يأكلان الطعام» كناية عن قضاء الحاجة. فعدّ امثال جبان الكلب، وطويل النجاد من الإشارة[٤٨٢].

٤٧٧ـ سر الفصاحة، ٢٧٠ـ٢٧٢.

٤٧٨ـ دلائل الاعجاز، ٥٢ـ٥٥.

٤٧٩ـ العمدة ١/٢٦٨.

٤٨٠ـ المصدر نفسه ١/٣٠٢، ٣٠٥.

٤٨١ـ الرحمن، ٥٦.

٤٨٢ـ البديع، ٩٩.

ع- وقال الزمخشري : (ف ٥٣٨ هـ) الكناية ان تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، كقولك : طويل النجاد والحمائل، لطول القامة، وكثير الرماد، للمِضْياف»[٤٨٣].

ف- و ذكر ابن ابى الاصبع (ف ٦٥٤ هـ) الكناية فى كتابه وفسرها من ناحية الغرض والفائدة المترتبة عليها، فالكناية عنده التعبير باللفظ الحسن عن المعنى القبيح والسخيف لقصد نزاهة الكلام عن العيب، وقد تأتى للتعبير عن الصعب بالسهل، اوالبسط بالايجاز، او تأتى للتعمية والالغاز، او للستر والصيانة[٤٨٤].

فترى الكناية عندهم وفى هذه الأطوار معروفة ومعهودة، و استعملت فى كلامهم وتكررت وعبَّرَت من المعانى المختلفة وتلوّنت بها، لكنها لم تصل الى المرحلة التى وصلها عند الآخرين . كابن الاثير (ف ٦٣٧) والسكاكى (ف ٦٢٦) فإن الكناية عندهما ادقُّ حدوداً وأبينُ آفاقا .

الكناية وأقسامها عند ابن الاثير :

الكناية عنده «كلّ لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز»[٤٨٥]. و ذلك كقوله تعالى : «أيُحِبّ احدُكم أنْ يأكلَ لحمَ أخيه ميتاً»[٤٨٦] فانّه كنى عن

٤٨٣- الكشاف ١٤٣/١ .

٤٨٤- بديع القرآن، ٥٣ .

٤٨٥- المثل السائر ١٩٤/٢ .

٤٨٦- الحجرات، ١٢ .

الغِيبة بأكل الانسان لحم انسان آخر، لان الغيبة ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم كما ان الاكل فى الحقيقة تمزيق المأكول، فالوصف الجامع بين المعنى الحقيقى والمجازى هو التمزيق غير انه حسى فى الاكل ومعنوى فى الغيبة.

وتنقسم الكناية عند ابن الاثير من حيث العلاقة بين المعنى الكنائى والحقيقى الى أربعة أقسام:

الاول ــ التمثيل وهو التشبيه على سبيل الكناية، و ذلك كأن تريد الاشارة الى معنى فتضعَ الفاظا تدل على معنى آخر، وتكون تلك الالفاظ و ذلك المعنى مثالا للمعنى الذى قصدت الاشارة اليه. كقولنا: فلانٌ نقيُّ الثوب، اى منزّه. اوكما رأيت فى «أيُحِبُّ أحدُكم أنْ يأكلَ..»

الثانى ــ الرّدف، وهو ان تريد معنى وتترك الالفاظ الموضوعة له وتاتى بما هو كالدليل والمرادف لذلك المعنى المقصود. مثل فلانٌ طويلُ النّجاد، تريد به طول القامة. فطول النّجادِ دليل على طول القامة فى الاكثر، وكأنه يرادفه. ومنه قولُه تعالى: «ليس كمثلِهِ شيءٌ، وهو السميعُ البصيرُ»[٤٨٧] و قولك: مثلُك لايبخلُ، لان النفى عن مثل الشيء نفى عن ذلك الشيء.

الثالث ــ المجاورة، وهى أن تريد معنى وتترك لفظه الدال عليه بالوضع ذاكرا عبارة تدل على معنى مجاور لما تريده، فتكتفى بذكرها و دلالتها الكنائية. و ذلك كقول عنترة بن شدّاد العبسى:

وشككتُ بالرُمحِ الأصمِّ ثيابَه ليسَ الكريمُ علَى القَنا بمُحرَّمِ

كنى عن نفس الشخص بالثياب، لانه وصف المشكوك بالكرم ولا

٤٨٧ـ الشورى، ١١.

توصف الثياب به، فثبت انه اراد ما تشتمل عليه الثياب .

الرّابع ـ ما ليس بالتمثيل والرّدف والمجاورة، كقوله تعالى : «أوَ من يُنشَّأُ في الحِليْةِ وهو في الخِصام غيرُ مُبين»[٤٨٨] فكنى عن النساء . بالاشتغال والعلاقة بالتزين وعدم الإبانة في الحجة عند المخاصمة.

وكقول ابي نواس :

تقولُ التي مِنْ بيتها خَفَّ محملي :
عزيزٌ علينا أنْ نراكَ تَسيرُ

فكنى عن ذكر امرأته بقوله : «التي من بيتها خفّ محملي» ولا يخفى حسن هذه الكناية .

فهذه الاقسام هي ما ذكره ابن الاثير في كتابه «الجامع الكبير»[٤٨٩] و لكن علق عليها ملاحظات في كتابه الآخر «المثل السائر»[٤٩٠] ومن اراد الاطلاع عليها فليرجع اليه .

الكناية واقسامها عند السكاكي :

اما السكاكي فهو فسر الكناية بـ «ترك التصريح بذكر الشيء الى ما يلزمه، لينتقل من المذكور الى المتروك»[٤٩١] وتمتاز الكناية عنده من المجاز بوجهين : احدهما انّ مبنى الكناية على الانتقال من اللازم الى الملزوم و مبنى المجاز على العكس . الثاني انّ الكناية لاتنافي ارادة الحقيقة بلفظها،

٤٨٨ـ الزخرف، ١٨ .
٤٨٩ـ الجامع الكبير، ١٥٧ . ١٦٠ـ١٦١ـ١٦٥ .
٤٩٠ـ المثل السائر ٢/١٩٩ـ٢٠٠ .
٤٩١ـ المفتاح، ١٨٩ .

فلايستنع ان يراد من «نَئُومُ الضُحى» انها تنام فى الضحى مع ارادة كونها مخدومة مُرفهّةً. ولكن المجاز ينافى ذلك، فلايصح ان يراد فى «رعينا الغيثَ» المطرُ، لان المجاز مصحوب بقرينة مانعة عن ارادة المعنى الحقيقى.

والكناية عنده تنقسم من جهات مختلفة الى اقسام متعددة، فمن حيث نوع المُراد بها تنقسم الى ثلاثة اقسام:

الاول ــ المطلوب بها الموصوفُ وهو ما يقوم بنفسه، كما رأيت فى قوله عزوجل: «أومن يُنشّأُ فى الحِلْية ...» وقول ابى نواس: «تقول التى مِنْ بيتِها خَفّ محملى» فالمُكنّى عنه فيهما هو الموصوف لا غير.

والمكنّى به عن الموصوف يمكن ان يكون معنى واحداً يختص بالمراد، فيدلُ عليه بأبسط وجه وأقربه الى السهولة مثل «مَجامِع الأضْغانِ» كنايةً عن القلب فى قول الشاعر:

الضاربينَ بكل أبْيضَ مِخْذَمٍ والطاعنينَ (مجامعَ الأضْغانِ)

او مجموعة معانى تحتاج فى اختصاصها بالموصوف المُكنّى عنه الى تكلف ضم اللوازم بعضها الى بعض، فتَلفَقُ مجموعاً وصفيا يعدُهُ فى الدلالة على المراد بعيدا بالنسبة الى ما كان المكنى به معنى واحدا، و ذلك كقولك: «بَطلُ الإسلامِ وحبيبُ النّبىِ ومُفجّعُ هِندٍ والشهيدُ بأحُد» كنايةً عن حمزةَ سيدِ الشُهداءِ.

الثانى ــ المطلوب بها الصفة، ويراد بها ما يجرى مجرى الجود والكرم والشجاعة كقول اسماعيل بن يسار فى رثاء عروة بن الزبير:

منعَ التَعزىَ أننى لِفراقهِ

(لبِسَ العَدُوّ علىّ جِلدَ الأرْبَدِ)[٤٩٢]

٤٩٢ــ الأربد: الاسد.

فانه كنّى عن مجاهرة غيره له بالعداوة بـ «ابس العدو ...» .

وكقول أعرابي لما سُئِل عن اشتعال شيبِه: «هذا غبارُ الوَقائع».

وقد يتوسط بين المكنى والمكنى عنه في هذا القسم وسائط، فينتقل المخاطب الى المراد من لازم بعيد، و ذلك كقول الخنساء في أخيها صخر:

طويلُ النّجادِ رفيعُ العِمادِ (كثيرُ الرّمادِ) اذا ماشتا

فكنّت عن كرم أخيها بكثرة الرّماد، لكنّ فهمَ المراد يحتاج الى توسط لوازم أخرى فان كثرة الرّماد تستلزم كثرة حرق الحطب، ثم كثرة الطبخ، ثم كثرة الضيوف . اما قولها : «طويل النِجاد» كنايةٌ عن طول القامة، فهو لايحتاج الى التوسط، لأنّ طول حمالة السيف تستلزم طول الجسم بلا واسطة، فينتقل المخاطب الى المراد من لازم قريب .

الثالث ــ المطلوب بها تخصيص الصفة بالموصوف، او بعبارة اخرى اثبات امر لأمر آخر ونفيُه عنه . و ذلك كقول الشَنْفرى :

يَبيتُ بمنجاةٍ عن اللّوم بيتُها ، اذا ما بيوتٌ بالمَلامَةِ حَلّتِ

فانه لما أراد ان يصف زوجته بالعفاف والبراءة عن الملامة نسب تلك الصفات الى بيتها على سبيل الكناية، ولايخفى حسنها لما فيها من المبالغة والتأكيد، فالمراد بالعبارة الكنائية هاهنا اثبات العفاف والبراءة لصاحبة الدار . ثم إنه لم يقل : «يظلّ بمنجاة ...» قصداً الى زمان يكثر فيه التهمةُ والسّلامة[٤٩٣].

ومن حيث كثرة الوسائط وقلتها، وخفاءِ المراد و وضوحِه، وذكر الموصوف وحذفه تتفاوتُ الكناية الى تلويحٍ، و رمزٍ، وايماء وإشارةٍ، وتعريضٍ .

٤٩٣ــ المفتاح، ١٩٠ــ١٩٣ .

التلويح ـ كناية انتقل المخاطب فيها من لازم بعيد الى المراد، او بعبارة اخرى ما توسطَتْ فيه لوازم بين المكنّى به والمكنّى عنه، كما عرفت فى «كثير الرّماد».

وكقول نصيب:

لعبدِ العزيزِ على قومِهِ ... و غيرهم ، مِنَنٌ ظاهِرَهْ

فبابُكَ أسهَلُ أبوابِهم ، ... و دارُكَ مأهولةٌ عامِرَهْ

و كلبُكَ آنَسُ بالزائريـ ... نَ مِنَ الأمِّ بالابنَةِ الزائِرَهْ

فانه كنى عن وفور احسان عبدالعزيز الى الخاص والعام بأنس كلبه بالزائرين، فأنتَ تنتقل مِنْ أنسِ الكلب بالزائرين الى أنهم عنده معارف، ثم الى اتصال مشاهدته اياهم، ثم الى لزومهم باب عبدالعزيز، ثم الى المراد[٤٩٤].

ومنه قول أعرابية فى وصف زوجها: «له إبلٌ قليلاتُ المَسارحِ كثيراتُ المَبارِكِ، إذا سَمِعْنَ صوتَ المِزْهَرِ أيقنَّ انهنَّ هَوالِكُ»[٤٩٥].

و وجه التسمية بالتلويح، هو ان التلويح بمعنى الاشارة الى غيرك من بعيد، فتناسب الكنايةُ التى ينتقل فيها المخاطب الى المراد من بعيد ان تُسمّى به.

الرّمزُ ـ كناية اشرتَ فيها الى المراد بلازم قريب مع نوع من الاستتار، اوان شِئْتَ فقل: كنايةٌ ذاتُ مسافة قريبة مع نوع من الخفاء، و ذلك كقولك: «عريضُ القَفا» كناية عن الأبله. وقولك ايضا: «نعتُه

٤٩٤ـ المصدر نفسه، ١٩١ـ١٩٤.

٤٩٥ـ المثل السائر ٢/٢٠١.

لا ينصَرِف» تريد أنه احمق .

وقال الشاعر :

صاحبُنا أحوالُه عاليَه ْ لكنّما غرْفَتُه خالِيه[٤٩٦]

فكنّى عن قلة الدّماغ والعقل بخلاء الغرفة، ولا يخفى ما فى هذه الكنايات من الخفاء . وسببُ إطلاق «الرمز» على هذا القسم، أن الرمز بمعنى الاشارة من قريب على سبيل الخُفْيَة، قال الله تعالى فى قصّة زكريّا: «ألاّ تكلّمَ الناسَ ثلاثة ايّامٍ إلاّ رمزا»[٤٩٧].

الإيماء والإشارة ـ كنايةٌ اشرتَ فيها الى المراد بلازم قريب بلا اخفاء، و ذالك كقول البحترى :

أوَ ما رأيتَ المجدَ ألقى رحلَه فى آلِ طلحةَ ثمّ لم يتحوّلِ

فانه كنّى عن مجد آل طلحة بان المجد ألقى رحله فيهم، ولا يخفى وضوح هذه الكناية :

ومنه قول الآخر :

سألتُ الندى والجودَ مالى أراكُما تبدّلتُما ذُلاً بعزٍّ مؤبّدِ ؟
ومابالُ ركنِ المجد أمسى مُهدّما؟ فقالا: أُصِبنا بابن يحيى محمّد[٤٩٨]
فقلتُ: فهلاّ متّما عِندَ موتِهِ ، فقد كُنتُما عبديهِ فى كلّ مَشهَدِ
فقالا: أقمْنا كى نُعزّى بفقدِهِ مسافةَ يومٍ ثم تتلوه فى غدِ

التعريض ـ كناية مسوقة لاجل موصوف غير مذكور، كقولك فى عُرض من يؤذى المسلمين : «المسلمُ من سَلِمَ المسلمونَ مِنْ يده و

٤٩٦ـ الكنايات، للثعالبى، ٣٨ .

٤٩٧ـ آل عمران، ٤١ .

٤٩٨ـ الموجود فى المفتاح ١٩٤ فقال .

لسانِه» تريد به نفى الاسلام عن ذالك الشخص الموذى. فأنت ترى ان الموصوف الذى اريد نفى الاسلام منه لم يذكر فى العبارة، بل يُعرَفُ من السياق والقرائن[٤٩٩].

وهذا التعريض يأتى تارة على السبيل الخاص بالكناية، بمعنى ان ما يدل عليه يتجاذبه جانبا حقيقة ومجاز ويجوز حمله عليهما، وذالك كقولك مهدّدا : «يومُ المظلوم عليكَ أشدُّ مِنْ يومِكَ عليه» وانت تريد مع المخاطب انسانا آخر معتمدا على قرائن الاحوال .

وتارة يأتى على سبيل المجاز، بمعنى أنه يوجد هناك قرائن تشعر بان ما يدل على التعريض لا يلائم ارادة المعنى الحقيقى، كما اذا كان المخاطب بالمثال المذكور كان رجلا مظلوما، او انسانا عادلا متقيا لم يكن مظنّة للظلم . فاذا قلت له : «يوم المظلوم عليك ...» واردت غيره، جرى هذا التعريض على سبيل المجاز[٥٠٠].

فالتعريض عندالسكاكى قسم من الكنايه او صورة منها سيقت لأجل موصوف غير مذكور، وليس شيئا آخر غير الكناية . والتحقيق انه غير الكناية، ويوجد بينهما فروق كما سيأتى .

التعريض والمراد منه

التعريض فى اللغة :

يقال : عرّض لى فلان تعريضا، اذا رحرح بالشىء ولم يبيّن . و

٤٩٩ـ المفتاح، ١٩٣ـ١٩٤ .

٥٠٠ـ المصدر نفسه، ١٩٤ .

اعراض الكلام ومعارضه ومعاريضه : كلام يُشْبِه بعضُه بعضا في المعاني، كالرّجل تسأله : «هل رأيتَ فلانا ؟» فيكره ان يكذب وقدرآه، فيقول: «إن فلاناً ليُرى» .

والتعريض خلاف التصريح، والمعاريض التورية بالشيء عن الشيء .

قال النبي (ص) : إنّ في المعاريض لَمَنْدوحةً عن الكذب[٥٠١].

التعريض في الاصطلاح :

لقد عبر التعريض في الاصطلاح ايضا من الأجواء المختلفة كالكناية ، فترى الشافعي (١٥٠-٢٠٤ هـ) في باب التعريض بالخِطْبة من كتاب الامّ يقول : «والتعريضُ كثير وهو خلاف التصريح، وهو تعريض الرّجل للمرأة بما يدلّها به على إرادة خطبتها بغير تصريح، وتجيبه بمثل ذلك»[٥٠٢] فمعنى هذا الكلام هو أن التعريض ترك التصريح، والتعبير بما يدل على المراد من بعيد أعم من أن تكون الدلالة بواسطة اللفظ والوضع مباشـرة، او جاءت من السياق والقرائن، لعل الشافعي أقدمُ من تعرّضَ الى التعريض وتفسيره على ما وجدتُه .

وجعله ابن قتيبة من باب الكناية وعنى منه ما يبلغ به الشخص إرادته بوجه ألطف وأحسن من الكشف والتصريح، فمن الامثلة التـي اوردهـا للتعريض ما قاله اعرابي لما خرج مع أصحابِه لجمع المؤنة والقـوت، و فرغوا من العمل و رجعوا، ذهب رجل منهم في بعض الليل الـى عُكْم[٥٠٣] الاعرابي فأخذمنه بُرّاً وجعله في عكمه، فلما قاموا للرّحيل رأى الاعرابي

٥٠١- اللسان مادة، عرض .

٥٠٢- الامّ ٨/١٧٠ .

٥٠٣- العُكْمْ : العِدْل مادام المتاع فيه .

أن عُكْمه خفيف وعُكْم صاحبه ثقيل، فأنشد :

عُكْمٌ تغشّى بعضَ أعكامِ القومِ

لم أرَ عُكماً سارِقاً قبلَ اليومِ

فعرّض بخيانة صاحبه بوجه هو الطف من التصريح[٥٠٤].

ولقد سبق أن الظاهر من كلام ابن المعتز والعسكرى هو ان التعريض والكناية مترادفان، وان كلاً منهما يأتى فى موضع الآخر ولا يوجد بينهما فرق[٥٠٥].

وجاء التعريض فى «عيار الشعر» لابن طباطبا (ف ٣٢٢ هـ) ويراد منه تركُ التصريح والاختصارُ الذى ينوب عن الإطالة، و ذلك كقول عمرو بن معدى كرب :

فلو أنَّ قومى أنْطَقَتْنى رماحُهم نَطَقْتُ ،ولكنَّ الرّماحَ أجَرّتِ

اى لو انَّ قومى بذلوا جهدَهم فى القتال وصدقوا فى الدفاع عن أنفسهم، وطعنوا اعداءَهم برماحهم، واعجبتنى بطولتُهم وشجاعتُهم ، وانطقتنى رماحُهم بمدحهم و ذكر حسن بلائهم، أطلقتُ لسانى فى ثنائهم ونطقت بمدحهم . لكنَّ رماحَهم شقّتْ لسانى فما جرى بمدحهم، و أسكتَتْنى فما أتيتُ بثنائهم .

وكقول لبيد :

تمنى ابنتاىَ أنْ يعيشَ أبوهما ،

وهل أنا إلاَّ مِنْ ربيعةَ او مُضَرْ؟[٥٠٦]

٥٠٤- تاويل مشكل القرآن، ٢٠٤ .

٥٠٥- البديع، ١١٥ والصناعتين، ٣٦٨ .

٥٠٦- عيار الشعر، ٣٠ .

اراد انه يموت يوما كغيره، ولا يكون بينه والآخرين فرق امام الموت ، ألا ترى انه فرد من افراد قبيلة ربيعة او مضر ؟ وانت تعلم انه لم يكتب لهم البقاء، فكذلك لم يكتب له ان يعيش دائما .

و ذكر ابن رشيق القيرواني التعريض في باب الاشارة وعده نوعا منها، فهو لم يأت بتفسير له ولم يشر الى الفرق بينه وبين سائر انواعها الكثيرة، وكل ما جاء به في هذا المجال انه أورد للتعريض امثلة متعددة، منها قول كعب بن زهير لرسول الله (ص) :

فـي فِتْيَةٍ مِنْ قـريشٍ قـال قائلُهم
ببطنِ مكَّةَ لمَّا أسْلَموا : زُولوا

فعرّض بعمر بن الخطاب وقيل بابي بكر رضي الله عنهما، وقيل برسول الله (ص) تعريض مدح[٥٠٧].

والى هذا نرى أن معنى التعريض في الاصطلاح يدور حول مفهوم عام مبهم اعني الاختصار، او ترك التصريح، او ترادفه للكناية، اوما شابهها . لكن التعريض لايقف عند هذا الحد، فيصل الى الاخرين وينال حظاً جديداً من التحقيق والتدقيق .

لقد فرّق الزمخشري بين الكناية والتعريض و أشار الى نكت دقيقة في التعريض، فقال : «والتعريض أن تذكر شيئا تدل به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج اليه : جئتك لأسلّم عليكَ ولأنظرَ الى وجهك الكريم . ولذلك قالوا : وحسبك بالتسليم مني تقاضيا . وكأنه امالة الكلام الى عرض يدلّ على الغرض»[٥٠٨]. والظاهر ان الزمخشري اراد

٥٠٧ـ العمدة ٣٠٣/١ .
٥٠٨ـ الكشاف ١٤٣/١ .

فى كلامه هذا، ان دلالةالتعريض علىالغرض والمراد لاتتأتى من ناحية متن اللفظ بل من سياق العبارة وفحوى الكلام، وأن التعريض ترك التصريح بما يدل على الغرض و ذكرهُ بكلامٍ آخر يشير اليه من طريق السياق والفحوى[٥٠٩].

والتعريض عندابن الاثير ايضا حازمفهوما دقيقا، ففسره باللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقى ولا المجازى . ثم قال: «فانّك اذا قلتَ لمن تتوقع صلته ومعروفه بغيرطلب: والله إنى لمحتاج ٌ وليس فى يدى شيء ٌ، وأنا عريان والبردُ قد آذانى، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب . وليس هذا اللفظ موضوعا فى مقابلةالطلب لاحقيقة ولا مجازا، وانما دلّ عليه من طريق المفهوم»[٥١٠].

والتحقيق فى بيان معنىالتعريض وتحديده وبيان الفرق بينه وبين الكناية وغيرها أن يقال : انالتعريض هواللفظالمستعمل فيما وُضع له مع الاشارة الى ما لم يوضع له من السياق، والموضوعُ له والمعرّضُ به مقصودان فيه، غير أنّ الاول من اللفظ والثانى من فحوى الكلام، وانّ الكناية هى اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له اصالةً والموضوع له تبعاً، امّا المجاز فهو اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له فقط ويقابله الحقيقة و هى اللفظ المستعمل فى ما وضع له فقط . وقد تقيّد هذه الحقيقة بالمجرّدة احترازا عن الكناية، اذ قد تسمى حقيقة غير مفردة حيث يراد فيها المعنى الحقيقى ايضا .

والمرادُ بالموضوع له فى التعريض اعمّ من أن يكون حقيقة او مجازا او كناية، اذ يجوز ان يكون اللفظ مستعملا فى معناه الحقيقى، او

٥٠٩- ليراجع حاشيةُ السيد على المطول، ٤١٢-٤١٣ .

٥١٠- المثل السائر ٢/١٩٨ .

المجازي، اوالمكني عنه وقد دلّ به اى بالمستعمل فيه من تلك المعاني على مقصود آخر بطريق إمالة الكلام الى عُرْضٍ، فالتعريض يجامع كلا من الحقيقة والمجاز والكناية[٥١١].

فالاول ــ كما اذا قلت فى عُرضٍ من يتكلم بالسوء ويمقته الناس: «لستُ أتكلمُ بالسوء فيمقتني الناسُ»، تريد ان ذلك الشخص المتكلم بالسوء ممقوت عند الناس. فالكلام حقيقة فى إفادة نفي ما يريد المتكلم عن نفسه، لكن لما سيق عند تكلم فلان بالسوء أفاد معنى التعريض ايضا، غير أن فهم هذا المعنى جاء من ناحية السياق لا الوضع.

والثاني ــ كأن تقول حينما ترى بطلا شجاعا حرًا انقاد للئيم: «إنّ الأُسودَ لاتأكلُ مِنْ فريسة الضَّبُعِ» فالكلام مجاز، وحقيقته أن الشجعان والأبطال لاتخضع امام اللئام ولا تعيش على ايديهم، فتعرض بشخص كان يخضع للئيم ويركع له طمعا فى المال او الجاه.

والثالث ــ كما اذا قلتَ: «المُسلمُ من سلم المسلمون مِنْ لسانِه ويدِه» وتريد به التعريض بنفي الاسلام عن مؤذٍ معيّن، فالمعنى الاصلي هاهنا انحصار الإسلام فيمن سلم المسلمون من يده ولسانه، والمعنى الكنائي نفي الإسلام عن مطلق المؤذي. فاذا استعمل اللفظ فى المعنى الاخير ولم يكن هناك شخص معيّن يؤذي الناس حتى تُعرّضَ به كان الكلام كناية فقط، والاّ جاز ان يعرض بهذا الشخص المعين انه غير مسلم فيصير الكلام تعريضا ايضا[٥١٢].

٥١١ــ ليراجع حاشية السيد على المطول، ٤١٣ــ ٤١٤.

٥١٢ــ ليراجع حاشية الدسوقي ٢٦٨/٤.

تلخيص الفرق بين التعريض والكناية

ويستفاد مما سبق أن الفرق بين التعريض والكناية يُلخّص فيما يلى:

الاول ـ أن التعريض أخفى من الكناية، لان دلالتها لفظية وضعية[٥١٣]، و دلالة التعريض من جهة المفهوم والسياق لا الوضع الحقيقى ولا المجازى.

الثانى ـ أن الكناية تأتى فى المفرد والمركب، وامّا التعريض فانّه يختص باللفظ المركب فلا يقع فى المفرد، و ذلك لان الدلالة فيه تتأتى ناحية السياق والمفهوم التى تحتاج الى إثبات حكم او نفيه، وهذا شيء لا يستقل به اللفظ المفرد .

الثالث ـ أن اللفظ ظاهر فى المعنى المجازى فى الكناية ، واما فى التعريض فهو ظاهر فى بيان المعنى الحقيقى .

الرابع ـ انّ المعنى الكنائىَ مقصود أصالةً والمعنى الحقيقىَ مقصود تبعاً، وامّا فى التعريض فهما مقصودان على السواء .

بلاغة الكناية والتعريض

عرفنا أن الكناية والتعريض لون من ألوان التعبير يُعرَض فيه الحقائقُ عرضا غيرَ مباشرٍ، لانه كما ان بعض مقامات الكلام يقتضى التصريح بالغرض والتعبير عن المراد مباشرة، فان هناك ايضا ما يستدعى الاشارة الى المطلوب من بعيد، فتكون فى النفس أوقعَ وأحلى وعند

٥١٣ـ المراد بالوضع المعنى العام .

بيان الغرض أنسب وأولى. قال الشيخ فى «أسرار البلاغة»: «ومن المركوز فى الطبع أنّ الشيء اذا نيل بعد طلبٍ له او الاشتياقِ اليه، ومعاناةِ الحنين نحوَه، كان نيله أحلى وبالميزة أولى، فكان موقعُه من النفس أجلّ و ألطَف، وكانت به أضنّ وأشْغف»[٥١٤].

فالتعبير بطريق غير مباشر يُعطى المسألة عمقا وجلالا، ويلبسها طراوةً وجمالاً، ويوسّع فى أجْوائها وآفاقها، ويبعث الانسانَ على التفكير وإعمال الذهن فى شأنها، ويزيد فى حسنها وقبولها. قال شارلتن: «والفصاحة فى عرف النقاد ان تدور بالحديث حول الموضوع ولا تمس قلبه وصميمه». وقال آخر: «قل الحقيقة كلّها، ولكن قلها بطريقة غير مباشرة ...» ولهذا كانت الكناية عند العرب أبلغ من الإفصاح، والتعريضُ أوقع من التصريح، والمجازُ أبلغ من الحقيقة[٥١٥].

فالأسلوب الكنائى يتضمن بلاغة وبراعة فى الكلام، و نكتا وفوائد فى البيان لاتتحقق تلك اللطائف بالتعبير المباشر. فمنها:

١ـ انه أطبق البلغاء على أن الكناية أبلغ من التصريح، وعلّلوا ذلك بأنّ الاسلوب الكنائى كدعوى الشيء مع البيّنة والبرهان. و ذلك لأنك اذا كنيت مثلا بـ «حَمّالَةِ الحَطَبِ» عن الساعى، و به «طويلِ النّجاد» عن طويل القامة، فقد اثبت المطلوب باثبات شاهده و دليله وهو علم على وجوده، و ذلك لامحالة ابلغ من اثبات المراد بنفسه، فيكون سبيل هذا اللون من البيان سبيل الدعوى مع الشاهد[٥١٦].

وايضا أنه يختار فى الاسلوب الكنائى أمسّ المعانى وألصقُ الصفات

٥١٤ـ اسرار البلاغة، ١٥٨.

٥١٥ـ الرمزية، ٥١.

٥١٦ـ دلايل الاعجاز، ٣٤٣.

وأنسب التعبيرات للغرض او المراد، حتى لو عُبّر عنه بلفظه الصريح لما حصل للقارىء والسامع ما حصل له عند الأسلوب الكنائى من التأثير في النفس وإبراز المسألة فى صورة مقبولة ومطبوعة .

٢ـ أنه يُظهر المعانى فى صورة المحسوسات، فيجعلها ملموسة ومشهودة، ويصوّرها واضحة وبيّنة، وانّه يحكى الشخص بواسطة ذلك الأسلوب انفعالَ اعجابه وما انطبع فى نفسه، والاعجاب باعتباره انفعالا تعجز اللغة العادية عن تصويره لأنها "وضِعَت" بازاء الافكار لتُعبّر عن هذا العقل الهادىء المحدود . أما الانفعال فهو قوّة تحتاج الى لغة خاصة، فيحتال الأديبُ للحصول عليها بالاستعانة من الخيال و صُوَر التعبير من التشبيه والاستعارة والكناية وحسن التعليل، لتكون ملائمة لما تؤديه من روعة وسخط وحبّ وما اليها[٥١٧].

٣ـ أنه يقع فى التعبير الكنائى من المبالغة فى الوصف مالايكون فى نفس اللفظ المخصوص بذلك المعنى، و ذلك كقول عمر بن ابى ربيعة :

بَعيدةُ مهوى القُرط ِ امّا لِنوفلٍ ابوها، وامّا عبدِ شمسٍ وهاشمِ

أراد الشاعر أن يصف امراة بانها طويلة العنق، فعدل عن اللفظ الصريح وجاء بالكناية وقال : «بعيدة مهوى القرط» فدلّ ببعد مهوى القرط على طول الجيد مع المبالغة ،و ذلك لان بعد مهوى القرط يدل على طول اكثر من الطول الذى يدل عليه طويلة العنق، لان كلّ بعيدةِ مهوى القرط طويلةٌ العنق وليس كلّ طويلة العنق بعيدة مهوى القرط، اذا كان الطول فى عنقها يسيرا[٥١٨].

٥١٧ـ علم البيان، ٢٦٠ .

٥١٨ـ سر الفصاحة، ٢٧٠ـ٢٧١ .

٤ـ أن الاسلوب الكنائي ـ وكذا التعريضي ـ أفضلُ وسيلة لبيان المراد والرمي الى الغرض والنَّيْلِ من الخصم والتشفي لغُلّة الصدر، و مع هذا كله لا يجد الخصم فيه على الشخص سبيلاً ولا يأخذ عليه دليلا ، فكأن الاسلوب الكنائي رميةٌ من غير رامٍ . قال المتنبي معرّضا بسيف الدولة ومادحاً كافورَ :

رَحلْتُ فكم باكٍ بأجفانِ شادنٍ
علىَّ ، و كم باكٍ بأجفانِ ضيغمِ
وما رَبّةُ القرْطِ المليحِ مكانه
بأجزَعَ مِنْ ربِّ الحُسامِ المُصَمِّمِ
فلو كان مابي مِنْ حبيبٍ مُقَنَّعٍ
عَذَرْتُ ، و لكِنْ مِنْ حبيبٍ مُعَمَّمِ
رمى واتّقى رميي، ومِنْ دونِ مااتّقى
هوىً كاسِرٌ كفي و قوسي و أسهُمي
اذا ساءَ فِعْلُ المرءِ ساءَتْ ظنونه
و صَدّقَ ما يعتادُه مِنْ توهُّمِ

كنّى الشاعرُ عن سيف الدولة في هذه الأبيات با«لباكي باجفانِ الضيغمِ» و «ربّ الحُسامِ المصمّم» و «الحبيب المُعمّم» وأشار الى انه يقوم بما هو من شيمة النساء اعني الغدر، ثم لامه على مباهتته بالعدوان، ثم رماه بالجُبْن لانه يرمي ويتقي الرمي خلف غيره .

والمتنبي لايعامله بالمثل لانه لايزال يحمل بين جوانحه هوى قديما يكسر كفه وقوسه وأسهمه اذا حاول النضال، ثم وصفه بانه يُسيء الظن بأصدقائه لأنه سيّئ الفعل وكثير التوهم .

فترى ان المتنبي كيف نال من سيف الدولة، وأفرغ ما في قلبه،

بدون ان يذكر اسمه ويجعل له على الشاعر حجة[٥١٩].

٥ـ انه يعتبر "كرد" فعل لطريقة البرناسية (Ecole Parna ssienne) التى لاتعنى بالخوالج النفسية، وتقصر عنايتها على نقل الطبيعة نقلاموضوعيا لايتدخل الفنان بشعوره الشخصى فيه، ولايحفل باظهار السمات الجمالية به. فالاسلوب الكنائى لون من الطريقة الرمزيه (Ecole Symboliste) التى دعت امام البرناسية الى التعبير بالايماء والايحاء والتكنية والهمس، لتترك للقارى نصيبا ايجابيا فى تكميل الصورة وتوسيع الفكرة وتقوية العاطفة بما يضيفه الى المعانى من توليد فكره وتجديد شعوره. قال الشاعر مالرميه (mallarme): «إن البرناسيين يتناولون الشيء كلّه ويظهرونه كلّه، فيفقدون بذلك سحر الخفاء ويسلبون الذهن نشوة الطرب التى ينشئها فيه اعتقاده بانه يخلق. إن الشاعر اذا سمّى الشيءَ باسمه فقد افقد القصيدة ثلاثة أرباعِ المتعة. وما هذه المتعة" الا اثر السعادة التى يشعر بها القارىء وهو يضرب رويدا رويدا فى أودية الحدس، و ذلك هو الحلم...»[٥٢٠].

٦ـ ان الأسلوب الكنائى ينزع الى اللغة الطبيعية بتمثيل الأشياء بخصائصها[٥٢١]، كما ترى فى هذه الامثلة: «كأنَّ أخمصَها بالشوكِ مُنتَعِل"» كناية عن الدّلال والغُنج، وقول الشاعر:

والضّاربينَ بكلِّ أبْيضَ مِخذَمٍ
والطّاعِنينَ مَجامعَ الأضْغانِ

كنى «بمَجامعِ الأضغانِ» عن القلب، فهو "ربّما لايُفارقها.

٥١٩ـ جواهر البلاغة، ٣٥٥.

٥٢٠ـ دفاع عن البلاغة، ١٤٦.

٥٢١ـ الصور البيانية، ٤٥٤.

٧ـ أنه يتضمن التحرز عن التصريح بما لا يحسن ذكره صراحة، كما ترى في قول اعرابية حينما لدغتها عقرب وصرخت صرخة فسألها ابوها عن السبب : «لدغَتني عقربٌ» قال لها : «أين؟» قالت : «الموضعُ الذي لايضَع فيه الراقي أنفه» .

٨ـ أنه وسيلة لترك اللفظ المتطير من كرهٍ الى ما هو أجمَلُ منه، كقولهم : «لحق باللطيف الخبير» يكنّون به عن الموت، فتركوا التصريح به كرها له وتطيرا منه .

ومن هذا الباب انهم يكنّون عن اللّديغ بـ«السّليم» و عن الأعمى بـ«البصير» وعن المَهلكة بـ«المفازة» وعن ملك الموت بـ«أبي يحيى» . وقد ظرف الصاحب في وصف أخوين مليح وقبيح حيث قال :

أخٌ حَكَى وجهَ أبي يحيى ... يحيى حكى السُحيّا ، ولكنْ له[٥٢٢]

٩ـ انه وسيلة لترك التصريح بصناعة قد اشتهرت بين الناس بالخسة، مثل الحياكة، فتركوا التصريح بها وكنوا عنها بذكر منافعها، فيقال : «هو يُزيّنُ الأحياءَ ويُجهِزُ الموتى» .

١٠ـ أنه يقصد به الذم بعبارة ظاهرة في المدح، كقول العرب: «أرانيه اللهُ أغرّ مُحَجّلا» اي مقيدا، فظاهر العبارة مدح وباطنه ذمّ .

١١ـ أنه وسيلة للأدباء والبلغاء كي يعبّروا عما يجري بينهم، بحيث يخفى ذلك على غيرهم .

١٢ـ أنه وسيلة للتوسع والتفنن في اللغات والعبارات، كما ترى في الكناية عن الملوك «بقوم موسى» ، وعن اشتهر أمره «بقائد الجَمَل»، وعن الشيخ «بقائِد العنز»[٥٢٣].

٥٢٢ـ الكناية والتعريض للثعالبي، ٥٣ .

٥٢٣ـ الكنايات للجرجاني، ٣ـ٤ .

فلا تغرنك هذه اللطائف بأن الكناية مقبولة فى كل موضع، لانه كما لا يحسن التصريح بالمراد فى كل مكان كذلك لايحسن الكناية عنه مطلقا، لان مواضع الهزل والمجون وايراد النوادر يليق بها التصريح ولا تكون الكناية فيها مرضية، فان لكل مقام مقالا، ولكلٍّ غرض فنا وأسلوبا[٥٢٤].

امّا بلاغة التعريض فمنها ـ أنه يُنَوَّه به جانب الموصوف ويُفخّمُ شأنه، و ذلك كقوله تعالى: «تِلكَ الرُسلُ فضلّنا بعضَهم على بعضٍ، منهم مَنْ كلم الله و رفعَ بعضَهم درجاتٍ»[٥٢٥] قال الكشاف: «والظاهر أنه أراد محمدا (ص) لانه هو المفضّل عليهم، حيث أوتى ما لم يُؤْتَه احدٌ من الآيات ... وفى هذا الابهام من تفخيم امره وإعلاء قدره ما لا يخفى، لما فيه من الشهادة على انه العَلَم الذى لايُشتبه والمتميز الذى لا يلتبس. ويقال للرجل: «من فعل هذا؟» فيقول: «احدُكم اوبعضُكم» يريد به الذى تُعورِف واشتُهِر بنحو من الافعال، فيكون افخم من التصريح به»[٥٢٦].

ومنها ـ أنه وسيلة للتلطف والاحتراز عن المخاشنة، و ذلك كقوله تعالى: «ومالِيَ لاأعبُدُ الذى فَطَرَنى»[٥٢٧] اى ومالكم لاتعبدون، بدليل انه عقبّه بقوله: «واليه ترْجَعون» ومن هذا الباب ايضا قوله: «أأتّخِذُ من دونه آلهةً»[٥٢٨].

و وجه حسنه أنّ المتكلم يستطيع باستخدام هذا الاسلوب أن

٥٢٤ـ سر الفصاحة، ١٩٢.

٥٢٥ـ البقرة، ٢٥٣.

٥٢٦ـ الكشاف ١/١٥١.

٥٢٧ـ يس، ٢٢.

٥٢٨ـ يس، ٢٣.

يُسمعَ من يقصد خطابه به الحَقّ على وجه لا يُغضبه لانه لا ينسبه الى الباطل، ويُعين على قبوله لأنه لا يُريد للمخاطب الا ما يريد لنفسه.

ومنها ـ أنه يتوسل به لاستدراج الخصم الى الإذعان والتسليم، كقوله تعالى: «لئِنْ أشْرَكتَ ليُحبَطَنّ عملُكَ»[٥٢٩] خوطب النبي (ص) واريد غيره، لاستحالة الشرك عليه. و وجهُ حسنه أنّ الخصم يذعن بان الشرك اذا افسد عمل النبي افسد اعمالهم قطعا.

ومنها ـ أنه يُتوسل به لافادة الذم والحطّ من شأن الخصم بدون ان يذكر اسمه، و ذلك كقوله تعالى: «انما يَتذكّرُ اولوا الألْبابِ»[٥٣٠] فان فيه تعريضاً بانّ الكفار في حكم البهائم فلا يتذكرون بالآيات والمواعظ.

ومنها ـ انه يأتي للإهانة والتوبيخ، نحو قوله عزوجل: «و اذا المَوْءودَةُ سُئِلَتْ، بايّ ذنبٍ قُتِلَتْ»[٥٣١] فإنّ سؤالها لإهانة قاتلها وتوبيخه[٥٣٢].

٥٢٩ـ الزمر، ٦٥.

٥٣٠ـ الرّعد، ٢١.

٥٣١ـ التكوير، ٨.

٥٣٢ـ الاتقان ٢/ ٥٠.

الباب الثالث في الاسلوب

تمهيد :

اعلم أن البلاغيين القدامى لم يدرسوا مسائل هذا العلم الا في الجملة واجزائها والصور البيانية وألوان من المحسنات البديعية، كأنهم ظنوا أن الفصاحة والبلاغة لاتعتبر إلا في هذه الاشياء، وأن الفضل في الكلام لايرجع إلا اليها . فتدور الاعتبارات البلاغية والقواعد الجمالية دائما عندهم حول هذه الدائرة الضيقة، وتتكرر الملاحظات الفنية والبراعة الكلامية لديهم في هذا النطاق الصغير، كأن هؤلاء زعموا أن حسن البيان وقبحه لايتصوران الا في هذه الامور، او أن بلاغة البيان وبراعته تتحققان ببلاغة الجملة وأجزائها من غير اعتبار شيء آخر . نعم ان منهم من أشار في مجال تفاضل الكلام الى غيرهما من النظم والسياق، لكنهم يقصدون في الغالب ما يرجع الى الجملة لا ما يتعلق بوحدة العمل الأدبي، او أنهم لم يدرسوا النظم والسياق خارج الجملة كموضوع لمسائل علم البلاغة، فهذا هو الشيخ يشير عند بيان إعجاز القرآن الى غير الجملة بقوله : «اعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه بل وجدوا اتساقا بهر العقول واعجز الجمهور، ونظاما والتئاما، واتقانا وإحكاما»[1].

ا ــ دلائل الاعجاز، ٣٢ .

والتحقيق ان فى موطن البلاغة أشياء اخرى غير الجملة واجزائها كالقوالب الفنية والألوان التعبيرية الكلية من الحماسة والوصف والقصة و غيرها، فلها كالجملة مقتضيات ومتطلّبات اذا راعيتَها زدتَ الكلام شرفا وقدرا واذا أهملتَها تركتْ فى البيان عيبا ونقصا . فليست القواعد البلاغية والجمالية وقفا على الجملة وأجزائها فى النثر او الابيات المفردة فى الشعر فإنْ هناك مايخص الأجناس والقوالب الفنية، اى وحدة العمل الادبى . «بل ان ارسطو ليذهب الى أن الحكم على اجزاء الجنس لايكتمل الاّ بالنظر الى طبيعة الجنس الأدبى والموقف بعامة»[٢].

إن بلاغة الجملة فى حد ذاتها لاتكفى فى كمال عمل ادبى وارتفاع شأنه، فانك كثيرا ما ترى كلاما فى داخل نطاقه فصيحا وبليغا لكن اذا جعلتَه لَبِنةً من عمل أدبى فقد بلاغته وفصاحته . روى الأصمعى أنه قال : كان ابو عمر بن العلاء وخلف الأحمر ياتيان بشارا فيسلمان عليه بغاية الإعظام، ثم يقولان : يا أبا معاذ أحدثتَ؟ فيخبرهما وينشدهما، ويسألانه ويكتبان عنه متواضعَين له، ويقيمان عنده الى وقت الزوال ثم ينصرفان عنه.

وبينما أتياه يوما سألاه ما هذه القصيدة التى أحدثتَها فى سلم بن قتيبة؟ قال هى التى بلغتْكم . قالوا بلغنا انك اكثرت فيها من الغريب. قال نعم، لاننى سمعت ان سلم بن قتيبة ادعى المعرفة بالغريب، فأحببت أن أورد عليه مالايعرفه .

ثم استنشداه فأنشدهما :

بكّرا صاحبىَّ قبلَ الهجيرِ إنّ ذاكَ النّجاحَ فى التبكيرِ

ولما فرغ من انشاء القصيدة قال له خلف : لو قلت يا ابامعاذ مكان

٢ــ النقد الادبى الحديث، ٢٥٢ .

«ان ذاك النجاح ...» «بكرا، فالنجاحُ فى التبكيرِ» كان احسنَ . فقال بشار : لما بنيت القصيدة أعرابية وحشيةً قلتُ : «إن ذاك النَّجاح ...» كما تقول الاعراب البدويون، ولو قلت : «بكرا، فالنجاح ...» كان هـذا من كلام المولدين، ولايشبه ذاك الكلام ولايدخل فى معنى القصيدة . فقام خلف وقبّل بين عَيْنيه[٣].

فهذه الرّواية من عباقرة الفن وفرسان الأدب، ترينا أنـه يجب فـى الوصول الى ذروة بلاغة الكلام وقمّة براعته النظرُ الى طبيعة العمل الأدبى واعتبار ما يناسبه، كما يجب النظر الى نفس الجملة وأجزائها وما يلائمها ، لان كمال بلاغة الكلام وتمام آلة البيان وحسن قبول الفن، انـما تحصـل بالمطابقة لجميع الاعتبارات المناسبة لها فى صورها المختلفـة و أقسامهـا المتنوعة، كالجملة واجزائها، والقوالبِ الفنيةِ الكلية من الحماسة والوصف والرثاء والخطابة والمقامة وغيرها. فالاقتصار على دراسة الاعتبارات اللائقة بالجملة فى حد ذاتها وما يتعلق بها، إهمالٌ لطبيعة العمل الأدبى والقوالبِ الكلية والفنون التعبيرية التى لها اثرٌ كبيرٌ فى الإفصاح عـن الغرض ، والبلوغِ الى قرارة النفوس، والجذبِ للعقول والافئدة، والنهضِ بالهمم والنشاط . فعلى هذا كان جديرا بالمسائل البلاغية ان تحطِّمَ دائـرةَ الجملة الضيقة، وتتناول الطرقَ التعبيرية الكلية مثل أساليب الكلام وانواعها الداخلة تحتها . إن سوق مباحث البلاغة الى هذه الناحية يُعدّ عملا جديداً يستحق التقدير، لعل خيرَ من قام بهذه الدراسة الجديدة الاستاذان العالمان: احمد الشائب واحمد حسن الزيات فـى كتابيهما القيّميـن «الاسلوب» و «دفاع عن البلاغة». كان من المناسب أن ادرسَ هذه الناحية هنا بالتفصيل،

٣- دلائل الاعجاز، ٢١٠-٢١١ .

لكن لما رأيت أن الموضوع متسع بحيث يقتضى تخصيص كتاب به اكتفيت بالاشارة والاختصار فيه، آملاً أنْ تُتاح لى فرصةٌ أخرى فأعود اليه، و ما ذلك على الله بعزيز .

الأسلوب وسبب اختلاف ألوانه

الاسلوب فى اللغة الوجه والمذهب والطريق، وفى الاصطلاح يطلق ويراد به معانى متعددة، منها أنه كما قال عبدالقاهر : الضرب من النظم والطريقة فيه[٤].

ومنها ـ أنه الفن الادبى الذى يتخذه الاديب وسيلة للإقناع او التأثير.

ومنها ـ أنه طريقة التفكير والتصوير والتعبير[٥].

ومنها ـ أنه طريقة الكاتب او الشاعر الخاصةُ فى اختيار الالفاظ و تاليف الكلام[٦].

ومنها ـ أنه هيأة تحصل عن التأليفات المعنوية وهو غير النظم، لان النظم هو الهيأة الحاصلة عن التأليفات اللفظية[٧].

ويستنتج من هذه المعانى أن الاسلوب هو الطريقة التى يأخذها الفنّان والأديب لبيان افكارهما وما يجول فى نفسهما، من المعارف والعواطف والانفعالات والابتداعات .

وهذه الطريقة تختلف باختلاف الفن الذى يعالجه الفنان والاديب ،

٤ـ دلائل الاعجاز، ٣٦١ .

٥ـ الاسلوب، ٤١، ٤٦ .

٦ـ دفاع عن البلاغة، ٧٠ .

٧ـ منهاج البلغاء، ٣٦٤ .

والموضوعِ الذى يُعبِّران عنه والشخصِ الذى يتكلمان بلسانه اويخلقانه، فمن البدهى أن طريقة الحماسة واسلوبها غير طريقة الاعتذار مثلا، وكذا ان طريقةَ الروايةِ غيرُ طريقِ الرسالة وان الشعرَ غيرُ النثرِ، وان النثرَ العلمى غيرُ النثر الأدبى، وأن لسان البائسين غير لسان المترفين، وأن خطاب الأبطال والشجعان غير خطاب الجُبناء والخائفين . ثم إن طريقة عرض الافكار والانفعالات تختلف اضافة على ذلك باختلاف الكاتب والفنان حتى فى الموضوع الواحد، لان نفسيات الافراد وعواطفهم وانفعالاتهم وتخيلاتهم واستنتاجاتهم مختلفة، ولهذا قالوا : إنَّ الاسلوبَ هو الرَّجلُ نفسُه .

فلكل كاتب مذهبه فى طريقة التعبير عن افكاره وعما يعرض على قلبه، او فى اسلوبه وشكل بيانه وصوغه . فالشيب فى رأى المعرّى أزهار أيّام الشباب يزدانُ روضُ الحياة بها :

والشيبُ أزهارُ الشبابِ فما له

يُخفى ، وحسنُ الرَّوض فى الأزهارِ ؟

وفى رأى الفرزدق نجوم ليالى الشباب حيث يقول :

تفاريقُ شيبٍ فى الشبابِ لوامع وما حُسْنُ ليلٍ ليس فيه نجومُ

ولكنّه فى رأى ابن الرومى نبات خبيث يقص تهذيب النبات الصالحة:

وقد قلتُ للعُذّالِ عند تتبعى

بالقَصِّ شيباً كلَّ يومٍ يحدُثُ :

كثرَ الخبيثُ من النبات فهُذِّبَت

منه الأطايبُ ، وهى بعد ستَخبُث

وعند الشريف الرضى سيف صارمٌ فى يد الايّام على رأس من حلّ به :

غالطونى عن المشيبِ و قالوا : لاتُرَعْ إنّه جلاءُ حُسام

قلتُ: ما أمنُ مَنْ على الرأسِ منه صارمُ الحدِّ في يد الأيام؟[٨]

فالأسلوب يحمل معه طابع الكاتب ويتلوّن بميوله وطبيعته ويصبح ملكا خاصا له، وهو كمرآة تنعكس عليها نفسية الكاتب والفنان كما تنعكس عليها القضايا والحوادث. قال بوفون -BUFFON-: «ان الافكار والحوادث والمكتشفات شركة بين الناس، ولكن الاسلوب من الرجل. ومعنى ذلك ان الافكار تكون قبل ان يفرغها الفنان فى قالبه الخاص من املاك العامة، فاذا عرف كيف يصوغها على الصورة اللازمة الملائمة تصح ملكا له[٩].

فكلما كانت نفسياتُ الأفراد وطبايُعهم متباينة، وبيئاتهم متفاوتة، وثقافاتهم متنوعة، ونزعات الفردية قويّة، والحرّية والاعتماد بالنفس و إبراز الشخصية بينهم شائعة، كانت طرق التعبير واساليب البيان و قوالب عرض الافكار مختلفة، ومن التشابه والتكرار والتقليد بعيدة. فلذلك نرى أنه لما كانت النزعة الفرديّة فى الامة العربية فى الجاهلية ضعيفة، والصفاتُ القوميةُ شديدة الظهور والعموم بحيث ان الشاعر او الاديب يتكلم بلسان قومه ويرى بأعينهم ويحكمُ بحكمهم، ولايوجد بين صفات الفرد وصفات الجماعة فروق كثيرة، كانت أساليب الشعر والخطابة فى ذلك العصر متشابهة فلاتستبين فروقها الاّ للناقد البصير. ومن اختلف اسلوبه من الشعراء الجاهليين كامية بن ابى الصلت وعدى بن زيد وغيرهما كان ذلك من جرّاء تغلّبِ صفات الفردية عليهم. ولما جاء الاسلام اخذت هذه الفروق تتضح وتتباين حتى بلغت غايتها من ذلك فى العصر العباسى، فلذلك نرى ان الاساليب ازدادت فى الاختلاف والتنوع، وان الفنون الادبية ازدهرت فى

٨ـ الاسلوب، ٤٥.

٩ـ دفاع عن البلاغة، ٨٢.

ذلك العصر[١٠].

ويمكن ان يُلخّص اختلاف الأساليب فى هذين الاصلين :

الاول ــ الموضوع، وهو الفن الذى يختاره الكاتب ليعبر به عما فى نفسه، علما او ادبا، نظما او نثرا، مقالة اوقصة او رسالة اوخطابة ... فان لكل فن منها اسلوبا يخصه وطريقة تلائمه، ويؤيّد ذلك القول المأثور: لكلّ مقامٍ مقال".

الثانى ــ الاديب، فان شخصيات الادباء تتفاوت من حيث أذواقهم، ومواهبهم العقلية، ودرجات انفعالاتهم، وطبائعهم الخشنة اوالرقيقة، و طريقة تفكيرهم وتصويرهم، ولكل من هذه الحالات والصفات اثر خاص فى اختيار الكلمات وتنسيق العبارات وايراد التشبيهات والاستعارات[١١].

عناصر الاسلوب :

لقد عرفتَ مما تقدّم أنّ الاسلوب هو الطريق الخاص الذى يتخذه الكاتب للتعبير عما فى نفسه، فهو يطير دائما على جناحى اللفظ والمعنى، ويستمرّ على عملية خلق هذين الأصلين الرئيسيين : خلق الألفاظ بواسطة المعانى، وخلق المعانى بواسطة الالفاظ . فالأسلوب ليس هو اللفظ وحده كما انه ليس المعنى وحده، بل هو مركب فنى من عناصر مختلفة يستمدها الفنان من ذهنه ونفسه وذوقه، وهذه العناصر هى الأفكار والعبارات فى عرض المسائل العلمية، والافكار والصور والعواطف والالفاظ فى القضايا الادبية .

والمراد بالصورة مايُستمدّ من الخيال كالتشبيه والاستعارة والكناية،

١٠ــ المصدر نفسه، ٧١ .

١١ــ الاسلوب، ٥٥ــ٥٤ .

وبالعاطفة ما يُحرِّكُ نفس الانسان ويوقظها لتميل الى معنى او تنفر منه .

فمثلا أن هذه العناصر فى كلام امير البلاغة على بن ابى طالب (ع) :
«ألا إنَّ الخطايا خيلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عليها أهلُها، وخُلِعَتْ لُجُمُها ، فتقحَّمَتْ بهم فى النار. وإنّ التقوى مطايا ذُلُلٌ حُمِلَ عليها اهلُها، وأُعْطُوا أزِمَّتَها، فأوْرَدَتْهم الجنةَ » كما يلى :

١ـ الفكرة هى ان عاقبة الخطيئات الهلاك والنار، وعاقبة التقوى النجاح والجنة .

٢ـ انك تجد ههنا ان الفكرة قد تجسّت فى صورتين : صورة فرس شُمُس لايكون لجامه فى يد راكبه ولاينقاد له، فيذهب بصاحبه على غير هواه حتى يلقيه فى النار . وصورة ناقة ذلول منقادة لصاحبها وتجرى كيفما يريد راكبها حتى تدخله الجنة .

٣ـ ان عنصر العاطفة ههنا هو عاطفةُ النفور من الالم الذى يشعر به الخاطىء الستطار وقد جمحت به خطاياه الرُعْنُ عن أوعار الأرض حتى القتْه فى سواء الجحيم . وعاطفةُ الميل الى لذة المتقى الوادع وقد سارت به تقواه سيرا لينا حتى أبلغته جنة النعيم .

٤ـ ان عنصر الالفاظ هو هذه الكلمات المناسبة والملائمة لتلك الافكار : اعنى الخيل الشُمُس، وخلع اللجام، والتقحم، والمطايا الذلل وغيرها[١٢].

واما تلك العناصر فى قول المتنبى :

مِنَ الحِلْمِ أنْ تستعملَ الجهلَ دونه
اذا اتسعَتْ فى الحِلم طُرْقُ المَظالِمِ

١٢ـ دفاع عن البلاغة، ٧٧ .

و أن تَرِدَ الماء الذى شطرُه دمٌ
فتُسقى اذا لم يُسْقَ من لم يُزاحِمِ
و من عَرف الأيّامَ معرفتى بها
و بالناسِ ، روّى رُمحَه غيرَ راحِمِ
فلا هو مرحومٌ إذا اظفِروا به ،
ولا فى الرّدى الجارى عليهم بآثِمِ [١٣]

فهى عبارة عن :

الاول ــ فكرة ان الجهل حتم ان لم ينفع الحلم، وان الجهاد الاحسر واجب اذا لم تتحقق الآمال والرغبات الا به، وان الحق للقوة وان الناس لا يؤمنون الا بالرهبة .

الثانى ــ عاطفة السُخط والغضب الذى سيطر على نفس الشاعر ، فأنطقه بهذه الأبيات التى أنكر فيها الانصاف والترحم، وحرّض الناس على القساوة والخشونة[١٤].

الثالث ــ صورة الماء الممزوج بالدم وترويةالنفس منه، وصورة الفاتك الذى يبطش بالناس ولا يرحمهم، لانه يعلم اذا اظفروا به لا يراعون فيه إلاً ولاذمةً .

الرابع ــ العبارات المختارة الملائمة لفكرة الشاعر وهى مقابلة الحلم بالجهل، الماء الذى شطره دم، ترويةالرمح، غير راحم، فلا هو مرحوم و غيرها .

١٣ــ و رواية الدّيوان : « فليس بمرحوم » .
١٤ــ الاسلوب، ١٢ .

أقسام الأسلوب

اعلم ان في الحياة جوانب مختلفة وقضايا متنوعة وعوامل متفاوتة لا يمر بها الانسان كلها سواء ولا ينظر اليها بعين واحدة، بل ان منها ما نستجيب له بعقولنا فقط بدون أن يتدخل فيه الشعور والاحساس، كما نرى في الجوانب التي يمارسها العلماء والرياضيون، مثل تركيب الهواء وتشريح الزهرة ومسائل الأعداد. ومنها ما يمر بنا ويهز مشاعرنا وعواطفنا ويخرجنا الى عالم آخر، كما يُرى في المسائل الوجدانية، فمن الطبعي أن يختلف التعبير عن هذين الاتجاهين : الاتجاه الذي يتكىء على العقل، والاتجاه الذي يهز المشاعر والعواطف، فكانت نتيجة هذا ان ينقسم الاسلوب في المرحلة الاولى الى قسمين رئيسيين : الأسلوب العلمي والأسلوب الادبي .

فالاسلوب العلمي ـ ما كان الكاتب فيه وقف امام جانب من الحياة وعالجه بمنطق العقل، وحصل على فكرة ورتبها ثم صاغها في قوالب مناسبة وعبارات واضحة . فالكاتب في الاسلوب العلمي يتكلم بعقله ليخاطب سائر العقول، وهو اذ يتكلم لايكون الا فردا من الجنس البشري يوجه الكلام الى عنصر مشترك بينه وبين سائر الناس، فهو لا يُدخل جانبه الشخصي في كلامه، ذلك الجانب الذي يتميز به الافراد بعضهم من بعض، فالعقول في الناس كلهم تنظر الى الأمور من جهة واحدة. ولهذا نرى ان التعبير العلمي يقوله هذا هو نفس التعبير الذي يقوله ذلك ولا سبيل الى الخلاف بينهما ولو كان من أقصى الأرض الى أقصاها[١٥].

١٥ــ فنون الادب، ٥٧ .

الأسلوب العلمي بناؤه على المعارف العقلية والعناية باستقصاء الافكار، والغرض منه اداء الحقائق وقصد التعليم وخدمة المعرفة وإنارة العقول . و يمتاز هذا اللون من الاسلوب بالدقة والتحديد والسهولة والوضوح في العبارة، وبملائمته للخلوعن التكرار والايجاز والتطويل، وحشد المحسنات البديعية، والولوع بالمجاز الا ما جاء عفوا، وبالاحتراز عن كل ما يوجب الإبهام والغموض كالالفاظ المشتركة[١٦].

ومن نماذج الاسلوب العلمي ما قيل في وصف الأهرام :

«كان القصدُ من بناءِ الأهرام ايجادُ مكانٍ حصينٍ خفيٍ يوضع فيه تابوتُ الملِك بعد مماته، ولذلك شيّدوا الهرمَ الأكبرَ وجعلوا فيه أسرابا خفيةً زلقةً صعبةَ الولوج لضيقها، وانخفاض سقفها وامّلاسها حتى لا يتسنّى لأحدٍ الوصولُ الى المخدع الذي به التابوتُ، ومن أجل ذلك ايضا سدّ مدخل الهرم بحجر هائل متحرك، لايعرف سرّ تحريكه الا الكهنة والحرّاس، و وُضِعَت أمثال هذا الحجر على مسافات متتابعة في الأسراب المذكورة، وبهذه الطريقة بقي المدخل ومنافذ تلك الاسراب مجهولة أجيالا، مجهولة من الزمان . ويُعدّ الهرمُ الاكبر من عجائب الدنيا، قرر المهندسون والمؤرخون أن بناءه يشمل ٢/٣٠٠/٠٠٠ حجر متوسط، وزنُ الحجرِ منها طنان ونصف طن، وكان يشتغل في بناء الهرم مائة الف رجل يستبدل بهم غيرهم كلّ ثلاثة اشهر، وقد استغرق بناءوه عشرين عاما»[١٧].

فترى خصائص وميزات الاسلوب العلمي متجلية في هذه القطعة المنثورة .

١٦- الاسلوب، ٥٩ .

١٧- تاريخ مصر الى الفتح العثماني، ١٧-١٦ بالنقل عن الاسلوب ، ٥٧-٥٦ .

وأما الاسلوب الادبي ـ فهو ما كان الكاتب فيه عالج قضية هزّت مشاعره وأثارت عواطفه فتاثّر بها واستجاب لها بكل كيانه، وهذه القضية هاهنا ليست موضوعية بل تعدّ مسألة ذاتية تلونت بنفسية الكاتب واصطبغت بصنعته، فهو يعبر بهذا الاسلوب عن مكنون نفسه ويُفصح عن حقيقةِ حسه .

يدور هذا الوجه من طرق التعبير على اساس العاطفة والاهتمام بالشعور والوجدان، فيخاطب الاحساسَ والشعور قبل أن يخاطب العقل، ولا يستخدم المنطقَ الاّ في نطاق ضيق، ولا يبسط الحقائق الموضوعية الاّ في القليل النادر، ويعنى بالتعميم والتفخيم ويقف عند مواطن الجمال والتأثير والجزالة والقوة، و ذلك لان الغاية منه هي إثارة الانفعال في نفوس القرّاء والسامعين والاستيلاءُ على قلوبهم حتى يشايعوه فيما احسه وتأثر به[18].

ويمتاز الاسلوب الادبي بالجمال والرّوعة والتاثير، فهذه الصفات ترجع في الغالب «الى خيال رائع وتصوير دقيق، وتلَمّس لوجوه الشبه البعيدة بين الاشياء، والباس المعنوى ثوب المحسوس، واظهار المحسوس في صورة المعنوى»[19] والى المحسنات البديعية، وحظه الموسيقى . فيكثر فيه الصور البيانية كالتشبيه و أنواع المجاز والكناية، والمحسنات البديعية كالجناس والطباق وحسن التعليل والسجع وغيرها .

ومن نماذج الاسلوب الادبي ما جاء في وصف «الاهرام» كما احسها الكاتب وتخيلها واهتزت بها مشاعره :

«ولما وقفتْ بنا الركاب في ساحة الاهرام، وقفنا هناك موقفَ

---

١٨ ـ راجع الاسلوب، ٥٩، وفنون الادب، ٥٨ .

١٩ ـ البلاغة الواضحة، ١٣ .

الإجلال والاعظام، قبالة ذلك العَلَمِ الذى يطاول الروابىَ والأعلامَ، والهضبةِ التى تعلو الهضاب والآكام والبنية التى تشرف على رَضْوى و شمام، وتبلى ببقائها جدة الليالى والأيام، وتطوى تحت ظلالها اقواماً بعد اقوام، وتفنى بدوامها أعمار السنين والأعوام، خَلِقَتْ ثيابُ الدهر وهى لاتزال فى ثوبها القشيب، شابت القرونُ وأخطأ قرنها وخط المشيب، ما برحت ثابتة تناطح مواقعَ النجوم، وتسخر بثواقب الشهب والرجوم»[٢٠].

ثم ان الاسلوب الادبى يتنوع الى انواع : شعرا ونثرا، ثم حماسة ونسيبا ومدحا ورثاء واعتذارا وغيرها فى الشعر، اومقالة وقصة وخطابة و رسالة وغيرها فى النثر . ويرجع سبب ذلك الى اختلاف الموضوع وان الانسان لايبقى دائما فى حالة وجدانية واحدة ازاء جوانب الحياة، بل تتناوبه حالاتٌ متعددة من الحزن والفرح والحب والبغض والغضب، فيتلوّن الأسلوب بتلك الالوان ويتاثربها، فما أرقّ اسلوب الانسان حينما كان رقيقا واعنفه حينما كان عنيفا، فإن كلّ اناءٍ يترشّح بما فيه . ولهذا نرى ان الغضب ينتج عنه الهجاء، والحزن ينتج عنه الرثاء، والحب ينتج عنه النسيب، والانفة ينتج عنه الفخر، الطرب ينتج عنه الخمريات واللهو و وصف مجالس الطرب والغناء[٢١].

وهذه الالوان من الاسلوب كما تختلف من حيث الانفعالات النفسية تختلف من حيث الصور والكلمات والعبارات، فمثلا ان الصور فى الحماسة تتخذ عناصرها من الدماء الجارية، والسيوف اللامعة، والرماح المتشاجرة. وان الكلمات فيها قوية الجرس، ايجابية المعنى، وانها هى الرّماح والطعن والضرب والقتل والاسر والانتصار وما شابهها . وان العبارات تحكى

٢٠- حديث عيسى بن هشام، ٤٠٥؛ بالنقل عن الاسلوب، ٥٨ .
٢١- الاسلوب، ٧٩، فى الاسلوب الادبى، ٧٣ .

موسيقى النفس الغالبة المنتصرة والعالية الايجابية[٢٢].

اما في الرثاء، فانت ترى ان الصور تتخذ موادّها واجزاءها من الوادي الآخر كالقبور، والبيوت المظلمة، والعيون الباكية، والأمل المقتول، وتربص الاعداء وما شابهها . وان الكلمات هي ما تدل على معان سلبية مؤلمة، كالفجيعة والكارثة والجزع والبكاء والخراب والظلمة والبؤس والفقر وغيرها . وان العبارات توحي بموسيقى الشجى والحزن والالم[٢٣].

وكذلك ترى ألوان الاسلوب في النثر تختلف من نواح متعددة، فمثلا ان الخطابة تمتاز بان الانفعال فيها أشد وأقوى، وان الكلمات فيها تتكرر لتثبيت الافكار وتمكين السامعين من الفهم واحيانا لتقريع الأسماع، وان العبارات فيها تختلف خبرا ونهيا واستفهاما وتعجبا، وانه يتخللها القصص والوصف الموجزان يستعين بهما الخطيب في الإقناع والتأثير[٢٤]. وتمتاز ايضا بانه تستخدم فيها صورٌ يفتن بها النواظر، والفاظٌ يهز بها المشاعر ويكثر فيها محسنات تتحكمّ في الافئدة .

وترى ايضا ان اسلوب الشعر يتفاوت مع النثر في ان الشعر يغلب عليه صفة التأثير ولكن الغالب على النثر هو صفة الإفادة، ولهذا كانت الكناية والاستعارة اكثر دورانا في الشعر وكان التشبيه اكثر وقوعا في النثر ، لان التشبيه اقرب الى تصوير الواقع وأنسب بقصد الايضاح . وعلى هذا كان الاولى بالتشبيه التمثيلي ان يرد في الشعر لكثرة عنصر الخيال فيه[٢٥].

ويختلف اسلوب الشعر من النثر بان الكلمات في الشعر يجب ان تكون

٢٢ـ الاسلوب، ٨٠ .

٢٣ـ المصدر نفسه، ٨٦ .

٢٤ـ الاسلوب، ١١٨ .

٢٥ـ الرمزية، ٥٦ .

مختارة غير مبتذلة تدل بجرسها وبمعناها على ما تصوّر من أصوات و ألوان ونزعات نفسية، فلهذا كان استعمال كلمة «مُشْمَخِرّ» مثلا في الشعر قبيحا دون النثر.

وايضا ان اساس الشعر على الاختصار والايجاز، فمن حقه الاكتفاء بالعناصر الرئيسية كالمسند والمسند اليه دون التزام بالمتعلقات والروابط[٣٦].

ومما يمتاز به اسلوب الشعر ايضا ان من حق الشعر ان يرفع نفوسنا عن تجربة الحياة العادية المألوفة الى مستوى أسمى وأرفع، وان من شأنه ان يخدعنا عن انفسنا فننسى لحظةً كل ما أحاط بنا من جوانب الحياة الملموسة، ويُحلّق بنا على جناحه في عالم أروع واعلى. فان سها الشاعر وحشد الحكمة في شعره، كان بمثابة من يخرج الينا من وراء الستار ونحن ننظر في دهشة وإعجاب الى بعض المناظر العجيبة على المسرح فيدلنا على الحيلة التي احدثت كل هذا التعجب فينا. فنكرّر هاهنا قول الشاعر مالرميه (mallarme) زعيم الرمزية: «ان الشاعر اذا سمّى الشيءَ باسمه فقد افقد القصيدة ثلاثة ارباع المتعة، وما هذه المتعة الاّ اثر السعادة التي يشعر بها القارىء وهو يضرب رويدا رويدا في أودية الحدس، و ذلك هو الحلم»[٢٧].

ولما كان غرضي في هذا الباب ان اتناول دراسة الاسلوب بالإشارة والإختصار، أضع القلم ههنا واحمد الله على ما انعم على من التوفيق في تأليف هذه الرسالة، ومنّ عليّ بالإكمال والاتمام، و أقدّم ثنائي الجميل لروح والدي الماجد الذي رافقني في جميع مراحل حياتي العلمية بالتعليم والارشاد، جزاه الله عني خير جزاء واعطاه في الآخرة خير عطاء.

محمد فاضلي

٢٦- الاسلوب، ٦٣، ٧١.
٢٧- دفاع عن البلاغة، ١٤٦.

فهرس الآيات

فهرس الاحاديث

فهرس الأشعار

((ب))

((ت))

((ق))

((م))

((هـ))

((ى))

فهرس الأعلام

مصادر الكتاب

١ـ ابراهيم على ابوالخشب، الادب والبلاغة، الطبعةالثانية، مصر، ١٢٧٨ـ١٩٥٩.

٢ـ ابوالحسن حازم القرطاجنى، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمدالحبيب ابن الخوجه، تونس.

٣ـ ابوالحسن على بن عيسى الرمانى (٣٨٦ـ٢٩٦)، النكت فى اعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دارالمعارف.

٤ـ ابوالعباس المبرد، الكامل فى اللغة والأدب والنحو والصرف، تحقيق الدكتور زكى مبارك، الطبعةالأولى، مصر.

٥ـ ابوالعلا المعرّى، سقط الزند، بيروت.

٦ـ ابوالفتح ضياءالدين نصرالله بن محمدبن عبدالكريم المعروف بابن الأثير (٦٢٧ هـ)، المثل السائر فى ادب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، طبع مصر، ١٣٥٨ـ١٩٣٩.

٧ـ ابوالفتح عثمان بن جنى، الخصائص، تحقيق محمدعلى النجار، دارالهدى، للطباعة والنشر، بيروت.

٨ـ ابوالفرج الاصفهانى، الاغانى، باشراف العلامة الشيخ عبدالله العلايلى وموسى سليمان واحمد ابوسعد، دارالثقافة، بيروت.

٩ـ ابوالقاسم الحسن بشر الآمدى (٣٧٠ هـ) الموازنة بين شعر ابى تمام والبحترى، تحقيق السيد احمد صقر، دارالمعارف، ١٣٨٠ـ١٩٦١.

١٠ـ ابوالقاسم حسين بن محمدالراغب الاصفهانى، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، بيروت، ١٩٦١.

١١ـ ابوبشر عمروالملقب بسيبويه، الكتاب، الطبعةالاولى، المطبعة الكبرىالاميرية ببولاق، مصر ١٣١٦ .

١٢ـ ابوحيانالتوحيدى، المقابسات، تصحيح حسنالندوبى، مصر، ١٣٤٧ـ١٩٢٩ .

١٣ـ ابوسليمان محمدبن محمدبن ابراهيمالخطابى (٣٨٨ـ٣١٩ هـ) ، بيان اعجازالقرآن، المطبوع تحت عنوان «ثلاث رسائل فى اعجازالقرآن» تحقيق محمد خلفالله والدكتور زغلول سلام، دارالمعارف، مصر .

١٤ـ ابوعبيدة معمربنالمثنى (٢١٠ هـ)، مجازالقرآن، تحقيقالدكتور محمد فؤاد سزگين، مصر .

١٥ـ ابوعلىالحسنبن شيقالقيروانىالأزدى (٤٥٤ـ٣٩٠) ، العمدة فى محاسنالشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيىالدين عبدالحميد ، بيروت .

١٦ـ ابوعلىبن سينا مع شرح نصيرالدين طوسى، الاشارات، تحقيق الدكتور سليمان دنيا، دارالمعارف بمصر .

١٧ـ ابوعثمانعمروبنبحرالجاحظ، البيانوالتبيين، تحقيقعبدالسلام محمدهارون، الطبعةالثالثة، مصر ١٣٨٠ـ١٩٦٠ .

١٨ـ ابوعثمانعمروبنبحربن بحرالجاحظ، الحيوان، مطبعةالحميدية مصر، ١٣٢٣ هـ .

١٩ـ ابومحمد عبداللهبن مسلمبن قتيبه (٢٧٤ـ٢١٣)، تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيداحمد صقر، داراحياءالكتبالعربية .

٢٠ـ ابومنصورعبدالملكبن محمدالثعالبى (٤٣٠)، الكنايةوالتعريض، طبع مصر .

٢١ـ ابونواس، الديوان، بيروت، ١٣٨٢ـ١٩٦٢ .

٢٢ـ ابوهلالالحسنبن عبداللهبن سهلالعسكرى، الصناعتين، تحقيق علىمحمدالبجاوى ومحمدابراهيم ابوالفضل، الطبعةالاولى، داراحياء الكتبالعربيه ١٣٧١ـ١٩٥٢ .

٢٣ـ ابو يعقوب يوسف بن ابي بكر محمد بن علي السكاكي (٦٢٦ هـ) ، مفتاح العلوم، الطبعة الاولى، مطبعة مصفى البابي الحلبي، مصر ١٣٥٦ـ١٩٣٧.

٢٤ـ ابن ابي الاصبع المصري (٥٥٦ـ٥٨٥)، بديع القرآن، تحقيق حضني محمد شرف، الطبعة الاولى، مصر ١٣٧٧ـ١٩٥٧ .

٢٥ـ ابن السبكي، جمع الجوامع، الطبعة الاولى، المطبعة الخيرية، مصر ١٣٠٨ هـ .

٢٦ـ ابن حجة الحمري، ابو بكر محمد بن علي (٧٦٧)، خزانة الادب ، مطبعة بولاق، مصر ١٢٧٣ هـ .

٢٧ـ ابن رشد، تلخيص الخطابة، تحقيق عبدالرحمن بدوي، مكتبه النهضة المصرية، ١٩٦٠ .

٢٨ـ ابن سينا، الشفاء، نشر وزارة المعارف العمومية، المطبعة الاميريه ١٣٧١ .

٢٩ـ احمد الشائب، الاسلوب، الطبعة الرابعة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦ م .

٣٠ـ احمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، الطبعة الثانية، قاهرة .

٣١ـ ارسطو، فن الشعر، ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوي، مصر ١٩٥٣ .

٣٢ـ ارنولد بينت، الذوق الادبي كيف فيكون، ترجمة الدكتور علي محمد الجندي، مصر .

٣٣ـ اسل آبر كرمي، قواعد النقد الادبي، ترجمة الدكتور محمد عوض مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر .

٣٤ـ الامام ابو عبدالله محمد بن ادريس الشافعي، (١٥٠ـ٢٤٠)، الأم تصحيح محمد زهري النجار، مكتبة كليات الأزهرية .

٣٥ـ الامام جلال الدين السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، طبع الشيخ عثمان عبدالرزاق، مصر ١٣٠٦ .

٣٦ـ الامام عبدالقاهر الجرجاني، اسرار البلاغة، تحقيق احمد مصطفى

المراغى بك مطبعة الاستقامة، القاهره، ١٣٦٧-١٩٤٨.

٣٧- الامام عبدالقاهر الجرجانى، دلائل الاعجاز، تصحيح السيدمحمد رشيد رضا، مطبعة المنار، الطبعة الثالثة ١٣٦٦.

٣٨- الامام فخرالدين محمدبن عمرالرازى (٦٠٦)، نهاية الايجاز فى دراية الإعجاز، مطبعة الآداب، قاهره ١٣١٧ هـ.

٣٩- الامام محمودبن عمرالزمخشرى (٥٢٨ هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التاويل، الطبعة الاولى، مطبعة مصطفى محمد، مصر ١٣٥٤ هـ.

٤٠- الامير ابومحمد عبدالله بن محمدبن سعيدبن سنان الخفاجى الحلبى (٤٦٦ هـ) سر الفصاحة، تصحيح عبدالمتعال الصعيدى، طبع مصر.

٤١- امين الخولى، مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية المجلد الرابع، الجزء الثانى، ديسمبر ١٩٣٦، مقالة «البلاغة وعلم النفس».

٤٢- تشارلتن، فنون الادب، تقريب وشرح الدكتور نجيب محمود، الطبعة الثانية.

٤٣- التفتازانى (مختصر المطول)، بهاءالدين السبكى (عروس الأفراح ابن يعقوب المغربى (مواهب الفتاح) بهنام شروح التلخيص، افست ايران.

٤٤- جورج ديهاحيل، دفاع عن الادب، ترجمه الدكتور محمدمندور، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر.

٤٥- الحاج الملاهادى السبزوارى، شرح المنظومة، مكتبة بوذرجمهرى

٤٦- حسن كامل الصيرفى، ديوان البحترى، دار المعارف مصر، ١٩٦٤.

٤٧- خالدبن عبدالله الازهرى، شرح التصريح على التوضيح، دار الفكر.

٤٨- الخطيب التبريزى، شرح ديوان ابى تمام، تحقيق محمدعبده عزام. طبع دار المعارف، مصر ١٩٧٠.

٤٩- الخطيب التبريزى، شرح ديوان الحماسه، ابوزكريا يحيى بن على، مطبعة بولاق، ١٢٩٦ هـ.

٥٠- الخطيب القزوينى، الإيضاح، المطبوع بهامش شروح التلخيص.

٥١ـ خلف الله محمد، نظرية عبدالقاهر في اسرار البلاغة، مجلة كلية الآداب بجامعة الفاروق الاول، ١٩٤٤.

٥٢ـ الدكتور ابراهيم سلامة، بلاغة ارسطو بين العرب واليونان، الطبعة الثانية، مصر، ١٣٧١ـ١٩٥٢.

٥٣ـ الدكتور احمد احمد بدوى، اسس النقد الادبي عند العرب، الطبعة الثالثة، مصر، ١٩٦٤.

٥٤ـ الدكتور احمد مطلوب، مصطلحات بلاغية، الطبعة الاولى (١٣٩٢ هـ).

٥٥ـ الدكتور بدوى طبّانه، البيان العربي، مصر.

٥٦ـ الدكتور خفي محمد شرف، الصور البيانية بين النظرية والتطبيق، الطبعة الاولى، دار نهضة مصر، ١٩٦٥ـ١٣٨٥.

٥٧ـ الدكتور درويش الجندى، الرمزية في الادب العربي، دار نهضة مصر، للنشر والطباعة، القاهره.

٥٨ـ الدكتور شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر، الطبعة الثالثة، مكتبة الاندلس، بيروت، لبنان.

٥٩ـ الدكتور شيخ امين، البلاغة في ثوبها الجديد (علم المعاني) دار العلم للملايين، بيروت.

٦٠ـ الدكتور عبدالعزيز عتيق، علم البيان، طبع دار النهضة، بيروت ١٣٦٠ـ١٩٧٤.

٦١ـ الدكتور محمد غنيمي هلال، النقد الادبي الحديث، الطبعة الخامسة مكتبة الاغبوا المصرية، ١٩٧١.

٦٢ـ الرّماني والخطابي وعبدالقاهر الجرجاني، ثلاث رسائل في اعجاز القرآن تحقيق محمد خلف الله، دار المعارف، مصر.

٦٣ـ اسامة بن منقذ، البديع في نقد الشعر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهره، ١٣٨٠ـ١٩٦٠.

٦٤ـ السيد احمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع،

الطبعة الثالثة عشر، مصر، ١٣٨٣ هـ.

٦٥ـ السيد الشريف الجرجاني، شرح مفتاح العلوم، مخطوط، مكتبة آستان قدس.

٦٦ـ السيوطي، الفية ابن مالك مع شرحه، طبع آقا، ايران ١٣١١.

٦٧ـ الشريف الرّضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، مطبعة المعارف بغداد، ١٣٧٥ـ١٩٥٥.

٦٨ـ الشريف الرضي، الديوان، بيروت، ١٣٨٠ هـ.

٦٩ـ شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري (٧٣٣ـ٦٧٧) نهاية الأرب في فنون الأدب، مصر.

٧٠ـ الشيخ احمد الاسكندري والشيخ مصطفى عناني، الوسيط في الادب العربي وتاريخه، الطبعة السادسة عشرة، دار المعارف، بمصر.

٧١ـ الشيخ الرئيس الحسين بن علي بن سينا، النجاة، الطبعة الثانية، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٥٧ـ ١٩٣٨.

٧٢ـ ضياء الدين بن الاثير الجزاري، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، بتحقيق الدكتور مصطفى جواد والدكتور جميل سعد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٢٧٥ـ١٩٥٦.

٧٣ـ عباس حسن، النحو الوافي، الطبعة الثالثة، دار المعارف، مصر ١٩٦٦.

٧٤ـ عباس محمود العقاد، اللغة الشاعرة، مكتبة الانجلو المصرية.

٧٥ـ عبدالله بن المعتز (٢٩٦ هـ)، البديع، تحقيق محمد عبد المنعم الخفاجي، مصر ١٣٦٤ـ١٩٤٥.

٧٦ـ عبد الحكيم، حاشية السيالكوتي، الشركة الصحافية العثمانية، استانبول، (١٣١١ هـ).

٧٧ـ عبد الحميد حسن، الاصول الفنية للأدب، مكتبة الانجلو المصرية، الطبعة الاولى.

٧٨ـ عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، مطبعة السعادة،

مصر .

٧٩ـ عبدالعلى السيد فوده، اساليب الاستفهام فى القرآن، نشر الرسائل الجامعية، مصر .

٨٠ـ عزالدين اسماعيل، الأسس الجمالية فى النقد العربى، دار الفكر العربى، ١٣٧٥ـ١٩٥٥ .

٨١ـ عصام الدين، الرسالة المخطوطة فى الإستعارة المعروف بعصام الدين الاستعارة .

٨٢ـ العلامة المحقق جمال الدين بن هشام الأنصارى، مغنى اللبيب، مطبعة حجازى، مصر ١٣٧٢ هـ .

٨٣ـ العلامة جلال الدين السيوطى، المزهر فى علوم اللغة وانواعها، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٥ هـ .

٨٤ـ العلامة سعدالدين التفتازانى، المطول وعليه حاشية الحلبى، طبع محمدكاظم، ايران، ١٣١٠ هـ .

٨٥ـ العلامة سعدالدين التفتازانى، المطول وعليه حاشية السيد الشريف الجرجانى، مطبعة احمدكامل، ١٣٣٠ .

٨٦ـ العلامة سعدالدين التفتازانى، شرح مفتاح العلوم، مخطوط، مكتبة آستان قدس .

٨٧ـ العلامة سعدالدين التفتازانى، مختصر المطول مع شروح التلخيص

٨٨ـ على الجارم ومصطفى امين، البلاغة الواضحة، دار المعارف، مصر الطبعة الحادية والعشرون، ١٣٨٩ـ١٩٦٩ .

٨٩ـ على الجندى، فن التشبيه، مكتبة نهضة، مصر، الطبعة الاولى ١٩٥٢ .

٩٠ـ على بوملجم، فى الأسلوب الأدبى، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت .

٩١ـ عنترة، الديوان عنترة، بيروت .

٩٢ـ عيسى سابا، ديوان الحطيئة، مكتبة صادر، بيروت .

٩٣ـ فدوى طوقان، وحدى مع الايام، دار العودة، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٧٤ .

٩٤ـ الفرّاء ابوزكريا يحيى بن زياد (٢٠٧ هـ)، معانى القرآن تحقيق احمد يوسف نجاتى ومحمد على النجار، قاهره ١٣٧٤ـ١٩٥٥ .

٩٥ـ الفرزدق، الديوان، دار صادر، بيروت، ١٣٨٠ـ١٩٦٠ .

٩٦ـ القاضى ابوالعباس احمد بن محمد الجرجانى الثقفى (٤٨٢ هـ)، كنايات الادباء واشارات البلغاء، مطبعة السعادة، مصر .

٩٧ـ القاضى ابوبكر الباقلانى، اعجاز القرآن، محمد بن الطيب، تحقيق السيد احمد صقر، دار المعارف، مصر .

٩٨ـ القاضى عضد الملة والدين، شرح مختصر المنتهى، طبع حسن حلمى، ١٣٠٧ .

٩٩ـ القاضى على بن عبدالعزيز الجرجانى (٣٦٦هـ) الوساطة بين المتنبى وخصومه، تحقيق وشرح محمد ابوالفضل ابراهيم وعلى محمد البجاوى، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه .

١٠٠ـ مجنون ليلى، الديوان، مطبعة سپهر، بمبئ .

١٠١ـ محمد بن احمد بن طباطبا العلوى، عيار الشعر، تحقيق الدكتور طه الحاجرى والدكتور محمد زغلول سلام، قاهرة ١٩٥٦ .

١٠٢ـ محمد خلف الله، دراسات فى الادب الاسلامى، قاهره ١٣٦٣ـ ١٩٧٧ .

١٠٣ـ المهدى الآشتيانى، تعليقة على المنظومة .

١٠٤ـ هارون هاشم رشيد، الشعر المقاتل فى الارض المحتلة، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت .

١٠٥ـ يحيى بن حمزة بن على بن ابراهيم العلوى اليمنى، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مصر، ١٣٣٣ـ١٩١٤ .

اسف وشكر

مما يؤسفني انني كنت على جناح السفر ولم يتيسر القيام بتنظيم الفهارس، فتحمّل اعباء هذا العمل عدد من الطلاب المجدّين الوفيين ؛ فشكرا على جهودهم .